شذرات البلاتين

من طيبات كلمات سلفنا الصالحين

بتحقيق

محمد حامد الفقي

أدام الله عليه نعمة الهدى والتوفيق لخدمة ونشر
سنة الرسول صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول

١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير ـ القاهرة
ت ٧٩٠١٧

الرد على الجهمية والزنادقة

فيما شكوا فيه من متشابه القرآن

وتأولوه على غير تأويله

ويليه كتاب

السنة

كلاهما لإمام أهل السنة والجماعة الإمام

أحمد بن حنبل

رحمه الله تعالى ورضي عنه

بتحقيق

محمد حامد الفقي

عفا الله عنه . وثبته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا أبو طاهر المبارك بن المبارك بن المعطوش فى كتابه :

أن أبا الغنائم محمد بن أحمد بن المهدى بالله . أجاز لهم :

أن أبا القاسم عبد العزيز بن على الأزجي . أجاز لهم :

عن أبى بكر عبد العزيز ، المعروف بغلام الخلال .

قال : أنبأنا أبو بكر الخلال . قال :

أخبرنى الخضر بن المثنى الكندى . قال :

أنبأنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ قال :

هذا ما أخرجه أبى ـ رحمه الله ـ فى « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما شَكَّتْ فيه من متشابه القرآن . وَتأَوَّلَتْهُ على غير تأويله .

قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ورضى عنه .

الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم . يدعون من ضلَّ إلى الهدى . ويصبرون منهم على الأذى . يحيون بكتاب الله الموتى . ويبصرون بنور الله أهل العمى . فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ؟ وكم من ضال تائه قد هدوه ؟ فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عقال الفتنة . فهم مختلفون فى الكتاب ، مخالفون للكتاب . مجمعون على مفارقة الكتاب . يقولون على الله ، وفى الله ، وفى كتاب الله : بغير علم . يتكلمون بالمتشابه من الكلام . ويخدعون جهال الناس بما يُشَبِّهُون عليهم . فنعوذ بالله من فتن المضلين .

باب بيان ماضلت فيه الزنادقة

من متشابه القرآن

قال أحمد فى قوله عز وجل (٤ : ٥٦ كلما نَضِجَتْ جلودهم بَدَّلناهم جلوداً غيرها) قالت الزنادقة : فما بال جلودهم التى عَصَت قد احترقت ، وأبدلهم جلوداً غيرها ؟ فلا نرى إلا أن الله يعذب جلوداً لم تذنب ، حين يقول « بدلناهم جلوداً غيرها » فشكوا فى القرآن . وزعموا أنه متناقض .

فقلت : إن قول الله « بدلناهم جلوداً غيرها » ليس يعنى جلوداً غير جلودهم . وإنما يعنى بدلناهم جلوداً غيرها : تبديلُها تجديدها . لأن جلودهم إذا نضجت جددها الله . وذلك : لأن القرآن فيه خاص وعام ، ووجوه كثيرة ، وخواطر يعلمها العلماء .

وقوله عز وجل (٧٧ : ٣٥ ، ٣٦ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون) ثم قال فى آية أخرى (٣٩ : ٣١ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) فقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟ قال « هذا يوم لا ينطقون »

ثم قال فى موضع آخر « ثم إنـكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » فزعموا أن هذا الـكلام ينقض بعضه بعضاً . فشكوا فى القرآن .

أما تفسير « هذا يوم لا ينطقون » فهذا أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار فيعتـذرون . ثم يؤذن لهم فى الكلام فيتـكلمون . فذلك قوله (٣٢ : ١٢ ربنا أبْصَرْنا وسَمِعنـا . فارْجِعْنا نعملْ صالحاً) فإذا أذن لهم فى الـكلام . تكلموا واختصموا . فذلك قوله (ثم إنـكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) عند الحساب ، وإعطاء المظالم . ثم يقال لهم بعد ذلك (٥٠ : ٢٨ لا تختصموا لَدَيَّ) أى عندى (وقد قَدَّمْتَ إليكم بالوعيد) أى فى الدنيا . فإن العذاب مع هذا القول كائن .

وأما قوله (١٧ : ٩٧ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً) وقال فى آية أخرى (٧ : ٥٠ ونادى أصحابُ النار أصحـابَ الجنة) فقالوا : كيف يكون هذا من الـكلام المحـكم ؟ (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصماً) ثم يقول فى موضع آخر : إنه ينادى بعضهم بعضاً . فشكوا فى القرآن من أجل ذلك .

أما تفسير (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) فإنهم أول ما يدخلون النار ، يكلِّم بعضهم بعضاً ، وينادون (٣٤ : ٧٧ يا مالكُ لِيَقْضِ علينا ربك . قال : إنـكم ما كثون) ويقولون (١٤ : ٤٤ ربنا أَخِّرنا إلى أجل قريب) (٢٣ : ١٠٦ ربناَ غَلَبَتْ علينا شِقْوَتُنَا) فهم يتكلمون حتى يقال لهم (٢٣ : ١٠٨ اخْسئوا فيها ولا تـكلمون) فصاروا فيها عمياً وبكماً وصماً . وينقطع الـكلام . ويبقى الزفير والشهيق . فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة من قول الله .

وأما قوله (٢٣ : ١٠١ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) وقال فى آية

أخرى (٣٧ : ٢٧ ، ٥٠ و ٥٢ : ٢٥ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) فقالوا : كيف يكون هذا من المحكم ؟ فشكّوا فى القرآن من أجل ذلك .

فأما قوله عز وجل « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » فهذا عند النفخة الثانية إذا قاموا من القبور لا يتساءلون . ولا ينطقون فى ذلك الموطن . فإذا حوسبوا ودخلوا الجنة والنار : أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . فهذا تفسير ما شَكّت فيه الزنادقة .

وأما قوله (٧٤:٤٢،٤٣ ما سَلَكَكُم فى سَقَر ؟ قالوا : لم نَكُ من المصلين) وقال فى آية أخرى (١٠٧ : ٤ فويل للمصلين) فقالوا : إن الله قد ذَمَّ قوماً لأنهم كانوا يصلون . فقال « ويل للمصلين » وقد قال فى قوم : إنهم إنما دخلوا النار لأنهم لم يكونوا يصلون . فشكوا فى القرآن من أجل ذلك . وزعموا أنه متناقض .

قال : وأما قوله « فويل للمصلين » فإنما عنى بها المنافقين (الذين هم عن صلاتهم ساهون) حتى يذهب الوقت (الذين هم يراءون) يقول : إذا رأوا الناسَ صلوا ، و إذا لم يروهم لم يصلوا . وأما قوله « ما سلككم فى سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين » فيعنى الموحدين المؤمنين . فهذا ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله عز وجل (٣٠ : ٢٠ خلقكم من تراب) ثم قال (٣٧ : ١١ من طين لازب) ثم قال (٢٣ : ١٢ من سلالة) ثم قال (١٥ : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ من حمأٍ مسنون) ثم قال (٥٥:١٤ من صَلْصَالٍ كالفخار) فشكوا فى القرآن . وقالوا : هذا ملابسة . ينقض بعضه بعضاً .

فنقول : هذا بدء خلق آدم . خلقه الله أول بدئه من تراب . ثم من طينة حمراء وسوداء و بيضاء ، من طينة طيبة وسَبِخة . فكذلك ذريته : طيب وخبيث أسود وأحمر وأبيض . ثم بَلَّ ذلك التراب فصار طيناً . فذلك قوله « من طين » فلما لصَق الطين بعضه ببعض صار طيناً لازباً . يعنى لاصقاً . ثم قال «من سلالة من طين » يقول : مثل الطين إذا عُصِر انسَلَّ من بين الأصابع . ثم نَتِنَ فصار

حَمَأً مسنوناً . فخلق من الحمأ . فلما جَفَّ صار صَلصالاً كالفَخار . يقول : صار له صلصلة كصلصلة الفخار . له دَوِيٌّ كدوى الفخار . فهذا بيان خلق آدم .

وأما قوله « ٣٢ : ٨ من سلالة من ماء مهين » فهذا بدء خلق ذريته من سلالة ، يعنى النطفة إذا انسلَّت من الرجل . فذلك قوله « من ماء » يعنى النطفة « مهين » يعنى ضعيف . فهذا ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله (٧٣ : ٩ رب المشرق والمغرب) ، (٥٥ : ١٧ رب المشرقين ورب المغربين) ، (٧٠ : ٤٠ برب المشارق والمغارب) فشكوا فى القرآن ، وقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟ .

فأما قوله «رب المشرق والمغرب» فهذا اليوم الذى يستوى فيه الليل والنهار . أقسم الله بمشرقه ومغربه . وأما قوله « رب المشرقين ورب المغربين » فهذا أطول يوم فى السنة ، وأقصر يوم فى السنة . أقسم الله بمشرقهما ومغربهما . وأما قوله « برب المشارق ورب المغارب » فهى مشارق السنة ومغاربها . فهذا ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله (٢٢ : ٤٧ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وقال فى آية أخرى (٣٢ : ٥ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وقال فى آية أخرى (٧٠ : ٤ ، ٥ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبراً جميلا) فقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم . وهو ينقض بعضه بعضاً ؟

قال : أما قوله « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » فهذا من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض ، كل يوم كألف سنة . وأما قوله « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة » فذلك أن جبريل كان ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم ويصعد إلى السماء فى يوم كان

مقداره ألف سنة . وذلك أنه من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام . فهبوط : خمسمائة عام . وصعود : خمسمائة عام . فذلك ألف سنة .

وأما قوله « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فيقول : لو ولي حسابَ الخلائق غيرُ الله ما فرغ منه فى يوم مقداره خمسون ألف سنة ، ويفرغ الله منه فى مقدار نصف يوم من أيام الدنيا ، إذا أخذ فى حساب الخلائق . فذلك قوله (٢١ : ٤٧ وكفى بنا حاسبين) يعنى سرعةَ الحساب .

وأما قوله (٦ : ٢٢ ، ٢٣ ويوم نحشرهم جميعاً . ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فِتْنَتُهُم إلا أن قالوا : والله رَبِّنا ما كنا مشركين) فأنكروا أنهم كانوا مشركين وقال فى آية أخرى (٤ : ٤١ ولا يكتمون الله حديثاً) فشكوا فى القرآن . وزعموا أنه متناقض .

فأما قوله « والله ربنا ما كنا مشركين » فذلك : أن هؤلاء المشركين إذا رأوا ما يتجاوز الله عن أهل التوحيد ، يقول بعضهم لبعض : إذا سألنا نقول : لم نكن مشركين . فلما جمعهم الله وجمع أصنامهم ، وقال « أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ » قال الله عنهم « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين » فلما كتموا الشرك ختم على أفواههم . وأمر الجوارح فنطقت بذلك . فذلك قوله (٣٦ : ٦٥ اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم . وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) فأخبر الله عز وجل عن الجوارح حين شهدت . فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله عز وجل (٢٠ : ٥٥ ويوم تقوم الساعة يُقْسِم المجرمون : ما لبثوا غير ساعة) وقال (٢٠ : ١٠٣ يتخافتون بينهم : إن لبثتم إلا عشرا) وقال (٢٠ : ١٠٤ إن لبثتم إلا يوماً) وقال (١٧ : ٥٢ إن لبثتم إلا قليلا) ومن أجل ذلك شكت الزنادقة .

فنقول : أما قوله « إن لبثتم إلا عشرا » فذلك إذا خرجوا من قبورهم . فنظروا

إلى ما كانوا يكذبون به من أمر البعث ، يقـول بعضهم لبعض : إن لبثتم فى القبور إلا عشر ليال . واستكثروا العشر ، فقالوا : إن لبثتم فى القبور إلا يوماً . ثم استكثروا اليوم ، فقالوا : إن لبثتم إلا قليلا . ثم استكثروا القليل . فقالوا : إن لبثتم إلا ساعة من نهار . فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله (٥ : ١٠٩ يوم يجمع الله الرسـل ، فيقول : ماذا أُجبتم ؟ قالوا : لا علم لنا) وقال فى آية أخرى (١١ : ١٨ ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) فقالوا : كيف يكون هذا ؟ يقولون : لا علم لنا . وأخبر عنهم : أنهم يقولون « هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » فزعموا أن القرآن ينقض بعضه بعضاً .

فنقول : أما قوله « يوم يجمع الله الرسل ، فيقول : ماذا أُجبتم ؟ » فإنه يسألهم عند زَفْرة جهنم . فيقول : ماذا أُجبتم فى التوحيـد ؟ فتذهب عقولهم عند زَفْرة جهنم ، فيقولون : لا علم لنا . ثم ترجع إليهم عقولهم من بعد ، فيقولون : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . فهذا تفسير ماشكت فيه الزنادقة .

وأما قوله (٧٥ : ٢٢ ، ٢٣ وجوهٌ يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) وقال فى آية أخرى (٦ : ١٠٣ لا تدركه الأبصـار وهو يدرك الأبصـار) فقالوا : كيف يكون هـذا ؟ يخبر أنهم ينظرون إلى ربهم ، ويقول فى آية أخرى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ؟ فشكّوا فى القرآن . وزعموا أنه ينقض بعضه بعضاً

فنقول : أما قوله « وجوه يومئذ ناضرة » فيعنى الحُسْن والبياض « إلى ربها ناظرة » يعنى تعاين ربها فى الجنة . وأما قوله « لاتدركه الأبصار » فيعنى فى الدنيا دون الآخرة . وذلك : أن اليهود قالوا لموسى (٤: ١٥٢ أرنا الله جهرة . فأخذتهم الصاعقة ـ الآية) « أرنا الله جهرة » . فأخذتهم الصـاعقة . فماتوا . وعوقبوا لقولهم « أرنا الله جهرة » وقد سأل مشركو قريش النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا (١٧ : ٩٢ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) فلما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم هذه المسألة قال الله تعالى (٢ : ١٠٨ أم تريدون أن تسألوا رسولـكم كما سُئل موسى

من قبل ؟) فأنزل الله سبحانه يخبر : أنه لا تدركه الأبصار . أى أنه لايراه أحد فى الدنيا دون الآخرة . فقال « لاتدركه الأبصار » يعنى فى الدنيا . أما فى الآخرة : فإنهم يرونه . فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قول موسى (٧ : ١٤٣ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) وقال السحرة (٢٦ : ٥٢ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٦ : ١٤٦ إن صلاتى ونُسُكى ومَحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له . وبذلك أمرت . وأنا أول المسلمين) قالوا : فكيف قال موسى « وأنا أول المؤمنين » وقد كان قبله إبراهيم مؤمن ، ويعقوب وإسحاق . فكيف جاز لموسى أن يقول « وأنا أول المؤمنين » ؟ وقالت السحرة « أن كنا أول المؤمنين » وكيف جاز للنبى أن يقول « وأنا أول المسلمين » وقد كان قبله مسلمون كثير . مثل عيسى ومن تبعه ؟ فشكوا فى القرآن ، وقالوا : إنه متناقض .

فنقول : أما قول موسى « وأنا أول المؤمنين » فإنه حين قال (٧ : ١٤٣ رب أرنى أنظر إليك . قال : لن ترانى) ولا يرانى أحد فى الدنيا إلا مات . (فلما تجلى ربه للجبل جعله دَكًّا . وخرَّ موسى صَعِقا . فلما أفاق قال : سبحانك تُبت إليك . وأنا أول المؤمنين) يعنى أول المصدقين : أنه لا يراك أحد فى الدنيا إلا مات .

وأما قول السحرة « أن كنا أول المؤمنين » فيعنى : أول المصدقين بموسى من أهل مصر من القبط .

وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم « وأنا أول المسلمين » فيعنى من أهل مكة فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله (٤٠ : ٤٦ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وقال فى آية أخرى (٥ : ١١٥ فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) وقال فى آية أخرى

(٤ : ١٤٥ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) فشكوا فى القرآن ، وقالوا : إنه ينقض بعضه بعضاً .

فنقول : أما قوله « أدخلوا آل فرعون أشـد العذاب » فيعنى عذاب ذلك الباب الذى هم فيه .

وأما قوله « فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحـداً من العالمين » فذلك : أن الله مَسخَهم قردةً وخنازير . فعذبهم بالمسخ ما لم يعذب به سواهم من الناس .

وأما قوله « إن المنـافقين فى الدرك الأسفل من النار » فلأن جهنم لها سبعة أبواب : جهنم ، ولَظَى ، والحُطَمة ، وسَقَر ، والسعير ، والجحيم ، والهاوية . وهم فى أسفل درك فيها .

وأما قوله تعالى (٨٨ :٦ ليس لهم طعام إلا من ضَريع) ثم قال (٤٤ :٤٣، ٤٤ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) فقد أخبر : أن لهم طعاماً غير الضريع . فشكوا فى القرآن ، وزعموا أنه متناقض .

فنقول : أما قوله « ليس لهم طعام إلا من ضريع » فيقول : ليس لهم طعام فى ذلك الباب إلا من ضريع . ويأكلون الزقوم فى غير ذلك البـاب . فذلك قوله « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله (٤٧ : ١١ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا . وأن الـكافرين لا مولى لهم) ثم قال فى آية أخرى (١٠ : ٣٠ ثم رُدوا إلى الله مولاهم الحق) فقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحـكم ؟ يخبر أنه مولى من آمن . ثم يقول « وأن الـكافرين لا مولى لهم » فشكوا فى القرآن .

فنقول : أما قوله « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا » فيقول : ناصر الذين آمنوا « وأن الكافرين لا مولى لهم » يقول : لا ناصر لهم ، وأما قوله « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » فلأن فى الدنيا أرباباً باطلة[1] فهذا ما شكت فيه الزنادقة .

---

(١) وأولياء يؤلهونه ويتولونهم ، ويستشفعون بهم فى قضاء حاجاتهم . ويخافونهم ويفزعون إليهم . معتقدين أنهم يتولون شئونهم ، وتفريج كرباتهم ، وإغاثة لهفاتهم .

وأما قوله (٦٠ : ٨ إن الله يحب المقسطين) وقال فى آية أخرى (٧٢ : ١٥ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حَطَبا) فقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟

فنقول : أما قوله « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » فيعنى العادلين بالله ، الجاعلين له عدلاء من خليقته ، فيعبدونهم مع الله .

وأما قوله (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) فيقول : اعدلوا فيما بينكم و بين الناس . إن الله يحب الذين يعدلون . وقال فى آية أخرى (٢٧ : ٦٠ ءإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون) يعنى يشركون[1] . فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله (٩ : ٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقال فى آية أخرى (٨ : ٧٢ والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من وَلايتهم من شىء حتى يهاجروا) وكان ــ عند من لا يعرف معناه ــ ينقض بعضه بعضا .

فنقول : أما قوله « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا » فيعنى من الميراث ، وذلك : أن الله حكم على المؤمنين ــ لما هاجروا إلى المدينة ــ : أن لايتوارثوا إلا بالهجرة . فإن مات رجل بالمدينة مهاجراً مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وله أولياء بمكة لم يهاجروا : كانوا لا يتوارثون . وكذلك إن مات رجل بمكة ، وله ولى مهاجر مع النبى صلى الله عليه وسلم : كان لا يرثه المهاجر . فذلك قوله « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء » من الميراث « حتى يهاجروا » فلما كثر المهاجرون رد ذلك الميراث إلى الأولياء ،

---

(١) يشركونهم فى عبادة الله ، لأنهم يعتقدون أنهم مساوون لله فى صفاته إذ لا يمكن أن يدعو الإنسان ميتاً إلا وهو يعتقد عن قرارة نفسه : أنه ليس ميتاً موت عامة البشر . بل إنه إنما انتقل . لأنه لم يكن فى حياته كحياة بقية البشر . إذ أنه من نور ربهم . ففيه من خصائص الرب وصفاته . فهو لذلك واسطة بين البشر والرب . ولذلك ردوا على الرسل جميعاً بأنهم ليسوا أهلا للرسالة بين الرب والبشر ، لأنهم بشر مثل عامة البشر . وأما أولياؤهم ومقدسوهم . فهم الجديرون أن يكونوا وسائط بين الله وخلقه . لأنهم وسط فى الخلق والصفات بين الرب والبشر .

هاجروا أو لم يهاجروا . وذلك قوله (٨ : ٧٥ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين) .

وأما قوله « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » فيعنى فى الدين ، والمؤمن يتولى المؤمن فى دينه . فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله لإبليس (٥١ : ٤٢ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقول موسى حين قَتَلَ النفس (٢٨ : ١٥ هذا من عمل الشيطان) فشكوا فى القرآن . وزعموا أنه متناقض .

فنقول : أما قوله «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» فيقول : عبادى الذين استخلصهم الله لدينه فليس لإبليس عليهم سلطان أن يضلهم فى دينهم ، أوفى عبادة ربهم . ولكن يصيب منهم من قِبَل الذنوب . فأما الشرك : فلا يقدر إبليس أن يضلهم عن دينهم . لأن الله سبحانه استخلصهم لدينه .

وأما قول موسى «هذا من عمل الشيطان » فيعنى : من تزيين الشيطان ، كما زين ليوسف(١) ولآدم وحواء . وهم عباد الله المخلصون . فهذا تفسير ما شكّت فيه الزنادقة .

وأما قول الله للكفار (٤٥ : ٣٤ وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) وقوله فى آية أخرى (٢٠ : ٥٢ فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) فشكوا فى القرآن .

فنقول : أما قوله « فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا » فيقول : نترككم فى النار « كما نسيتم » كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا .

وأما قوله « فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » فيقول : لا يذهب من حفظه ولا ينساه .

---

(١) لعله يقصد همه بامرأة العزيز . وذلك فى الواقع دليل على قوة إيمان يوسف عليه السلام ، وصدقه فى إحسانه وإخلاصه . وأن الشيطان لم يقدر عليه ، مع توفر الأسباب .

وأما قوله تعالى (٢٠ : ١٢٤ ، ١٢٥ ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتنى أعمى ، وقد كنت بصيراً ؟) وقال فى الآية الأخرى (٥٠:٢٢ فبَصَرُكَ اليوم حديد) فقالوا : فكيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟ فيقول « إنه أعمى » ويقول « فبصرك اليوم حديد » فشكوا فى القرآن .

فنقول : أما قوله « ونحشره يوم القيامة أعمى » فعن حجته . قال « رب لم حشرتنى أعمى » عن حجتى ؟ « وقد كنت بصيراً » بها مخاصماً لها . فذلك قوله (٢٨ : ٦٦ فعَمِيت عليهم الأنباء يومئذ) يقول : الحججَ (فهم لايتساءلون) .

وأما قوله « فبصرك اليوم حديد » فذلك : أن الكافر إذا خرج من قبره شَخَص بصره ، ولا يَطْرِف بصره حتى يعاين جميع ما كان يُكَذِّب به من أمر البعث . فذلك قوله (لقد كنتَ فى غفلةٍ من هذا . فكشفنا عنك غطاءك . فبصرك اليوم حديد) يقول : غطاء الآخرة . فبصرك يُحِد النظر ، لا يطرف حتى يعاين جميع ما كان يكذب به من أمر البعث . فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله لموسى (٢٠ : ٤٦ إننى معكما أسمع وأرى) وقوله فى موضع آخر (٢٦ : ١٥ إنا معكم مستمعون) فقالوا : كيف قال « إننى معكما » وقال فى آية أخرى « إنا معكم مستمعون » فشكوا فى القرآن من أجل ذلك .

فنقول : أما قوله « إنا معكم » فهذا فى مجاز اللغة . يقول الرجل للرجل : إنا سنجرى عليك رزقك . إنا سنفعل بك كذا .

وأما قوله « إننى معكما أسمع وأرى » فهو جائز فى اللغة . يقول الرجل الواحد للرجل : سأجرى عليك رزقك . أو سأفعل بك خيرا .

* * *

قال الإمام أحمد رحمه الله : وكذلك الجهم وشيعته . دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث . فضلوا . وأضلوا بكلامهم معشراً كثيراً .

فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله : أنه كان من أهل خراسان ، من

أهل تِرْمِذ . وكان صاحب خصومات وكلام . وكان أكثر كلامه فى الله . فلقى أناسا من الكفار — يقال لهم : السَّمْنية فعرفوا الجهم . فقالوا له : نكلمك . فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت فى ديننا . وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا فى دينك .

فكان مما كلموا به الجهم ، أن قالوا له : ألست تزعم أن لك إلهاً ؟ قال الجهم : نعم . فقالوا له : فهل رأيت عين إلهك ؟ قال : لا . قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال : لا . قالوا : أشممت له رائحة ؟ قال : لا . قالوا : فوجدت له حسا ؟ قال : لا . قالوا : فوجدت له مَجَسًّا ؟ قال : لا . قالوا : فما يدريك أنه إله ؟ قال : فتحير الجهم . فلم يدر من يعبد أربعين يوماً .

ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى . وذلك: أن زنادقة النصارى يزعمون : أن الروح الذى فى عيسى هو روح الله ، من ذات الله . فإذا أراد أن يُحدث أمراً دخل فى بعض خلقه ، فتكلم على لسان خلقه . فيأمر بما شاء وينهى عما شاء . وهو روح غائب عن الأبصار . فاستدرك الجهمُ حجة مثل هذه الحجة .

فقال للسمنى : ألست تزعم أن فيك روحاً ؟ قال : نعم . فقال : فهل رأيت روحك ؟ قال : لا . قال : فسمعت كلامه ؟ قال : لا . قال : فوجدت له حساً ، أو مجسا ؟ قال : لا . قال : فكذلك الله ، لايرى له وجه . ولا يسمع له صوت ، ولا يُشَمُّ له رائحة . وهو غائب عن الأبصار . ولا يكون فى مكان دون مكان . ووجد ثلاث آيات فى القرآن من المتشابه ، قوله تعالى (٤٢ : ١١ ليس كمثله شىء) وقوله (٦ : ٣ وهو الله فى السموات وفى الأرض) وقوله (٦ : ١٠٣ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)

فبنى أصل كلامه على هذه الآيات . وتأول القرآن على غير تأويله . وكذب بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزعم أن من وصف الله بشىء مما وصف به نفسه فى كتابه ، أو حدث به عنه رسوله : كان كافرا ، وكان من المشبهة .

فأضل بكلامه بشرًا كثيراً . وتبعه على قوله رجال من أصحاب أبى حنيفة ، وأصحاب عمرو بن عبيد بالبصرة . ووضع دين الجهمية .

فإذا سألهم الناس عن قول الله (ليس كمثله شىء) يقولون : ليس كمثله شىء من الأشياء . وهو تحت الأرضين السبع ، كما هو على العرش . لا يخلو منه مكان . ولا يكون فى مكان دون مكان . ولم يتكلم ، ولا تكلم ، ولا ينظر إليه أحد فى الدنيا . ولا فى الآخرة ، ولا يوصف ، ولا يعرف بصفة ، ولا بفعل ، ولا له غاية ، ولا له منتهى ، ولا يدرك بعقل . وهو وجه كله . وهو علم كله . وهو سمع كله . وهو بصر كله . وهو نور كله . وهو قدرة كله . ولا يكون شيئين . ولا يوصف بوصفين مختلفين . وليس له أعلى ولا أسفل . ولا نواحى ولا جوانب ، ولا يمين ولا شمال . ولا هو خفيف ولا ثقيل ، ولا له لون ولا له جسم . وليس هو بمعمول ولا معقول . وكل ماخطر على قلبك أنه شىء تعرفه ، فهو على خلافه .

قال أحمد : وقلنا هو شىء . فقالوا : هو شىء لا كالأشياء .

فقلنا : إن الشىء الذى لا كالأشياء قد عرف أهل العقل : أنه لا شىء[(1)] . فعند ذلك تبين للناس : أنهم لا يثبتون شيئاً بشىء . ولكنهم يدفعون عن أنفسهم الشنعة بما يقرون فى العلانية .

فإذا قيل لهم : من تعبدون ؟

قالوا : نعبد من يدبر أمر هذا الخلق .

فقلنا : هذا الذى يدبر أمر هذا الخلق : هو مجهول لا يعرف بصفة ؟ قالوا : نعم . فقلنا : قد عرف المسلمون أنكم لا تثبتون شيئاً بشىء . و إنما تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرون .

فقلنا لهم : هذا الذى يدبر أمر هذا الخلق : هو الذى كلم موسى ؟ .

قالوا : لم يتكلم . ولا يكلم . لأن الكلام لا يكون إلا بجارحة والجوارح عن الله منفية .

---

(١) أخشى أن يكون فى الكلام سقط أو تحريف .

فإذا سمع الجاهل قولهم ظن أنهم من أشـد الناس تعظيما لله . ولايعلم أنهم إنما يعود قولهم إلى ضلالة وكفر ، ولايشعر أنهم إنما يعود قولهم إلى فرية فى الله .

قال أحمد : فما يسأل عنه الجهمى ، يقال له : تجد فى كتاب الله أنه يخبر عن القرآن أنه مخلوق ؟ فلا يجد .

فيقال له : فتجد فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن القرآن مخلوق ؟ فلا يجد .

فيقال له : فلم قلت ؟ فسيقول : من قول الله (٤٣ : ٣ إنا جعلناه قرآنا عربيا) وزعم أن كل مجعول هو مخلوق . فادعى كلمة من الـكلام المتشابه . يحتج بها من أراد أن يُلحد فى تنزيلها ، و يبتغى الفتنة فى تأويلها . وذلك أن « جعل » فى القرآن من المخلوقين على وجهين : على معنى التسمية ، وعلى معنى فعل من أفعالهم وقوله (١٥:٩١ الذين جعلوا القرآن عِضين) قالوا : هو شعر ، وأساطير الأولين ، وأضغاث أحلام . فهذا على معنى التسمية . قال (٤٣ : ١٩ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) يعنى أنهم سموهم إناثا . ثم ذُكر على غير معنى التسمية . فقال (٢ : ١٩ يجعلون أصابعهم فى آذانهم) فهذا على معنى فعل من أفعالهم . وقال (١٧:٩٦ حتى إذا جعله نارا) هذا على معنى فعل . فهذا جَعْلُ المخلوقين .

ثم « جعل » من الله على معنى « خلق » و « جعل » على معنى غير «خلق» والذى قال الله تعالى « جعل » على معنى « خلق » لا يكون إلا خلقا . ولا يقوم إلا مقام : خلق خلقا لا يزول عنه المعنى . فإذا قال الله « جعل » على غير معنى « خلق » لا يكون « خلق » ولا يقوم مقام « خلق » ولا يزول عنه المعنى .

فمما قال الله « جعل » على معنى « خلق » قوله (٦: ١ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) يعنى : وخلق الظلمات والنور . وقال (١٦ : ٧٨ وجعل لـكم السمع والأبصار) يقول : وخلق لـكم السمع والأبصار . وقال (١٧ : ١٢ وجعلنا الليل والنهار آيتين) يقول : وخلقنا الليل والنهار آيتين .

وقال (٧١ : ١٦ وجعل الشمس سراجا) وقال (٧ : ١٨٩ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها) يقول : وخلق منهـا زوجها . يقول : خلق من آدم حواء . وقال (٢٧ : ٦١ وجعل لها رواسى) ومثله فى القرآن كثير .

فهذا وما كان على مثاله لا يكون إلا على معنى « خلق »

ثم ذكر « جعل » على معنى غير «خلق» فى قوله (٥ : ١٠٣ ماجعل الله من بَحيرة ولا سائبة) لايعنى : ماخلق من بحيرة ولاسائبة . وقال لإبراهيم (٢ : ١٢٤ إنى جاعلك للناس إماما) لا يعنى : إنى خالقك للناس إماماً . لأن خلق إبراهيم كان متقدماً . وقال إبراهيم (١٤ : ٣٥ رب اجعل هذا البلد آمنا) وقال إبراهيم (١٤ : ٤٠ رب اجعلنى مقيم الصلاة) لا يعنى : اخلقنى مقيم الصـلاة . وقال (٣ : ١٧٦ يريد الله أن لا يجعل لهم حظا فى الآخرة) لا يعنى : يريد الله أن لايخلق لهم حظا فى الآخرة . وقال لأم موسى (٢٨ : ٧ إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين) لا يعنى : خالقوه من المرسلين . لأن الله وعد أم موسى أن يرده إليها ، ثم يجعله من بعد ذلك رسوله . وقال (٨ : ٣٧ ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم) لا يعنى : فيخلقه فى جهنم . وقال (٢٨ : ٥ ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة . ونجعلهم الوارثين) لا يعنى : ونخلقهم أئمة ، ونخلقهم الوارثين . وقال (٧:١٤٣ فلما تَجَلَّى ربه للجبل جعله دَكًّا) لا يعنى : خلقه دكا . ومثله فى القرآن كثير .

فهذا ـ وما كان على مثـاله ـ لا يكون على معنى « خلق » فإذا قال الله « جعل » على معنى « خلق » وقال « جعل » على غير معنى « خلق » فبأى حجة قال الجهمى « جعل » على معنى « خلق » ؟ .

فإن رد الجهمى «جعل» إلى المعنى الذى وصفه الله فيه ، وإلا كان من الذين يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

فلما قال الله (٤٣ : ٣ إنا جعلناه قرآنا عربيا) يقول : جعله عربيا . جعله

جعلا على معنى فعل من أفعـال الله ، على غير معنى « خلق » وقال فى سورة الزخرف[١] (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلـكم تعقلون) وقال (٢٦ : ١٩٤ ، ١٩٥ لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) وقال (١٩ : ٩٨ فإنما يسرناه بلسانك) فلما جعل الله القرآن عربيا . ويسره بلسان نبيه صلى الله عليه وسـلم : كان ذلك فعلا من أفعال الله تبارك وتعـالى ، جعل القرآن به عربيا مبينا . وليس كما زعموا معناه : أنزلناه بلسان العرب . وقيل « بيناه » يعنى هذا بيان لمن أراد الله هداه .

ثم إن الجهمى ادعى أمراً آخر ـ وهو من المحـال ـ فقال : أخبرونا عن القرآن : أهو الله ، أو غير الله ؟

فادعى فى القرآن أمراً يوهم الناس . فإذا سئل الجاهل عن القرآن : هو الله ، أو غير الله ؟ فلا بد له من أن يقول بأحد القولين .

فإن قال « هو الله » قال له الجهمى : كفرت . وإن قال « غير الله » قال : صدقت . فلم لا يكون غير الله مخلوقا ؟ فيقع فى نفس الجاهل من ذلك ما يميل به إلى قول الجهمى .

وهذه المسألة من الجهمى هى من الأغاليط .

والجواب للجهمى إذا سأل ، فقال : أخبرونا عن القرآن : هو الله ، أو غير الله ؟ قيل له : إن الله جل ثناؤه لم يقل فى القرآن : إن القرآن أنا : ولم يقل : غيرى وقال: هو كلامى . فسميناه باسم سماه الله به . فقلنا « كلام الله » فمن سمى القرآن باسم سماه الله به كان من المهتدين . ومن سماه باسم من عنده : كان من الضالين .

وقد فصل الله بين « قوله » و بين «خلقه» ولم يسمه قولا . فقال (٧: ٥٤ ألا له الخلق والأمر) فلما قال « ألا له الخلق » لم يبق شىء مخلوق إلا كان داخلا فى

---

(١) هى بعينها الآية السابقة . لأنهـا لم ترد فى القرآن إلا فى سورة الزخرف . ووردت فى سورة يوسف (١٢ : ٢ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلـكم تعقلون) .

ذلك . ثم ذكر ما ليس بخلق فقال « والأمر » فأمره هو : قوله . و« تبارك الله رب العالمين » أن يكون قوله خلقا .

وقال (٤٤ : ٣، ٤ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يُفْرَق كل أمر حكيم) يقول : القرآن هو أمر من عندنا . وقال (٣٠ : ٤ لله الأمر من قبل ومن بعد) يقول : لله القول من قبل الخلق ومن بعد الخلق . فالله يخلق و يأمر . وقوله غير خلقه . وقال (٦٥ : ٥ ذلك أمر الله أنزله إليكم) وقال (١١ : ٤٠ حتى إذا جاء أمرنا وفارَ التنور) .

باب

بيان ما فصل الله بين « قوله » و« خلقه » و « أمره »

وذلك : أن الله ـ جل ثناؤه ـ إذا سمى الشيء الواحد باسمين ، أو ثلاثة أسامٍ : فهو مرسل غير مفصل مقيد . و إذا سمى شيئين مختلفين لا يدعهما مرسلين حتى يفصل بينهما .

من ذلك قوله (١٢ : ٧٨ يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً) فهذا شيء واحد سماه بثلاثة أسامٍ . وهو مرسل . ولم يقل : إن له أبا ، وشيخاً ، وكبيراً . وقال (٦٦ : ٥ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات) ثم قال (ثيبات وأبكارا) فهذا شيء واحد فهو مرسل . فلما ذكر شيئين مختلفين فصل بينهما . فذلك قوله « ثيبات » فلما كانت « البكر » غير « الثيب » لم يدعه مرسلا حتى فصل بينهما . فذلك قوله « وأبكارا » وقال (٣٥ : ١٩ ـ ٢١ ومايستوى الأعمى) ثم قال (والبصير) فلما كان البصير غير الأعمى فصل بينهما . ثم قال (ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور) فلما كان كل واحد من هذه الأشياء غير الشيء الآخر فصل بينها . وقال (٥٩ : ٢٣ ، ٢٤ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر

سبحان الله عمـا يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور) فهذا كله اسم شيء واحد . فهو مرسل ليس بمفصـل . فـكذلك قال الله (٧ : ٥٤ ألا له الخلق والأمر) لأن الخلق غير الأمر . فهو مفصل .

باب

بيان ما أبطل الله أن يكون القرآن إلا وحيا ليس بمخلوق

قوله (٥٣ : ١ـ٤ والنجم إذا هَوَى . ما ضَلَّ صاحبُكم وما غَوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى) قال : وذلك أن قريشاً قالوا « إن القرآن شعر » وقالوا « أساطير الأولين » وقالوا « أضغاث أحلام » وقالوا « تقوَّله محمد من تلقاء نفسه » وقالوا « تعلمه من غيره » .

فأقسم الله بالنجم إذا هوى ـ يعنى القرآنَ إذا نزل ـ فقال « والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم » يعنى محمداً « وما غوى ، وما ينطق عن الهوى » يقول : إن محمداً لم يقل هذا القرآن من تلقاء نفسه . فقال « إن هو » يقول : ماهو ـ يعنى القرآن ـ إلا وحى يوحى . فأبطل الله أن يكون القرآن شيئاً غير الوحى بقوله « إن هو إلا وحى يوحى » ثم قال « عَلَّمه » يعنى علم جبريلُ محمدا صلى الله عليه وسلم . وهو « شديد القوى ، ذُو مِرَّة فاستوى » إلى قوله « فأوحى إلى عبده ماأوحى » فسمى القرآن « وحياً » ولم يسمه خلقا .

باب

ثم إن الجهمى ادعى أمراً آخر ، فقال : أخبرونا عن القرآن ، هو شيء ؟ فقلنا : نعم هو شيء . فقال : إن الله خالق كل شيء . فلم لا يكون القرآن من الأشياء المخلوقة ؟ وقد أقررتم أنه شيء .

فلعمرى لقد ادعى أمراً أمكنته فيه الدعوى . ولَبَّس على الناس بما ادعى .

فقلنا : إن الله سبحانه لم يسم كلامه فى القرآن شيئاً . إنمـا سمى شيئاً الذى

كان بقوله . ألم تسمع إلى قوله تبارك وتعالى (١٦ : ٤٠ إنما قولنا لشيء) فالشيء ليس هو قوله . إنما الشيء الذى كان بقوله . وقال فى آية أخرى (٣٦ : ٨٣ إنما أمره) ثم قال (إذا أراد شيئاً) فالشيء ليس أمره . إنما الشيء : الذى كان بأمره .

ومن الأعلام والدلالات : أنه لا يعنى كلامه مع الأشيـاء المخلوقة . قال الله للريح التى أرسلها على عاد (٤٦ : ٢٥ تدمر كل شيء بأمر ربها) وقد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها : منازلهم ومساكنهم ، والجبال التى بحضرتهم . فأتت عليهـا تلك الريح ولم تدمرها . وقد قال « تدمر كل شيء » فـكذلك إذا قال « خالق كل شيء » لا يعنى نفسه ، ولا علمه ، ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة . وقال للمـلكة سبأ (٢٧ : ٢٣ وأوتيت من كل شيء) وقد كان مُلك سليمان شيئاً ولم تُؤْتَه . وكذلك إذا قال « خالق كل شيء » لايعنى كلامه مع الأشياء المخلوقة . وقال الله لموسى (٢٠ : ٤١ واصطنعتك لنفسى) وقال (٣: ٣٠ ويحذركم الله نفسه) وقال (٦ : ٥٤ كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقال (٥ : ١١٦ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) ثم قال (٣ : ١٨٥ كل نفس ذائقة الموت) فقد عرف من عقـل عن الله : أنه لا يعنى نفسه مع الأنفس التى تذوق الموت . وقد ذكر الله عز وجل نفسه . فـكذلك إن قال « خالق كل شيء » لا يعنى نفسه ، ولا علمه ، ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة . ففى هذا دلالة و بيان لمن عقل عن الله .

فرحم الله من فـكر ورجع عن القول الذى يخالف الـكتاب والسنة ، ولم يقل على الله إلا الحق . فإن الله قد أخذ ميثاق خلقه . فقال (٧ : ١٦٩ ألم يؤخذ عليهم ميثـاق الـكتاب : أن لا يقولوا على الله إلا الحق) وقال فى آية أخرى (٧ : ٣٣ قل : إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وقد حرم الله أن يقال عليه الـكذب . وقد قال (٣٩ : ٦٠ ويوم القيـامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) أعاذنا الله و إياكم من فتن المضلين .

وقد ذكر الله كلامه فى غير موضع من القرآن . فسماه «كلاماً» ولم يسمه خلقا . قال (٢ : ٣٧ فتلقى آدم من ربه كلمات) وقال (٢ : ٧٥ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) وقال (٧ : ١٤٣ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) وقال (٧ : ١٤٤ إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى و بكلامى) وقال (٤ : ١٦٤ وكلم الله موسى تكليما) وقال (٧ : ١٥٨ فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته) فأخبرنا الله أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يؤمن بالله و بكلام الله . وقال (١٥:٤٨ يريدون أن يبدلوا كلام الله) وقال (١١٠:١٨ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفِدَ البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) وقال (٩ : ٦ وإن أحد من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله) ولم يقل : حتى يسمع خلق الله . فهذا منصوص بلسان عربى مبين ، لا يحتاج إلى تفسير . هو مبين بحمد الله .

باب

وقد سألت الجهمى : أليس إنما قال الله (١٣٦:٢ قولوا : آمنا بالله) و (٢ : ٨٣ وقولوا للناس حُسْناً) و (٢٩ : ٤٦ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم) وقال (٣٣ : ٧٠ وقولوا قولا سديداً) و (٣ : ٦٤ فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وقال (٢٩:١٨ وقل الحق من ربكم) وقال (٦ : ٥٤ فقل سلام) ولم نسمع الله يقول : قولوا : إن كلامى خلق . وقال (٥ : ١٧١ ولا تقولوا ثلاثة . انتهوا) وقال (٤ : ٩٤ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) وقال (٢ : ١٠٤ لاتقولوا راعنا) وقال (١٥٤:٢ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات) وقال (١٨ : ٢٢ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) وقال (١٧ : ٢٣ ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما) وقال (٨٨:٢٨ ولا تدع مع الله إلهاً آخر) وقال (٦: ١٥١ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) وقال (١٧ :٢٩ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) وقال (١٧ : ٣٣ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) وقال (١٧ : ٣٤

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) وقال (١٧ : ٣٧ ولا تمش فى الأرض مرَحا) ومثله فى القرآن كثير . فهذا مما نهى الله عنه . ولم يقل لنا : لا تقولوا إن القرآن كلامى . وقد سمت الملائكة كلام الله كلاماً . ولم تسمه خلقاً . وذلك قوله (٣٤ : ٢٣ حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير) وذلك أن الملائكة لم يسمعوا صوت الوحى ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم كذا وكذا سنة . فلما أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم سمعت الملائكة صوت الوحى كوقع الحديد على الصفا . فظنوا أنه أمر من أمر الساعة ففزعوا ، وخروا لوجوههم سُجَّدًا . فذلك قوله « حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم » يقول : حتى إذا انجلى الفزع عن قلوبهم ، رفعت الملائكة رءوسهم . فسأل بعضهم بعضاً . فقالوا : ماذا قال ربكم ؟ ولم يقولوا : ماذا خلق ربكم ؟ فهذا بيان لمن أراد الله هداه .

باب آخر

ثم إن الجهمى ادعى أمراً ، فقال : أنا أجد آية فى كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق .

فقلنا : فى أى آية ؟ فقال : قول الله تبارك وتعالى (٢١ : ٢ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَث) فزعم أن الله قال للقرآن « محدث » وكل محدث مخلوق . فلعمرى لقد شبَّه على الناس بهذا . وهى آية من المتشابه . فقلنا فى ذلك قولا . واستعنا بالله . ونظرنا فى كتاب الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

اعلم أن الشيئين إذا اجتمعا فى اسم يجمعهما . فكان أحدهما أعلى من الآخر ثم جرى عليهما اسم مدح . فكان أعلاهما أولى بالمدح ، وأغلب عليه . وإن جرى عليهما اسم ذم أو اسم أدنى . فأدناهما أولى به . ومن ذلك قول الله فى كتابه (٢ : ١٤٣ إن الله بالناس لرءوف رحيم) وقوله (٧٦ : ٦ عيناً يشرب بها عباد الله) يعنى الأبرار دون الفجار . فإذا اجتمعوا فى اسم الإنسان واسم العباد . فالمعنى فى

قول الله جل ثناؤه « عيناً يشرب بها عباد الله » يعنى الأبرار دون الفجار . لقوله إذا انفرد الأبرار (٨٢ : ١٣ إن الأبرار لفى نعيم) و إذا انفرد الفجار (٨٢ : ١٤ و إن الفجار لفى جحيم) وقوله (٢ : ١٤٣ إن الله بالناس لرءوف رحيم) فالمؤمن أولى به . و إن اجتمعا فى اسم « الناس » لأن المؤمن إذا انفرد أعطى المدح . لقوله (٢ : ١٤٣ إن الله بالناس لرءوف رحيم) وقال (٣٣ : ٤٣ وكان بالمؤمنين رحيما) و إذا انفرد الكفار أجرى عليهم اسم الذم فى قوله (١١ : ١٨ ألا لعنة الله على الظالمين) وقال (٥ : ٨٠ أنْ سَخِطَ الله عليهم وفى العذاب هم خالدون) فهؤلاء لايدخلون فى الرحمة . وفى قوله (٤٢ : ٢٧ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) فاجتمع المؤمنون والكفار فى اسم « العباد » والكفار أولى بالبغى من المؤمنين . لأن المؤمنين انفردوا ومدحوا فيما بسط لهم من الرزق . وهو قول الله (٢٥ : ٦٧ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) وقوله (٢ : ٣ ومما رزقناهم ينفقون) وقد بسط لداود وسليمان بن داود ، ولذى القرنين ، وأبى بكر ، وعمر — ومن كان على مثالهم ممن بسط له — فلم يبغ . و إذا انفرد الكافر وقع عليه اسم « البغى » فى قوله لقارون (٢٨ : ٧٦ فبغى عليهم) ونمروذ بن كنعان حين آتاه الله الملك . فحاج إبراهيم فى ربه وفرعون حين قال موسى (١٠ : ٨٨ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا) فلما اجتمعوا فى اسم واحد وجرى عليهم اسم « البغى » كان الكافر أولى به ، كما أن المؤمن أولى بالمدح .

فلما قال الله تبارك وتعالى (٢١ : ٢ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) فجمع بين ذكرين : ذكر الله ، وذكر نبيه . فأما ذكر الله إذا انفرد لم يجر عليه اسم « الحدث » ألم تسمع إلى قوله (٢٩ : ٤٥ ولذكر الله أكبر) وقوله (٢١ : ٥٠ وهذا ذكر مبارك) فإذا انفرد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فإنه جرى عليه اسم « الحدث » ألم تسمع إلى قوله (٣٧ : ٩٦ والله خلقكم وما تعملون) فذكر النبى صلى الله عليه وسلم . وذكر له عملا . والله له خالق ومحدث . والدلالة على أنه جمع

بين ذكرين قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) فأوقع عليه الحدث عند إتيانه إيانا . وأنت تعلم أنه لا يأتينا بالأنباء إلا مبلغ ومذكر . وقال الله تعالى (٥١ : ٥٥ وذكر . فإن الذكرى تنفع المؤمنين) وقال (٨٧ : ٩ فذكر إن نفعت الذكرى) وقال (٨٨ : ٢١ فذكر . إنما أنت مذكر) فلما اجتمعوا فى اسم « الذكر » جرى عليهم اسم « الحدث » وذكر النبي إذا نفرد وقع عليه اسم خاق . وكان أولى بالحدث من ذكر الله الذى إذا انفرد لم يقع عليه اسم خلق ولا حدث . فوجدنا دلالة من قول الله تعالى (مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث) إلى النبى صلى الله عليه وسلم . لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يعلم . فعلمه الله . فلما علمه الله كان ذلك محدَثاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم[1] .

باب

ثم إن الجهمى ادعى أمراً ، فقال : إنا وجدنا آية فى كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق .

فقلنا : أى آية ؟

فقال : قول الله تعالى (٤ : ١٧١ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته) وعيسى مخلوق .

فقلنا : إن الله منعك الفهم فى القرآن . عيسى تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن . لأن الله يسميه مولوداً ، وطفلاً ، وصبياً ، وغلاماً يأكل و يشرب . وهو مخاطب بالأمر والنهى . يجرى عليه اسم الخطاب والوعد والوعيد . ثم هو من

---

(١) وقد يفهم من « محدث » أيضاً : أنه جديد فى كل زمان ، كأنه نزل عليهم فى يومهم ، يحدثهم بما يحتاجون إليه فى شئونهم وما يصلحها . ويهديهم إلى الصراط السوى ، ويخرجهم من ظلمات ما يحيط بهم من الفتن التى حيرتهم ، وأخذوا يتصايحون ، طالبين العلاج والمخرج ، والحياة الهيئة لهم ولمجتمعهم . لأنه أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض . والله أعلم .

ذرية نوح ، ومن ذرية إبراهيم . ولا يحل لنا أن نقول فى القرآن ما نقول فى عيسى . هل سمعتم الله يقول فى القرآن ما قال فى عيسى ؟ ولكن المعنى فى قول الله جل ثناوه (٤ : ١٧١ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم) حين قال له « كن » فكان عيسى بكن . وليس عيسى هو « كن » ولكن بكن كان . فكن من الله قول . وليس «كن» مخلوقاً . وكذب النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى . وذلك أن الجهمية قالوا : عيسى روح الله وكلمته ، إلا أن الكلمة مخلوقة . وقالت النصارى : عيسى روح الله من ذات الله . وكلمة الله من ذات الله . كما يقال : إن هذه الخرقة من هذا الثوب[١] .

وقلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان . وليس عيسى هو الكلمة .

وأما قول الله تعالى « وروح منه » فيقول : من أمره كان الروح فيه[٢] ، كقوله (٤٥ : ١٣ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه) يقول : من أمره . ويفسر « روح الله » إنما معناه : أنها روح بكلمة الله خلقها الله . كما يقال : عبد الله ، وسماء الله ، وأرض الله .

باب

ثم إن الجهمى ادعى أمراً آخر . فقال : إن الله يقول (٢٥ : ٥٩ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام) فزعم أن القرآن لا يخلو أن يكون فى السماء أو فى الأرض ، أو فيما بينهما .

---

(١) لأنهم يقولون : إنه النور الأول الذى فاض وانبثق من الله . والله يرد عليهم هذا ويقول (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب . ثم قال له : كن فيكون) خلق من غير أب . وبقية البشر يخلقهم الله من أبوين ، فيقول لكل واحد منهم ــ بعد تسويته من تراب ثم من نطفة ــ كن فيكون .

(٢) كما كان فى كل بشر ممن خلق . فإن الله ينفخ فيه من روحه كما أخبر ربنا . والله أعلم بذلك كيف يكون .

فشبه على الناس . ولبس عليهم . فقلنا له : أليس إنمـا أوقع الله جل ثناؤه « الخلق » على « المخلوق » فى السموات وفى الأرض وفيما بينهما ؟ .

فقالوا : نعم . فقلنـا : هل فوق السموات شيء مخلوق ؟ قالوا : نعم . فقلنا : فإنه لم يجعل مافوق السموات مع الأشياء المخلوقة . وقد عرف أهل العلم : أن فوق السموات السبع : الـكرسى ، والعرش ، واللوح المحفوظ ، والحجب ، وأشياء كثيرة ولم يسمها . ولم يجعلها مع الأشياء المخلوقة . و إنما وقع الخبر من الله على السموات والأرض وما بينهما .

وقلنا فيما ادعوا : إن القرآن لايخلو : إما أن يكون فى السموات أو فى الأرض ، أو فيما بينهما .

فقلنا : إن الله تبارك وتعالى يقول (١٥ : ٨٥ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) فالحق الذى خلق به السموات والأرض قد كان قبل السموات والأرض . والحق قوله .وليس قوله مخلوقاً .

باب بيان ماجحدت الجهمية من قول الله تعالى

(٧٥ : ٢٢ ، ٢٣ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة)

قال أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ فقلنا لهم : لم أنكرتم أن أهل الجنة ينظرون إلى ربهم ؟ .

فقالوا : لاينبغى لأحد أن ينظر إلى ربه . لأن المنظور إليه محدود موصوف إنما نَرى الأشياء بفعله .

فقلنا : أليس الله يقول (٧٥ : ٢٣ إلى ربها ناظرة) ؟ .

فقالوا : إنما تنظر إلى ثواب ربها . و إنما ينظرون إلى فعله وقدرته . وتأويله من القرآن (٢٥ : ٤٥ ألم تر إلى ربك كيف مَدّ الظل) فقالوا : إنه حين قال (ألم تر إلى ربك) أنهم لم يروا ربهم ، ولـكن المعنى : ألم تر إلى فعل ربك .

فقلنا : إن فعل الله لم يزل العباد يرونه . و إنما قال (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) .

فقالوا : إنما ينظرون الثواب من ربهم . فقلنا : إنها مع ما تنظر الثواب هى ترى ربها .

فقالوا : إن الله لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة . وتلوا آية من المتشابه من قوله جل ثناؤه (٦ : ١٠٣ لا تدركه الأبصار) وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف معنى قول الله (لا تدركه الأبصار) وقال « إنكم سترون ربكم » وقال الله لموسى (١٤٣:٧ لن ترانى) ولم يقل : لن أُرَى . فأيهما أولى أن يتبع : النبي صلى الله عليه وسلم حين قال « إنكم سترون ربكم » أم قول الجهمى حين قال : لا ترون ربكم ؟ .

والأحاديث فى أيدى أهل العلم عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن أهل الجنة يرون ربهم » لا يختلف فيها أهل العلم . ومن حديث سفيان عن أبى إسحق عن عامر بن سعد فى قوله تعالى (٢٦:١٠ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال « النظر إلى وجه الله » ومن حديث ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال « إذا استقر أهل الجنة فى الجنة نادى منـاد : يا أهل الجنة ، إن الله قد أذن لـكم فى الزيارة . قال : فيكشف الحجاب . فيتجلى لهم ـ وذكر الحديث » .

قال أحمد رحمه الله : فينظرون إلى الله . لا إله إلا هو . و إنا لنرجو أن يكون جهم وشيعته ممن لا ينظرون إلى ربهم . ويحجبون عن الله . لأن الله قال (٨٣ : ١٥ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فإذا كان الـكافر يحجب عن الله والمؤمن يحجب عن الله ، فما فضل المؤمن على الـكافر ؟ .

فالحمد لله الذى لم يجعلنا مثل جهم وشيعته . وجعلنا ممن اتبع ولم يجعلنـا ممن ابتدع . والحمد لله وحده .

باب بيان ما أنكر الجهمى من أن يكون الله كلم موسى

قلنا : لم أنكرتم ذلك ؟ قالوا : إن الله لم يكلم ولا يتكلم . إنما كوّن شيئاً فعبر عن الله . وخلق صوتاً فأسمعه . وزعموا أن الكلام لا يكون إلا من جوف ولسان وشفتين .

فقلنا : هل يجوز أن يكون المكون غير الله ، أن يقول (٢٠ : ١١ ، ١٢ يا موسى ، إنى أنا ربك) ويقول (٢٠ : ١٤ إننى أنا الله لا إله إلا أنا . فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) و (إنى أنا ربك) فمن زعم أن ذلك غير الله فقد ادعى الربوبية . ولو كان كما زعم الجهمى : أن الله كون شيئاً كان يقول ذلك المكون « يا موسى إن الله رب العالمين » ولا يجوز أن يقول « إنى أنا الله رب العالمين » وقد قال جل ثناؤه (٤ : ١٦٤ وكلم الله موسى تكليما) وقال (٧ : ١٤٣ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) وقال (٧ : ١٤٤ إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى و بكلامى) فهذا منصوص القرآن .

وأما ما قالوا : إن الله لم يتكلم ولا يكلم ، فكيف يصنعون بحديث الأعمش عن خيثمة عن عدى بن حاتم الطائى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه و بينه ترجمان » .

وأما قولهم : إن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفتين ولسان . فنقول : أليس قال الله للسموات والأرض (٤١ : ١١ ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا أتينا طائعين) أتراها قالت بجوف وفم وشفتين ولسان وأدوات ؟ وقال (٢١ : ٧٩ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) أتراها سبحت بجوف وفم ولسان وشفتين ؟ والجوارح إذا شهدت على الكافر فقالوا (٤١ : ٢١ لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) أتراها نطقت بجوف وفم ولسان ؟ ولكن الله أنطقها كيف شاء وكذلك الله تكلم كيف شاء من غير أن نقول بجوف ولا فم ولا لسان ولا شفتين .

قال أحمد رضى الله عنه : فلما خنقته الحجج قال : إن الله كلم موسى ، إلا أن

كلامه غيره . فقلنا : وغيره مخلوق ؟ قال : نعم . فقلنا : هذا مثل قولكم الأول . إلا أنكم تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرون . وحديث الزهرى قال « لما سمع موسى كلام ربه قال : يارب ، هذا الذى سمعته هو كلامك ؟ قال : نعم يا موسى ، هو كلامى . وإنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان . ولى قوة الألسن كلها . وأنا أقوى من ذلك . وإنما كلمتك على قدر مايطيق بدنك . ولو كلمتك بأكثر من ذلك لمت . قال فلما رجع موسى إلى قومه قالوا له : صف لنا كلام ربك . فقال : سبحان الله ! وهل أستطيع أن أصف لكم ؟ قالوا : فشبهه . قال : هل سمعتم أصوات الصواعق التى تقبل فى أحلى حلاوة سمعتموها ؟ فكأنه مثله » .

وقلنا للجهمية : من القائل يوم القيامة (٥ : ١١٦ يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟) أليس الله هو القائل ؟ قال : قالوا : يُكَوِّن الله شيئاً ، فيعبر عن الله كما كونه فعبر لموسى .

قلنا : فمن القائل (٧ : ٦ ، ٧ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) أليس الله هو الذى يسأل ؟ قالوا : هذا كله إنما يُكَوِّن شيئاً فيعبر عن الله .

فقلنا : قد أعظمتم على الله الفرية ، حين زعمتم أنه لايتكلم . فشبهتموه بالأصنام التى تعبد من دون الله . لأن الأصنام لا تتكلم ولا تتحرك ، ولا تزول من مكان إلى مكان .

فلما ظهرت عليه الحجة قال : إن الله قد يتكلم . ولكن كلامه مخلوق .

قلنا : وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق . فقد شبهتم الله بخلقه حين زعمتم أن كلامه مخلوق . ففى مذهبكم : قد كان فى وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التكلم . وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاماً . وقد جمعتم بين كفر وتشبيه . فتعالى الله عن هذه الصفة .

بل نقول : إن الله لم يزل متكلما إذا شاء . ولا نقول إنه كان ولا يتكلم حتى

خلق كلاماً . ولا نقول : إنه قد كان لا يعلم حتى خلق علماً . ولا نقول : إنه كان ولا قدرة حتى خلق لنفسه قدرة . ولا نقول : إنه كان ولا نور له حتى خلق لنفسه نوراً . ولا نقول : إنه كان ولا عظمة له حتى خلق لنفسه عظمة .

فقال الجهمى لنا ـ لما وصفنا الله عن الله هذه الصفات ـ : إن زعمتم أن الله ونوره والله وقدرته ، والله وعظمته . فقد قلتم بقول النصارى ، حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره . ولم يزل وقدرته.

قلنا : لا نقول إن الله لم يزل وقدرته . ولم يزل ونوره . ولكن نقول : لم يزل بقدرته ونوره . لا متى قدر ، ولا كيف قدر .

فقالوا : لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا : قد كان الله ولا شيء .

فقلنا نحن نقول قد كان الله ولا شيء . ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها ، أليس إنما نصف إلها واحداً بجميع صفاته ؟ وضربنا لهم فى ذلك مثلا .

فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة : أليس لها جذع وكَرَب وليف وسعف وخوص وجُمَّار ، واسمها اسم شيء واحد ، وسميت نخلة بجميع صفاتها ؟ فكذلك الله ـ وله المثل الأعلى ـ بجميع صفاته إله واحد . لا نقول : إنه قد كان فى وقت من الأوقات ولا قدرة له حتى خلق قدرة . والذى ليس له قدرة هو عاجز . ولا نقول : قد كان فى وقت من الأوقات ، ولا يعلم ، حتى خلق العلم . والذى لا يعلم هو جاهل . ولكن نقول : لم يزل الله عالماً قادراً مالكاً . لا متَى ولا كيف ؟ وقد سمى الله رجلا كافراً اسمه الوليد بن المغيرة المخزومى فقال (٧٤ : ١١ ، ١٢ ذرنى ومن خلقتُ وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً) وقد كان هذا الذى سماه وحيداً له عينان وأذنان . ولسان وشفتان و يدان ورجلان وجوارح كثيرة . فقد سماه الله وحيداً بجميع صفاته . فكذلك الله ـ وله المثل الأعلى ـ هو بجميع صفاته إله واحد .

باب بيان ما أنكرت الجهمية أن يكون الله على العرش

فقلنا : لم أنكرتم أن يكون الله على العرش ؟ وقد قال جل ثناؤه (٢٠ : ٥ الرحمن على العرش استوى) وقال (٥٧ : ٤ خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) وقال (٢٥ : ٥٩ ثم استوى على العرش الرحمنُ فاسأل به خبيراً) .

فقالوا : هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش . فهو على العرش . وفى السموات . وفى الأرض . وفى كل مكان . لا يخلو منه مكان . ولا يكون فى مكان دون مكان . وتلوا آية من القرآن (٦ : ٣ وهو الله فى السموات وفى الأرض) .

فقلنا : قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظيم الرب شيء .

فقالوا : أى مكان ؟ قلنا : أجسامكم وأجوافكم ، وأجواف الخنازير ، والحشوش ، والأماكن القذرة . ليس فيها من عظيم الرب شيء . قد أخبرنا أنه فى السماء . فقال (٦٧ : ١٦ ، ١٧ ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً ؟) وقال (٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب) وقال (٣ : ٥٥ إنى متوفيك ورافعك إلى) وقال (٤ : ١٥٨ بل رفعه الله إليه) وقال (٢١ : ١٩ وله من فى السموات والأرض ومن عنده) وقال (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم) وقال (٧٠ : ٣ ذى المعارج تعرج الملائكة والروح إليه) وقال (٦ : ١٨ وهو القاهر فوق عباده) وقال (٢ : ٢٥٥ وهو العلى العظيم) فهذا خبر الله ، أخبرنا : أنه فى السماء . ووجدنا كل شيء أسفل منه مذموماً . يقول الله جل ثناؤه (٤ : ١٤٥ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) وقال (٤١ : ٢٩ وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) .

وقلنا لهم : أتعلمون أن إبليس كان مكانه ، والشياطين مكانهم ، فلم يكن الله بمجتمع هو و إبليس فى مكان واحد ؟ .

و إنما معنى قوله جل ثناؤه (٦ : ٣ وهو الله فى السموات وفى الأرض) يقول هو إله من فى السموات ، و إله من فى الأرض . وهو على العرش ، وقد أحاط علمه بما دون العرش . ولا يخلو من علم الله مكان . ولا يكون علم الله فى مكان دون مكان . فذلك قوله (٦٥ : ١٢ لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً) .

ومن الاعتبار فى ذلك : لو أن رجلا كان فى يده قدح من قوارير صاف ، وفيه شراب صاف . كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح ، من غير أن يكون ابن آدم فى القدح . ولله المثل الأعلى . قد أحاط بجميع خلقه ، من غير أن يكون فى شىء من خلقه .

وخصلة أخرى : لو أن رجلا بنى داراً بجميع مرافقها ، ثم أغلق بابها . وخرج منها كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت فى داره ؟ وكم سعة كل بيت ؟ من غير أن يكون صاحب الدار فى جوف الدار . فإن الله — وله المثل الأعلى — قد أحاط بجميع ما خلق ، وعلم كيف هو ، من غير أن يكون فى شىء مما خلق .

قال أحمد رحمه الله .

باب بيان ما تأولت الجهمية

من قول الله تعالى (٥٨ : ٧ مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شىء عليم) .

قالوا : إن الله عز وجل معنا وفينا .

فقلت : لم قطعتم الخبر من أوله ؟ إن الله عز وجل يقول (٥٨ : ٧ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) فأخبر جل ثناؤه : أنه يعلم ما فى السموات

وما فى الأرض . ثم قال (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) يعنى إلا الله بعلمه رابعهم (ولا خمسة إلا هو) يعنى الله بعلمه (سادسهم . ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) يعنى بعلمه فيهم (أينما كانوا . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شىء عليم) ففتح الخبر بعلمه . وختم الخبر بعلمه .

و يقال للجهمى : إن الله إذا كان معنا بعظمة نفسه . فقل له : هل يغفر الله لكم فيما بينه و بين خلقه .

فإن قال : نعم ، فقد زعم أن الله بائن من خلقه . وأن خلقه دونه . و إن قال : لا . كفر .

باب

إذا أردت أن تعلم أن الجهمى كاذب على الله ـ حين زعم : أن الله فى كل مكان . ولا يكون فى مكان دون مكان ـ فقل له : أليس الله كان ولا شىء ؟ فيقول : نعم . فقل له : حين خلق الشىء خلقه فى نفسه أو خارجاً من نفسه : فإنه يصير إلى ثلاثة أقاويل . واحد منها : إن زعم أن الله خلق الخلق فى نفسه . كفر حين زعم أن الجن والإنس والشياطين فى نفسه . و إن قال : خلقهم خارجاً من نفسه . ثم دخل فيهم : كان هذا أيضاً كفراً ، حين زعم أنه دخل فى مكان وحش قذر ردىء . و إن قال : خلقهم خارجاً من نفسه ، ثم لم يدخل فيهم . رجع عن قوله أجمع . وهو قول أهل السنة .

باب

إذا أردت أن تعلم أن الجهمى لايقر بعلم الله ، فقل له : إن الله يقول (٢ : ٢٥٥ ولا يحيطون بشىء من علمه) و يقول (٤ : ١٦٦ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه) و يقول (١١ : ١٤ فإن تولوا فاعلم أنما أنزل بعلم الله) و يقول (٤١ : ٤٧ وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) .

فيقال له : تقر بعلم الله ، هذا الذى أوقفك عليه بالأعلام والدلالات أم لا ؟

فإن قال : ليس له علم كفر . و إن قال : لله علم محدث كفر . حين زعم أن الله قد كان فى وقت من الأوقات لا يعلم حتى أحدث له علماً فعلم . فإن قال : لله علم ، وليس مخلوقاً . ولا محدثاً : رجع عن قوله كله . وقال بقول أهل السنة .

باب بيان ما ذكر الله فى القرآن « وهو معكم »

وهذا على وجوه . قال الله جل ثناؤه لموسى (٢٠ : ٤٦ إننى معكما) يقول : فى الدفع عنكما . وقال (٩ : ٤٠ ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لاتحزن . إن الله معنا) يقول : يعنى فى الدفع عنا . وقال (٢ : ٢٤٩ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين) يقول : فى النصر لهم على عدوهم . وقال (٤٧ : ٣٥ فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون ، والله معكم) فى النصر لكم على عدوكم . وقال (٤ : ١٠٨ ولا يستخفون من الله وهو معهم) يقول : بعلمه فيهم . وقال (٢٦ : ٦١ ، ٦٢ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا ، إن معى ربى سيهدين) يقول : فى العون على فرعون .

فلما ظهرت الحجة على الجهمى بما ادعى على الله : أنه مع خلقه . قال : هو فى كل شيء ، غير مماس لشيء ، ولا مباين . فلم يحسن الجواب . فقال : بلا كيف . فخدع جهال الناس بهذه الكلمة . وموّه عليهم .

فقلنا له : أليس إذا كان يوم القيامة ، إنما هو الجنة والنار ، والعرش والهواء ؟ قال : بلى .

فقلنا : أين يكون ربنا ؟ فقال : يكون فى كل شيء ، كما كان حينما كان فى الدنيا فى كل شيء .

فقلنا : فإن فى مذهبكم : أن ما كان من الله على العرش : فهو على العرش . وما كان من الله فى الجنة فهو فى الجنة . وما كان من الله فى النار فهو فى النار . وما كان من الله فى الهواء فهو فى الهواء . فعند ذلك تبين كذبهم على الله جل ثناؤه.

وزعمت الجهمية أن « الله » فى القرآن إنما هو اسم مخلوق .

فقلنا : قبل أن يخلق هذا الاسم ما كان اسمه ؟ قالوا : لم يكن له اسم . فقلنا : وكذلك قبل أن يخلق العلم كان جاهلا لا يعلم . حتى خلق لنفسه علماً . وكان لا نور له حتى خلق لنفسه نوراً . وكان لا قدرة حتى خلق لنفسه قدرة ؟ .

فعلم الخبيث أن الله قد فضحه ، وأبدى عورته حين زعم أن « الله » فى القرآن إنما هو اسم مخلوق .

وقلنا للجهمية : لو أن رجلا حلف بالله الذى لا إله إلا هو كاذباً كان لا يحنث لأنه كان حلفه بشىء مخلوق . ولم يحلف بالخالق .

ففضحه الله فى هذه ، وقلنا له : أليس النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء من بعدهم والحكام والقضاة إنما كانوا يحلفون الناس بالله الذى لا إله إلا هو . فكانوا فى مذهبكم مخطئين ؟ إنما كان ينبغى للنبى عليه السلام ولمن بعده فى مذهبكم : أن يحلفوا بالذى اسمه الله . و إذا أرادوا أن يقولوا لا إله إلا الله ، يقولوا : لا إله إلا الذى خلق الله . و إلا لم يصح توحيدهم .

ففضحه الله بما ادعى على الله الكذب . ولكن نقول : إن الله هو الله . وليس الله باسم ، إنما الأسماء شىء سوى الله ، لأن الله لم يتكلم ، فبأى شىء خلق الخلق ؟ أموجود عن الله أنه خلق الخلق بقوله و بكلامه ؟ .

وحين قال (١٦ : ٤٠ إنما قولنا لشىء إذا أردناه ، أن نقول له : كن فيكون) فقالوا : إنما معناه قولنا : إذا أردناه يكون .

فقلنا لهم : فلم أخفيتم «أن نقول له ؟» فقالوا : إنما معنى كل شىء فى القرآن : معانيه . وقال الله مثل قول العرب . قال الحائط . وقال النخلة . فسقطت .

فالجهمية لا يقولون بشىء .

فقلنا : على هذا أفتيتم ؟ قالوا : نعم . فقلنا : فبأى شىء خلق الخلق إن كان الله فى مذهبكم لا يتكلم ؟ فقالوا : بقدرته . فقلنا : هى شىء ؟ فقالوا : نعم . فقلنا : قدرته مع الأشياء المخلوقة ؟ قالوا : نعم . فقلنا : كأنه خلق خلقاً بخلق . وعارضتم

القرآن وخالفتموه ، حين قال الله جل ثناؤه (٤٠ : ٦٢ خالق كل شيء) فأخبرنا الله أنه يخلق . وقال (٣٥ : ٣ هل من خالق غير الله ؟) فإنه ليس أحد يخلق غيره . وزعمتم أن الذى خلق الخلق غيره . فتعالى الله عما يقول الجهمية علواً كبيراً .

باب
بيان ما ادعت الجهمية : أن القرآن مخلوق

من الأحاديث التى رويت أن « القرآن يجيء فى صورة الشاب الشاحب . فيأتى صاحبَه ، فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذى أظمأتُ نهارك ، وأسهرت ليلك . قال : فيأتى به الله ـ فيقول : يارب الخ » .

فادعوا أن القرآن مخلوق من قبل هذه الأحاديث .

فقلنا لهم : القرآن لايجيء إلا بمعنى أنه قد جاء « من قرأ (قل هو الله أحد) فله كذا وكذا » ألا ترون أن من قرأ (قل هو الله أحـد) لا تجيئه ، بل يجيء ثوابه . لأنا نقرأ القرآن . فيقـول « يا رب » و يجيء ثواب القرآن . وكلام الله لا يجيء . ولا يتغير من حال إلى حال . و إنما معنى أن القرآن يجيء : إنما يجيء ثواب القرآن . فيقول : يا رب الخ .

باب ما تأولت الجهمية من قول الله تعالى
(هو الأول والآخر)

فزعموا : أن الله هو الأول قبل الخلق . فقد صدقوا ، وقالوا : يكون الآخر بعد الخلق . فلا يبقى شيء ، ولا أرض ولا جنة ولا نار ، ولا ثواب ولا عقـاب ، ولا عرش ولا كرسى . وزعموا أن شيئاً مع الله لا يكون هو الآخر كما كان . فأضلوا بهذا بشراً كثيرا .

وقلنا : أخبر الله عن الجنة ودوام أهلها فيها . فقال (٩ : ٢١ لهم فيها نعيم مقيم) فإذا قال الله جل وجهه « مقيم » وقال (٩ : ٢٢ خالدين فيهـا أبدا) وقال

(١٣ : ٣٥ أُكُلها دائم وظلها فإذا قال الله « دائم » لا ينقطع أبدا . وقال (١٥ : ٤٨ وما هم منها بمخرجين) وقال (٤٠ : ٣٩ وإن الآخرة هي دار القرار) وقال (٢٩ : ٦٤ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) وقال (١٨ : ٣ ما كثين فيها أبدا) وقال (٣ : ١٠٧ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون) وقال (٥٦ : ٣٢ ، ٣٣ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة) ومثله فى القرآن كثير . وذكر أهل النار فقال (٣٥ : ٣٦ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) وقال (٢٩ : ٢٣ أولئك يئسوا من رحمتى) وقال (٧ : ٤٩ لا ينالهم الله برحمة) وقال (٤٣ : ٧٧ ونادوا : يا مالك ليقض علينا ربك) وقال (٩٨ : ٦ خالدين فيها أولئك هم شر البرية) وقال (٤ : ٥٦ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها) وقال (٣٢ : ٢٠ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وقال (١٠٤ : ٨ إنها عليهم مؤصدة) ومثله فى القرآن كثير . فأما السماء والأرض : فقد زالتا . لأن أهلهما صاروا إلى الجنة والنار. وأما العرش : فلا يبيد ولا يذهب . لأنه سقف الجنة . والله عليه . فلا يهلك ولا يبيد .

وأما قوله (٢٨ : ٨٨ كل شيء هالك إلا وجهه) فذلك أن الله أنزل (٥٥ : ٢٦ كل من عليها فان) فقالت الملائكة : هلك أهل الأرض . وطمعوا فى البقاء . فأنزل الله : أنه يخبر عن أهل السموات والأرض : إنكم تموتون . فقال : كل شيء من الحيوان هالك . يعنى ميت إلا وجهه . فإنه حى لا يموت . فأيقنوا عند ذلك بالموت .

* * *

وقلنا للجهمية ــ حين زعموا أن الله فى كل مكان ــ لا يخلو منه مكان .

فقلنا : أخبرونا عن قوله جل ثناؤه (٧ : ١٤٣ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) لم تجلى للجبل ، إن كان فيه بزعمهم ؟ فلو كان فيه ــ كما يزعمون ــ لم يكن

يتجلى لشيء هو فيه . ولـكن الله ـ جل ثناؤه ـ على العرش . وتجلى ، ولم يكن فيه ، ورأى الجبلُ شيئاً لم يكن رآه قبل ذلك .

وقلنا للجهمي : الله نور ؟ فقال : هو نور كله . فقلنا : فالله قال (٣٩ : ٦٩ وأشرقت الأرض بنور ربها) فقد أخبر الله جل ثناؤه : أن له نورا .

فقلنا : أخبرونا ـ حين زعمتم أن الله فى كل مكان . وهو نور ـ فلم لا يضىء البيت المظلم من النور الذى هو فيه . إذ زعمتم أن الله فى كل مكان ؟ وما بال السراج إذا دخل البيت يضىء ؟ .

فعند ذلك تبين للناس كذبهم على الله .

فرحم الله من عقل عن الله . ورجع عن القول الذى يخالف الـكتاب والسنة ، وقال بقول العلماء . وهو قول المهاجرين والأنصار . وترك دين جهم وشيعته .

والحمد لله رب العالمين . هذا آخره .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

فرغ منه ناسخه الحميدى بن عبد العزيز الرديعان عشية الثلاثاء يوم ١٦ من ذى الحجة سنة ١٣٤٦ هـ .

وجد بآخر النسخة المنقول عنها مانصه :

بما فيه من غلط أو شطب وهى النسخة الوحيدة بالمـكتبة المحمودية بالمدينة المنورة .

بلغ مقابلة نهـار الأربعاء الذى هو الثلاثين من شهر عاشوراء سنة ١٢٣٣ من الهجرة النبوية على مهاجرها أفضل الصـلاة والتسليم على يد الفقير إلى الله عبد المحسن بن أحمد بن فارس . غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين .

كتاب

السُّنة

لإمام أهل السنة والجماعة الإمام

أحمد بن حنبل

رحمه الله تعالى ورضى عنه

أخبرنا الشيخان المسندان المعمران : القاضى نظام الدين عمر ابن إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلى ، وزين الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الحنبلى ـ مشافهة من الأول ، ومكاتبة من الثانى ـ قالا .

أخبرنا الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد بن المحب المقدسى ـ إجازة إن لم يكن سماعا .

أخبرنا الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن أحمد بن تمام بن حسان الصالحى البكرى ـ بقراءتى عليه ـ ليلة الأحد سابع عشرى رمضان سنة ٧٣٨ بالجامع المظفرى .

ح . وأخبرنا المحدث تاج الدين محمد بن الحافظ بن الندى المنفلى ـ فى كتابه ـ أخبرنا المسند أبو عبد الله محمد بن إسماعيل العبادى ـ إجازة إن لم يكن سماعا ـ قالا .

أخبرنا الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الدائم . قال ابن تمام : قراءة عليه وأنا أسمع فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة ٨٢٢ . وقال الآخر : إجازة إن لم يكن حضوراً .

أخبرنا الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسى سنة ٥٧٣

أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى الأصبهانى ـ بقراءتى عليه ـ فى ذى الحجة سنة ٥٢٩

وقال ابن عبد الدائم أيضاً : أخبرنا السلفى إذنا عاما ، أخبرنا أبو محمد عبد الملك بن الحسن بن علي بن نسبه الأنصارى ـ بمكة .

أخبرنا أبو عبد الله الحسن بن على النسوى الفقيه ـ قدم علينا مكة .

أخبرنا أبو محمد . . . بن إسماعيل بن راجى بن معبد بن عبد الله العسقلانى ـ بعسقلان ـ أخبرنى أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن .

أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن أبى شيخ الرافعى بن الحسن بن موسى العبادى بن أحمد بن وهب القرشى قال : قال أحمد بن حنبل رضى الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه مذاهب أهل العلم ، وأصحاب الأثر ، وأهل السنة ، المتمسكين بعروتها ، المعروفين بها ، المقتدَى بهم فيها ، من لدن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا . وأدركت من أدركت ـ من علماء الحجاز والشام وغيرهما ـ عليها .

فمن خالف شيئا من هذه المذاهب . أو طعن فيها ، أو عاب قائلها . فهو مخالف مبتدع ، وخارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السنة ، وسبيل الحق .

فكان قولهم :

إن الإيمان قول وعمل ونية . وتمسك بالسنة .والإيمان يزيد و ينقص . و يُستثنى فى الإيمان ، من غير أن يكون لشك . إنما هو سنة ماضية عن العلماء .

فإذا سئل الرجل : مؤمن أنت ؟ فإنه يقول : أنا مؤمن إن شاء الله . ومؤمن أرجو ، أو يقول : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله .

ومن زعم أن الإيمان قول بلا عمل . فهو مرجىء .

ومن زعم أن الإيمان هو القول ، والأعمال فشرائع : فهو مرجىء .

ومن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص : فقد قال بقول المرجئة .

ومن أنكر الاستثناء فى الإيمان : فهو مرجىء . ومن زعم أن إيمانه كإيمان جبريل والملائكة فهو جهمى .

والقدر خيره وشره ، وقليله وكثيره ، وظاهره و باطنه ، وحلوه ومره ، ومحبو به ومكروهه ، وحسنه وسيئه ، وأوّله وآخره .

والله عز وجل قضى قضاءه على عباده . لا يجاوزون قضاءه ، بل هم كلهم صائرون إلى ماخلقهم له ، واقعون فيما قَدَّر عليهم لامحالة . وهو عدل منه عز وجل والزنا والسرقة ، وشرب الخمر ، وقتل النفس ، وأكل المال الحرام ، والشرك

بالله عز وجل ، والذنوب والمعاصى : كلها بقضـاء وقدر من الله عز وجل ، من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة . بل لله عز وجل الحجة البالغة على خلقه . لايسأل عَمَّا يفعل . وهم يسألون .

وعلم الله عز وجل ماضٍ فى خلقه بمشيئة منه . قد علم من إبليس ومن غيره ممن عصاه ـ من لدن عصاه إبليس إلى أن تقوم الساعة ـ المعصية . وخلقهم لها . وعلم الطاعة من أهل الطاعة . وخلقهم لها . فـكل يعمل بما خلق له ، وصائر إلى ما قضى الله عليه منه . لم يَعْدُ أحد منهم قَدَر الله عز وجل ومشيئته . والله الفعال لما يريد .

ومن زعم أن الله عز وجل شـاء لعباده الذين عصوا الخير والطاعة ، وأن العباد شاءوا لأنفسهم الشر والمعصية . يعملون على مشيئتهم . فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئة الله عز وجل . فأىُّ افتراء على الله أكبر من هذا ؟

ومن زعم أن الزنا ليس بقدر ، قيل له : أرأيت هذه المرأة حملت من الزنا ، وجاءت بولد . هل شـاء الله عز وجل أن يخلق هذا الولد ؟ وهل مضى هذا فى سابق علمه ؟ فإن قال : لا . فقد زعم أن مع الله تعـالى خالقا . وهذا هو الشرك صريحاً .

ومن زعم أن السرقة وشرب الخمر ، وأكل المال الحرام : ليس بقضاء : فقد زعم : أن هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره . وهذا يضارع قول المجوسية . بل كلٌّ رزقه الله . وقضى الله عز وجل أن يأكله من الوجه الذى أكله .

ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عز وجل : فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله . وأى كفر أوضح من هذا ؟ بل كان ذلك بقضاء الله عز وجل وقدره . وكل ذلك بمشيئته فى خلقه ، وتدبيره فيهم ، وما جرى من سابق علمه فيهم . وهو العدل الحق الذى يفعل مايريد .

ومن أقر بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة .

ولا نشهد على أحد من أهل القبلة : أنه فى النار لذنب عمله ، ولا بكبيرة أتاها ، إلا أن يكون فى ذلك حديث . فنروى الحديث كما جاء على ما روى . نصدق به . ونعلم أنه كما جاء . ولا تنقض الشهادة .

والخلافة فى قريش مابقى من الناس اثنان . ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها . ولا يخرج عليهم ، ولا نقر لغيرهم بها إلى قيام الساعة .

والجهاد ماض ، قائم مع الإمام ، بَرًّا أو فاجراً . ولا يبطله جور جائر ، ولا عدل عادل .

والجمعة والحج والعيدان : مع الأئمة ، وإن لم يكونوا بررة عدولا أتقياء .

ودفع الصدقات والأعشار والخراج والفىء ، والغنائم : إلى الأمراء ، عدلوا فيها أو جاروا . والانقياد لمن ولاه الله عز وجل أمركم لا تنزع يداً من طاعته . ولاتخرج عليه بسيفك . يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً ، ولاتخرج على السلطان ، بل تسمع وتطيع

فإن أمرك السلطان بأمر — هو لله عز وجل معصية — فليس لك أن تطيعه . وليس لك أن تخرج عليه . ولا تمنعه حقه ، ولا تعن على فتنة بيد ولا لسان ، بل كفف يدك ولسانك ، وهواك . والله عز وجل المعين .

والكف عن أهل القبلة . ولا نكفر أحداً منهم بذنب . ولا نخرجهم عن الإسلام بعمل ، إلا أن يكون فى ذلك حديث فيروى كما جاء . وكما روى . ونصدقه ونقبله . ونعلم أنه كما روى نحو : ترك الصلاة وشرب الخمر . وما أشبه ذلك ، أو يبتدع بدعة ينسب صاحبها إلى الكفر والخروج عن الإسلام .

فاتبع الأثرَ فى ذلك ولا تجاوزه .

ولا أحب الصلاة خلف أهل البدع . ولا الصلاة على من مات منهم .

والأعور الدجال خارج لاشك فى ذلك ولاارتياب . وهو أكذب الكذابين

وعذاب القبر حق . يُسْأل العبد عن دينه ، وعن ربه ؟ ويرى مقعده من النار

والجنة . ومنكر ونكير[1] حق . وهما فتانا القبور . نسأل الله عز وجل الثبات .

وحوض النبي صلى الله عليه وسلم حق ، ترده أمته . وله آنية يشربون بها منه .

والصراط حق يوضع على شفير جهنم . ويمر الناس عليه . والجنة من وراء ذلك نسأل الله عز وجل السلامة فى الجواز .

والميزان حق . توزن به الحسنات والسيئات . كما شاء أن توزن .

والصور حق . ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام فيموت الخلق . ثم ينفخ فيه أخرى فيقومون لرب العالمين عز وجل للحساب والقصاص ، والثواب والعقاب .

والجنة والنار واللوح المحفوظ حق . تستنسخ منه أعمال العباد مما سبقت فيه من المقادير والقضاء .

والقلم حق . كتب الله به مقادير كل شىء وأحصاه فى الذكر تبارك وتعالى .

والشفاعة حق يوم القيامة . يشفع قوم فى قوم فلايصيرون إلى النار . ويخرج قوم من النار بعد ما دخلوها بشفاعة الشافعين . ويخرج قوم من النار برحمة الله عز وجل بعد مالبثوا فيها ما شاء الله عز وجل ، وقوم يخلدون فيها أبداً . وهم أهل الشرك والتكذيب والجحود ، والكفر بالله عز وجل .

ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنة والنار .

وقد خلقت النار وما فيها . وخلقت الجنة وما فيها . خلقهما الله عز وجل . ثم خلق الخلق لهما . لا يفنيان ، ولا يفنى مافيهما أبداً .

فإن احتج مبتدع بقوله (٢٨ : ٨٨ كل شىء هالك إلا وجهه) ونحو هذا من متشابه القرآن .

قيل له : كل شىء مما كتب الله عز وجل عليه الفناء والهلاك هالك . والجنة والنار خلقهما الله عز وجل للبقاء لا للفناء ولا للهلاك . وهما من الآخرة لا من الدنيا .

---

(١) هل فى اسميهما حديث صحيح ؟

والحور العين : لا يمتن عند قيـام الساعة ، ولا عند النفخة أبدا . لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء لا للفناء . ولم يكتب عليهن الفناء ولا الموت . فمن قال خلاف ذلك : فهو مبتدع .

وخلق الله سبع سموات ، بعضها فوق بعض ، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض . و بين الأرض العليا والسماء الدنيا خمسمائة عام . و بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام . والماء فوق السماء السابعة . وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق الماء . والله عز وجل على العرش . وهو يعلم ما فى السموات السبع والأرضـين السبع . و بينهما وما تحت الثرى ، وما فى قعر البحار ومنبت كل شعرة ، وكل شجرة ، وكل زرعة ، وكل نبت ، ومسقط كل ورقة ، وعدد ذلك ، وعدد الحصا والرمل والتراب ، ومثاقيل الجبال ، وأعمال العباد وآثارهم ، وكلامهم وأنفاسهم . و يعلم كل شىء . لا يخفى عليه شىء من ذلك . وهو على العرش . فوق السماء السابعة . وعنده حجب من نار ونور وظلمة وماء . وهو أعلم بها .

فإن احتج مبتدع أو مخالف بقوله تعالى (٥٠ : ١٦ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أو بقوله عز وجل (٥٧ : ٤ وهو معكم أينما كنتم) أو بقوله تعالى (٥٨: ٧ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) ونحو هذا من متشابه القرآن .

قيل : إنما يعنى بذلك العلم . لأن الله تبارك وتعالى على العرش فوق السماء السابعة العليا . يعلم ذلك كله . وهو تعالى بائن من خلقه ، لا يخلو من علمه مكان ، والله تعالى على العرش . وللعرش حملة يحملونه . والله عز وجل على عرشه .

والله تعالى سميع لا يشك ، بصير لا يرتاب ، عليم لا يجهل ، جواد لا يبخل ، حليم لا يعجل ، حفيظ لا ينسى ، يقظان[1] لا يسهو ، قريب لا يغفل . يتكلم و يسمع و ينظر ، و يبصر و يضحك ، و يفرح و يحب ، و يكره و يبغض ، و يرضى

---

(١) لم ترد هذه الكلمة فى الكتاب ولا السنة . ولعل الأولى أن يقال « لا تأخذه سنة ولا نوم »

ويغضب ويسخط، ويرحم ويعفو، ويعطى ويمنع، وينزل تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف يشاء (٤٢: ١١ ليس كمثله شيء. وهو السميع البصير) وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرب عز وجل، يقلبها كيف يشاء، ويوعيها ما أراد.

وخلق الله عز وجل آدم عليه السلام بيده، والسموات والأرض يوم القيامة فى كفه. ويخرج قوماً من النار بيده. وينظر أهل الجنة إلى وجهه. ويرونه فيكرمهم ويتجلى لهم فيعطيهم. ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين. ويتولى حسابهم بنفسه، لا يولى ذلك غيره عز وجل.

والقرآن كلام الله، ليس بمخلوق. فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمى كافر.

ومن زعم أن القرآن كلام الله عز وجل ووقف، ولم يقل: مخلوق ولا غير مخلوق: فهو أخبث من الأول. ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة، والقرآن كلام الله: فهو جهمى. ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم.

وكلم الله موسى تكليما، من الله سمع موسى يقينا. وناوله التوراة من يده. ولم يزل الله متكلما عالما. تبارك الله أحسن الخالقين.

والرؤيا من الله عز وجل حق. إذا رأى صاحبها شيئاً فى منامه يقصها على عالم. وقد كانت الرؤيا من الأنبياء وحياً.

* * *

ومن السنة: ذكر محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم أجمعين. والكف عن الذى شَجَر بينهم. فمن سَبَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو واحداً منهم، فهو مبتدع رافضى. حُبهم سنة. والدعاء لهم قربة. والاقتداء بهم وسيلة. والأخذ بآثارهم فضيلة.

وخير هذه الأمة ـ بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ـ: أبو بكر. وخيرهم ـ بعد أبى بكر ـ عمر. وخيرهم ـ بعد عمر ـ عثمان. وخيرهم ـ بعد عثمان ـ على. رضوان الله عليهم. خلفاء راشدون مهديون. ثم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، بعد

هؤلاء الأربعة . لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساويهم . ولايطعن على أحد منهم . فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته . ليس له أن يعفو عنه ، بل يعاقبه ثم يستتيبه . فإن تاب قَبِل منه . وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة . وجلده فى المجلس حتى يتوب ، ويراجع .

ونعرف للعرب حقها وفضلها ، وسابقتها . ونحبهم بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم « سب العرب نفاق . وبغضهم نفاق » .

ومن حرم المكاسب والتجارة وطلب الرزق من وجهه : فقد جهل وأخطأ وخالف ، بل المكاسب من وجهها حلال . قد أحلها الله عز وجل ورسوله . والرجل ينبغى له أن يستعين على نفسه وعياله من فضل ربه تبارك وتعالى . فإن كان لا يرى الكسب فهو مخالف .

وكل واحد أحق بماله : الذى ورثه ، أو استفاده ، أو أصابه ، أو كسبه .

لا كما يقول المتكلفون المخالفون ، وأصحاب البدع والمرجئة . وهم الذين يزعمون : أن الإيمان مجرد النطق باللسان ، وأن الناس لا يتفاضلون فى الإيمان . وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ واحد . وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص . وأن الإيمان ليس فيه استثناء . وأن من آمن بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن حقاً .

هذا كله قول المرجئة . وهو أخبث الأقاويل .

و « القدرية » فهم الذين يزعمون : أن الاستطاعة والمشيئة والقدرة لهم . وأنهم يملكون لأنفسهم الخير والشر ، والضر والنفع ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة بَدْءا ، من غير أن يكون قد سبق لهم ذلك من الله عز وجل ، أو فى علم الله عز وجل . وقولهم يضارع قول المجوسية والنصرانية .

و « المعتزلة » الذين يقولون قول القدرية . ويكذبون بعذاب القبر والحوض .

ولا يرون الصلاة خلف أحد من أهل القبلة والجمعة ، إلا من كان على هواهم . ويزعمون أن أعمال العباد ليست فى اللوح المحفوظ .

و «النصيرية» وهم قدرية . وهم أصحاب الحبة والقيراط والدانق . يزعمون أن من أخذ حبة أو دانقاً أو قيرطاً حراماً فهو كافر . وقولهم يضاهىء قول الخوارج .

و « الجهمية » وهم أعداء الله . فهم الذين يزعمون أن القرآن مخلوق . وأن الله عز وجل لم يكلم موسى . وأن الله عز وجل لم يتكلم . وأنه عز وجل لا يُرى . ويقولون : ليس لله عز وجل عرش ولا كرسى . وكلاماً كثيراً . أكره حكايته . وهم كفار .

و « الواقفية » وهم الذين يزعمون أن القرآن كلام الله عز وجل . ولا يقولون غير مخلوق . وهم شر الأصناف وأخبثها .

و « اللفظية » وهم الذين يزعمون أن القرآن كلام الله عز وجل . ولكن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة . وهم جهمية .

و « الرافضة » وهم الذين يتبرؤن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسبونهم . ويكفرون الأئمة الأربعة ــ أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلياً ــ وعماراً أيضاً ، والمقداد ، وسلمان رضى الله عنهم .

و « المنصورية » وهم رافضة ، أخبث الروافض . وهم الذين يقولون : أخطأ جبريل بالرسالة .

و « السَّبَئِيَّة » وهم رافضة قريب ممن ذكرت .

وصنف منهم يقولون : علىٌّ فى السحاب . وعلىٌّ يبعث قبل يوم القيامة .

و « الرشدية » وهم الذين يتبرؤن من عثمان وطلحة والزبير ، وعائشة رضوان الله عليهم . ويرون القتال مع كل خارج من ولد على رضى الله عنه .

و « الخشبية » وهم الذين يقولون بقول الزيدية والشيعة .

وأما «الخوارج» فمرقوا من الدين . وفارقوا الملة . وشذوا عن الإسلام . وسلوا السيف على الأمة . واستحلوا دماءهم . وكفروا من خالفهم ، إلا من قال بقولهم .

وثبت معهم فى دار ضلالتهم . ولا يؤمنون بعذاب القبر . ولا يرون الحوض والشفاعة . ولا خروج أحد من النار . ويقولون : من كذب كذبة ، أو أتى صغيرة ، أو كبيرة من الذنوب . ثم مات عليها : فهو فى النار خالداً مخلداً أبداً . وهم يقولون بقول النصيرية فى الحبة والقيراط .

وهم قدرية مرجئة جهمية رافضة . لا يرون الجماعة إلا خلف إمامهم . وهم يرون تأخير الصلاة عن وقتها . ويرون الصوم قبل رؤية الهلال . والفطر قبل رؤيته

وهم يرون النكاح من غير ولى ولا سلطان . ويرون المتعة . ويرون الدرهم بالدرهمين يداً بيد حلالاً . ولا يرون الصلاة فى الخفاف ، ولا يرون المسح عليها . ولا يرون لقريش خلافة . ولا لهم فى الإسلام شىء .

ومن أسماء الخوارج « الحرورية » وهم أهل حروراء .

و « الأزارقة » وهم أصحاب نافع بن الأزرق .

و « النجدية » وهم أصحاب نَجْدة بن عامر .

و « الإباضية » وهم أصحاب عبد الله بن إباض .

و « الغربية » وهم أصحاب داود بن النعمان .

و « الخرمية » والمشبهة : وهم خارجون عن الملة .

وأصحاب الرأى وهم مبتدعة ضلال ، أعداء السنة والأثر . يبطلون الحديث .

* * *

وقد أحدث أهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء شنيعة قبيحة ، يسمون بها أهل السنة يريدون بذلك الطعن عليهم ، والإزراء بهم عند السفهاء والجهال .

فأما المرجئة : فيسمون أهل السنة « شُكاكا » .

وأما القدرية : فيسمون أهل السنة « مجبرة » .

وأما الرافضة : فيسمون أهل السنة « ناصبة » .

وأما الخوارج : فيسمون أهل السنة « نابتة وحشوية » .

رحم الله عبداً قال الحق واتبع الأثر وتمسك بالسنة .

الصلاة

لإمام أهل السنة والجماعة

احمد بن حنبل

رحمه الله تعالى ورضي عنه

مقدمة

الصلاة

حقيقتها . ومعناها . وأسرارها . وثمراتها

بقلم

الفقير إلى عفو الله ورحمته

محمد حامد الفقي

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد و إياك نستعين . أهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط . لاإله إلا هو العزيز الحكيم) وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن خير خلق الله ، وأهداهم إليه سبيلا ، وأرفعهم عنده درجة : محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

و بعد . فإن « الصلاة » رأس الإسلام وعموده ، وهى الصلة بين العبد العارف لعبوديته ، الناصح لنفسه ، و بين ربه الذى يربيه ، ويربى جميع العالمين بنعمه وفضله . وهى آية محبة العبد لربه ، وتقديره لنعمه ، وشكره لفضله و إحسانه .

ودليل ذلك : بديهى ، يجده المؤمن المصلى الخاشع المخبت من نفسه .

فضلا عما جاء فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة الثابتة المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وَسلم .

فإنها المنحة التى منحها الله حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ــ ليلة الوصل الأعظم ــ بين الرب الحبيب و بين العبد الحبيب ، مكافأة له على ما قام به من العبودية الصادقة للربوبية ، بما لم يسبقه إليه سابق ، ولن يلحقه فيه لاحق .

فكانت الصلةَ والمنحةَ الكريمة ، التى تفضل الله بها على عبده ورسوله « الصلاة » لذلك كانت قُرَّةَ عين الرسول صلى الله عليه وسلم . و إليها كان يفزع كلما حَزَبه أمر ، يناجى فيها حبيبه . ويشكو إليه ، فيستجيب له : يفرج كربه ، و ييسر أمره ، و يشرح صدره .

وكانت راحة نفسه من كل ما أهمها . فكان يقول « يابلال أرحنا بالصلاة» وروى مسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« يقول الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني و بين عبدى نصفين . ولعبدى ماسأل

يقول العبد : الحمد لله رب العالمين . يقول الله : حمدنى عبدى .

يقول العبد : الرحمن الرحيم . يقول الله : أثنى علىّ عبدى .

يقول العبد : مالك يوم الدين . يقول الله : مجَّدنى عبدى .

يقول العبد : إياك نعبد و إياك نستعين . يقول الله : هذا بيني و بين عبدى ، ولعبدى ما سأل .

يقول العبد : اهـدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . يقول الله : هذا لعبدى ، ولعبدى ماسأل » .

* * *

والصلاة ـ وحبها وانتظارها والمسارعة إليها ، وأداؤها على أكمل الوجوه وأتمها ظاهراً و باطناً ـ هى الآية الصادقة على قَدْر مافى القلب من حب الله والشوق إلى لقائه . والإعراضُ عنها ، والتكاسل والتباطؤ عن تلبية داعيها ، والتثاقلُ فى القيام إليها ، والحرص على تعجيل الفراغ منها ونَقْرِها : آية فراغ القلب ـ حتما ـ من حب الله ، بل وانشغاله بكرهه ، وحب غيره ممـا أقامه الشيطان فيه من طواغيت وآلهة باطلة . ولن يكون ذلك إلا عند من غلبت عليهم الجاهلية الجهلاء ، والتقاليد العمياء ، وز ينها لهم شياطين الإنس والجن . وسماها لهم : ديناً ، و إسلاما .

ولا يشك مؤمن صادق الإيمان بالله وآياته ، وسننه الـكونية ، وأسمائه وصفاته ، وكتبه ورسله : أن تارك الصلاة كافر مشرك ، مكذب بحق الله ووعده ، ولقائه وحسابه وجزائه . قد قطع كل صلة له بالإسـلام العلمى والعمل والقلبى . وهدم مايتلفظ به من « لا إله إلا الله » فهو محارب لر به . كاره له ، هارب منه ، لذلك يجد التعب والشقاء ، والعناء فى الوقوف بين يديه ، وفى مناجاته ، و يجد المتعة وراحة القلب ، والسرور فى الوقوف مع طواغيته ، ومناجاة آلهته من دون الله . فإنه لم يهتَمَّ بفهم « لا إله إلا الله » ومعرفة ماتنفيه وتثبته ، وما تدعو إلى الـكفر به ،

والبراءة منه ، و إلى الإيمان به و إخلاص العبادة له : هدمها بأقواله وعقائده وأعماله .

فإنه لو عقل لعرف أن «لا إله إلا الله» مركبة من جزأين « لا إله » و « إلا الله » ولكل منهما معنى . ومعناهما مجتمعاً يؤدى معنى . فمعنى الجزء الأول : أعاهد أن أكفر بكل طاغوت ومألوه ، وأبرأ منه ، وأعمل جاهداً على أن أنظف قلبي من كل خبائثه الجاهلية الطاغوتية ـ بعد أن أعرفها حق المعرفة ـ ليكون أهلا أن يعرف و يفقه و يتحلى بشرف الجزء الثانى ، و يتشرف بأن يدين صادقا مخلصاً به . وهو « إلا الله » الذى معناه : أُخلصُ عبادتى بجميع معانيها ومقتضياتها ـ علماً وعقيدة وعملا ـ لله ربى وحده . على ماتقتضيه وتأمر به « شهادة أن محمداً رسول الله » وهو : أنى أعاهد أن لا أعبد الله بالآراء والأهواء والتقاليد للآباء والشيوخ والجمهور والرؤساء ولا بما أحدثوا من الآراء والأهواء والبدع ، ولكنى أقف فى سيرى فى كل خطوة فى كل شأن من شئون حياتى ، وفى حقوق ربى وعبادته : مع ما أحب وشرع ، وأرسل به محمداً صلى الله عليه وسلم .

* * *

ورأس العبادة وأهمها «الصلاة» فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها أضيع ، وانقطعت كل صلة له بالله ، كما قال الإمام الراشد ، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فيما كتب لعماله « واعلموا أن أهم أمركم عندى : الصلاة . فمن ضيعها فهو لغيرها أضيع . واعلموا : أن لله عملا بالليل لايقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل » فمن ضيع الصلاة فلن يكون عابداً لله ، بل يكون مستكبراً متمرداً على الله . فهدم « لا إله إلا الله » ونقضها . فلن يغنى عنه ذلك اللَّوْكُ وترديد الحروف ، مع الجهالة والعمى والصمم عن فهم المعنى ـ شيئا .

وذلك المعنى : هو الذى عَناه الله بقوله (٢ : ٢٥٦ فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله : فقد استمسك بالعروة الوثقى) فإن « من يكفر بالطاغوت » يقابل «لا إله» و « يؤمن بالله » يقابل « إلا الله » وكذلك قول إبراهيم (٢٦ : ٧٦ ،

٧٧ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فإنهم عدوٌّ لى ، إلا رب العالمين) فإن قوله « فإنهم عدو لى » يقابل « لا إله » وقوله « إلا رب العالمين » يقابل « إلا الله » و يزيد قولُ إبراهيم عليه السلام شرحاً لمعنى البراءة والعداوة فى «لاإله» قول إبراهيم فى الآية الأخرى (٤٣ : ٢٦ ، ٢٧ إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى ، فإنه سيهدين) وهكذا قول كل رسول بعثه الله لهداية البشر ، و إنقاذهم من ظلم أنفسهم وامتهانها وتحقيرها : بعبادة مخلوق مصنوع مثلهم . بل الذى سخرها الله لهم ، وعبادة الله بغير ماشرع وأحب .

* * *

ولقد ضربت الجاهلية العمياء على قلوب الناس نطاقاً من الظلمات ـ حين ظلموا أنفسهم بالانسلاخ من آيات ربهم ، فى سمعهم وأبصارهم وعقولهم ، وآياته فى الآفاق ، وهدايته الفطرية والعلمية ـ فزين لهم شياطين الإنس والجن : التقليد الأعمى للآباء والشيوخ فى دينهم ، الذى هو غذاء قلوبهم ، وعليه تقوم سعادتهم ـ إن كان دين الحق ـ أو شقاؤهم : إن كان دين الباطل ، دين الوراثة والتقليد الأعمى ، على غير هدى ولا بصيرة . فذهبوا ـ بهذا التقليد الأعمى ـ كالأنعام ، بل أضل سبيلا . يخبطون فى هذه الظلمات الجاهلية بما أوهمهم أولئك الشياطين : أنه دين و إسلام ، و إنما هو ـ لو تنبهوا وعقلوا ـ مشاقة لله ولرسوله واتباع لغير سبيل المؤمنين ، وأوحال من الأباطيل الخرافية ، وحُثالاتِ الأهواء والظنون الكاذبة ، يتمرغون فيها ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . فقاموا فى الصلاة عمياً و بكماً وصماً ، لا يعقلون ولا يفهمون ، فلم يكن لها فى أنفسهم أثر ، ولم تغن عنهم من سوء عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم شيئاً . إذ لم يفتح الله لهم بابه ، ولم ينظر إليهم نظر رحمة ولا قبول ، لأنهم قاموا إليه كالأنعام غافلين ، وكلموه غير واعين ولا عاقلين ، وقلوبهم مليئة بأقذار وخبائث الطواغيت : من الأحبار والرهبان ،

ومن المال والبنين ، والأهواء والشهوات . فلم يكونوا ـ بتلك الأرجاس ـ أهلا أن يذوقوا حلاوة مناجاة الله ، ولا أهلا أن يتجلى عليهم برحمته ورضوانه و يدخلوا فى حضرة قدسه .

ثم سَوَّل لهم الشيطان فى ظلمات جاهليتهم هذه ، وأوهمهم : أنهم يقدمون لله ما ينتظره منهم . فظنوا به ـ سبحانه ـ ظن السوء ، إذ توهموا فى قلوبهم ـ و إن لم يقولوا بألسنتهم ـ أنه بحاجة محتاج إليهم و إلى أعمالهم ، منتظر لها ، وهى دَيْنٌ له عندهم ، يستكثر بها . سبحانه ، ثم بخلوا بها عليه ، لأنه ـ بزعمهم ـ لم يعطهم من الظروف والأسباب التى تُهوِّن أمر العمل له العبادة عليهم ماأعطى غيرهم . فمنهم من يبخل عليه بها فى أوقاتها . فيجمعها الأيام والسنين ، و يقول لسان حاله لربه : خذ دَينك الذى أنت تنتظره . فالآن فقط فرغت لك . وأكثرهم ـ بل جمهرتهم ـ أعرضت عنه مرة واحدة ، وولَّت ناكصة على عقبيها ، لا تسمع لدعائه ، ولا تستجيب لندائه . لأنه عندهم ليس بالصادق الوعد . ولا الموفى بالعهد .

وكل هذا إنما هو من ثمرات الجاهلية الغارقين فيها ، وظلمات التقليد الأعمى ، وكثرة ما نفث الشيطان فى القلوب من سموم قتالة ، صدتهم عن معرفة الله ، وعن ذكر الله فى سننه وآياته وأسمائه وصفاته . وعن المسارعة إلى توثيق الاتصال به فى جميع الأوقات والحالات .

* * *

وحين تتخلص القلوب من هذه السموم الجاهلية ، وتنقشع عنها غياهب هذا التقليد الأعمى . وتقبل ـ بيقظة الفطرة السليمة ـ على ربها وفاطرها و بارئها الغنى الحميد المجيد ، القوى العزيز ، العليم الحكيم ، الذى أعطى كل شىء خَلْقَه ثم هدى ، والذى خلق الإنسان كله فى أحسن تقويم . ثم هداه كله السبيل : إما شاكراً ، و إما كفوراً .

حينئذ تشرق عليها أنوار هداية الفطرة السليمة ، فتتفكر فى ملكوت

السموات والأرض وما خلق الله من شيء فى نفسها وفى الآفاق . وفيما سخر لها فى السموات والأرض ، وفيما أكرمها به من عقل وسمع و بصر . وفيما أنعم عليها من هدى ونور ورحمة ـ فى كتابه وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ـ عندئذ ، وعندئذ فقط ـ يقبل المصلى إلى ربه وَجِلاً خاضعاً خاشعاً ، مسكيناً ذليلاً ضارعاً ، محاولاً التخلص من كل ما عَوّقه وصده عنه من دين الوراثة الجاهلى . فيعود وقد امتزج بكل ذرة من قلبه ولحمه ودمه : الإيمان الصادق بأنه الرب الكبير المتعال ، الغنى الحميد ، الذى ربى جميع العالمين بنعمه وفضله ، وأن إيمان المؤمن وصالح عمله ، لا يزيد فى ربوبية الرب ، ولا فى ملكه شيئاً ، وأن كفر الكافر وفسوقه وعصيانه ، لا ينقص من ربوبيته ولا من ملكه شيئاً ، وأن من أحسن فإحسانه لنفسه ، ومن أساء فعليها ، وأن كل جانٍ فلا يجنى إلا على نفسه ، ولا يضر إلا هى . ولا يضر اللهَ شيئاً . بل إن كفر الكافر وفسوقه وعصيانه : لن يمنع ربوبية الرب له بجميع خصائصها وصفاتها : من الخلق ، والرزق ، والحياة ، والموت والليل والنهار ، والطعام والشراب والولادة ، وغيرها . ولن يستطيع الكافر الفاسق العاصى ـ ولو اجتمع معه الجن والإنس ـ أن يغير ، أو ينقص شيئاً من عبوديته نفسه وعجزه وضعفه ، وفقره الذاتى اللازم له ولكل عبد .

فالعبد عبد مقهور بقهر الرب رضى العبد أو لم يرض . والرب رب قاهر فوق عباده حكيم خبير ، غالب على كل أمر ، قدير على كل شيء ، بيده الخير كله ، غنى حميد ، رضى العبد أو لم يرض .

* * *

فإذا ما صدق إيمان القلب بهذا : حرص أشد الحرص على توثيق كل صلة ـ خوفا ورجاء ، ورغبة ورهبة ، وذلا وتعظيما وضراعة ـ بربه وحده . واتخذ من كل ما أنعم به عليه ربه سبباً لذلك . وانتظر بفارغ الصبر : دعوة ربه الحى القيوم الرحمن الرحيم ، له إلى الصلاة ، إلى الفلاح ، إلى شرف الوقوف فى حضرة الرب

الأكبر الجليل الملك الوهاب . فأقبل فرحاً مسروراً ، مبادراً إلى انتهاز الفرصة — التى لعلها أن لا تواتيه مرة أخرى — فى هذا الوقت الذى حدده له الرب متفضلا ، ودعاه فيه إليه محسنا (٤ : ١٠٣ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)

فما أسعدها من ساعة ، وما أبركها من فرصة ، وما ألذها من مناجاة . وما أشرحها لصدر المؤمنين بها . وصدق الحبيب الأمين صلى الله عليه وسلم « جُعلت قرة عينى فى الصلاة » .

فما أحوج كل مؤمن أن يتشرف بها ، وينعم برضوانها ، ويغسل عن روحه وقلبه أوضار وأدران مايعافس ويخالط من شهوات المال والأهل والولد فى سلسبيل نهرها ، كما وصى ونصح عبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله « مثل الصلاة كمثل نهر جار على باب أحدكم ، يغتسل فيه فى اليوم والليلة خمس مرات ، فهل يبقى عليه ذلك من دَرَن ؟ » .

* * *

ولما كان شأن الصلاة كذلك ، كانت فى الحقيقة : تشريفاً للعبد المؤمن بمناجاة ربه ، الذى هو أحب إليه من نفسه وماله وولده ، ولن يكون أهلا لهذا الشرف : إلا من عرف الربوبية بأسمائها وصفاتها وحقوقها ، وعرف العبودية وعجزها وضعفها وفقرها المطلق ، وحرص على أن يعطى كل ذى حق حقه كاملا .

لذلك : كان لا بد لها من الطهارة الحسية والمعنوية ، والستر الجسمى والقلبى . وتولية الوجه شطر بيت الله الحرام ، وتلاوة ما تيسر من كلام الله ، والتكبير ، والتسبيح .

فالطهارة : ليكون وجيهاً كريما ، مقدراً شاكراً لما أعطاه وأنعم عليه ربه الكريم . ليفتح له ربه الكريم بابه ، ويوفقه لأسباب القبول والرضى . فيتوضأ ليتطيب ، ويعود وضيئاً وجيهاً بتزكية نفسه وتطييبها من من رواسبها البهيمية التى

تعوقه عن أن يتأهل لمكالمة ومناجاة الله الجليل الطيب العلى العظيم . الذى لا يحب من العباد ولا من الأعمال إلا الطيب الكريم .

ولما كان تغليب جانب البهيمية هو المعوق للعبد عن القرب من ربه ، إذ هو الباب الذى يدخل منه العدو المضل المبين ، ثم يعمل جاهداً على توسيعه بتدسيس العبد فى أعماق الغفلة والنسيان لآيات الله الكونية والعلمية ، ولنعم الله على الإنسان فى إنسانيته ، التى نفخها فيه من روحه وسخرها له من جوله ، ثم يتخذ العدو منه ـ بتمادى الغفلة به ـ مطية إلى الأمانى الكاذبة والغى ، واتباع الهوى والشهوات .

فكان سر الطهارة : هو العمل على اليقظة من هذه الغفلة ، ومحاولة الإثابة والرجوع إلى الإنسانية الكريمة العاقلة المفكرة ، التى نفخها الله من روحه فى الإنسان ، ليكون بها أهلا أن يسعد ، وينعم بعبادة ربه . وحده لا يشرك به شيئاً ، ويعبده بما أحب وشرع ، فيحيي الحياة الطيبة على هدى ، لا يضل فيها ولا يشقى .

* * *

فموجبات الوضوء ـ التى هى الأحداث ـ : هى أجلى مظاهر البهيمية فى البشرية . فإن العبد إنما يسيىء استعمال نعم الله عليه ، ويضعها فى غير موضعها بما يُغلِّب من البهيمية ، على إنسانيته العاقلة المميزة . ولذلك سميت « ذنوباً » مشتقة من الذَّنَب ـ الذى هو من خصائص الحيوان البهيم ـ وهو بهذه الإساءة قد نزل بنفسه ، وأسقطها أن تكون أهلا لشرف الوقوف مع الرب الجليل العظيم ، ومناجاته بكلامه الطيب ، والإنسان خَطَّاء ـ ولا بد ـ وهو لهذا محتاج أشد الاحتياج إلى شرف الوقوف والمناجاة لربه . ليستهديَه ، ويستمد منه المعونة على السداد والقصد فى كل خطواته ، وليطرد عن قلبه أنكاد هذه الإساءات وأدناسها ويحط عن نفسه ما أثقلها من هموم وأحزان هذه الرعونات البهيمية . فجعل الله هذا الحدثَ مذكراً له بما غلب عليه من رعونات وسفاهات الحيوانية ، فيسارع

إلى الوضوء ، أو الغسل ، حريصاً على أن يعود وضيئاً وجيهاً بإنسانيته الطيبة . ذاكراً عند إمرار الماء على كل عضو ، ما وقع فيه من الإساءة والذنوب بهذا العضو ، حريصاً على أن يجمعه إلى نفسه اللوّامة . وأن يرد جماح الحيوانية فيه إلى الفطرة السليمة بالعقل والرشد .

فإذا ما فرغ : أعلن ظَفَره بتجديد الإنابة والرجعة إلى ربه . وجدد إسلاما صحيحاً بريئاً من هذه الإساءات ، التى قذرته ومزقته ، فيقول « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم اجعلنى من التوابين . واجعلنى من المتطهرين » كذلك أوصانا الحبيب : عبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

وشرح ذلك فى الحديث الذى رواه مسلم ومالك والترمذى عن أبى هريرة « إذا توضأ العبد المسلم ــ أو المؤمن ــ فغسل وجهه : خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء ــ أو مع آخر قَطْر الماء ــ فإذا غسل يديه : خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء ــ أو مع آخر قطر الماء ــ فإذا غسل رجليه : خرجت كل خطيئة مَشَتْها رجلاه مع الماء ــ أو مع آخر قطر الماء ــ حتى يخرج نقياً من الذنوب » ففى هذا مايرشد الناس إلى هذا السر الكامن فى الوضوء والغسل لو كانوا يعقلون .

* * *

والماء المطلق : هو أصل الفطرة ، الذى جعل الله منه كل شىء حى . أفلا يتفكرون ؟ فإن لم يتيسر له الماء . عاد إلى الأصل الأول للإنسان ، وهو الصعيد ، وجه الأرض ــ الذى خلق الإنسان منه ــ فضرب بكفيه على الأرض ــ التى هو عليها ــ ومسح وجهه وكفيه . وفى الحديث الصحيح « جُعِلت لى الأرض كلها لي ولأمتى مسجداً وطَهورا . فأيْنَما أدركتْ رجلاً من أمتى الصلاة ، فعنده مسجده ، وعنده طَهوره » .

فإن السلامة كل السلامة : إنما هى فى الرجوع إلى الفطرة التى فطرك الله عليها سميعاً بصيرا عاقلا مفكراً مميزاً . لتعرف نفسك بعجزها وضعفها وفقرها ، وتعرف الإنسان كله كذلك . وتعرف ربك بعظمته وجلاله ونعمه على الإنسانية ، وعدله المطلق ورحمته وحكمته ، وشهوده وقربه ، وأنه ليس كمثله شىء . وهو السميع البصير ، الرءوف الرحيم .

فتعود توَّاباً منيباً إلى ربك بنفس زاكية ، وبصدر سليم . وقلب مُبرَّأ من التقاليد الجاهلية ، والحسد والأحقاد والضغائن الشيطانية . ومن كل ما يقذر النفس ويرين عليها . مما يعميها ويصدها عن السبيل السوى القاصد الذى لا يضل فيه الذاكر لربه ، والحاضر بقلبه ولبه السليم ، اليقظ مع كل حركة وشأن بما تجلى عليه ربه من الأسماء والصفات فيسعد ولا يشقى .

هذا بعض ما ينبغى أن تستحضره روحك ونفسك الإنسانية العاقلة ، من أسرار الطهارة استعداداً لاتصالك ، وتشرفك بمناجاة الله ربك ، وتهيئوا لتحظى بالمنح والعطايا والصلات منه سبحانه .

فيا سعادة من عقل عن ربه ، وشهد بلبه السليم عدله وحكمته ورحمته ، وتجلى عليه نور وهدى أسمائه وصفاته ، فدفعه إلى الاهتداء بهدى رسالاته . إنه من المؤمنين المفلحين الذين هم فى صلاتهم خاشعون .

* * *

أما الستر : فستران . ستر للجسم والقشر الظاهر . وستر للانسانية المعنوية العاقلة ، التى هى قلب العبد ولبه . فستر الجسم الظاهر : بما ميزك الله به عن الحيوان من اللباس ، وجعله زينة الإنسانية . فاعْتَدْتَه من الثياب ، التى أشار إليه ربنا سبحانه بقوله (٧ : ٢٦ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُوارِى سَوْءاتكم) ودعا إليها بقوله (٧ : ٣١ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) .

فالمراد منها : ما تقتضيه الفطرة السليمة الحيَّة ، اليقظة الحييَّة . فالله أولى أن

يستحيي منه . ليس المطلوب التنطع وتكلف خلاف مااعتدت من اللباس الذى تخالط به الناس ، مما اقتضاه حياؤك فى كل ظرف ومكان بما يناسبه . وليست الزينة : مايتخذه المداهنون والمتكلفون لسادتهم وكبرائهم . من تزوير الظاهر وتجميله ، ليخفوا ما فى القلوب من بغضاء وحقد وكراهية . فإن ذلك تأباه الفطرة السليمة ، وتمقته الشريعة الرشيدة .

وينبغى أن تعرف مراد الله ربك من الآية بجمع آيات السياق مع بعضها . فإنما نزل ذلك فى شأن ما كانت قريش شرعت ـ من طريقة شيطانية يبتزون بها الأموال ـ من التعرى وكشف السوءات والفحشاء ، فيطوف الناس بالبيت عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، حيث تقول إحداهن :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منـــه فلا أحله

تشير إلى هنها وقد سترته بيدها . فبدا طرفاه . فعابهم الله أشد العيب ، ومقتهم على ذلك أشد المقت ، وذكَّر الإنسان بمـا أكرمه به وميزه عن الحيوان البهيم ، من الثياب التى أشار إلى كرامتها بأنه « أنزلهـا » وجعلها زينة للإنسان تستر سوأته . فأغراه الشيطان ـ فى ظلمات جاهليته ، واتخاذه الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله ـ ونزع عنه لباسه ليكشف عن سوأته ، ويقبحه صورة ومعنى . وهذا أصل الآية . وهو المراد من الزينة .

فقد روى البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما « أنه وضع ثيابه على المِشْجَب ، وصلى بثوب واحد . فسأله محمد بن المنكدر ؟ فقال : ليرانى أحمق مثلك ، فيعلم أنها السنة » وسأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم « عن الصلاة فى الثوب الواحد ؟ فقال : أوَ لـكلـكم ثوبان ؟ » رواه البخارى ومسلم . وروى البخارى عن عمر بن الخطاب « إذا وسع الله فأوسعوا . جمع رجل عليه ثيابه . صلى فى إزار ورداء ، فى إزار وقميص . فى إزار وقباء ، فى سراويل ورداء ، فى سراويل وقميص ، سراويل وقِباء ، فى تُبان ـ وهو السراويل القصيرة إلى نصف الفخذ ـ وقباء ، فى تُبان وقميص » .

هذا هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه رضى الله عنهم ، وهم أحرص الناس على هُدًى ، وأطهر قلوباً ، وأبعد عن تكلف وأعلم بما ينبغى من الحياء فى الوقوف بين يدى الله . ولم يجىء فى سنة صحيحة : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يتكلف للصلاة خلاف ما يكون عليه ، حافياً أو منتعلا ، ساتر الرأس أو حاسرها . وخير الهدى هديه صلى الله عليه وسلم .

أما الحمقى المتنطعون ، المفسدون لفطرة الله فيهم : فإنهم يقيسون الله سبحانه بالرؤساء الظالمين ، فيتخذون له الوسطاء فى قضاء الحاجات ، وإجابة الرغبات . فهم لذلك يتظاهرون له بمثل ما يتظاهرون لرؤسائهم . فيكون من عادتهم حَسْر الرأس فى كل أوقاتهم ، وهى زينتهم التى ألفوها . فإذا قام أحدهم ليتشبه بالمصلين أو على الأصح ليقلد القرود فى لعبها وعبثها — وهو فى الواقع ليس أهلا للصلاة ، بما أفسد من فطرته ، وبما عمى بالتقليد الجاهلى المظلم عن دين الحق — عصب رأسه فى غير أدب ولا حياء ، بمنديل كالمرأة . وفى الحديث الصحيح « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

* * *

أما الستر المعنوى : فهو أهم من ستر القشر الذى هو الجسد الحيوانى البهيمى بما لا يُقَدَّر ، لو كان الناس يعقلون . وهو المشار إليه فى قوله تعالى (٧:٢٦ ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) فإن القلب أرق إحساساً وأشد تأثراً بالمفسدات والعوارض الأجنبية من تأثر الجسم ، وثياب القلب : إنما تحاك من خيوط التقوى . وتنسج بأيدى العلم الصحيح والفقه فى كتاب الله وسنة رسوله . و « التقوى » أن يعلم ويفهم جيداً : أن ربه قد أقامه فى ميدان جهاد . وجعل له من كل شىء أعطاه فى نفسه ، وفى الآفاق ، ما يتقى به ، ويحذر ما يهلكه ويضره ويشقيه : من الوقوع فى أسر العدو وولايته . فيتروّى ويتثبت فى استعمال كل نعمة ، ليكون فيها على بصيرة وعلم من ربه ، ولتقع فى موضعها ، فيُنصَر

و يَهْزِم عدوه ، و يسلم و يتخلص من كل ما يحاول عدوه أن يفتنه به و يزينه له .

وهذا هو الذى شرعت الطهارة والستر من أجله . وهو الذى ينبغى أن يقصده و يتوجه إليه العبد المؤمن فى صلاته ، ليكون من المفلحين (٢٩ : ٦ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه . إن الله لغنى عن العالمين)

* * *

وأما استقبال البيت الحرام ـ زاده الله شرفا وكرما ـ فلأن الله سبحانه قد جعل هذا البيت المكرم : مركز الدائرة للعالم الإسلامى ، فعنده تلتقى قلوبهم ، و إليه تهوى أفئدتهم . فيكون أعون لهم على التعارف والتفاهم ، والتعاون على البر والتقوى ، الذى من أجله أرسل الله الرسل ، وشرع الشرائع ، ليهديهم إلى ما يختلفون فيه من الحق بإذنه ، و يرجعهم إلى الصراط المستقيم ، ثم يدعوهم هذا التوجه المتكرر كل يوم خمس مرات وأكثر ، و يحفزهم إلى الشوق إلى قصده وحجه ، ليشهدوا منافع لهم فى دنياهم وآخرتهم ، فتتلاقى هناك الأشباح ـ بعد أن تلاقت الأرواح ـ ويتم التفاهم والتعاون فى هذه البقعة المشرفة ـ التى ينبغى أن يعقد المسلمون مؤتمرهم الإسلامى كل عام فيها ـ وقد عمتهم رحمة الله ، وحفتْهم الملائكة ، وصفت قلوبهم ، وزكت نفوسهم بتلك المناسك والمشاعر ، ليعود كل إلى وطنه بخير زاد وأطيبه ، وأقواه فى كل شأنه : السياسى ، والاقتصادى ، والحربى . و بالجملة فى كل أمرهم الدينى والدنيوى ، فيكونون قوة على غيرهم ، و يداً على من سواهم ، وتتحقق لهم بذلك الخلافة فى الأرض (٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى ، لا يشركون بى شيئاً . فمن كفر بعد ذلك . فأولئك هم الفاسقون) .

* * *

فإذا وُفِّقت وهديت فى استعدادك للصلاة وتهيؤك لشرف الوقوف مع الله

ربك ومناجاته إلى ذلك ـ وأسأل الله لى ولك التوفيق ـ قمت إلى الصلاة بقلب حاضر وَجِلٍ ، ونفس يقظة مشتاقة ، ظَمْأى إلى عذب مناجاة ربها . فقمت منتصب القامة . قيام العبد الذليل الخاشع القانت ، الضارع المسكين ، الراجى من الغنى الحميد : أن يمنحه ولا يمنعه . ويسعده ولا يشقيه ، قد حبست كل حسك ومعناك . وكل جوارحك على هذا الموقف الذى أنت أفقر الناس إليه . وأشدهم حاجة إلى الفلاح والربح فيه . قد ألصقت ذقنك بنحرك ، وقيدت نفسك فى الخدمة بوضع يديك على صدرك ، ثم ناديت ربك ، معلناً عن ذُلِّكَ وكبريائه ، وعن ضعفك وعظمته ، مكبراً له على ماهداك « الله أكبر » وأشعرت نفسك ، أنه قد أجابك : هاأنا ياعبدى ، قد أقبلت عليك ، وتوجهت بوجهى الكريم إليك . فتبدأ المناجاة وتستفتح المحادثة مع الحبيب ، الذى هو أحب إليك من نفسك ، والذى بيده لك الخير كله ، وهو على كل شىء قدير ، وقلت بكل تَرَوٍّ وتثبت ، مجتمعاً قلبك مع لسانك فى كل كلمة « اللهم باعد بينى وبين خطاياى ، كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نَقِّنى من خطاياى كما ينَقَّى الثوب الأبيض من الدَّنَس . اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » موقناً أوثق اليقين : بأن خطواتك فيما أنعم الله عليك كانت فى غير موضعها الذى أحبه الله لك ، وفيما أعطاك من أسباب العلم والهدى ماتعرفه ، ولكنك بتسرعك : قد خدعك الشيطان عدوك ، وشَبَّه ولَبَّس عليك فى سيرك العَجِل الطائش الآيات والعلامات . فتركت فى بعضها ـ أو كلها ـ سبيل الرشد ، سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه . واتبعت خطوات الشيطان وحزبه ، فكانت « خطايا » لصقت بك فآذتك ، ورانت على قلبك فحجبته عن أسباب هداه وسعادته ، فأفرحت عدوك ، ومكنته من قيادك . فأنت مشرف على أشد الهلاك ، إن لم يتداركك ربك القوى العزيز الرحمن الرحيم ، فيباعد بينك وبينها ، ويغسل أوضارها عنك بأطيب غِسْل وأطهره الذى شبهته بالماء والثلج والبرد ، وليس أطيب غِسْل وأطهره عند ربك لغسل

تلك الأدران عن قلبك ونفسك إلا آياته البينات ـ التي تهدى إلى التي هى أقوم ـ وكتابه الكريم ، الذى يزيد قلوب المؤمنين به ، المتفقهين فيه ، الواردين حوضهم العذب ظماء فوجدوا فيه شفاء وغذاء ورِيًّا وطُهراً ، وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذى بعثه فى الأميين يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

فإذا ماسألت ربك هذه المسألة ، واستفتحت مناجاته بهذه الضراعة : تمثل لك عدوك ، محاولا أن يصرفك عن ربك إلى خطواته الْمُزِلَّة ـ مع أهلك ومالك وولدك ـ فبادرت اللجأ إلى الله العظيم ، والاستعاذة به من ذلك العدو الرجيم : من هَمْزه ونفخه ونفثه . فشعرت بقلبك ، ووجدانك اليقظ الحى : أن ربك قد استجاب لك ، وأنك قد أوتيت من المدد والمعونة الربانية الجديدة : ماتغلبت به على ذلك العدو ، فخلصت نفسك ، وذهبت بكلك متوجهاً إلى ربك ، فقرأت مستعيناً بأسماء ربك وصفاته ، التى تناسب موقفك وحاجتك ، وشكايتك ، وبدأت « الحمد لله رب العالمين » الثناء الجميل كله الذى يليق بربى مما يعلمه ولا أعلمه ، لربى الذى يربينى ، كما يربى جميع العالمين ، بنعمه وتدبيره ، الذى كله جميل وحسن ، فلله الأسماء الحسنى ، وهل يكون ممن أسماؤه كله حسنى وجميلة : إلا كل خير ، وحسن ، وجميل ؟ وكيف لا يكون كذلك ؟ وهو إنما يتجلى علىَّ ويربينى ويربى جميع العالمين بصفتى « الرحمن الرحيم » وهو الذى يقدر على ذلك وحده ، والكل عبد له ، يربيه ويعطيه ويدبره ، وهو يريد للعبد : أن يربو ويسمو ، وينمو بكل مايعطيه ، وبكل مايدبره به ، فهو « مالك يوم الدين » وبيده وحده الجزاء . لا يظلم مثقال ذرة . وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لَدُنْهُ أجراً عظيما . وهل يعقل أن يكون مالك الآخرة بجزائها وحسابها ، ودرجات جناتها ، ودركات نارها ، ولا يكون مالكَ الدنيا بمن فيها وما فيها ؟ محال . فهو مالك الأولى لأنه رب جميع من فيها يربيهم وحده بنعمه ، وآلائه وتدبيره . لذلك ،

فإنى أجدد معه عهداً أسأله المعونة على الوفاء به « إياك نعبدو إياك نستعين » لن يُعظِّمَ قلبي أكبر تعظيم ، ويحب أجلَّ المحبة ، ولن يقدس ، ولن يخاف ، ولن يرجو ، ولن يسأل ، ولن يدعو فى ذلة وضراعة ، ولن يؤله : إلا أنت ، يا من تربينى وتربى جميع العالمين بنعمك ، ولن أستعين فى كل أمر من دينى ودنياى إلا بك وحدك . فالكل مثلى عبيد ضعفاء ، فقراء مخلوقون . وأنت الرب الغنى الحميد فأنت الأول وأنت الآخر . فما من شىء يصل إلَيَّ من أحد إلا وأنت الأول فيه . والبادىء به . وما من جزاء . وما من غاية إلا وينبغى أن تكون أنت فى قلبي الآخر والمرجع . فإليك المصير فى كل أمر وعمل وشىء . وأنت مقلب القلوب ، والقاهر فوق عباده . « اهدنى الصراط المستقيم » فى كل شأنى ، وفى كل خطوة من خطواتى ، أَنِرْ بصيرتى بهدى الفطرة ، وهدى الرسالة ، وأدم شمس تلك الهداية مشرقة على قلبي ومن حولى ، وفى سمعى وفى بصرى ، وفى مخى وعصبى وروحى ، حتى آخذ كل شأنى فى حياتى على بصيرة وعلم . ولأكون دائماً على استقامة وقصد ، لا التواء ولا اعوجاج ولاضلال ، فى قولى وعملى وعقيدتى وحالى ومدخلى ومخرجى ، لأسعد فلا أشقى ، وثبتنى فى كل خطوة حتى يكون سبيلى دائماً (صراط الذين أنعمت عليهم) فأحْظَى برفقة أحبابك المخلصين . من النبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين ، وآنس بصحبة أُولئك الأخيار ، وأكون بذلك الأنس والنعمة يقظا حريصاً على معرفة طريق المغضوب عليهم ولا الضالين . فأتجنبه وأحذره . فلا يستطيع الشيطان أن يخدعنى ويزينه لى باسم آباء ولا شيوخ ، ولا هوى نفس ولا شهوة بهيمية ، وإن خدعنى مرة أكون سريع الإنابة والإثابة إلى رشدى ، والعودة إلى هدى الصراط المستقيم .

* * *

فإذا ماصدقت فى هذه المناجاة ، وكنت حاضر القلب ، يقظ النفس شهيداً : سمعتْ روحُك ــ وقد عَرَجتْ فوق السموات العلى ــ استجابة ربك لك ،

وشهدت من عذوبة كلام الله ، وحلاوة خطابه ، ما جنت من خيرات ثمرات أمّ الـكتاب : ما يدفعك إلى أن تطيل المناجاة والمـكالمة ، فتتلو من القرآن ما تطمئن به نفسك ، وينشرح له صدرك ، ويستنير به قلبك ، مما يعدد عليك فيه ربك من نعمه التي يربيك بها . وما يشرع لك من شرائع وما يوجهك به إلى الحياة الطيبة الآمنة ، ومايقص عليك من أخبار رسله وأتباعهم المهتدين . وما أنعم عليهم ربهم من الهدى وأعطاهم من عز الدنيا والآخرة . وفرحهما ، ومن أخبار أعدائه وأعداء رسله ؛ وما أذاقهم من شديد عقابه ونـكاله مما كانوا له أهلا ، وما ظلمهم الله شيئاً . ومما وصف به نفسه من أسماء تبعث فى القلب أعظم الحب والثقة ، والتوكل على من هذه أسماؤه وصفاته ، وتدعو إلى أوثق الركون إليه وحده . ومن أخبار الآخرة وما أعد فيها من جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن نار وقودها الناس والحجارة .

وأنت ـ فى كل ذلك ـ حاضر شاهد مشرف على أعداء الله وأعداء رسله ، باحث فى نفسك وعقيدتك وأخلاقك وأعمالك . هل فيك شيء من صفاتهم وأعمالهم ، يجعلك من هؤلاء الظالمين لأنفسهم ـ فلعلك واجد ، وما إخالك إلا واجداً ، ولعلك تجد كثيراً ـ فأسرع بتخليص نفسك ، والفزع إلى ربك : أن يبعدك عنهم بإمدادك بالعلم النافع ، والهدى ، وتقوية إنسانيتك الـكريمة العاقلة المميزة ، حتى تستطيع أن تكون من المخلَصين ، المخلِصين ، وكن حاضراً شاهداً ، مع أولياء الله من المرسلين ، والذين اتبعوهم بإحسان . وفتش فى نفسك أين أنت من عقيدتهم الصافية ، وأخلاقهم السامية ، وأعمالهم الصالحة ؟ فإنك واجد ـ ولا بد ـ تقصيراً ، وتقصيراً كثيراً . فأسرع بالفزع إلى ربك أن يمدك بمدد من النور ، والعلم الصحيح والهدى ، وقوة اليقين ، وصدق القصد ، ونصح النية ، ونور البصيرة : أن تـكون معهم بعقيدتك وأخلاقك وأعمالك . وإنك واجد كل ذلك

هيناً سهلاً ميسراً ، فقد قدَّمْت « إياك نعبد و إياك نستعين » فسيعينك الرحمن الرحيم بما يجعل هذا سهلا عليك يسيراً .

و إنك حينئذ ستجد أن نعم الله الـكونية والعلمية ، وهدايته لك بالفطرة فيما أعطاك ، وهدايته لك بما شرح له صـدرك من هداية ونور كلامه العزيز ، وآياته البينات ، وما تفضل به عليك من المعية له ولرسله ، والصديقين من عباده — ستجد أن كل ذلك من النعم : قد أثقل ظهرك فناءَ بحمله ، فخررت مكبراً ر بك ، مصغراً نفسك ، راكعاً لر بك الذى مَنَّ وتفضل عليك بكل هذه الخيرات ، بدون مقابل منك له أصلا . فما أنت إلا عَدَم وعُدْم . فذهب قلبك ولسانك يسبح بحمد ر بك واسمه العظيم ، و يَسْبَحُ مع تلك النعم فى بحر من التأملات والتفـكرات ، سابحاً فى بحر الفتن التى تتلاطم بك أمواجها ، محاولا الوصول إلى بر السلامة والعافية منها منزهاً هذا الرب العظيم الذى تفضل فبدأك بالإحسان والجميل . وأعطاك كل خير وجميل . فسبحانه أن يكون منه شر أو إساءة . فما الشر والإساءة إلا من نفسك لنفسك . فسبحانه سبحانه . فشعرت — بوجدانك الحى ، وروحك الصاعدة السامية فوق هذه الدنيا بتلاطم فتنها — : أنك قد أعطاك ر بك نعما جديدة . إذ سمع تسبيحك بحمده . فخليق بك . أن ترجع فتحمد الله من جديد . فقمت قائلا « سمع الله لمن حمده » فاسمع يا كبير ، ياجليل ، ياحميد ، حمدى الجديد الذى أثنى عليك به ، بعد شهودى لما أثقل ظهرى من نعمك وفضلك ، واقبله . فإنى أشهد جميلك فى كل شىء . بما أرى وأحِسُّ من آثار أسمائك الحسنى الواضحة فى كل شىء . فإنها تنادى بأن لك وحدك الثناء الحسن الجميل . لا أحصى — ولن يحصى أحد — ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك « ر بنا ولك الحمد ، ملءَ السموات وملءَ الأرض ، وملءَ مابينهما ، وملءَ ماشئت من شىءٍ بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد — وكلنا لك عبد — لا مانع لمـا أعطيت ، ولا معطى لمـا منعت ، ولا ينفع ذَا الْجَدِّ منكَ الجد » .

فشهدتْ روحك العارجة إلى حظائر القدس : أن ربك قد تفضل فأكرمك ، وسمع حمدك وثناءك وذكرك له . فذكرك فى الملأ الأعلى ، وأنه قد تقرب منك شبراً وذراعاً وباعاً ، حين تقربت إليه . فإذا بالحمل — من الفضل والنعم — يزداد على ظهرك ثقلاً ، فخررت ساجداً لربك ، ونزلت بأعلى مقامات العبودية بهذا السجود ، الذى هو منتهى الاستسلام والتجرد من كل شئ ، والذل والركون إلى الله المعطى لكل خير . فذهبت تمجده . وهو العلى العظيم . وتَسْبَحُ مع نعمه وآلائه ، وتسبحه . فشهدت أنه قد فتح لك من خزائن فضله ماأطمعك فى المسألة ، وأغراك بالإلحاف فى المسألة ، والطلب والاستجداء لدينك ودنياك وآخرتك ، وأهلك وعشيرتك المؤمنين . وذكرت قول أيوب عليه السلام — وقد أمطر الله عليه أرجال الجراد ذهباً . فأخذ يحثو فى ثوبه . فقال الله له « ألم أكن أغنيتك يا أيوب عن هذا ؟ قال : يارب ، ولكن لاغنى لى عن فضلك » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . فإذا دعا فقَمِنٌ أن يستجاب له » .

ثم تقوم من سجدتك ، فتستغفر ربك من عظيم تقصيرك فى جنبه ، وفى جنب ماغمرك به من العطايا ، ثم تعود ساجداً كذلك لتستدرك مافاتك فى السجدة الأولى . وهكذا ، حتى إذا جلست على رأس الركعتين ، أو فى ختام صلاتك ، ومناجاتك : قدمت لربك مايليق به من التحيات الطيبات ، والصلوات الزاكيات المباركات . وسلمت على نبيك الكريم ، الذى هو إمامك وقدوتك ، وعلى يديه المباركتين ، ولسانه الطاهر الطُّهْر كله ، وقلبه الزاكى السليم كل السلامة : جاءك هذا الخير ، وأفيضت عليك هذه النعم ، وقد تحمَّل — صلى الله عليه وآله وسلم — فى أدائها وإيصالها إليك ما لايصبر عليه مئات مثلك . ثم سلمت على نفسك وإخوانك من عباد الله الصالحين . ثم انتهزت الفرصة وجددت إسلامك بالشهادتين . مقرراً لنفسك أن بحاجة إلى معرفة وفقه مايدعوانك إليه من إخلاص

العبادة لله ربك ، وإخلاص الاتباع والاقتداء بمن اختاره لك ربك إماما .

ثم طلبت من ربك أن يمنح ذلك الإمام العبد الكريم والرسول الحبيب الخاتم صلى الله عليه وسلم ، وعلى إبراهيم إمام الموحدين وآلهما ـ مع رجاء أن تكون من آلهما ـ : من المنح والصلات والعطايا ما يقدر عليه الله ، ولا تقدر أنت عليه . فإن ما جاءك به من الهدى والدين الذى أخرجك الله به من الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى سعادة الأولى والأخرى : لا يكافئه منك ـ ولا من أهل الأرض كلهم شئ ـ ولا يكافئه إلا عطاء ربك ، ومنحه وصِلاته الكريمة . فإنه الغنى الحميدى .

ثم أخذت تسأل ربك من كل ماتحتاج لدنياك وآخرتك ولأهلك وولدك والمؤمنين والمؤمنات وأنت فى كل صلاتك ومناجاتك غائب عن هذا الوجود الدنيوى الفانى بشهودك لمناجاة الرب الكبير المتعال وقربه . حاضر بروحك مشهد التجلى الأعظم ، والوصل الأكرم الذى كان لإمامك وحبيبك خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، والذى أكرمك الله باتباعه . وتفضل عليك فوفقك لتحرى الاقتداء به فأكرمك بهذه الصلة الكريمة ورفعك إلى هذا الملأ الأعلى .

فإذا ماتم لك ذلك عدت إلى هذا الوجود بما حملت من منح وصلات وعطايا ، فتبدؤه بالتحية « السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله » كشأن كل من يحضر إلى مجلس كان غائباً عنهم . فإنه يحييهم بالسلام .

ومما يدلك على أن المصلى ينبغى أن يكون غائباً بروحه وإنسانيته الكريمة العاقلة عن هذا الوجود : أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل البقعة التى يقوم فيها المصلى بالنسبة إليه خاصة ، كأنها ليست من هذه الأرض . وسمى المار فيها شيطاناً . وأمر بمقاتلته . وقال « لو يعلم أحدكم ماذا عليه ، لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يدى المصلى » .

* * *

فإذا ما عدت من هذه المناجاة الـكريمة : عدت تحاسب نفسك : هل قمت فى موقفك بواجب العبودية صادقا خالصاً كاملاً ، كما ينبغى للرب الذى شرفك وأكرمك ؟ فإذا بك تجدك ظالماً لنفسك ، مقصراً تقصـيراً كبيراً مع ربك . فاسغفرته ، وكررت الاستغفار ، تشعر نفسك تقصيرها فى حق نفسها ، وتطلب من ربك أن يمدك ـ من العلم والهدى والبصيرة واليقظة ـ : بما يستر نقائصك الحيوانية ، ويجعل لانسانيتك الـكريمة العاقلة ، من الحياة والقوة والبصيرة ماتتحكم به فى هذه الحيوانية ، حتى تـكون لها مطية مذللة إلى ما يحب لك ربك ويرضى فى كل شأنك ، لا فى الصلاة وحدها .

وهذه هى المنحة والصلة ، والصلاة التى قد جعل ربك لها مواعيد محددة بالليل والنهار . وأكد عليك بأشد التأكيد : أن تحرص على الاتصال بربك فى هذه الأوقات . لأنها وجبات من الغذاء الروحى ، وجرعات من الدواء الشافى ، أنت بأشد الحاجة إليها فى هـذه المواقيت المجددة ، لما يصيبك فى اضطرابك فى شئون حياتك من فتن . إن لم تتداركها باللجوء إلى ربك فى هذه الأوقات وإلا تغلبت على لبك فأفسدته . وطغا عليك الجهل والهوى البهيمى فـكنت من الهالـكين .

وتجاوز عن الوضوء والغسل والتيمم والثياب ، واستقبال القبلة ، وعن القيام والقعود ، تجاوز عن كل هذا لمن لا يقدر عليه ولا يستطيعه ، ولم يتجـاوز عن الـكتاب الموقوت ، والميعاد المحدد ، حتى فى وقت المسـايفة ، وبذل النفس فى سبيله وابتغاء مرضاته . ذلك : لأن العبد محتاج إلى ربه فى كل حال ، بل هو أحوج إليه فى أوقات المرض والشدائد . فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

هذا هو لب الصلاة وروحها ، وحقيقتها ، وهذه هى الصلة التى وعد الله عليها الفلاح وسعادة الدنيا والآخرة لمن أعطاها حقها ، وأعطى نفسه منها حقا . وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر .

فياطول حسرة من ضيع هذا اللب ، وتنطع فى الحرص على القشور والظواهر وما أعظم خيبة أولئك الذين غفلوا أشد الغفلة عن الصلاة ، وعن حقيقتها . فحرموا ثمراتها الطيبة ، وخيراتها المباركة التى تزكو بها النفوس ، وتسمو بها الأرواح ، وتسلم بها القلوب ، وتكرُم بها الأخلاق ، ويصلح بها الفرد والمجتمع . فيجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، ويتجملون بالإحسان فى الانتفاع بكل ما أنعم عليهم ربهم ، ويتخلقون بالطيبات : من البر والعدل ، والإحسان ، وإيتاء كل ذى حق حقه ، والبعد عن كل فاحشة ومنكر .

* * *

هذا ماأردت أن أقدم به لرسالة الإمام المبجل أحمد بن حنبل ــ رضى الله عنه ــ فى « الصلاة » وقد جعل الله فيها هدى لى ورشدا ، بل كانت سبب هدايتى ، واستقامتى على الصراط السوى . فجزى الله الإمام أحمد خير الجزاء .

قصدت أن أبث بعض ما فى نفسى لإخوانى المسلمين ، راجياً بكل قلبى : أن يوفقنى الله وإياهم للانتفاع به ، وبوصية الإمام أحمد رحمه الله وغفر لنا وله . وأن ينتبهوا من غفلتهم ، ويستيقظوا من رقدتهم ، التى طالت ــ وطالت كثيراً ــ بما خَدَّرهم ويخدرهم به شياطين الإنس والجن من التقاليد الجاهلية العمياء ، والخرافات والشهوات ، والآراء والأهواء . فيثوبوا إلى رشدهم ، ويعاودوا الرجعة السريعة ــ فى صدق عزيمة ، وشدة حاجة ، وعلم وبصيرة ــ إلى ربهم مخلصين له الدين ، وإلى الإسلام الصحيح ، الذى جاءنا به عبد الله ورسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم . الذى كانت آخر وصية له « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى : كتابَ الله وسنتى » وقد حفظه الله ــ من فضله ورحمته ــ من كل تبديل وتغيير . فلا يزال كتاب الله غضاً طرياً ، كما نزل به جبريل الأمين ، على قلب الرسول الصادق الأمين . يناديكم الله به وإليه ، كما نادى الأولين (١٠ : ٧٥ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور .

وهدى ورحمة للمؤمنين) (٧ : ٣ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) فلقد استجاب الأولون صادقين ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . والذى أعطاهم ذلك هو ربهم وربكم ، فاستجيبوا له كما استجابوا يعطكم الله كما أعطاهم ، ويهدكم كما أسعدهم (٨ : ٢٤ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . وأنه إليه تحشرون) (٣ : ١٧٣ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

* * *

هذا . وقد حققت رسالة الصلاة على المطبوعات المختلفة منها . وكلها متقاربة .

وعلى خطية الطبقات الكبرى فى تراجم علماء الحنابلة ، لابن أبى يعلى . وراجعت الأحاديث على أصولها جهد الطاقة .

وقد ضممت إليها نبذة فى العقيدة للإمام أحمد رحمه الله وغفر لنا وله ، رجاء النفع بها والاستفادة منها .

هدانى الله وإياكم صراطه المستقيم . وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله محمد وعلى آله أجمعين . وجعلنى وإياكم من آله وحزبه المفلحين .

القاهرة فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٧٥ هـ

وكتبه فقير عفو الله ورحمته

محمد حامد الفقى

قال القاضي أبو الحسين محمد ، بن القاضي أبي يعلى محمد ، بن الحسين الفراء . المتوفى سنة ٥٢٦ في طبقات الحنابلة في ترجمة مسدد بن مسرهد بن مسر بل .

أنبأنا على بن البسرى عن ابن بطة حدثنى على بن أحمد المقرى المراغى ـ بالمراغة ـ حدثنا محمد بن جعفر بن محمد السونديني حدثنا على بن محمد بن موسى الحافظ ـ المعروف بابن المعدل ـ حدثنا أحمد بن محمد التميمي الزرندى قال :

لما أشكل على مسدد بن مُسَرْهَد بن مُسَرْبل أمر الفتنة ، وما وقع الناس فيه من الاختلاف في القدَر ، والرفض ، والاعتزال ، وخلق القرآن ، والإرجاء : كتب إلى أحمد بن حنبل : اكتب إليَّ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما ورد كتابه على أحمد بن محمد : بكى . وقال : إنا لله و إنا إليه راجعون . يزعم هذا البصرى : أنه قد أنفق على العلم مالا عظيما ، وهو لا يهتدى إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم كتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل فى كل زمان بقايا من أهل العلم يدعون من ضلَّ إلى الهدى ، و ينهونه عن الردى ، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى ، و بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجهالة والردى . فكم من قتيل لإبليس قد أحْيوه . وكم من ضال تائه قد هدوه . فما أحسن أثارهم على الناس ، وما أقبح آثار الناس عليهم . ينفون عن دين الله عز وجل تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الضالين : الذين عقدوا ألوية البدع ، وأطلقوا عنان الفتنة . يقولون على الله ، وفى الله ــ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ــ وفى كتابه : بغير علم . فنعوذ بالله من كل فتنة مضلة . وصلى الله على محمد .

أما بعد ، وفقنا الله و إياكم لما فيه طاعته ، وجنبنا و إياكم مافيه سخطه . واستعملنا و إياكم فى عمل العارفين به ، الخائفين منه . إنه المسئول ذلك .

أوصيكم ونفسى بتقوى الله العظيم ، ولزوم السنة . فقد علمتم ماحل بمن خالفها . وما جاء فيمن اتبعها .

بلغنا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله عز وجل ليدخل العبد الجنة بالسنة يتمسك بها » .

فآمركم أن لا تؤثروا على القرآن شيئاً . فإنه كلام الله عز وجل .

وما تكلم الله به فليس بمخلوق . وما أخبر به عن القرون الماضية فغير مخلوق وما فى اللوح المحفوظ ، وما فى المصاحف ، وتلاوة الناس ، وكيفما قرئ ، وكيفما يوصف : فهو كلام الله غير مخلوق . فمن قال : مخلوق ، فهو كافر بالله العظيم . ومن لم يكفره فهو كافر .

ثم من بعد كتاب الله : سنة النبى صلى الله عليه وسلم والحديث عنه ، وعن المهديين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

والتصديق بما جاءت به الرسل ، واتباع سنة النجاة . وهى التى نقلها أهل العلم كابرا عن كابر .

واحذروا رأى جَهْم . فإنه صاحب رأى وكلام وخصومات . فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم : أن الجهمية افترقت ثلاث فرق .

فقالت طائفة منهم : القرآن كلام الله مخلوق . وقالت طائفة : القرآن كلام الله وسكتت . وهى الواقفة الملعونة . وقال بعضهم : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة .

فكل هؤلاء جهمية كفار ، يستتابون . فإن تابوا و إلا قتلوا .

وأجمع من أدركنا من أهل العلم : أن مَنْ هذه مقالَتُه ـ إن لم يتب ـ لم يناكح ، ولا يجوز قضاؤه . ولا تؤكل ذبيحته .

والإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص . زيادته : إذا أحسنتَ ، ونقصانه : إذا أسأت . ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام ، ولا يخرجه من الإسلام شىء إلا الشرك بالله العظيم ، أو بردِّ فريضة من فرائض الله عز وجل جاحداً لها . فإن تركها كسلا أو تهاوناً كان فى مشيئة الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه .

وأما المعتزلة الملعونة : فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم : أنهم يُكَفِّرون بالذنب . ومن كان منهم كذلك فقد زعم أن آدم كان كافراً . وأن إخوة يوسف ـ حين كذَّبوا أباهم[١] يعقوب ـ كانوا كفاراً .

وأجمعت المعتزلة : أن من سرق حبة : فهو كافر ، تبين منه امرأته ، ويستأنف الحج إن كان حج .

فهؤلاء الذين يقولون بهذه المقالة كفار ، لايناكحون ، ولا تقبل شهادتهم .

وأما الرافضة : فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم : أنهم قالوا : إن على بن أبى طالب أفضل من أبى بكر الصديق[٢] ، وأن إسلام علىٍّ كان أقدم من إسلام

---

(١) كذا فى الأصول . والصواب « كذبوا على أبيهم » . « إذ قالوا أكله الذئب »

(٢) أن الدارس لكتب الشيعة يتبين له : أن الجمعية الباطنية التى تألفت من فلول الفرس واليهود لكيد المسلمين ، والقضاء على دولتهم التى أدال الله لها من دولة =

أبي بكر . فمن زعم أن على بن أبي طالب أفضل من أبي بكر فقد رد الكتاب والسنة ، لقول الله عز وجل (٤٨ : ٢٩ محمد رسول الله والذين معه[1]) فقدم الله أبا بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ولكن الله قد اتخذ صاحبكم خليلا . ولا نبيَّ بعدى » فمن زعم أن إسلام علىٍّ أقدم من إسلام أبي بكر : فقد كذب . لأن أول من أسلم : عبد الله بن عثمان عتيق ، أبو بكر ابن أبي قحافة . وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة . وعلىٌّ ابنُ سبع سنين . لم تجر عليه الأحكام والفرائض والحدود .

ونؤمن بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، وحلوه ومره . وأن الله خلق الجنة قبل الخلق . وخلق لها أهلا . ونعيمها دائم . ومن زعم أنه يبيد من الجنة شئ فهو كافر . وخلق النار قبل خلق الخلق . وخلق لها أهلا ، وعذابها دائم .

وأن أهل الجنة يرون ربهم لامحالة . وأن الله يُخرج أقواماً من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم . وأن الله كلم موسى تكليما . واتخذ إبراهيم خليلا .

والصراط حق . والميزان حق . والأنبياء حق . وعيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ، والإيمان بالحوض والشفاعة . والإيمان بمنكر ونكير[2] ، وعذاب القبر .

= الفرس وقضى على آمال اليهود فى إنشاء دولة . فهم لذلك يكرهون أبا بكر وعمر كرهاً شديداً . وكرههم لعمر أشد فقتلوه ـ . لأنهما اللذان أقام بهما أسس الدولة الاسلامية على أنقاض دولتى الفرس والروم. ثم أوحى إليهم الشيطان أن يلبسوا بعض عقائدهم الزردشتية ثوب الاسلام ، ويتخذوا منها رداءاً يعملون من خلفه . فكان اتخاذ «الوصى» وغدير خم وأشباهها ليخدعوا العامة من المسلمين ، وقدخدعوهم .ثم أدخلوا من الشرك والوثنية والانحلال الخلق ما أوهن المسلمين . وكان أمر الله قدراً مقدورا .

(١) على معنى « معه » أى فى الغار ، لكن يعكر عليه لفظ « الذين » الجمع . وبقية الصفات . فإنها عامة فى الصحابة رضى الله عنهم . ولو كان استدل بقول الله تعالى (٩ : ٤٠ إذ أخرجه الذين كفروا ثانى إثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لاتحزن . إن الله معنا) لكان أولى . (٢) لم يأت فى اسمى ملكى السؤال فى القبر حديث يثبت . كما حقق ذلك الإمام ابن القيم وغيره .

والإيمان بملك الموت ، يقبض الأرواح . ثم ترد فى الأجساد فى القبور [1] ، فيُسألون عن الإيمان والتوحيد . والإيمان بالنفخ فى الصور . والصور قَرْن ينفخ فيه إسرافيل .

وأن القبر الذى بالمدينة : قبر رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، معه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن .

والدجال خارج فى هذه الأمة لامحالة . وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقتله بباب لِدّ .

وما أنكرت العلماء من الشبهة فهو منكر . واحذروا البدع كلها .

ولا عين نظرت بعد النبى صلى الله عليه وسلم خيراً من أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ولا عين نظرت بعد أبى بكر خيراً من عمر . ولا عين نظرت بعد عمر خيراً من عثمان ولا عين نظرت بعد عثمان بن عفان خيراً من على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

قال أحمد : هم والله الخلفاء الراشدون المهديون .

وأن نشهد للعشرة بالجنة . وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف الزهرى ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح . ومن شهد النبى صلى الله عليه وسلم له بالجنة : شهدنا له بالجنة .

ورفع اليدين فى الصلاة زيادة فى الحسنات . والجهر بآمين عند قول الإمام (ولا الضالين) والصلاة على من مات من أهل هذه القبلة وحسابهم على الله عز وجل .

والخروج مع كل إمام فى غزوه وحجه . والصلاة خلفهم صلاة الجماعة والجمعة والعيدين .

والكف عن مساوىء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحدثوا بفضائلهم ، وأمسكوا عما شَجَر بينهم .

---

(١) ليس كما كانت فى حياتها الأولى . وإنما هو من شئون الغيب التى لا سبيل إلى معرفتها إلا الخبر الصادق من الله والرسول . فنقف عنده ولا نجاوزه بالقياس عليه .

ولا تشاور أحداً من أهل البدع فى دينك ، ولا ترافقه فى سفرك .

ولا نكاح إلا بولى وخاطب وشاهدى عدل . والمتعة حرام إلى يوم القيامة .
ومن طلق ثلاثاً فى لفظ واحد فقد جهل وحرمت عليه زوجته . ولا تحل له أبداً حتى تنكح زوجاً غيره (١) .

والتكبير على الجنائز أربع . فإن كبر خمساً فكبر معه . قال ابن مسعود « كبر ما كبر إمامك » .

قال أحمد : خالفنى الشافعى ، وقال : إن زاد أربع تكبيرات أعاد الصلاة .
واحتج بأن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشى ، فكبر عليه أربع تكبيرات » .

والمسح على الخفين : للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، وللمقيم يوماً وليلة .

وإذا دخلت المسجد فلا تجلس حتى تركع ركعتين تحية المسجد .

والوتر ركعة . والإقامة فرادى .

أحبوا أهل السنة على ما كان منهم . أماتنا الله وإياكم على السنة والجماعة .
ورزقنا الله وإياكم اتباع العلم . ووفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه .

---

(١) قد حقق شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم ـ رحمهما الله ورضى عنهما ـ : أن الطلاق الذى شرعه الله ، والذى تترتب عليه أحكامه من التحريم : هو أن يطلقها فى طهر لم يمسها فيه : طلقة واحدة ، بقوله : أنت طالق . وأن النصوص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بينة الدلالة على ذلك . وأن هذا هو الذى كان عليه العمل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعهد أبى بكر وصدر من خلافة عمر . وهذا هو الهدى والدين الذى لا ينبغى العدول عنه إلى غيره . كائناً من كان قائله . وأن من أوقع الطلاق بلفظ الثلاث فى كلمة واحدة . أو مجلس واحد : ينوى بها ثلاثاً بائنة . لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره . فهو متخذ دينه هزواً ولعباً . مفتات على الله . ومن زعم من المقلدين غير ذلك فلا دليل معه ، بل الدليل عليه . والله الموفق للصواب .

الصَّلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال القاضى أبو الحسين محمد بن القاضى أبى يعلى محمد بن الحسين الفراء فى « طبقات الحنابلة » فى ترجمة مهنا بن يحيي الشامى .

أخبرنا المبارك ـ قراءة ـ أخبرنا إبراهيم ، أخبرنا أبو عمر ، أخبرنا طيب ، أخبرنا أحمد القطان الهيتى ، حدثنا سهل التسترى ، قال : قرأ علينا مُهنًّا بن يحيي الشامى :

هذا كتاب فى الصلاة ، وعظم خطرها ، وما يلزم الناس من تمامها و إحكامها يحتاج إليه أهل الإسلام ، لما قد شملهم من الاستخفاف بها ، والتضييع لها ، ومسابقة الإمام فيها .

كتبه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ـ رحمه الله ورضى عنه ـ إلى قوم صلى معهم بعض الصلوات . فقال :

أى قوم ، إنى صليت معكم . فرأيت من أهل مسجدكم من سبق الإمام فى الركوع والسجود ، والرفع والخفض . وليس لمن يسابق الإمام صلاة . بذلك جاءت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه رضوان الله عليهم .

جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أما يخاف الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يُحَوِّل الله رأسه رأس حمار ، أو يجعل الله صورته صورة حمار(١) » وفى رواية « صورة كلب(٢) » وذلك لإساءته صلاته . لأنه لا صلاة له . ولو كانت له صلاة لرُجى له الثواب ، ولم يُخف عليه العقاب : أن يحول الله رأسه رأس حمار .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) رواه الطبرانى موقوفا على ابن مسعود . ورواه ابن حبان .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الإمام يركع قبلكم ، ويسجد قبلكم ، ويرفع قبلكم[١] » .

وجاء عن البراء بن عازب قال « كنا خلف النبي صلى الله عليه وسلم . فكان إذا انحط من قيامه للسجود : لا يحنى أحد منا ظهره حتى يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم جبهته على الأرض . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبثون خلفه قياماً حتى يَنْحَطَّ النبي صلى الله عليه وسلم ويكبر ، ويضع جبهته على الأرض ــ وهم قيام ــ ثم يتبعونه[٢] » .

وجاء الحديث عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا « لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستوى قائماً . وإنا لسجود بعد » .

وجاء الحديث عن ابن مسعود « أنه نظر إلى من سبق الإمام . فقال : لا وحدك صليت ، ولا بإمامك اقتديت » .

والذى لم يصلِّ وحده ، ولم يقتد بإمامه : فذلك لا صلاة له .

وجاء الحديث عن ابن عمر « أنه نظر إلى من سبق الإمام . فقال له : لا صليت وحدك ، ولا صليت مع الإمام . ثم ضربه . وأمره أن يعيد الصلاة[٣] » .

ولو كانت له صلاة عند عبد الله بن عمر ما أوجب عليه الإعادة .

وجاء عن حِطَّان بن عبد الله الرَّقاشي أنه قال « صلّى بنا أبو موسى الأشعرى صلاة . فلما كان عند القَعْدة ، قال رجل من القوم : أُقِرَّت الصلاةُ بالبرِّ والزكاة ؟

---

(١) رواه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرى . ونحوه متفق عليه من حديث أبى هريرة . وروى أحمد وأبو داود من حديث أبى هريرة « إنما جعل الامام ليؤتم به . فإذا كبر فكبروا . ولا تكبروا حتى يكبر . وإذا ركع فاركعوا . ولا تركعوا حتى يركع . وإذا سجد فاسجدوا . ولا تسجدوا حتى يسجد » .

(٢) متفق عليه من حديث البراء . ورواه البزار من حديث النعمان بن بشير .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائى

فلما قضى أبو موسى الصلاة وسلم ، انصرف ، فقال : أيكم القائل هذه الكلمات ؟ فأَرَمَّ القوم[1] . ثم سألهم فأرموا . فقال : لعلك ياحِطَّان قلتها ؟ قال : قلت : والله ماقلتها . ولقد خِفْت أن تَبْكَعَنى بها[2] . فقال رجل من القوم : أنا قلتها . ولم أُرِدْ بها إلا الخير . فقال أبو موسى الأشعرى : أما تعلمون كيف تقولون فى صلاتكم ؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا ، فبين لنا سُنَّتنا وما نقول فيها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا صليتم فأقيموا صفوفكم . ثم لْيَؤُمَّكم أحدُكم . فإذا كبر الإمام فكبروا . وإذا قرأ فأنصتوا . وإذا قال (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا : آمين . يُجِبْكم الله . وإذا كبر وركع ، فكبروا واركعوا . فإن الإمام يركع قبلكم . ويرفع قبلكم ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فتلك بتلك ـ وإذا رفع رأسه ، فقال : سمع الله لمن حمده ، فارفعوا رؤوسكم ، وقولوا : اللهم ربنا لك الحمد ، يَسْمَع الله لكم . وإذا كبر وسجد فكبروا واسجدوا . وإذا رفع رأسه وكبر ، فارفعوا رءوسكم وكبروا ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فتلك بتلك ـ وإذا كان فى القعدة فليكن من أول قول أحدكم : التحيات لله ، والصلوات والطيبات ـ حتى تفرغوا من التشهد » .

قول النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كبر فكبروا » معناه : أن تنتظروا الإمام حتى يكبر ، ويفرغ من تكبيره ، وينقطع صوته ، ثم تكبرون بعده .

والناس يغلطون فى هذه الأحاديث ويجهلونها ، مع ماعليه عامتهم من الاستخفاف بالصلاة ، والاستهانة بها . فساعةَ يأخذ الإمام فى التكبير يأخذون

---

(١) « أقرت » أى قرنت بهما ، كما جاء فى رواية «أقرنت» وذلك لأن الصلاة جاء ذكرها فى كتاب الله مقرونا بعمل البر الذى هو جماع الخير والإحسان . و « أرم القوم » أى سكتوا خوفا ومهابة .

(٢) قال النووى فى شرح مسلم (٤ : ١١٩) هو بفتح التاء المثناة فى أوله وإسكان الباء الموحدة : أى تبكتنى وتوبخنى .

معه فى التكبير . وهذا خطأ . لا ينبغى لهم أن يأخذوا فى التكبير حتى يكبر الإمام . ويفرغ من تكبيره ، وينقطع صوته . وهكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كبر الإمام فكبروا » والإمام لا يكون مكبراً حتى يقول « الله أكبر » لأن الإمام لو قال « الله » ثم سكت : لم يكن مكبراً ، حتى يقول « الله أكبر » ثم يكبر الناس بعد قوله « الله أكبر » .

وأخذهم فى التكبير مع الإمام : خطأ ، وترك لقول النبى صلى الله عليه وسلم . لأنك لو قلت : إذا صلى فلان فكلمه ، فإن معناه : أن تنتظره حتى إذا صلى وفرغ من صلاته : كَلِّمْه . وليس معناه : أن تكلمه وهو يصلى . فكذلك معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كبر الإمام فكبروا » وربما طَوَّل الإمام فى التكبير ، وإذا لم يكن له فقه . فالذى يكبر معه : ربما جَزَمَ التكبير[1] ، ففرغ من التكبير قبل أن يفرغ الإمام . فقد صار هذا مكبراً قبل الإمام . ومن كبر قبل الإمام : فليست له صلاة . لأنه دخل فى الصلاة قبل دخول الإمام ، وكبر قبل الإمام . فلا صلاة له .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كبر وركع ، فكبروا واركعوا » معناه : أن ينتظروا الإمام حتى يكبر ويركع ، وينقطع صوته وهم قيام ، ثم يتبعونه .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم « فإذا رفع رأسه وقال : سمع الله لمن حمده . فارفعوا رؤوسكم وقولوا : اللهم ربنا لك الحمد » معناه : أن ينتظروا الإمام ، ويثبتوا رُكَّعاً ، حتى يرفع الإمام رأسه ، ويقول « سمع الله لمن حمده » وينقطع صوته ، وهم ركوع ، ثم يتبعونه ، فيرفعون رؤوسهم ، ويقولون « اللهم ربنا لك الحمد » .

وقوله « إذا كبر وسجد . فكبروا واسجدوا » معناه : أن يكونوا قياماً حتى يكبر ، وينحط للسجود ، ويضع جبهته على الأرض وهم قيام . ثم يتبعونه .

(١) الجزم : القطع . ومعناه هنا : خطف التكبير والإسراع به .

وكذلك جاء عن البراء بن عازب . وهذا كله موافق لقول النبي صلى الله عليه وسلم « الإمام يركع قبلكم ، ويرفع قبلكم » .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم « إذا رفع رأسه وكبر ، فارفعوا رؤوسكم وكبروا » معناه : أن يثبتوا سجوداً حتى يرفع الإمام رأسه ، فيكبر وينقطع صوته ، وهم سجود : ثم اتبعوه ، فرفعوا رءوسهم .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم « فتلك بتلك » يعنى انتظارَكم إياه قياماً ، حتى يكبر ويرفع وأنتم قيام ، ثم تتبعونه . وانتظاركم إياه ركوعاً حتى يرفع رأسه ، ويقول « سمع الله لمن حمده » وأنتم ركوع . فإذا قال « سمع الله لمن حمده » وانقطع صوته ، وأنتم ركوع : اتبعتموه فرفعتم رؤوسكم ، وقلتم « اللهم ربنا لك الحمد » وقوله « فتلك بتلك » فى كل رفع وخفض .

وهذا تمام الصلاة . فاعقلوه ، وأبصروه ، وأحكموه .

واعلموا أن أكثر الناس اليوم مايكون لهم صلاة ، لسبقهم الإمام بالركوع والسجود ، والرفع والخفض .

وقد جاء الحديث قال « يأتى على الناس زمان يصلون ولا يصلون » وقد تخوفت أن يكون هذا الزمان . لو صليت فى مائة مسجد مارأيت أهل مسجد واحد يقيمون الصلاة على ماجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه رحمة الله عليهم فاتقوا الله ، وانظروا فى صلاتكم ، وصلاة من يصلى معكم .

واعلموا أنه لو أن رجلا أحسن الصلاة ، فأتمها وأحكمها ، ثم نظر إلى من أساء فى صلاته وضيَّعَها ، وسبق الإمام فيها : فسكت عنه ، ولم يعلمه إساءته فى صلاته ومسابقته الإمام فيها ، ولم ينهه عن ذلك ، ولم ينصحه : شاركه فى وزرها وعارها . فالمحسن فى صلاته : شريك المسىء فى إساءته ، إذا لم ينهه ولم ينصحه .

وجاء الحديث عن بلال بن سعد أنه قال « الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا

صاحبها و إذا ظهرت ـ فلم تُغيَّر ـ ضَرَّت العامة[1] » لتركهم مالزمهم ، وما وجب عليهم من التغيير والإنكار على من ظهرت منه الخطيئة .

وجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ويل للعالم من الجاهل ، حيث لم يعلمه [2] » فلولا أن تعليم الجاهل واجب على العالم ، لازم وفريضة ، وليس بتطوع : ما كان له الويلُ فى السكوت عنه . وفى ترك تعليمه . والله تعالى لايؤاخذ من ترك التطوع ، إنما يؤاخذ من ترك الفرائض . فتعليم الجاهل فريضة . فلذلك كان له الويل فى السكوت عنه ، وفى ترك تعليمه .

فاتقوا الله تعالى فى أموركم عامة ، وفى صلاتكم خاصة . واتقوا الله فى تعليم الجاهل . فإن تعليمه فريضة واجب لازم . والتارك لذلك : مخطىء آثم .

وائمُروا أهل مسجدكم بإحكام الصلاة وإتمامها ، وأن لا يكون تكبيرهم إلا بعد تكبير الإمام ، ولا يكون ركوعهم ، وسجودهم ، وخفضهم : إلا بعد تكبير الإمام ، و بعد ركوعه وسجوده ، ورفعه وخفضه .

واعلموا أن ذلك من تمام الصلاة . وذلك الواجب على الناس واللازم لهم . وكذلك جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه رحمة الله عليهم .

ومن العجب : أن يكون الرجل فى منزله ، فيسمع الأذان ، فيقوم فزعاً يتهيأ لها ، ويخرج من منزله يريد الصلاة . ولا يريد غيرها . ثم لعله يخرج فى الليلة المطيرة المظلمة ، يتخبط فى الطين ، ويخوض الماء وتبتل ثيابه ، وإن كان فى ليالى الصيف : فليس يأمن العقارب والهوام فى ظلمة الليل ، ولعله ـ مع هذا ـ : أن يكون مريضا ضعيفاً . فلا يدع الخروج إلى المسجد . ويتحمل هذا كله إيثاراً للصلاة ، وحبًّا لها ، وقصداً إليها . لم يخرجه من منزله غيرها . فإذا دخل مع الإمام فى الصلاة

---

(١) أخرجه ابن حزم فى تراجم الصحابة الذين أخرج لهم بقى بن مخلد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس نحوه فى تفسير الآية.

(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده من حديث أنس .

خدعه الشيطان . فيسابق الإمام فى الركوع والسجود ، والرفع ، والخفض ، خِدَعاً من الشيطان له ، لما يريد من إبطال صلاته ، وإحباط عمله . فيخرج من المسجد ولا صلاة له .

ومن العجب : أنهم كلهم يستيقنون أنه ليس أحدٌ ممن خلف الإمام ينصرف من صلاته حتى ينصرف الإمام . وكلهم ينتظرون الإمام حتى يسلم . وهم كلهم — إلا ما شاء الله — يسابقونه فى الركوع والسجود ، والرفع والخفض ، خِدَعاً من الشيطان لهم ، واستخفافاً بالصلاة منهم ، واستهانة بها . وذلك حظهم من الإسلام وقد جاء الحديث قال « لاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة[1] » فكل مستخف بالصلاة مستهين بها : هو مستخفٌ بالإسلام ، مستهين به . وإنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة . ورغبتهم فى الإسلام على قدر رغبتهم فى الصلاة .

فاعرف نفسك يا عبد الله ، واعلم أن حظك من الإسلام ، وقدر الإسلام عندك بقدر حظك من الصلاة وقدرها عندك . واحذر أن تلقى الله عز وجل ولا قدر للإسلام عندك . فإن قدر الإسلام فى قلبك كقدر الصلاة فى قلبك .

وقد جاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصلاة عمود الإسلام[2] » ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ، ولم ينتفع

---

(١) ذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد : « أن المسور بن مخرمة دخل على عمر ، وهو مسجى — بعد أن طعن — فقال : أيقظوه بالصلاة — إلى أن قال — فقال عمر : ها الله إذن ، ولاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة » رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح . وكذلك رواه مالك فى الموطأ فى باب العمل فيمن غلبه الدم من جرح أو رعاف .

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث عمر ، بلفظ « الصلاة عماد الدين » والديلمى فى مسند الفردوس عن على ، وأبو نعيم فى كتاب الصلاة ، بلفظ « عمود الدين » وفى مسند أحمد من حديث معاذ « رأس الأمر وعموده الصلاة » .

بالطُّنُب ولا بالأوتاد ؟ و إذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطنب والأوتاد . فكذلك الصلاة من الإسلام .

فانظروا رحمكم الله واعقلوا ، وأحكموا الصلاة ، واتقوا الله فيها وتعاونوا عليها ، وتناصحوا فيها بالتعليم من بعضكم لبعض ، والتذكير من بعضكم لبعض من الغفلة والنسيان . فإن الله عز وجل قد أمركم أن تعاونوا على البر والتقوى . والصلاة أفضل البر .

وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول ما تفقدون من دينكم : الأمانة . وآخر ماتفقدون منه : الصلاة . وليصلين أقوام لاخَلاق لهم[(١)] »

وجاء الحديث « إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله : صلاته . فإن تُقُبِّلت منه صلاته تُقُبِّل منه سائر عمله . و إن رُدت صلاته رد سائر عمله[(٢)] » فصَلاتنا آخر ديننا . وهي أول مانُسأل عنه غداً من أعمالنا . فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين . فإذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام . فكل شيء يذهب آخره : فقد ذهب جميعه . فتمسكوا رحمكم الله بآخر دينكم .

وليعلم المتهاون بصلاته ، المستخف بها ، المسابق الإمام فيها : أنه لاصلاة له ، وأنه إذا ذهبت صلاته فقد ذهب دينه .

فعظموا الصلاة رحمكم الله . وتمسكوا بها . واتقوا الله فيها خاصة . وفي أموركم عامة .

واعلموا أن الله عز وجل قد عَظَّم خَطَر الصلاة في القرآن ، وعظم أمرها ، وشرَّفها وشرف أهلها . وخصها بالذكر من بين الطاعات كلها في مواضع من القرآن كثيرة . وأوصى بها خاصة .

---

(١) رواه البيهقي في الشعب من حديث عمر ببعض اختلاف .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة من حديث تميم الداري ، ورواه أبو يعلى في مسنده والضياء في المختارة والطبراني من حديث أنس .

فمن ذلك : أن الله تعـالى ذكر أعمال البر[١] التى أوجب لأهلها الخلود فى الفردوس . فافتتح تلك الأعمال بالصلاة . واختتمها بالصلاة . وجعل تلك الأعمال - التى جعل لأهلها الخلود فى الفردوس - بين ذكر الصلاة مرتين . قال الله تعالى : (٢٣ : ١ - ١١ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) فبدأ من وصفتهم بالصلاة عند مديحه إياهم . ثم وصفهم بالأعمال الطاهرة الزاكية المرضية ، إلى قول الله عز وجل (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) فأوجب الله عز وجل لأهل هذه الأعمـال الشريفة الزاكية المرضية الخلود فى الفردوس . وجعل هذه الأعمال بين ذكر الصلاة مرتين .

ثم عاب الله عز وجل الناس كلهم وذمهم ، ونسبهم إلى اللؤم والهلَع والجزع ، والمنع للخير ، إلا أهل الصلاة . فإنه استثناهم منهم ، فقال الله عز وجل (٧٠ : ١٩ - ٣٥ إن الإنسان خُلق هَلوعاً . إذا مَسَّه الشر جَزُوعاً . و إذا مسه الخير مَنوعاً) ثم استثنى المصلين منهم ، فقال (إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم) ثم وصفهم بالأعمـال الزاكية الطاهرة المرضية الشريفة ، إلى قوله (والذين هم بشهاداتهم قائمون) ثم ختم بثنائه عليهم ومدحهم ، بأن ذكرهم بمحافظتهم على الصلاة . فقال (والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جنات مُـكرمون) فأوجب لأهل هذه الأعمال الـكرامة فى الجنة . وافتتح ذكر هذه الأعمال بالصلاة واختتمه بالصلاة . فجعل ذكر هذه الأعمال بين ذكر الصلاة مرتين .

ثم ندب الله عز وجل رسـوله صلى الله عليه وسلم إلى الطاعة كلها جملة ، وأفرد الصلاة هى بالذكر من بين الطاعة كلها . والصلاة هى من الطاعة . فقال

---

(١) البر : كلمة تجمع كل خير . وفى نسخة : فمن ذلك أن ذكر الله تعالى فى أمر الطاعات التى أوجب لأهلها .

عز وجل (٢٩ : ٤٥ أُتْلُ ما أوحى إليك من الكتاب . وأقم الصلاة) ففي تلاوة الكتاب : فعل جميع الطاعات ، واجتناب جميع المعصية . ثم خص الصلاة بالذكر فقال (وأقم الصلاة . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

و إلى الصلاة خاصة ندبه الله عز وجل ، فقال (٢٠ : ١٣٢ واءمُرْ أهلك بالصلاة ، واصطبر عليها . لا نسألك رزقا . نحن نرزقك) فأمره أن يأمر أهله بالصلاة و يصطبر عليها .

ثم أمر الله تعالى جميع المؤمنين بالاستعانة على طاعته كلها بالصبر ، ثم خص الصلاة بالذكر من بين الطاعة كلها . فقرنها مع الصبر فى قوله (٢ : ١٥٣ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة . إن الله مع الصابرين) .

وكذلك أمر الله تعالى بنى إسرائيل بالاستعانة بالصبر والصلاة على جميع الطاعة . ثم أفرد الصلاة من بين الطاعة . فقال (٢ : ٤٥ واستعينوا بالصبر والصلاة ، و إنها لكبيرة إلا على الخاشعين) .

ومثل ذلك : ما أخبر الله عز وجل به من حكمه ووصيته خليله إبراهيم ولوطاً و إسحاق و يعقوب ، فقال (٢١ : ٦٩ ـ ٧٣ يا نارُ كُونِي بَرْداً وسلاماً على إبراهيم ـ إلى قوله ـ : ونجيناه ولوطاً ـ إلى قوله ـ : ووهبنا له إسحق و يعقوب نافلة ـ إلى قوله ـ وأوحينا إليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة) فذكر الخيرات كلها جملة . وهى جميع الطاعات واجتناب جميع المعصية . وأفرد الصلاة بالذكر ، وأوصاهم بها خاصة .

ومثل ذلك : ما ذكر عن إسماعيل فى قوله (١٩ : ٥٥ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة . وكان عند ربه مرضياً) فبدأ بالصلاة .

ومثل ذلك عن نَجِيِّه موسى عليه السلام فى قوله (٢٠ : ٩ ـ ١٤ هل أتاك حديث موسى ـ إلى قوله ـ إنى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، فاعبدنى وأقم الصلاة

لذكرى) فأجملَ الطاعة واجتناب المعصية فى قوله لموسى (فاعبدنى) وأفرد الصلاة وأمر بها خاصة .

وقال عز وجل (٧ : ١٧٠ والذين يُمَسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة) التمسك بالكتاب : يأتى على فعل جميع الطاعة ، واجتناب جميع المعصية ، ثم خص الصلاة بالذكر . فقال (وأقاموا الصلاة) وإلى تضييع الصلاة نسب الله عز وجل من أوجب له العذاب قبل المعاصى . فقال (١٩ : ٥٩ فخلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غَيًّا) فمن اتباع الشهوات : ركوب جميع المعاصى . فنسبهم الله عز وجل إلى جميع المعصية فى تضييع الصلاة .

فهذا ما أخبر الله تعالى به من آى القرآن ، من تعظيم الصلاة ، وتقديمها بين يدى الأعمال كلها ، وإفرادها بالذكر من بين جميع الطاعات ، والوصية بها دون أعمال البر عامة . فالصلاة : خطرها عظيم ، وأمرها جسيم .

وبالصلاة : أمر الله تبارك وتعالى رسوله ، أول ما أوحى إليه بالنبوة ، قبل كل عمل ، وقبل كل فريضة .

وبالصلاة : أوصى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عند خروجه من الدنيا . فقال « اللهَ اللهَ فى الصلاة وفيما ملكت أيمانكم[١] » فى آخر وصيته إياهم .

وجاء الحديث « إنها آخر وصية كل نبى لأمته ، وآخر عهده إليهم عند خروجه من الدنيا » .

وجاء فى حديث آخر عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان يجود بنفسه ، ويقول : الصلاة ، الصلاة ، الصلاة[٢] » .

فالصلاة : أول فريضة فرضت عليه . وهى آخر ما أوصى به أمته . وآخر

(١) أخرجه أحمد فى المسند والنسائى وابن ماجه وابن حبان من حديث أنس . وأخرجه أحمد وابن ماجه من حديث أم سلمة .

(٢) أخرجه ابن جرير من حديث أم سلمة .

مايذهب من الإسلام . وهى أول ما يسأل عنه العبد من عمله يوم القيامة . وهى عمود الإسلام . وليس بعد ذهابها دين ، ولا إسلام .

* * *

فاللهَ اللهَ فى أموركم عامة ، وفى صلاتكم خاصة . فتمسكوا بها ، واحذروا تضييعها ، والاستخفاف بها . ومسابقة الإمام فيها ، وخداع الشيطان أحدكم عنها ، وإخراجه إياكم منها . فإنها آخر دينكم . ومن ذهب آخر دينه : فقد ذهب دينه كله . فتمسكوا بآخر دينكم .

واءمُرْ ياعبد الله ، الإمام : أن يهتم بصلاته ، ويُعْنَى بها ويتمكن ، ليتمكنوا ، إذا ركع وسجد . فإنى صليت يومئذ . فما استمكنت من ثلاث تسبيحات فى الركوع ، ولا ثلاث فى السجود . وذلك لعجلته ، لم يمكن ولم يستمكن . وعجل فأعجل . فأعْلِمْه أن الإمام إذا أحسن الصلاة كان له أجر صلاته ، ومثل أجر من يصلى خلفه . وإذا أساء كان عليه وزر إساءته ، ووزر من يصلى خلفه .

وجاء الحديث عن الحسن البصرى أنه قال « التسبيح التام : سبع . والوسط من ذلك : خمس . وأدناه : ثلاث تسبيحات » .

وأدنى مايسبح الإمام فى الركوع « سبحان ربى العظيم ـ ثلاث مرات » وفى السجود « سبحان ربى الأعلى ـ ثلاث مرات » .

وإذا سبح فى الركوع والسجود ثلاثا ثلاثا . فينبغى له أن لايعجل بالتسبيح ، ولا يسرع فيه ، ولا يبادر ، وليكن بتمام من كلامه ولسانه وتَمَكُّنٍ . فإنه إذا عجل بالتسبيح وبادر به : لم يدرك من خلفه التسبيح . وصاروا مبادرين إذا بادر ، وسابقوه ، ففسدت صلاتهم . فكان عليه مثل وزرهم جميعاً . وإذا لم يبادر الإمام وتمكن ، وأتم صلاته وتسبيحه : أدرك من خلفه ، ولم يبادروا . فيكون الإمام قد قضى ماعليه . وليس عليه إثم ، ولا وزر .

* * *

وأمره إذا رفع رأسه من الركوع ، فقال « سمع الله لمن حمده » أن يثبت قائماً معتدلا ، حتى يقول « ربنا ولك الحمد » وهو قائم معتدل ، من غير عجلة فى كلامه ولا مبادرة . وإن زاد على ذلك فقال « ربنا ولك الحمد ، مِلْء السموات وملء الأرض الخ » كان أحب إلىّ . لأنه جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا رفع رأسه قال : اللهم ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، [ومِلْءَ مابينهما] وملء ماشئت من شىء بعد [أهلَ الثناء والمجد ، أحق ماقال العبد ، وكُلُّنا لك عبد] : لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجد[١] » وهذا لايكادُ يُطمَعُ فيه اليوم من الناس .

وجاء عن أنس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع : يقوم ، حتى يقال : قد نسى[٢] » ومافى هذا مطمع من الناس اليوم .

ولكن ينبغى للإمام أن لا يبادر إذا رفع رأسه من الركوع ، ولايعجل بقوله « ربنا ولك الحمد » وليكن ذلك بتمام من كلامه ، وتمكن وتأنٍّ من غير عجلة ولا مبادرة ، حتى يدركَ الناسُ معه . وإذا سجد ورفع رأسه من السجود فليعتدل جالساً ، وليثبت بين السجدتين شيئاً بقدر مايقول « رب اغفر لى » من غير عجلة ، حتى يدركه الناس قبل أن يسجد الثانية . ولا يبادر ، فساعةَ يرفع رأسه من السجدة الأولى : يعود ساجداً ، فيبادر الناس لمبادرته ، ويقعون فى المسابقة . فتذهب صلاتهم . ويلزم الإمام وزر ذلك وإثمه . فإن الناس إذا علموا أنه يثبت ثبتوا ، ولم يبادروا . وقد جاء الحديث أن « كل مصل راع ، ومسئول عن رعيته[٣] » .

وقد قيل : إن الإمام راع لمن يصلى بهم . فما أولى بالإمام : النصيحة لمن

---

(١) أخرجه مسلم والنسائى من حديث أنس وابن عباس ، وابن أبى أوفى ، وأبى سعيد ، ومن حديث على رضى الله عنهم . وما بين المربعين لم يكن بالأصل . و « الجد » بفتح الجيم : الحظ والجاه والغنى والعظمة . (٢) متفق عليه .

(٣) أخرج معناه الطبرانى فى الأوسط والخطيب من حديث ابن عمر .

يصلى خلفه ، وأن ينهاهم عن المسابقة فى الركوع ، والسجود ، وأن لا يركعوا ويسجدوا مع الإمام ، بل يأمرهم بأن يكون ركوعهم ، وسجودهم ، ورفعهم ، وخفضهم : بعده ، وأن يحسن أدبهم وتعليمهم ، إذ كان راعياً لهم . وكان غداً مسئولا عنهم . وما أولى بالإمام أن يحسن صلاته ، ويتمها ويحكمها . وتشتد عنايته بها ، إذ كان له مثل أجر من يصلى خلفه إذا أحسن . وعليه مثل وزرهم إذا أساء .

* * *

ومن الحق الواجب على المسلمين : أن يقدموا خيارهم ، وأهل الدين والفضل منهم ، وأهل العلم بالله تعالى ، الذين يخافون الله عز وجل ويراقبونه . وقد جاء الحديث « إذا أَمَّ بالقوم رجل ، وخلفه من هو أفضل منه : لم يزالوا فى سِفَال[1] » وجاء الحديث « اجعلوا أمر دينكم إلى فقهائكم ، وأئمتكم قراؤكم[2] » .

وإنما معناه : الفقهاء ، أهلُ الدين والفضل والعلم بالله ، والخوف من الله عز وجل ، الذين يُعْنَون بصلاتهم وصلاة من خلفهم . ويتقون ما يلزمهم من وزر أنفسهم ، ووزر من خلفهم ، إن أساءوا فى صلاتهم .

ومعنى القراء : ليس على الحفظ للقرآن فقط . فقد يحفظ القرآن من لا يعمل به . ولا يعبأ بدينه . ولا بإقامة حدود القرآن . وما فرض الله عز وجل عليه فيه . وقد جاء الحديث « إن أحق الناس بهذا القرآن : من كان يعمل به ، وإن كان لا يقرأ[3] » .

فالإمامة بالناس ، المقدم بين أيديهم فى الصلاة بهم : على الفضل . فليس

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء من حديث ابن عمر . ورواه الطبرانى فى الأوسط . وفيه الهيثم بن عتاب الأزدى : لا يعرف . وقال الهيثمى : ذكره ابن حبان فى الثقات .

(٢) رواه الدارقطنى من حديث ابن عباس . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية فى الفتاوى : فى إسناده مقال . اهـ وفى إسناده سلام بن سليمان . قال العقيلى : فى حديثه مناكير .

(٣) لم أجده .

للناس أن يقدموا بين أيديهم إلا أعلمهم بالله ، وأخوفهم له . ذلك واجب عليهم ، ولازم لهم . فتزكو صلاتهم . و إن تركوا ذلك لم يزالوا فى سفال و إدبار ، وانتقاص من دينهم ، و بعدٍ من الله ومن رضوانه ، ومن جنته .

فرحم الله قوماً عُنوا بصلاتهم ، وعنوا بدينهم . فقدموا خيارهم ، واتبعوا فى ذلك سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وطلبوا بذلك القربة إلى ربهم عز وجل .

وأمُر ياعبد الله الإمامَ أن لايكبر ــ أول مايقوم مقامه للصلاة ــ حتى يلتفت يميناً وشمالا . فإن رأى الصف معوجاً ، والمناكب مختلفة : أمرهم أن يسووا صفوفهم ، وأن يحاذوا مناكبهم . فإن رأى بين كل رجلين فُرجةً : أمرهم أن يدنو بعضهم من بعض ، حتى تماسَّ مناكبهم .

* * *

واعلم أن اعوجاج الصفوف ، واختلاف المناكب : ينقص من الصلاة . وأن الفرجة التى تكون بين كل رجلين : تنقص من الصلاة . فاحذروا ذلك . وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « رُصُّوا الصفوف. وحاذوا المناكب وسُدُّوا الخَلَل ، لايقوم بينكم مثل الحَذَف ــ يعنى أولاد الغنم الصغار ــ من الشياطين(١) » .

وقد جاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا قام مقامه للصلاة : لم يكبر حتى يلتفت يميناً وشمالا . فيأمرهم بتسوية مناكبهم ، ويقول : لاتختلفوا . فتختلفَ قلوبكم(٢) » .

---

(١) رواه أحمد فى المسند عن أبى أمامة فى حديث طويل . قال المنذرى فى الترغيب : بإسناد لا بأس به . ورواه البخارى بنحوه فى تسوية الصفوف من حديث أنس . ورواه أبو داود بنحو ما هنا . وكذلك النسائى وابن خزيمة وابن حبان . و « الحذف » بفتح الحاء المهملة والفاء : الغنم الحجازية . واحدتها حذفة ــ محركا ــ وقيل : هى صغار جرد ليس لها آذان ولا أذناب يجاء بها من جُرَش ــ بضم الجيم وفتح الراء ــ من اليمن .

(٢) رواه أبو داود عن أبى القاسم الجدلى . قال : سمعت النعمان بن بشير يقول =

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم « أنه التفت يوماً . فرأى رجلا قد خرج صدره من الصف . فقال لَتُسَوُّنَّ مناكبكم ، أو لَيُخالفن الله بين قلوبكم[١] » .

فتسوية الصفوف ، ودنو الرجال بعضهم من بعض : من تمام الصلاة . وترك ذلك : نقص في الصلاة .

وجاء الحديث عن عمر « أنه كان يقوم مقام الإمام ، ثم لا يكبر حتى يأتيه رجل قد وكله بإقامة الصفوف ، فيخبره : أنهم قد استووا ، فيكبر[٢] » وجاء عن عمر بن عبد العزيز مثل ذلك . وروى « أن بلالا كان يسوى الصفوف ، ويضرب عراقيبهم بالدِّرة ، حتى يستووا » .

قال بعض العلماء : وقد يشبه أن يكون هذا من بلال على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عند إقامته ، قبل أن يدخل في الصلاة . لأن الحديث عن بلال جاء « أنه لم يؤذن لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا يوماً واحداً» إذ أتى مَرْجِعَه من الشام[٣] . ولم يكن للناس عهد بأذانه حينا ، فطلب إليه أبو بكر وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤذن . فأذن . فلما سمع أهل المدينة صوت بلال ذكروا النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد طول عهدهم بأذان بلال وصوته : جدد ذلك في قلوبهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وشوقهم أذانه إليه ، حتى قال بعضهم : بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، شوقاً منهم إلى رؤيته ، ولما هيجهم

= « أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس بوجهه . فقال : أقيموا الصفوف — الحديث » .

(١) رواه مسلم والبخارى وأبو داود من حديث النعمان بن بشير .

(٢) انظر تاريخ الطبرى (ج ٥ ص ١٢) .

(٣) كان ذلك في سنة سبع عشرة من الهجرة . وفي تاريخ الطبرى (ج ٤ ص ٢٠٤) ما يدل على أن ذلك كان بالشام في ذى الحجة بعد خطبة عمر ، إذ عزم على القفول إلى المدينة . وذكر ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة بلال : أنه أذن لأبي بكر حياته . وصحح ابن سعد (ج ٣ ص ١٦٩) أن بلالا لم يؤذن لأبي بكر .

بلال عليه بأذانه وصوته . فرقوا عند ذلك و بكوا ، واشتد بكاؤهم عليه صلى الله عليه وسلم ، حتى خرج العواتق من بيوتهن شوقاً ، حين سمعن صوت بلال وأذانه ، وذِكْرَ النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما قال بلال « أشهد أن محمداً رسول الله » امتنع بلال من الأذان فلم يقدر عليه . وقال بعضهم : سقط مغشياً عليه ، حباً للنبي صلى الله عليه وسلم وشوقاً إليه . فرحم الله بلالا والمهاجرين والأنصار ، وجعلنا وإياكم من التابعين لهم بإحسان .

فاتقوا الله يامعشر المسلمين ، وأحْكِموا صلاتكم ، والزموا فيها سنة نبيكم وأصحابه صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين . فإن ذلك هو الواجب عليكم ، واللازم لكم . وقد وعد الله تعالى من اتبعهم رضوانَه ، والخلود فى جنته . قال الله عز وجل (٩ : ١٠٠ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . ذلك الفوز العظيم) فاتباع المهاجرين والأنصار واجب على الناس إلى يوم القيامة .

* * *

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه « كان له سكتتان : سكتة عند افتتاح الصلاة ، وسكتة إذا فرغ من القراءة[1] » وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسكت إذا فرغ من القراءة قبل أن يركع ، حتى يتنفس . وأكثر الأئمة على خلاف ذلك .

فاءمُرْهُ ياعبد الله ، إذا فرغ من القراءة : أن يثبت قائماً ، وأن يسكت حتى يرجع إليه نَفَسه قبل أن يركع ، ولا يَصِلَ قراءته بتكبيرة الركوع .

وخصْلة قد غلبت على الناس فى صلاتهم ، إلا من شاء الله ، من غير علة — وقد يفعلها شبابهم وأهل القوة والجلَد منهم — ينحط أحدهم من قيامه للسجود ،

---

(١) رواه أصحاب السنن من حديث وائل بن حجر . ولم يصح أنه صلى الله عليه وسلم كان يسكت ليقرأ المأموم الفاتحة .

ويضع يديه على الأرض قبل ركبتيه . وإذا نهض من سجوده ، أو بعدما يفرغ من التشهد : يرفع ركبتيه من الأرض قبل يديه . وهذا خطأ ، وخلاف ماجاء عن الفقهاء . وإنما ينبغى له إذا انحط من قيامه للسجود : أن يضع ركبتيه على الأرض ثم يديه ، ثم جبهته . وإذا نهض : رفع رأسه ، ثم يديه ، ثم ركبتيه . بذلك جاء الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم[١] .

فاءمُروا بذلك ، وانهوا عنه من رأيتم يفعل خلاف ذلك ، واءمُروه أن ينهض — إذا نهض — على صدور قدميه ، ولا يقدم إحدى رجليه . فإن ذلك مكروه . وقد جاء عن عبد الله بن عباس وغيره : أن تقديم إحدى الرجلين إذا نهض : يقطع الصلاة .

* * *

ويستحب المصلى أن يكون بصره إلى موضع سجوده ، ولا يرفع بصره إلى السماء . ولا يلتفت . فاحذروا الالتفات ، فإنه مكروه . وقد قيل : يقطع الصلاة .

وإذا سجد يضع أصابع يديه حتى يحاذى بهما أذنيه وهو ساجد ، ويضم أصابعه ، ويوجهها نحو القبلة . ويُبدِى مِرْفَقيه وساعديه . ولا يُلْزِقْهما بجنبيه .

جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا سجد لو مرت بَهْمَة تحت ذراعيه لنفذت[٢] » وذلك لشدة مبالغته فى رفع مرفقيه وضَبْعيه . وجاء عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد جافَى بين ضبعيه[٣] » .

فأحسنوا السجود — رحمنا الله وإياكم — ولا تضيعوا شيئاً . فقد جاء فى

---

(١) رواه أبو داود والترمذى من حديث الحسن عن سمرة .

(٢) رواه مسلم وأبو داود من حديث ميمونة أم المؤمنين .

(٣) رواه مسلم من حديث عبد الله بن بحينة ، وأبو داود من حديث الحسن البصرى حدثنا أحمر بن جزء . قال المنذرى فى مختصره (١ : ٤٢٦) قيل : لم يرو عنه غير الحسن . ولم يرو أحمر عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذا الحديث .

الحديث « إن العبد يسجد على سبعة أعضاء[١] » فأى عضو منها ضيعه لم يزل ذلك العضو يلعنه .

وينبغي له إذا ركع : أن يُلْقِم راحتيه ركبتيه ، ويفرق بين أصابعه ، ويعتمد على ضَبُعَيه وساعديه ، ويُسَوِّى ظهره ، ولا يرفع رأسه ولا يُنَكِّسه ، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا ركع لو كان قَدَح من ماء على ظهره ماتحرك من موضعه[٢] » وذلك لاستواء ظهره ، ومبالغته فى ركوعه صلى الله عليه وسلم .

فأحسنوا صلاتكم رحمكم الله . وأتموا ركوعها وسجودها وحدودها . فإنه جاء فى الحديث « إن العبد إذا صلى فأحسن الصلاة : صعدت ولها نور . فإذا انتهت إلى أبواب السماء : فتحت لها أبواب السماء ، وتشفع لصاحبها ، وتقول : حفظك الله كما حفظتنى . وإذا أساء فى صلاته ، فلم يتم ركوعها وسجودها وحدودها : صعدت ولها ظلمة . فتقول : ضيعك الله كما ضيعتنى . فإذا انتهت إلى أبواب السماء: غلقت أبواب السماء دونها ، ثم لُفَّت كما يلف الثوب الخلَق ، فيضرب بها وجه صاحبها[٣] »

وينبغي للرجل إذا جلس للتشهد : أن يفترش رجله اليسرى ، فيجلس عليها وينصب رجله اليمنى ، ويوجه أصابعه نحو القبلة . ويضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ، ويوجه أصابعها نحو القبلة . ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ، ويشير

---

(١) رواه البخارى وأبو داود من حديث ابن عباس ، وفيه «على سبعة آراب»

(٢) ذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد : أن عبد الله بن أحمد . قال : وجدته فى كتاب أبى : عن على . وفيه رجل لم يسم . وسنان بن هرون اختلف فيه . وذكر أن الطبرانى رواه من حديث أنس ، وفيه محمد بن ثابت . وهو ضعيف .

(٣) قال فى مجمع الزوائد : رواه الطبرانى فى الكبير والبزار بنحوه ، من حديث عبادة بن الصامت . وذكره المنذرى فى الترغيب من حديث النعمان بن قرة . وقال : رواه الطبرانى .

بإصبعه التى تلى الإبهام ، ويُحَلِّق الإبهام والوسطى ، ويعقد الباقيين . فإذا صلى إلى سترة فليدن منها ، فإن ذلك مستحب . ولا يمر أحد دونها . فإن ذلك يكره .

* * *

وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى إلى سترة ، فليَدْنُ منها . فإن الشيطان يمر بينه وبينها(١) » .

ومما يتهاون به الناس فى أمر صلاتهم : تركهم المارَّ يَمُرُّ بين يدى المصلي . وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ادْرَأْ المـارَّ . فإن أبى فادرأه . فإن أبى فالْطُمْهُ . فإنما هو شيطان(٢) » .

فلو كان للمار بين يدى المصلى رخصة لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم بلطمه . وإنما ذلك لعظم المعصية من المـار بين يدى المصلى ، والمعصية من المصلى إذا لم يدرأه . وجاء الحديث قال «لو يعلم أحدكم ماعليه فى مَمرِّه بين يدى أخيه فى صلاته لانتظر أربعين خريفاً(٣) »

وجاء الحديث « أن أبا سعيد الخدرى كان يصلى ، فأراد ابن أخى مروان بن الحـكم أن يمر بين يديه فمنعه أبو سعيد ، فذهب ابن أخى مران إلى مروان ـ وهو يومئذ والى المدينة ـ فشكى إليه ماصنع أبو سعيد . وجاء أبو سعيد بعد ذلك فدخل . فقال له مروان : مايذكر ابنُ أخى أنك لطمته ، وكان منك إليه ؟ فقال أبو سعيد : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم أن ندرأ المار . فإن أبى درأناه ، فإن أبى لطمناه ، فإنما هو شيطان ، وإنما لطمتُ شيطاناً(٤) » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٢) رواه أبو داود من حديث أبى سعيد .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى من حديث أبى الجهيم عبد الله بن الحرث بن الصمة الأنصارى ، بدون لفظ « خريفاً » .

(٤) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

ويستحب للرجل إذا خرج لصلاة الغداة : أن يصلى ركعتين فى منزله ، ثم يخرج . ويستحب له ذكر الله فيما بين الركعتين وبين صلاة الغداة . ومن الجفاء : الكلام بينهما ، إلا كلاماً واجباً لازماً : من تعليم الجاهل ، ونصيحته، وأمره ونهيه . فإن ذلك واجب لازم . والواجب اللازم : أعظم أجراً من ذكر الله تطوعاً ، والتطوع لا يقبل حتى يؤدى الواجب اللازم . وقد جاء الحديث « لايقبل الله نافلة حتى تؤدى الفريضة » .

ويستحب للرجل - إذا أقبل إلى المسجد - : أن يُقبل بخوف ووجل،وخشوع ، وخضوع ، وأن يكون عليه السكينة والوقار ، فما أدرك صلى ، وما فاته قضى ، بذلك جاء الأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم [١] . وأنه «كان يأمر بإثقال الخطَى - يعنى قرب الخطى - إلى المسجد [٢] » ولا بأس إذا طمع أن يدرك التكبيرة الأولى : أن يسرع شيئاً ، مالم يكن عجلة تَقْبُح . جاء الحديث عن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم « أنهم كانوا يعْجَلون شيئاً إذا تخوفوا فوات التكبيرة الأولى ، وطمعوا فى إدراكها » .

* * *

فاعلموا رحمكم الله : أن العبد إذاخرج من منزله يريد المسجد .إنما يأتى الله الجبار الواحد القهار ، العزيز الغفار ، وإن كان لا يغيب عن الله حيث كان ، لايعزُب عنه تبارك وتعالى مثقال حبة من خردل ، ولاأصغر من ذلك ولا أكبر ، فى الأرضين السبع ، ولا فى السموات السبع ، ولا فى البحار السبعة ، ولا فى الجبال الصمِّ الصِّلاَب ، الشوامخ البواذخ ، وإنما يأتى بيتاً من بيوت الله ، ويريد الله ، ويتوجه إلى الله تعالى ، وإلى بيت من البيوت التى (٢٤ : ٢٦ ، ٢٧ أذن الله أن ترفع ، ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى من حديث أبى هريرة بمعناه

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى من حديث أبى هريرة .

لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تَتَقَلَّبُ فيه القلوب والأبصار) .

فإذ خرج أحدكم من منزله فليحدث لنفسه تفكراً وأدباً ، غير ما كان عليه ، وغير ما كان فيه من حالات الدنيا وأشغالها . وليخرج بسكينة ووقار . فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بذلك ، وليخرج برغبة ورهبة ، و بخوف ووجل ، وخضوع وتواضع لله عز وجل . فإنه كلما تواضع لله عز وجل ، وخشع وخضع ، وذل لله تعالى : كان أزكى لصلاته ، وأحرى لقبولها ، وأشرف للعبد ، وأقرب له من الله ، و إذا تكبر قصمه الله ، ورد عمله . وليس يقبل الله من المتكبر عملا .

جاء الحديث عن إبراهيم خليل الله عز وجل « أنه أحيا ليلة . فلما أصبح أعجب بقيام ليلته . فقال : نعم الرَّبُّ رب إبراهيم ، ونعم العبدُ إبراهيم . فلما كان من الغد : لم يجد أحداً يأكل معه ـ وكان يحب أن يأكل معه غيره ـ فأخرج طعامه إلى الطريق ليمرّ به مار ، فيأكل معه . فنزل ملكان من السماء ، فأقبلا نحوه ، فدعاهما إبراهيم إلى الغداء . فأجاباه . فقال لهما : تقدما بنا إلى هذه الروضة . فإن فيها عيناً ، وفيها ماء . فنتغدى عندها . فتقدموا إلى الروضية . فإذا العين قد غارت . وليس فيها ماء . فاشتد ذلك على إبراهيم عليه السلام ، واستحيي مما قال ، إذ رأى غير ما قال ، فقالا له : يا إبراهيم ، أُدْعُ رَبَّكَ ، واسأله : أن يعيد الماء فى العين ، فدعا الله عز وجل . فلم ير شيئاً . فاشتد ذلك عليه ، فقال لهما : ادْعُوا اللهَ أنتما . فدعا أحدهما ، فرجع . وإذا هو بالماء فى العين . ثم دعا الآخر ، فأقبلت العين ، فأخبراه : أنهما ملكان ، وأن إعجابه بقيام ليلته رد دعاءه عليه ، ولم يستجب له » .

* * *

فاحذروا ـ رحمكم الله تعالى ـ من الكبر . فليس يقبل مع الكبر عمل ، وتواضعوا بصلاتكم . فإذا قام حدكم فى صلاته بين يدى الله عز وجل ، فليعرف

الله عز وجل فى قلبه بكثرة نعمه عليه ، و إحسانه إليه . فإن الله عز وجل قد أوْقَره نِعماً . وأنه أوقر نفسه ذنوباً ، فليبالغ فى الخشوع والخضوع لله عز وجل .

وقد جاء الحديث « إن الله أوحى إلى عيسى بن مريم : إذا قمت بين يدىَّ فقُمْ مقام الحقير الذليل ، الذامِّ لنفسه . فإنها أولى بالذم . فإذا دعوتنى فادْعُنِي وأعضاءك تنتفض » وجاء الحديث « أن الله أوحى إلى موسى نحو هذا » .

فما أحقك ياأخى ، وأولاك بالذم لنفسك ، إذا قمت بين يدى الله عز وجل .

وجاء الحديث عن محمد بن سيرين : أنه كان إذا قام فى الصلاة ذهب دم وجهه ، خوفا من الله عز وجل ، وفَرَقاً منه .

وجاء عن مسلم[1] أنه كان إذا دخل فى الصلاة لم يسمع حسًّا من صوت ولا غيره ، تشاغلا بالصلاة ، وخوفاً من الله عز وجل .

وجاء عن عامر العنبرى ـ الذى كان يقال له عامر بن عبد قيس[2] ، فى حديث هذا بعضه ـ أنه قال : « لأن تختلف الخناجر بين كَتِفِيَّ ، أحبُّ إلى من أن أتفكر فى شىء من أمر الدنيا وأنا فى الصلاة » .

وجاء عن سعيد بن معاذ أنه قال « ماصليت صلاة قط . فحدثت نفسى فيها بشىء من أمر الدنيا حتى أنصرف » .

وجاء عن أبى الدرداء . أنه قال فى حديث ـ هذا بعضه ـ « وتعفير وجهى لربى عز وجل فى التراب : فإنه مبلغ العبادة من الله تعالى » .

---

(١) هو مسلم بن يسار البصرى الأموى المكى . قال ابن سعد : قالوا : كان أرفع عندهم من الحسن البصرى ، حتى خرج مع ابن الأشعث ، فوضعه ذلك عند الناس . اهـ تهذيب .

(٢) ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة . وقال : ذكره أبو موسى فى الصحابة . وهو تابعى . قيل : أدرك الجاهلية . وكان أعبد أهل زمانه وأشدهم اجتهاداً . وسعى به إلى عثمان بن عفان : أنه لا يأكل اللحم ولا ينكح النساء . وأنه يطعن على الأئمة ولا يشهد الجمعة . فأمره أن يسير إلى الشام ـ ثم ذكر قصة فيها تبرئته من ذلك .

فلا يتقينَّ أحدكم التراب ، ولا يكرهن السجود عليه . فلا بد لأحدكم منه . ولا يتقى أحدكم المبالغة ، فإنه إنما يطلب بذلك فِكاك رقبته وخلاصها من النار . التى لا تقوم لها الجبال الصم الشوامخ البواذخ ، التى جعلت للأرض أوتاداً . ولا تقوم لها السموات السبع الطباق الشداد ، التى جعلت سقفاً محفوظاً . ولا تقوم لها الأرض التى جعلت للخلق داراً ، ولا تقوم لها البحار السبع ، التى لايدرك قعرها ، ولا يعرف قدرها إلا الذى خلقها . فكيف بأبداننا الضعيفة ، وعظامنا الدقيقة ، وجلودنا الرقيقة ؟ نستجير بالله من النار . نستجير بالله من النار . نستجير بالله من النار .

فإن استطاع أحدكم ـ رحمكم الله ـ إذا قام فى صلاته : أن يكون كأنه ينظر إلى الله عز وجل . فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه . فقد جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه « أوصى رجلاً . فقال له فى وصيته : اتق الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه . فهو يراك [١] » فهذه وصية النبى صلى الله عليه وسلم للعبد فى جميع حالاته . فكيف بالعبد فى صلاته إذا قام بين يدى الله عز وجل فى موضع خاص ، ومقام خاص ، يريد الله ويستقبله بوجهه ، ليس موضعه ومقامه ، وحالاته فى صلاته كغير ذلك من حالاته ؟ .

جاء الحديث « إن العبد إذ افتتح الصلاة استقبله الله عز وجل بوجهه . فلا يصرفه عنه ، حتى يكون هو الذى ينصرف ، أو يلتفت يميناً وشمالا [٢] »

وجاء الحديث قال « إن العبد مادام فى صلاته فله ثلاث خصال : البِرُّ يتناثر عليه من عَنان السماء إلى مَفْرِق رأسه ، وملائكة يَحُفُّون به من لَدُنْ قدميه إلى عَنان السماء ، ومناد ينادى : لو يعلم العبد من يناجى : ما انفتل [٣] » .

* * *

(١) جاء هذا فى حديث سؤال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان . وهذا معنى الإحسان . وقد رواه الشيخان من حديث ابن عمر وغيره .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند وأبو داود والنسائى من حديث أبى ذر .

(٣) ذكره محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة من حديث الحسن البصرى مرسلا

فرحم الله من أقبل على صلاته خاشعاً خاضعاً ، ذليلاً لله عز وجل ، خائفاً داعياً راغباً ، وَجِلا مشفقاً راجياً . وجعل أكبر هَمِّه فى صلاته : لربه تعالى ، ومناجاته إياه ، وانتصابه قائماً وقاعداً ، وراكعاً وساجداً ، وفَرَّغ لذلك قلبه وثمرة فؤاده . واجتهد فى أداء فرائضه . فإنه لا يدرى : هل يصلى صلاة بعد التى هو فيها ، أو يُعاجلَ قبل ذلك ؟ . فقام بين يدى ربه عز وجل محزوناً مشفقاً ، يرجو قبولها ، ويخاف ردها . فإن قبلها سعد . وإن ردها شقى .

فما أعظم خطرك يا أخى فى هذه الصلاة ، وفى غيرها من عملك . وما أولاك بالهم والحزن ، والخوف والوجل فيها ، وفيما سواها مما افترض الله عليك . إنك لاتدرى : هل قبل منك صلاة قط ، أم لا ؟ ولا تدرى : هل قبل منك حسنة قط ، أم لا ؟ وهل غفر لك سيئة قط ، أم لا ؟ ثم أنت ـ مع هذا ـ تضحك وتغفُل ، وينفعك العيش . وقد جاءك اليقين : أنك وارد النار . ولم يأتك اليقين: أنك صادر عنها . فمن أحَقُّ بطول البكاء وطول الحزن منك ، حتى يتقبل الله منك ؟ ثم ـ مع هذا ـ لاتدرى ، لعلك لاتصبح إذا أمسيت ، ولا تمسى إذا أصبحت ، فمبَشَّر بالجنة أو مُبَشَّر بالنار .

وإنما ذَكَّرتك يا أخى بهذا الخطر العظيم ، إنك لحقوق أن لاتفرح بأهل ولا مال ولا ولد ، وإن العجب كل العجب من طول غفلتك ، وطول سهوك ولهوك عن هذا الأمر العظيم ، وأنت تساق سوقاً عنيفاً فى كل يوم وليلة ، وفى كل ساعة وطرفة عين .

فتوقَّع يا أخى أجلك . ولا تغفل عن الخطر العظيم الذى قد أظلّك . فإنك لابد ذائق الموت ولاقيه ، ولعله ينزل بساحتك فى صباحك أو مسائك ، أشد ما تكون عليها إقبالا ، وكأنك قد أخرجت من ملكك كله ، فإما إلى الجنة وإما إلى النار . انقطعت الصفات ، وقصرت الحكايات عن بلوغ صفتهما ومعرفة قدرهما . والإحاطة بغاية خبرهما . أما سمعت يا أخى قول العبد الصالح : عجبت

للنار كيف نام هاربها ؟ وعجبت للجنة كيف نام طالبها ؟ فوالله لئن كنت خارجاً من الطلب والهرب ، لقد هلكت وعظم شقاؤك ، وطال حزنك و بكاؤك غداً ، مع الأشقياء المعذبين . و إن كنت تزعم أنك هارب طالب ، فاغد فى ذلك على قدر ما أنت من عظم الخطر . ولا تغرنك الأمانى .

* * *

واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن الإسلام فى إدبار وانتقاص ، واضمحلال ودروس[١] .

جاء فى الحديث « تُرذلون فى كل يوم . و يُسرع بخياركم » وجاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « بدأ الإسلام غريباً . وسيعود غريباً كما بدأ[٢] » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « خير أمتى : القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . والآخر شر إلى يوم القيامة[٣] » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه « أنتم خير من أبنائكم ، وأبناؤكم خير من أبنائهم ، وأبناء أبنائكم خير من أبنائهم ، والآخر شر إلى يوم القيامة » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « يأتى زمان لايبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه[٤] » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « أن رجلاً قال : كيف نهلك ، ونحن نقرأ

---

(١) يعنى من القلوب ، وإلا فالإسلام الذى أرسل الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وأكمل به الدين وأتم به النعمة على الإنسانية وارتضاه لها ديناً يصلح به جميع شئونهم ويهديهم به إلى صراطه المستقيم فى كل أمرهم ـ لا يزال ولن يزال محفوظاً بحفظ الكتاب والسنة ، لتبقى حجة الله على العباد قائمة .

(٢) أخرجه مسلم والترمذى عن عمرو بن عوف .

(٣) متفق على معناه من حديث عمران بن حصين .

(٤) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث على .

القرآن ، ونقرئه أبناءنا ، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم ؟! قال : ثكلتك أمك ، أو ليس اليهود والنصارى يقرؤن التوراة والإنجيل ؟ قال : بلى ، يارسول الله ، قال : فما أغنى ذلك عنهم ؟ قال : لاشيء يارسول الله[1] » .

وقد أصبح النـاس فى نقص عظيم شديد من دينهم عامة ، ومن صلاتهم خاصة . فأصبح الناس فى صلاتهم ثلاثة أصناف : صنفان لاصلاة لهم .

أحدهما : الخوارج والروافض والمشبهة ، وأهل البدع يحقرون الصلاة فى الجماعات ، ولا يشهدونها مع المسلمين فى مساجدهم ، بشهادتهم علينا بالـكفر ، و بالخروج من الإسلام .

والصنف الثانى : من أصحاب اللهو واللعب ، والعكوف على هذه المجالس الرديئة على الأشربة والأعمال السيئة .

والصنف الثالث : هم هل الجماعة ، الذين لايَدَعون حضور الصلاة عند النداء بها ، وشهودها مع المسلمين فى مساجدهم . فهؤلاء خير الأصناف الثلاثة . وهؤلاء ـ مع خيرهم وفضلهم على غيرهم ـ قد ضيعوها . ورفضوها ، إلا ماشاء الله ، لمسابقتهم الإمام فى الركوع والسجود ، والخفض والرفع ، أو مع فعله . و إنما ينبغى لهم : أن يكونوا بعد الإمام فى جميع حالاتهم .

* * *

ولقد أخبرنا من صلى فى المسجد الحرام أيام الموسم قال : رأيت خلقاً كثيراً فيه يسابقون الإمام . وأهل الموسم من كل أفق ـ من خراسان ، وأفر يقية ، وأرمينية ، وغيرها من البلاد ، إلا ماشاء الله ـ وقد رأينا تصديق ذلك . ترى الخراسانى : يقدم من خراسان حاجاً . يسبق الإمام إذا صلى معه . وترى الشامى كذلك ، والإفر يقى ، والحجازى ، وغيرهم كذلك . قد غلبت عليهم المسابقة .

(١) أخرجه أحمد فى المسند وابن ماجة من حديث زياد بن لبيد . ورواه الترمذى بنحوه . ورواه الدارمى من حديث أبى أمامة .

وأعجب من ذلك : أقوام يسبقون إلى الفضل ، ويبكرون إلى الجمعة ، طلباً للفضل فى التبكير ، ومنافسة فيه ، فربما صلى أحدهم الفجر بالمسجد الجامع ، حرصاً على الفضل ، وطلباً له . فلا يزال مصلياً وراكعا وساجداً ، وقائماً وقاعداً ، وتالياً للقرآن ، وداعياً لله عز وجل ، وراغباً وراهباً ، وهذه حاله إلى المغرب . وهو ـ مع هذا كله ـ يسابق الإمام ، خِدَعاً من الشيطان لهم ، واستيلاء عليهم ، يخدعهم عن الفريضة الواجبة عليهم ، اللازمة لهم ، فيركعون ويسجدون معه ، ويرفعون ويخفضون معه ، جهلاً منهم ، وخدعاً من الشيطان لهم . فهم يتقربون بالنوافل التى ليست بواجبة عليهم . ثم يضيعون الفرائض الواجبة عليهم . وقد جاء الحديث « لا يقبل الله نافلة حتى تؤدى الفريضة » .

وإنما يطلب الفضل فى التبكير إلى الجمعة : غير المضيع للأصل . لأنه قد يستغنى بالأصل عن الفضل ، ولا يستغنى بالفضل عن الأصل . فمن ضيع الأصل فقد ضيع الفضل ، ومن ضيع الفضل وتمسك بالأصل وأحكمه كفى به ، واستغنى عن الفضل .

وإنما مثلك فى طلب الفضل ، وتضييعك الأصل : كمثل تاجر اتجر . فجعل ينظر فى الربح ويحسبه ، ويفرح به قبل أن يُؤرِّج[1] رأس المال . فلم يزل كذلك يفرح بالربح ، ويغفل عن النظر فى رأس المال ، فلما نظر إلى رأس ماله رآه قد ذهب وذهب الربح ، فلم يبق رأس مال ولا ربح .

* * *

فرحم الله رجلاً رأى أخاه يسبق الإمام ، فيركع أو يسجد قبله أو معه ، أو يصلى وحده ، فيسىء فى صلاته : فينصحه . ويأمره وينهاه . ولا يسكت عنه . فإن نصيحته واجبة عليه . لازمة له . وسكوته عنه إثم ووزر . فإن الشيطان يريد

---

(١) التأريج : فى حساب الأموال : هو أن يثبت تحت كل اسم دفعات القبض ليسهل عقده بالحساب . وهو ما نسميه اليوم « مسك الدفاتر » .

أن تسكتوا عن الـكلام بما أمركم الله ، وأن تدعوا التعاون على البر والتقوى ، الذى أوصاكم الله به . والنصيحةَ التى عليكم من بعضكم لبعض ، لتكونوا مأثومين مأزورين ، ولا تكونوا مأجورين ، ويضمحـل الدين ويذهب ، وأن لا تحيوا سُنة ، ولا تميتوا بدعة .

فأطيعوا الله فيما أمركم به : من التناصح والتعاون على الـبر والتقوى ، ولا تطيعوا الشيطان . فإن الشيطان لـكم عدو مُضِلٌّ مبين ؛ بذلك أخبركم الله عز وجل . فقال (٣٥ : ٦ إن الشيطان لـكم عدو فاتخذوه عدواً) وقال تعالى (٧ : ٢٧ يابنى آدم ، لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) .

* * *

واعلموا أنه ما جاء هذا النقص فى الصلاة : إلا من المنسوبين إلى الفضل ، المبكرين إلى الجماعات والجمعات ، ممن بالمشرق والمغرب من أهل الإسلام ، لسكوت أهل العلم والفقه والبصر عنهم . وتركهم ما لزمهم من النصيحة والتعليم والأدب ، والأمر والنهى ، والإنـكار والتغيير . فجرى أهل الجهـالة على المسابقة للامام . وجرى معهم كثير ممن ينسب إلى العلم والفقه ، والبصر والفضل ، استخفافا منهم بالصلاة .

والعجب كل العجب من اقتداء أهل العلم بأهل الجهالة ، ومَجْراهم معهم فى المسابقة للامام ، فى السجود والرفع والخفض ، وفعلهم معهم ، وتركهم ما حُمِّلوا وسمعوا من الفقهاء والعلماء . وإنما الحق الواجب على العلماء : أن يعلموا الجاهل وينصحوه ، ويأخذوا على يده . فهم فيما تركوه آثمون ، عصاة خائنون ، لجريانهم معهم فى ذلك ، وفى كثير من مساويهم ، من الغش والنميمة ، ومَحْقَرَة الفقراء والمستضعفين وغير ذلك من المعاصى مما يكثر تعداده . وجاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه » .

فتعليم الجاهل واجب على العالم ، لازم له . لأنه لا يكون الويل للعالم من

تطوع تركه ، لأن الله لايؤاخذ على ترك التطوع . إنما يؤاخذ على ترك الفرائض .

وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان [١] » .

والمضيع لصلاته ، الذى يسابق الإمام فيها ، ويركع ويسجد معه ، أو لايتم ركوعه ولا سجوده إذا صلى وحده : فقد أتى منكراً . لأنه سارق . وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « شر الناس سرقة : الذى يسرق من صلاته ، قالوا : يارسول الله ، وكيف يسرق من صلاته ؟ قال : لايتم ركوعها ، ولاسجودها [٢] » فسارق الصلاة : قد وجب الإنكار عليه ممن رآه ، والنصيحة له .

أرأيت لو أن سارقاً سرق درهماً ، ألم يكن ذلك منكراً يجب الإنكار عليه ممن رآه ؟ فسارق الصلاة : أعظم سرقة من سارق الدرهم .

وجاء الحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال « من رأى من يسىء فى صلاته . فلم ينهه : شاركه فى وزرها وعارها » وجاء فى الحديث عن بلال بن سعد أنه قال « الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، فإذا ظهرت فلم تغير : ضرت العامة [٣] » وإنما تضر العامة : لتركهم ما يجب عليهم من الإنكار . والتغيير على الذى ظهرت منه الخطيئة . فلو أن عبداً صلى حيث لايراه الناس ، فضيع صلاته ، ولم يتم الركوع ولا السجود : كان وزر ذلك عليه خاصة . وإذا فعل ذلك حيث يراه الناس ، فلم ينكروه ولم يغيروه : كان وزر ذلك عليه وعليهم .

(١) أخرجه مسلم وغيره من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٢) رواه أحمد فى المسند من حديث أبى قتادة : ورواه مالك والدارمى وأحمد من حديث النعمان بن مرة . وفى النسخ الأخرى « أسوأ الناس سرقة » .

(٣) هذا من كلام بلال بن سعد التابعى العابد . وروى الإمام أحمد فى المسند عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا ظهرت المعاصى فى أمتى عمهم الله بعذاب من عنده » .

فاتقوا الله عباد الله فى أموركم عامة ، وفى صلاتكم خاصة ، وأحكموها فى أنفسكم وانصحوا فيها إخوانكم . فإنها آخر دينكم . فتمسكوا بآخر دينكم ، وبما أوصاكم به ربكم من بين الطاعات التى افترضها الله عامة ، وتمسكوا بما عهد إليكم نبيكم صلى الله عليه وسلم خاصة ، من بين عهوده إليكم فيما افترض عليكم ربكم عامة .

وجاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان آخر وصيته لأمته ، وآخر عهده إليهم ، عند خروجه من الدنيا : اتقوا الله فى الصلاة ، وفيما ملكت أيمانكم[(١)] » وجاء الحديث « أنها آخر وصية كل نبى لأمته ، وآخر عهده إليهم عند خروجه من الدنيا » وهى آخر ما يذهب من الإسلام . ليس بعد ذهابها إسلام ولا دين ، وهى أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله . وهى عمود الإسلام ، وإذا سقط العمود : سقط الفسطاط . فلا ينتفع بالطّنُبِ والأوتاد ، وكذلك الصلاة إذا ذهبت فقد ذهب الإسلام .

وقد خصها الله بالذكر من بين الطاعات كلها . ونسب أهلها إلى الفضل . وأمر بالاستعانة بها ، والصبر عليها على جميع الطاعات ، واجتناب جميع المعصية .

* * *

فاءمُروا — رحمكم الله — بالصلاة فى المساجد من تخلف عنها ، وعاتبوهم إذا تخلفوا عنها . وأنكروا عليهم بأيديكم . فإن لم تستطيعوا فبألسنتكم .

واعلموا أنه لا يسعكم السكوت عنهم ، لأن التخلف عن الصلاة من عظيم المعصية . فقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقد هممتُ أن آمر بالصلاة فتقام . ثم أخالفَ إلى قوم فى منازلهم ، لا يشهدون الصلاة فى جماعة ، فأحرقها عليهم[(٢)] » .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند وابن ماجة من حديث أم سلمة . وأخرجه أحمد والنسائى وابن ماجة وابن حبان من حديث أنس . وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عمر . (٢) رواه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة .

فتهددهم النبي صلى الله عليه وسلم بحرق منازلهم . فلولا أن تخلفهم عن الصلاة معصية كبيرة عظيمة : لما تهددهم النبي صلى الله عليه وسلم بحرق منازلهم .

وجاء الحديث « لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد[١] » وجار المسجد : الذى بينه و بين المسجد أر بعون داراً[٢] .

* * *

فالصلاة أول فريضة فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى آخر ما أوصى به أمته عند خروجه من الدنيا . وهى آخر مايذهب من الإسلام ، ليس بعد ذهابها إسلام ولا دين .

جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من سمع المؤذن فلم يجبه . فلا صلاة له ، إلا من عذر[٣] » .

وجاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « أنه فقد رجلا فى الصلاة . فأتى منزله . فصوت به . فخرج الرجل . فقال : ماحبسك عن الصلاة ؟ قال : عِلّة ياأمير المؤمنين ، ولولا أنى سمعت صوتك ماخرجت ـ أو قال : مااستطعت أن أخرج ـ

---

(١) أخرجه الدارقطنى من حديث جابر وأبى هريرة . وأخرجه الحاكم فى المستدرك من حديث أبى هريرة .

(٢) إلى هنا قد انتهت رسالة الصلاة فى المخطوطتين . وقد كملناها من النسخ الأخرى ، لعظيم الفائدة فيها .

ورحم الله الإمام أحمد ورضى عنه وعن إخوانه سلفنا من أئمة الهدى وجزاه الله وجزاهم عن المسلمين خيراً . فلقد صدق وأوفى فى النصيحة للمسلمين فى أهم دينهم . اللهم وفقنا والمسلمين للعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهم وإقامة كل ديننا على هداه .

(٣) قال المنذرى فى الترهيب من ترك حضور الجماعة : قال أبو بكر بن المنذر روينا عن غير واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : « من سمع النداء ، ثم لم يجب من غير عذر ، فلا صلاة له » منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعرى . وقد روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر : لقد تركتَ دعوة من هو أوجب عليك إجابة منى : منادى الله إلى الصلاة » وجاء عن عمر « أنه فقد أقوماً فى الصلاة . فقال : مابال أقوام يتخلفون عن الصلاة . فيتخلف لتخلفهم آخرون ؟ لَيحضُرُنَّ المسجد ، أو لأبعثن إليهم من يَجَأ فى رقابهم[١] ، ثم يقول : احضروا الصلاة ، احضروا الصلاة » .

وجاء الحديث عن عبد الله بن أم مكتوم : أنه قال « يارسول الله ، إنى شيخ ضرير البصر ، ضعيف البدن ، شاسع الدارِ ، بينى و بين المسجد نخل وواد . فهل لى من رخصة إن صليت فى منزلى ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أتسمع النداء ؟ قال : نعم ، قال : أجب[٢] » .

فلم يرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ضرير البصر ، ضعيف البدن ، شاسع الدار ، بينه و بين المسجد نخل وواد : فى التخلف عن الصلاة . فلوكان لأحد عذر فى التخلف : لرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم لشيخ ضعيف البدن ، ضرير البصر ، شاسع الدار ، بينه و بين المسجد نخل وواد .

* * *

فأنكروا ـ رحمكم الله ـ على المتخلفين عن الصلاة . فإن ذنوبهم فى تخلفهم عظيمة . وأنتم شركاؤهم فى عظيم تلك الذنوب ، إن تركتم نصيحتهم والإنكار عليهم وأنتم تقدرون على ذلك .

وجاء الحديث عن أبى الدرداء عن ابن مسعود « إن الله تبارك وتعالى سَنّ لكل نبي سنة . وسَنَّ لنبيكم . فمن سنة نبيكم : هذه الصلوات الخمس فى جماعة . وقد علمت : أن لكل رجل منكم مسجدًا فى بيته . ولو صليتم فى بيوتكم لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم[٣] » .

---

(١) وجأه فى عنقه : لكزه بيده ، أو بعود ، أو نحوه .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند ومسلم وأبو داود .

فاتقوا الله واءمُروا بالصلاة فى جماعة مَنْ تخلف عنها ، و إن لم تفعلوا تـكونوا آثمين . ومن أوزارهم غير سالمين ، لوجوب النصيحة لإخوانكم عليكم ، ولوجوب إنكار المنـكر عليكم بأيديكم . فإن لم تستطيعوا فبألسنتكم .

وقد جاء الحديث « يجيء الرجل يوم القيامة متعلقاً بجاره . فيقول : يارب هذا خانني ، فيقول : يارب ، وعزتك ، ماخُنْتُه فى أهل ولا مال . فيقول : صدق يارب ، ولـكنه رآنى على معصية فلم ينهنى عنها[1] » .

والمتخلف عن الصلاة عظيم المعصية . فاحذر تعلقه بك غدا ، وخصومته إياك بين يدى الجبار . ولاتَدَعْ نصيحته اليوم ، إن شتمك وآذاك وعاداك . فإن معاداته لك اليوم أهون من تعلقه بك غدا ، وخصومتِه إياك بين يدى الجبار ، ودَحْضِه حجتك فى ذلك المقام العظيم . فاحتمل الشتمة اليوم لله . وفى الله . لعلك تَفُوز غدا مع النبيين والتابعين لهم فى الدين .

و إن رأيتم اليوم من يصلى تطوعا ، ولا يقيم صلبه بين الركوع والسجود : فقد وجب عليكم أمره ونهيه ونصيحته ، فإن لم تفعلوا كنتم شركاءه فى الإساءة والوزر والإثم والتضييع .

* * *

واعلموا أن مما جهل الناس : أن أحدهم يصلى متطوعاً . ولا يتم الركوع ولا السجود ، ولا يقيم صلبه . لأنه تطوع ، فيظن أن ذلك يجزيه . وليس يجزيه ذلك عن التطوع . لأنه من دخل فى التطوع فقد صار واجبا عليه لازما له . يجب عليه إتمامه و إحكامه ، كما أن الرجل لو أحرم بحجة تطوعا : وجب عليه قضاؤها ، و إن أصاب فيها صيداً : وجبت عليـه الـكفارة . وكما أن الرجل لو صام يوماً

(١) ذكره المنـذرى فى الترغيب فى الأمر بالمعروف عن أبى هريرة قال « كنا نسمع : أن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة ـ وهو لا يعرفه ـ فيقول له : مالك إلى ؟ وما بينى و بينك معرفة . فيقول : كنت ترانى على الخطأ وعلى المنكر ولاتنهانى » قال المنذرى : ذكره رزين ، ولم أره .

تطوعاً ، ثم أفطر عند العصر : وجب عليه قضاء هذا اليوم . وكما أن الرجل لو تصدق بدرهم على فقير ، ثم أخذه منه : وجب عليه رد ذلك الدرهم على الفقير .

فكل تطوع دخل فيه فقد لزمه ، ووجب عليه أداؤه تاماً محكماً . لأنه حين دخل فيه فقد أوجبه على نفسه . ولو لم يدخل فيه لم يكن عليه شيء .

فإذا رأيتم من يصلي تطوعاً ، أو فريضة ، فاءمُروه بتمام ذلك وإحكامه ، إن لاتفعلوه تكونوا آثمين . عصمنا الله وإياكم .

* * *

وقد قال بعض أهل الجهل : ليس على من سبق الإمام ساهيا شيء ، تأويلا منهم للحديث الذي جاء « ليس على من خلف الإمام سهو » .

وقد جاء الحديث بذلك ، ولكنهم أخطئوا معناه وتأويله . إنما معناه : من قام ساهيا فيما ينبغي له أن يجلس فيه ، أوجلس ساهياً فيما ينبغي له أن يقوم فيه ، أو سها فلم يَدْرِ : كم صلى ؟ ثلاثاً . أو أربعاً ، أو ترك بعض التكبيرات ساهيا . فليس عليه سهو . ليس ذلك فيمن سبق الإمام . لم يجيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن المهاجرين والأنصار بيان لمن سبق الإمام ساهياً أو غير ساه .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم « أما يخاف الذي يرفع رأسه قبل الإمام : أن يحول الله رأسه رأس حمار » لم يقل : إلا أن يكون ساهيا ، ولم يأمره بسجدتي السهو

وقول ابن مسعود « لاوحدك صليت ، ولا بإمامك اقتديت » لم يقل : إلا أن تكون ساهياً ، ولم يأمره بسجدتي السهو .

وقول ابن عمر « لاصليت وحدك ، ولا صليت مع الإمام » لم يقل : إلا أن تكون ساهياً . ولم يأمره بسجدتي السهو ، ولكن ضربه وأمره بالإعادة .

وقول سلمان « الذي يرفع رأسه قبل الإمام ، ويخفض قبله : ناصيته بيد الشيطان ، يخفضه ويرفعه » ولم يقل : إلا أن يكون ساهيا . ولم يأمره بسجدتي السهو .

وقد سها النبي صلى الله عليه وسلم . وسها عمر . وسها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمنهم من سها وترك القراءة في الركعتين الأوليين ثم قرأ في الأخريين ومنهم من سها فقام فيما ينبغى له أن يجلس فيه . وجلس فيما ينبغى أن يقوم فيه ففى هذا كله وفيما أشبهه : سجدتا السهو . بذلك جاءت الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه رضى الله عنهم ، وذلك هو السنة .

فأما سبق الإمام : فإنما جاء عنهم « أنه لا صلاة له » على ما فسرت لك من قولهم « من سبق الإمام فلا صلاة له » ساهياً كان أو غير ساه .

وليس للسهو ههنا موضع يعذر فيه صاحبه . وكيف يجوز السهو ههنا ؟ وهو إذا رأى الإمام قد هَوَى من قيامه : بادره فسجد قبله ، أو ينظر إلى الإمام ساجداً بعده ، وهو قد رفع رأسه ، أو ينظر إليه يريد أن يسجد فيبادر إلى السجود قبله ، أو ساعة يفرغ الإمام من القراءة : يبادر فيركع قبله من قبل أن يكبر الإمام فيركع و إنما ينبغى فى هذا كله : أن ينتظر حتى يركع ، أو يسجد ، أو يرفع ، أو يخفض ، و ينقطع تكبيره فى ذلك كله ، ثم يتبعه بعد فعل الإمام ، و بعد انقطاع تكبيره . ليس للسهو ههنا موضع يعذر به صاحبه . ولم يعذره النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا أصحابه رضى الله عنهم . ولا أمروه بسجدتى السهو ، ولكن أمروه بالإعادة . وخَوَّفه النبي صلى الله عليه وسلم « أن يحول الله رأسه رأس حمار » و إنما ذلك لاستخفافه بالصلاة واستهانته بها ، وصغر خطرها فى قلبه .

فليحذر جاهل أن يعذر نفسه فيما لا عذر له فيه ، فيحتمل وزر نفسه ووزر من يفتنه بحجة مدحوضة ، لم يحتج بها أحد من الأبرار .

* * *

فاعتنوا عباد الله بصلاتكم . فإنها آخر دينكم . وليحذر امرؤ . أن يظن أنه قد صلى وهو لم يصل . فإنه جاء الحديث « إن الرجل يصلى ستين سنة وماله صلاة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يتم الركوع ولا يتم السجود . ويتم السجود ولا يتم

الركوع » وجاء الحديث عن حذيفة « أنه رأى رجلا يصلى ، ولا يتم ركوعه . ولا سجوده ، فقال حذيفة : منذ كم تصلى هذه الصلاة ؟ قال : منذ أربعين سنة . قال حذيفة : ماصليت . ولو مت : لمت على غير الفطرة[١] »

وجاء الحديث عن عبد الله بن مسعود « أنه بينما كان يحدث أصحابه . إذ قطع حديثه . فقالوا له : مالك يا أبا عبدالرحمن قطعت حديثك ؟ قال : إنى أرى عجباً ! أرى رجلين . أما أحدهما : فلا ينظر الله إليه . وأما الآخر : فلا يقبل الله صلاته ، قالوا : من هما ؟ فقال : أما الذى لا ينظر الله إليه : فذلك الذى يمشى يختال فى مِشْيته . وأما الذى لايقبل الله صلاته : فذلك الذى يصلى ولا يتم ركوعه ولا سجوده » .

وجاء الحديث « أن رجلا دخل المسجد ، فصلى . ثم جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : صليت يافلان ؟ قال : نعم يارسول الله . قال : ماصليت ، قُمْ فأعِدْها . فأعادها . ثم جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : صليت يافلان ؟ قال : نعم ، يارسول الله . قال : ماصليت . قم فأعدها . فأعادها . فلما كانت الثالثة ، أو الرابعة : علمه رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه البخارى فى « باب إذا لم يتم الركوع » ولم يذكر « منذ أربعين سنة » قال الحافظ فى الفتح (ج ٢ ص ١٨٦) فى رواية عبد الرزاق « فجعل ينقر ولا يتم ركوعه » زاد أحمد عن محمد بن جعفر عن شعبة « منذ كم صليت ؟ فقال : منذ أربعين سنة » ومثله فى رواية الثورى . وللنسائى من طريق طلحة بن مطرف عن زيد بن وهب مثله . وفى حمله على ظاهره : نظر . وأظن ذلك هو السبب فى كون البخارى لم يذكر ذلك . وذلك : لأن حذيفة مات سنة ست وثلاثين . فعلى هذا : يكون ابتداء صلاة المذكور : قبل الهجرة بأربع سنين ، أو أكثر . ولعل الصلاة لم تكن فرضت بعد . فلعله أطلق وأراد المبالغة . اه ولعل هذا كما فى قول الله تعالى (٩ : ٨١ استغفر لهم أولا تستغفر لهم . إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)

عليه وسلم كيف يصلى . فصلى كما علمه النبى صلى الله عليه وسلم[(١)] » .

فرحم الله امرءاً احتسب الأجر والثواب . فبث هـذا الـكتاب فى أقطار الأرض . فإن أهل الإسلام محتاجون إليه ، لما قد شملهم من الاستخفاف بصلاتهم والاستهانة بها . والله أعلم بالصواب .

خاتمـــة

يقول فقير عفو الله ورحمته : محمد حامد الفقى :

الحمد لله أولاً وآخراً ، و باطناً وظاهراً . وصلى الله وسلم و بارك على عبد الله ورسوله محمد إمام المهتدين . وعلى آله أجمعين . وجعلنا الله من آله وحز به المفلحين .

و بعد ، فهذه نصيحة ووصية الإمام أحمد رحمه الله فى الصلاة ، وقد رأى فى زمانه مادعاه إلى كتابة هذه النصيحة . فـكيف به لو رآهم اليوم ؟ فما أحوج الناس اليوم إلى هذه النصيحة وتـكرار قراءتها كل يوم ، بل كلما قام أحدهم إلى الصلاة . و بالأخص الذين ينتسبون إلى الإمام أحمد . فلقد رأيت منهم تقصيراً كبيراً جداً فى الصلاة ، وتسرعاً ، ور بما نقرا فى أدائها . استخفافا خطيراً بشأنها . وهى الصلة بين العبد ور به ، وهى الآية على الإيمان وحب الله .

ولقد حملنى و يحملنى على طبعها مراراً : مارأيت ، وما أسمع من لوم عنيف وتأنيب شديد على إطالتى الصـلاة ـ مع أنى لا أز يد فى الركوع والسجود عن ثلاث تسبيحات ـ وقلما أجعلها خمساً ـ لـكنها بالتمـكين ، كما وصى الإمام أحمد رضى الله عنه .

فاسأل الله لى ولإخوانى التوفيق والســداد فى القول والعمل ، وأن يسلك بنا مسلك سلفنا الصالح ، و يحشرنا فى زمرتهم يوم القيامة ، و يجعلنا من المؤمنين الخاشعين المفلحين . وصلى الله وسلم و بارك على خاتم المرسلين محمد وعلى آله أجمعين .

---

(١) هو حديث المسيء صلاته ، المشهور فى الصحاح والسنن ، من حديث أبى هريرة ورفاعة بن رافع وغيرهما رضى الله عنهم .

يريد الله ليطهركم . .

تفسير آية الوضوء ، مما لم ينشر قبل من غرر كلام

شيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ – ٧٢٨

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخ الإسلام ، علم الأعلام ، مفتى الأنام ، المجتهد الفقيه الإمام : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى . رحمه الله ورضى عنه :

قول الله عز وجل (٥ : ٦ يا أيها الذين آمنوا ، إذا قمتم إلى الصلاة : فاغسلوا وجوهكم ، وأيديكم إلى المرافق . وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين . وإن كنتم جُنباً فاطَّهَّرُوا . وإن كنتم مَرْضَى ، أو على سَفَر ، أو جاء أحدٌ منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ـ فلم تجدوا ماءً ـ فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه . مايريد الله ليجعل عليكم من حَرَج . ولكن يريد لِيُطَهِّرَكم ولِيُتِمَّ نعمته عليكم . لعلكم تشكرون) .

هذا الخطاب يقتضى : أن كل قائم إلى الصلاة فإنه مأمور بما ذكر : من الغسل ، والمسح . وهو الوضوء .

وذهبت طائفة : إلى أن هذا عام مخصوص .

وذهبت طائفة : إلى أنه يوجب الوضوء على كل من كان متوضئا . وكلا القولين ضعيف .

فأما الأولون : فإن منهم من قال : المراد بهذا : القائم من النوم . وهذا معروف عن زيد بن أسلم ، ومن وافقه من أهل المدينة من أصحاب مالك وغيرهم .

قالوا : الآية أوجبت الوضوء على النائم بهذا ، وعلى المتغوط بقوله « أو جاء أحد منكم من الغائط » وعلى لامس النساء بقوله « أو لامستم النساء » وهذا هو الحدَث المعتاد . وهو الموجب للوضوء عندهم .

ومن هؤلاء من قال : فيها تقديم وتأخير . تقديره : إذا قمتم إلى الصلاة من النوم ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء .

فيقال : أما تناولها للقائم من النوم المعتاد : فظاهر لفظها يتناوله . وأما كونها مختصة به ، بحيث لا تتناول من كان مستيقظا وقام إلى الصلاة : فهذا ضعيف . بل هى متناولة لهذا لفظا ومعنى .

وغالب الصلوات يقوم الناس إليها من يقظة . لا من نوم . كالعصر والمغرب والعشاء . وكذلك الظهر فى الشتاء . لكن الفجر يقومون إليها من نوم . وكذلك الظهر فى القائلة . والآية تعم هذا كله .

لكن قد يقال : إذا أمرت الآية القائم من النوم ـ لأجل الريح التى خرجت منه بغير اختياره ـ فأمرها للقائم الذى خرج منه الريح فى اليقظة أولى وأحرى . فتكون ـ على هذا ـ دلالة الآية على اليقظان بطريق تنبيه الخطاب ونحواه . وإن قيل : إن اللفظ عام ، يتناول هذا بطريق العموم اللفظى .

فهذان قولان متوجهان . والآية على القولين عامة . وتعم أيضاً القيام إلى النافلة بالليل والنهار ، والقيام إلى صلاة الجنازة ، كما سنبينه إن شاء الله .

فمتى كانت عامة لهذا كله : فلا وجه لتخصيصها .

وقالت طائفة : تقدير الكلام : إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون ، أو قد أحدثتم . فإن المتوضىء ليس عليه وضوء . وكل هذا عن الشافعى رحمه الله . ويوجبه الشافعى فى التيمم . فإن ظاهر القرآن يقتضى وجوب الوضوء والتيمم على كل قائم يخالف هذا[١] .

فإن كان قد قال هذا : كان له قولان .

ومن المفسرين من يجعل هذا قول عامة الفقهاء من السلف والخلف . لاتفاقهم على الحكم . فيجعل اتفاقهم على هذا الحكم اتفاقا على الاضمار ، كما ذكر أبو الفرج ابن الجوزى . قال : وللعلماء فى المراد بالآية قولان .

أحدهما : إذا قمتم إلى الصلاة محدثين فاغسلوا . فصار الحدث مضمراً فى

---

(١) كذا فى الأصل .

وجوب الوضوء . وهذا قول سعد بن أبي وقاص ، وأبي موسى ، وابن عباس ، رضي الله عنهم ، والفقهاء .

قال : والثاني ، أن الـكلام على إطلاقه من غير إضمار ، فيجب الوضوء على كل من يريد الصلاة ، محدثاً كان أو غير محدث .

وهذا مروى عن عكرمة وابن سيرين .

ونقل عنهم : أن هذا الحـكم غير منسوخ . ونقل عن جماعة من العلماء : أن ذلك كان واجباً بالسنة . وهو ما روى بريدة رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم ، صلى يوم الفتح خمس صلوات بوضوء واحد . وقال : عمداً فعلته ياعمر » .

قلت : أما الحـكم ـ وهو أن من توضأ لصلاة صلى بذلك الوضوء صلاة أخرى ـ فهذا قول عامة السلف والخلف . والخلاف فى ذلك شاذ . وقد علم بالنقل المتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه لم يكن يوجب الوضوء على من صلى ثم قام إلى صلاة أخرى . فإنه قد ثبت بالتواتر « أنه صلى بالمسلمين يوم عرفة الظهر والعصر جميعاً ، جمع بهم بين الصلاتين » وصـلى خلفه ألوف مؤلفة لا يحصيهم إلا الله . ولـما سلم من الظهر ، صلى بهم العصر . ولم يحدث وضوءاً . لا هو ولا أحد . ولا أمر الناس بإحداث وضوء . ولا نقل ذلك أحد . وهذا يدل على أن التجديد لا يستحب مطلقا .

وهل يستحب التجديد لـكل صلاة من الخمس ؟ فيه نزاع . وفيه عن أحمد رحمه الله روايتان .

وكذلك أيضاً لـما قدم مزدلفة « صلى بهم المغرب والعشاء جمعا » من غير تجديد وضوء للعشاء . وهو فى الموضعين قد قام هو وهم إلى صلاة بعد صلاة . وأقام لـكل صلاة إقامة . وكذلك سائر أحاديث الجمع الثابتة فى الصحيحين من حديث ابن عمر ، وابن عباس ، وأنس رضي الله عنهم . كلها تقتضى : أنه هو صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون خلفه ـ صلوا الثانية من المجموعتين بطهارة الأولى ، لم يحدثوا لها وضوءاً .

وكذلك هو صلى الله عليه وسلم قد ثبت عنه فى الصحيحين من حديث ابن عباس وعائشة وغيرهم « أنه كان يتوضأ لصلاة الليل . فيصلى به الفجر » مع أنه كان ينام حتى يَغُطَّ . ويقول « تنام عيناى ولاينام قلبى » فهذا أمر من أصح ما يكون أنه : كان ينام ثم يصلى بذلك الوضوء الذى توضأه للنافلة ، يصلى به الفريضة . فكيف يقال : إنه كان يتوضأ لكل صلاة ؟ .

وقد ثبت عنه فى الصحيح « أنه صلى الله عليه وسلم صلى الظهر . ثم قدم عليه وفد عبد القيس . فاشتغل بهم عن الركعتين بعد الظهر حتى صلى العصر ، ولم يحدث وضوءاً » .

وكان يصلى تارة الفريضة ثم النافلة . وتارة النافلة ثم الفريضة ، وتارة فريضة ثم فريضة . كل ذلك بوضوء واحد .

وكذلك المسلمون صلوا خلفه فى رمضان بالليل بوضوء واحد مرات متعددة .

وكان المسلمون على عهده يتوضأون ثم يصلون ما لم يحدثوا ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة . ولم ينقل عنه ـ لا بإسناد صحيح ولا ضعيف ـ : أنه أمرهم بالوضوء لكل صلاة .

فالقول باستحباب هذا يحتاج إلى دليل .

وأما القول بوجوبه : فمخالف للسنة المتواترة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولإجماع الصحابة . والنقل عن علي رضى الله عنه بخلاف ذلك لايثبت. بل الثابت عنه خلافه . وعليٌّ رضى الله عنه أجلُّ من أن يخفى عليه مثل هذا . والكذب على علي كثير مشهور . أكثر منه على غيره .

وأحمد بن حنبل رحمه الله ـ مع سعة علمه بآثار الصحابة والتابعين ـ أنكر أن يكون فى هذا نزاع . وقال أحمد بن القاسم : سألت أحمد عمن صلى أكثر من خمس صلوات بوضوء واحد ؟ فقال : لا بأس بذلك ، إذا لم ينتقض وضوءه . ما ظننت أن أحداً أنكر هذا .

وروى البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه قال « كان النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة . قلت : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : يجزىء أحدنا الوضوء ، ما لم يحدث » وهذا هو فى الصلوات الخمس المفرقة . ولهذا استحب أحمد ذلك فى أحد القولين ، مع أنه كان أحياناً يصلى صلوات بوضوء واحد . كما فى صحيح مسلم عن بريدة رضى الله عنه قال « صلى النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح خمس صلوات بوضوء واحد ، ومسح على خفيه . فقال له عمر : إنى رأيتك صنعت شيئاً لم تكن صنعته ؟ قال : عمداً صنعته يا عمر » .

والقرآن أيضاً يدل على أنه لا يجب على المتوضىء أن يتوضأ مرة ثانية من وجوه .

أحدها : أنه سبحانه قال (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) فقد أمر من جاء من الغائط ، ولم يجد الماء : أن يتيمم الصعيد الطيب . فدل على أن المجىء من الغائط يوجب التيمم . فلو كان الوضوء واجباً على من جاء من الغائط ومن لم يجىء ، فإن التيمم أولى بالوجوب . فإن كثيراً من الفقهاء يوجبون التيمم لكل صلاة . وعلى هذا فلا تأثير للمجىء من الغائط . فإنه إذا قام إلى الصلاة وجب الوضوء أو التيمم ، وإن لم يجىء من الغائط . ولو جاء من الغائط ، ولم يقم إلى الصلاة : لا يجب عليه وضوء ولا تيمم ، فيكون ذكر المجىء من الغائط عبثاً على قول هؤلاء .

الوجه الثانى : أنه سبحانه خاطب المؤمنين . لأن الناس كلهم يكونون محدثين فإن البول والغائط أمر معتاد لهم ، وكل بنى آدم مُحدِث . والأصل فيهم : الحدث الأصغر . فإن أحدهم من حين كان طفلاً قد اعتاد ذلك ، فلا يزال مُحدِثاً ، بخلاف الجنابة . فإنها إنما تعرض لهم عند البلوغ . والأصل فيهم : عدم الجنابة . كما أن الأصل فيهم : عدم الطهارة الصغرى . فلهذا قال « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » ثم قال « وإن كنتم جنباً فاطّهروا » فأمرهم بالطهارة الصغرى مطلقاً .

لأن الأصل : أنهم كلهم محدثون قبل أن يتوضَّئُوا . ثم قال « وإن كنتم جنباً فاطهروا » وليس منهم جُنبٌ إلا من أجنب . فلهذا فرق سبحانه بين هذا وهذا .

الثالث : أن يقال : الآية اقتضت وجوب الوضوء إذا قام المؤمن إلى الصلاة . فدل على أن القيام هو السبب الموجب للوضوء . وأنه إذا قام إلى الصلاة صار واجباً حينئذ وجوباً مضيقاً . فإذا كان العبد قد توضأ قبل ذلك : فقد أدى هذا الواجب قبل تضيقه . كما قال (٦٢:٩ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) فدل على أن النداء يوجب السعى إلى الجمعة . وحينئذ يتضيق وقته فلا يجوز أن يشتغل عنه ببيع ولا غيره . فإذا سعى إليها قبل النداء : فقد سابق إلى الخيرات . وسعى قبل تضيق الوقت . فهل يقول عاقل : إن عليه أن يرجع إلى بيته ليسعى عند النداء ؟ .

وكذلك الوضوء : إذا كان المسلم قد توضأ للظهر قبل الزوال . أو للمغرب قبل غروب الشمس . أو للفجر قبل طلوعه ، وهو إنما يقوم إلى الصلاة بعد الوقت . فمن قال : إن عليه أن يعيد الوضوء ، فهو بمنزلة من يقول : إن عليه أن يعيد السعى إذا أتى الجمعة قبل النداء .

والمسلمون على عهد نبيهم كانوا يتوضأون للفجر وغيرها قبل الوقت . وكذلك المغرب . فإن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعجلها ، ويصليها إذا توارت الشمس بالحجاب . وكثير من أصحابه كانت بيوتهم بعيدة من المسجد . فهؤلاء لو لم يتوضئوا قبل المغرب : لما أدركوا معه أول الصلاة . بل قد تفوتهم جميعاً لبعد المواضع . وهو نفسه صلى الله عليه وسلم لم يكن يتوضأ بعد الغروب ، ولا من حضر عنده فى المسجد ، ولا كان يأمر أحداً بتجديد الوضوء بعد المغرب . وهذا كله معلوم مقطوع به . وماأعرف فى هذا خلافا ثابتاً عن الصحابة : أن من توضأ قبل الوقت عليه أن يعيد الوضوء بعد دخول الوقت . ولا يستحب أيضاً لمثل هذا تجديد وضوء .

وإنما تكلم الفقهاء فيمن صلى بالوضوء الأول : هل يستحب له التجديد ؟

وأما من لم يصل به : فلا يستحب له إعادة الوضوء . بل تجديد الوضوء فى مثل هذا بدعة مخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما عليه المسلمون فى حياته وبعده إلى هذا الوقت .

فقد تبين أن هذا قبل القيام قد أدى هذا الواجب قبل تضييقه . كالساعى إلى الجمعة قبل النداء . وكمن قضى الدين قبل حلوله . ولهذا قال الشافعى وغيره : إن الصبى إذا صلى ثم بلغ لم يعد الصلاة . لأنها تلك الصلاة بعينها ، سابق إليها قبل وقتها . وهو قول فى مذهب أحمد . وهذا القول أقوى من إيجاب الإعادة . ومن أوجبها قاسه على الحج ، وبينهما فرق . كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع .

* * *

وهذا الذى ذكرناه فى الوضوء : هو بعينه فى التيمم . ولهذا كان قول العلماء : إن التيمم كالوضوء . فهو طهور المسلم ما لم يجد الماء . وإن تيمم قبل الوقت وتيمم للنافلة ، فيصلى به الفريضة وغيرها . كما هو قول ابن عباس . وهو مذهب كثير من العلماء ، أبى حنيفة وغيره . وهو أحد القولين عن أحمد .

والقول الآخر – وهو التيمم لكل صلاة – هو المشهور من مذهب مالك والشافعى وأحمد . وهو قول لم يثبت عن غيره من الصحابة ، كما قد بسط فى موضعه

* * *

فالآية محكمة ولله الحمد . وهى على ما دلت عليه ، من أن كل قائم إلى الصلاة فهو مأمور بالوضوء . فإن كان قد توضأ قبل ذلك فقد أحسن . وفعل الواجب قبل تضييقه ، وسارع إلى الخيرات ، كمن سعى إلى الجمعة قبل النداء .

فقد تبين أن الآية ليس فيها إضمار ولا تخصيص ، ولا تدل على وجوب الوضوء مرتين . بل دلت على الحكم الثابت بالسنن المتواترة ، وهو الذى عليه جماعة المسلمين . وهو وجوب الوضوء على المصلى . كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا

أحدث حتى يتوضأ . فقال رجل من حضرموت : ما الحدث يا أبا هريرة ؟ قال : فساء أو ضراط » وفى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يقبل الله صلاة بغير طُهور ، ولا صدقة من غلول » .

وهذا يوافق الآية الكريمة . فإنه يدل على أنه لابد من الطهور . ومن كان على وضوء فهو على طهور . و إنما يحتاج إلى الوضوء من كان محدثاً . كما قال « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » وهو إذا توضأ ثم أحدث : فقد دلت الآية على أمره بالوضوء إذا قام إلى الصلاة ، و إذا كان قد توضأ ، فقد فعل ما أمر به . كقوله : لا تصلى إلا بوضوء . أو لا تصلى حتى تتوضأ ونحو ذلك . مما بين أنه مأمور بالوضوء لجنس الصلاة ، الشامل لأنواعها وأعيانها . ليس مأموراً لكل نوع أو عين بوضوء غير وضوء الآخر . ولا فى اللفظ ما يدل على ذلك .

لكن هذا الوجه لا يدل على تقدم الوضوء على الجنس . كمن أسلم فتوضأ قبل الزوال أو الغروب ، أو كمن أحدث فتوضأ قبل دخول الوقت . بخلاف الوجه الذى قبله . فإنه يتناول هذا كله .

فصل

وقوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) يقتضى وجوب الوضوء على كل مصلٍ مرة بعد مرة . فهو يقتضى التكرار . وهذا متفق عليه بين المسلمين فى الطهارة . وقد دلت عليه السنة المتواترة ، بل هو معلوم بالاضطرار من دين المسلمين عن الرسول صلى الله عليه وسلم : أنه لم يأمرنا بالوضوء لصلاة واحدة . بل أمر بأن يتوضأ كلما صلى . ولو صلى صلاة بوضوء ، وأراد أن يصلى سائر الصلوات بغير وضوء : استتيب . فإن تاب و إلا قتل .

لكن المقصود هنا : دلالة الآية عليه ، وذلك من لفظ « الصلاة » فإن « الصلاة » هنا اسم جنس . ليس المراد صلاة واحدة . فقد أمر إذا قام إلى جنس الصلاة أن يتوضأ . والجنس يتناول جميع ما يصليه من الصلوات فى جميع عمره .

فإن قيل : هذا يقتضى عموم الجنس ، فمن أين التكرار ؟ فإذا قام إلى أى صلاة توضأ ، لكن من أين أنه إذا قام إليها يوماً آخر يتوضأ ؟ .

قيل : لأنه فى هذا اليوم الثانى قائم إلى الصلاة . فهو مأمور بالوضوء إذا قام إلى مسمى الصلاة . فحيث وجد قيام إلى مسمى الصلاة ، فهو مأمور بالوضوء متى وجد ذلك . فعليه الوضوء . وهو كقوله تعالى (١٧ : ٧٨ أقم الصلاة لدلوك الشمس) فالمراد : جنس الدلوك ، فهو مأمور بإقامة الصلاة له . وكذلك قوله (٥٠ : ٣٩ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) فهو متناول لكل طلوع وغروب . وليس المراد طلوعاً واحداً . فكأنه قال : قبل كل طلوع لها ، وقبل كل غروب . وأقم الصلاة عند كل دلوك . وكل صلاة يقوم إليها متوضئاً لها .

وقد تنازع الناس فى الأمر المطلق : هل يقتضى التكرار ؟ على ثلاثة أقوال فى مذهب أحمد وغيره .

قيل : يقتضيه ، كقول طائفة ، منهم القاضى أبو يعلى وابن عقيل .

وقيل : لا يقتضيه ، كقول كثير ، منهم أبو الخطاب .

وقيل : إن كان معلقاً بسبب اقتضى التكرار . وهذا هو المنصوص عن أحمد كآية الطهارة والصلاة .

فإن قيل : فهذا لا يتكرر فى الطلاق والعتق المعلق .

قيل : لأن عتق الشخص الواحد لا يتكرر . وكذلك الطلاق المعلق نفسه لا يتكرر ، بل الطلقة الثانية حكمها غير حكم الأولى . وهو محدود بثلاث . ولكن إذا قال الناذر : لله علىّ إن رزقنى الله ولداً أن أعتق عنه . وإذا أعطانى مالاً أن أزكيه ، أو أتصدق بعشره : تكرر . وبسط هذا له موضع آخر .

فصل

قوله تعالى (وإن كنتم مرضى ، أو على سفر ، أوجاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ــ الآية) هذا مما أشكل على بعض الناس .

فقال طائفة من النـاس « أو » بمعنى الواو ، وجعلوا التقدير : وجاء أحد منكم من الغائط . ولامستم النساء .

قالوا : لأن من مقتضى « أو » أن يكون كل من المرض والسفر موجبـاً للتيمم ، كالغائط والملامسة . وهذا مخالف لمعنى الآية ، فإن « أو » ضد الواو ، والواو : للجمع والتشريك بين المعطوف والمعطوف عليه .

وأما معنى « أو » فلا يوجب الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه ، بل يقتضي إثبات أحدهما . لـكن قد يكون ذلك مع إباحة الآخر . كقوله : جالس الحسن أو ابن سيرين ، وتعلم الفقه أو النحو ، ومنه خصال الـكفارة يخير بينها ، ولو فعل الجميع جاز . وقد يكون مع الحصر . يقال للمريض : كُلْ هذا ، أو هذا . وكذلك فى الخبر : هى لإثبات أحدهما ، إما مع عدم علم المخاطب . وهو الشك ، أو مع علمه . وهو الإيهام ، كقوله تعالى (٣٧ : ١٤٧ وأرسلناه إلى مائة ألف ، أو يزيدون) لـكن المعنى الذى أراده : هو الأصح ، وهو أن خطابه بالتيمم : للمريض والمسافر ، و إن كان قد جاء من الغائط ، أو جامع .

ولا ينبغى ـ على قولهم ـ أن يكون المراد : أن لا يباح التيمم إلا مع هذين . بل التقدير : بالاحتلام ، أو حدث بلا غائط ، فالتيمم هنا أولى . وهو سبحانه لما أمر كل قائم إلى الصلاة بالوضوء ، وأمرهم إذا كانوا جنباً : أن يطهروا ، وفيهم المحدث بغير الغائط ، كالقائم من النوم ، والذى خرجت منه الريح . ومنهم الجنب بغير جماع ، بل باحتلام . فالآية عمت كل محدث وكل جنب . فقال تعالى (و إن كنتم مرضى أو على سفر ـ فتيمموا) فأباح التيمم للمحدث والجنب إذا كان مريضاً أو على سفر ، ولم يجد ماء . والتيمم رخصة .

فقد يظن الظان : أنها لاتباح إلا مع خفيف الحدث والجنابة ، كالريح والاحتلام بخلاف الغائط والجماع . فإن التيمم مع ذلك ، والصلاة معه : مما تستعظمه النفوس وتهابه . فقد أنـكر بعض كبار الصحابة تيمم الجنب مطلقاً . وكثير من الناس

يهاب الصلاة مع الحدث بالتيمم ، إذ كان جعلُ التراب طهوراً كالماء : هو مما فضل الله به محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته . ومن لم يستحكم إيمانه : لا يستجيز ذلك .

فبين الله سبحانه : أن التيمم مأمور به مع تغليظ الحدث بالغائط ، وتغليظ الجنابة بالجماع . والتقدير : و إن كنتم مرضى أو مسافرين ، أو كان — مع ذلك — جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء .

ليس المقصود : أن يجعل الغائط والجماع فيما ليس معه مرض أو سفر . فإنه إذا جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامس النساء ، وليسوا مرضى ولا مسافرين . فقد بين ذلك بقوله (إذا قمتم الصلاة فاغسلوا وجوهكم) و بقوله (إن كنتم جنباً فاطهروا) فدلت الآية على وجوب الوضوء والغسل على الصحيح والمقيم .

وأيضاً فتخصيصه المجيء من الغائط والجماع : يُجَوِّز أن يكون لايتيمم فى هذه الحالة ، دون ما هو أخف من ذلك ، من خروج الريح ومن الاحتلام . فإن الريح كالنوم ، والاحتلام يكون فى المنام . فهناك يحصل الحدث والجنابة والإنسان نائم . فإذا كان فى تلك الحال يؤمر بالوضوء والغسل ، فإذا حصل ذلك وهو يقظان : فهو أولى بالوجوب . لأن النائم رفع عنه القلم ، بخلاف اليقظان .

ولكن دلت الآية على أن الطهارة تجب ، و إن حصل الحدث والجنابة بغير اختياره ، كحدث النائم واحتلامه . و إذا دلت على وجوب طهارة الماء فى الحال ، فوجوبها مع الحدث الذى حصل باختياره أو يقظته : أولى . وهذا بخلاف التيمم . فإنه لا يلزم إذا أباح التيمم للمعذور الذى أحدث فى النوم باحتلام أو ريح : أن يبيحه لمن أحدث باختياره . فقال تعالى (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) ليبين جواز التيمم لهذين . و إن حصل حدثهما فى اليقظة ، و بفعلهما و إن كان غليظا .

ولو كانت « أو » بمعنى الواو : كان تقدير الكلام : أن التيمم لا يباح إلا بوجود الشرطين — المرض ، والسفر — مع المجيء من الغائط والاحتلام . فيلزم من هذا أن

لا يباح مع الإحتلام ولا مع الحدث بلا غائط ، كحدث النائم ، ومن خرجت منه الريح . فإن الحكم إذا علق بشرطين لم يثبت مع أحدهما . وهذا ليس مراداً قطعاً ، بل هو ضد الحق . لأنه إذا أبيح مع الغائط الذى يحصل بالاختيار ، فمع الخفيف وعدم الاختيار أولى .

فتبين أن معنى الآية : و إن كنتم مرضى أو على سفر فتيمموا . و إن كان مع ذلك قد جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء . كما يقال : و إن كنت مريضاً أو مسافراً . والتقدير : و إن كنتم أيها القائمون إلى الصلاة — وأنتم مرضى أو مسافرين — قد جئتم من الغائط أو لامستم النساء . ولهذا قال من قال : إنها خطاب للقائمين من النوم : إن التقدير إذا قمتم إلى الصلاة ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء .

فإنه سبحانه ذكر أولاً فعلهم بقوله « إذا قمتم » « أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء » الثلاثة أفعال . وقوله « و إن كنتم مرضى أو على سفر » حال لهم . أى كنتم على هذه الحال . كقوله : و إن كنتم على حال العجز عن استعمال الماء — إما لعدمه ، أو لخوف الضرر باستعماله — فتيمموا إذا قمتم إلى الصلاة من النوم . أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء .

ولكن الذى رجحناه : أن قوله « إذا قمتم » عام : إما لفظا ومعنى ، و إما معنى

وعلى هذا فالمعنى : إذا قمتم إلى الصلاة فتوضئوا ، أو اغتسلوا إن كنتم جنبا . و إن كنتم مرضى أو مسافرين ، أو فعلتم ما هو أبلغ فى الحدث — جئتم من الغائط أو لامستم النساء — إذ التقدير : و إن كنتم مرضى أو مسافرين ، وقد قمتم إلى الصلاة أو فعلتم — مع القيام إلى الصلاة . والمرض أو السفر — هذين الأمرين : المجىء من الغائط ، والجماع . فيكون قد اجتمع قيامكم إلى الصلاة والمرض والسفر وأحد هذين . فالقيام موجب للطهارة ، والعذر مبيح ، وهذا القيام . فإذا قمتم وجب التيمم إن كان قياماً مجرداً . أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء .

ولـكن من الناس من يعطف قوله « أو جاء » « أو لامستم » على قوله « إذا قمتم » والتقدير : و إذا قمتم أو جاء أو لامستم . وهـذا مخالف لنظم الآية . فإن نظمها يقتضى أن هذا داخل فى جزاء الشرط . وقوله (و إن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فتيمموا) فإن الذى قاله قريب من جهة المعنى . ولـكن التقدير : و إن كنتم إذا قمتم إلى الصلاة مرضى أو على سفر ، أو كان مع ذلك : جاء أحد مكم من الغائط ، أو لامستم النساء . فهو تقسيم من مفرد ومركب .

يقول : إن كنتم مرضى أو على سفر قائمين إلى الصلاة فقط بالقيام من النوم أو القعود المعتاد . أو كنتم — مع هذا — : قد جاء أحد منـكم من الغائط ، أو لامستم النساء .

فقوله تعالى (و إن كنتم مرضى أو على سفر) خطاب لمن قيل لهم « إذا قمتم إلى الصـلاة فاغسلوا » و « إن كنتم جنباً فاطهروا » فالمعنى : يا أيها القائم إلى الصـلاة توضأ . و إن كنت جنباً فاغتسل . و إن كنت مريضاً أو مسافراً تيمم . أو كنت مع هذا وهذا ، مع قيامك إلى الصلاة ، وأنت محدث ، أو جنب . ومع مرضك وسفرك قد جئت من الغائط ، أو لامست النساء : فتيمم إن كنت معذوراً .

و إيضاح هذا : أنه من باب عطف الخـاص على العام الذى يخص بالذكر لامتيازه . وتخصيصه يقتضى ذلك . ومثل هذا يقال : إنه داخل فى العام ، ثم ذكر بخصوصه . و يقال : بل ذكره خاصاً يمنع دخوله فى العام . وهذا يجىء فى العطف بأو . وأما بالواو : فمثل قوله تعالى (٢ : ٩٨ وملائـكته وجبريل وميكال) وقوله (٣٣ : ٧ و إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح و إبراهيم — الآية) ومن هذا قوله (٢٩ : ٤٥ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنـكر) ونحو ذلك .

وأما فى « أوْ » ففى مثل قوله تعالى (٣ : ١٣٥ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) وقوله (٤ : ١١٠ ومن يعمل سوءاً

أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) وقوله (٤ : ١١٢ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) وقوله (٢ : ١٨٢ ومن خاف من موصٍ جَنَفًا أو إثما) فإن الجنف هو الميل عن الحق ، وإن كان عامداً

قال عامة المفسرين «الجنف» الخطأ و «الإثم» العمد . قال أبو سليمان الدمشقى : الجنف ، الخروج عن الحق . وقد يسمى « المخطىء والعامد » إلا أن المفسرين علقوا « الجنف » على المخطىء ، و « الإثم » على العامد . ومثله قوله (٧٦ : ٢٤ ولا تطع منهم آثماً أو كفورا) فإن « الكفور » هو الآثم أيضاً . لكنه عطف خاص على عام . وقد قيل : هما صنفان لموصوف واحد ، وهو أبلغ . فإن عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد ، كقوله (٨٧ : ٢ ، ٣ الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) وقوله (٥٧ : ٣ هو الأول والآخر والظاهر والباطن) وقوله (٢٣ : ١ ـ ٤ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون) ونظائر هذا كثيرة .

قال ابن زيد : الآثم ، المذنب الظالم والكفور . هذا كله واحد . قال ابن عطية : هو مخير فى أنه يعرف الذى ينبغى أن لا يطيعه بأى وصف كان من هذين . لأن كل واحد منهم فهو آثم . وهو كفور ، ولم يكن للأمة من الكثرة بحيث يغلب الإثم على المعاصى . قال : واللفظ إنما يقتضى نهى الإمام عن طاعة آثم من العصاة ، أو كفور من المشركين .

وقال أبو عبيدة وغيره : ليس فيها تخيير « أو » بمعنى الواو . وكذلك قال طائفة : منهم البغوى ، وابن الجوزى .

وقال المهدى : أى لا تطع من أثم أو كفر . ودخول « أو » يوجب أن لا تطيع كل واحد منهما على انفراده . ولو قال : ولا تطع منهما آثما أو كفورا ، لم يلزم النهى إلا فى حال اجتماع الوصفين .

وقد يقال : إن « الـكفور » هو الجاحد للحق ، و إن كان مجتهداً مخطئاً . فيكون هذا أعم من وجه ، وهذا أعم من وجه التمسك[١] .

وقوله تعالى (و إن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منـكم من الغائط أو لامستم النســاء) من هذ الباب . فإنه خاطب للمؤمنين . فقال (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) وهذا يتناول المحدثين كما تقدم . ثم قال (و إن كنتم جنبا فاطّهروا) ثم قال « و إن كنتم ـ مع الحدث والجنابة ـ مرضى أو على سفر ، ولم تجدوا ماءً فتيمموا » وهذا يتناول كل محدث ، سواء كان قد جاء من الغائط أو لم يجىء ، كالمستيقظ من نومه ، والمستيقظ إذا خرجت منه الريح . و يتناول كل جنب ، سواء كانت جنابته باحتلام أو جماع . فقال « و إن كنتم محدثون ـ جنب مرضى أو على سفر ـ أو جاء أحد منكم من الغائط » وهذا نوع خاص من الحدث « أو لامستم النساء » وهذا نوع خاص من الجنابة .

ثم قد يقال : لفظ « الجنب » يتناول النوعين ، وخص المجامع بالذكر ، وكذلك « القائم إلى الصــلاة » يتناول من جاء من الغائط ومن أحدث بدون ذلك ، لـكن خص الجائى بالذكر ، كما فى قوله (٢ : ١٨٢ فمن خاف من موص جنفا أو إثمــا) فالآثم هو المتعمد ، وتخصيصه بالذكر ـ و إن كان دخل ـ ليبين حكمه بخصوصه ، ولئلا يظن خروجه عن اللفظ العام . و إن كان لم يدخل فهو نوع آخر . والتقدير : إن كنتم مرضى أو على سفر فتيمموا . وهذا معنى الآية .

فصــل

وقوله (أو جاء أحد منـكم من الغائط) ذكر الحدث الأصغر . فالمجىء من الغائط هو مجىء من الموضع الذى يقضى فيه الحاجة . وكانوا ينتابون الأماكن المنخفضة ، وهى الغائط . وهو كقولك : جاء من المرحاض . وجاء من الـكنيف

(١) كذا فى الأصل

ونحو ذلك . هذا كله عبارة عمن جاء وقد قضى حاجته بالبول أو الغائط . والريح يخرج معهما .

وقد تنازع الفقهاء : هل تنقض الريح لكونها تستصحب جزءاً من الغائط . فلا يكون على هذا نوعا آخر ؟ أو هى لا تستصحب جزءا من الغائط . بل هى نفسها تنقض . ونقضها متفق عليه بين المسلمين . وقد دل عليه القرآن فى قوله « إذا قمتم » سواء كان أريد القيام من النوم أو مطلقا . فإن القيام من النوم : مراد على كل تقدير . وهو إنما نقض بخروج الريح . هذا مذهب الأئمة الأربعة ، وجمهور السلف والخلف : أن النوم نفسه ليس بناقض ، ولكنه مظنة خروج الريح

وقد ذهبت طائفة إلى أن النوم نفسه ينقض ، ونقض الوضوء بقليله وكثيره . وهو قول ضعيف . وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان ينام حتى يغط . ثم يقوم يصلى ولا يتوضأ ، ويقول : تنام عيناى ولاينام قلبى » .

فدل على أن قلبه الذى لم ينم كان يعرف به أنه لم يحدث ، ولو كان النوم نفسه كالبول والغائط والريح : لنقض كسائر النواقض .

وأيضا قد ثبت فى الصحيحين « أن الصحابة كانوا ينتظرون الصلاة حتى تخفق رءوسهم . ثم يصلون ولا يتوضؤون . وهم فى المسجد ينتظرون العشاء خلف النبى صلى الله عليه وسلم » .

وفى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شغل عن العشاء ليلة ، فأخرها حتى رقدنا فى المسجد ، ثم استيقظنا . ثم رقدنا ثم استيقظنا . ثم خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : ليس أحد من أهل الأرض الليلة ينتظر الصلاة غيركم » .

ولمسلم عنه قال « مكثنا ذات ليلة ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة . فخرج علينا حين ذهب ثلث الليل ، أو بعضه — ولا ندرى أى شىء شغله ، من أهله أو غير ذلك — فقال حين خرج : إنكم لتنتظرون صلاة

ما ينتظرها أهل دين غيركم . ولولا أن يثقل على أمتى لصليت بهم هذه الساعة . ثم أمر المؤذن فأقام الصلاة وصلى » .

ولمسلم أيضاً عن عائشة رضى الله عنها قالت « أعْتم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، حتى ذهب عامة الليل ، وحتى نام أهل المسجد . ثم خرج فصلى . فقال : إنه لوقتها . لولا أن أشق على أمتى » .

فى هذه الأحاديث الصحيحة : أنهم ناموا ، وقال فى بعضها « إنهم رقدوا ثم استيقظوا ثم رقدوا ثم استيقظوا » وكان الذين يصلون خلفه جماعة كثيرة ، وقد طال انتظارهم وناموا . ولم يستفصل أحد ، لا سئل ولا سأل الناس : هل رأيتم رؤيا ؟ أو هل مَكَّن أحدكم مقعدته ؟ أو هل كان أحدكم مستنداً ؟ وهل سقط شىء من أعضائه على الأرض ؟ فلو كان الحكم يختلف لسألهم .

وقد علم أنه فى مثل هذا الانتظار بالليل – مع كثرة الجمع – يقع هذا كله . وقد كان يصلى خلفه النساء والصبيان .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت « أعْتَم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالى بصلاة العشاء . فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال عمر بن الخطاب : نام النساء والصبيان . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لأهل المسجد ، حين خرج عليهم : ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم . وذلك قبل أن يفشو الإسلام فى الناس » .

وقد خرَّج البخارى هذا الحديث فى « باب خروج النساء إلى المسجد بالليل والغلس » وفى « باب النوم قبل العشاء لمن غلب عليه النوم » وخرجه فى « باب وضوء الصبيان وحضورهم الجماعة» وقال فيه « إنه ليس أحد من أهل الأرض يصلى هذه الصلاة غيركم » .

وهذا يبين أن قول عمر « نام النساء والصبيان » يعنى والناس فى المسجد ينتظرون الصلاة .

وهذا يبين أن المنتظرين للصلاة ، كالذى ينتظر الجمعة إذا نام أى نوم كان لم ينقض وضوءه . فإن النوم ليس بناقض . وإنما الناقض : الحدث . فإذا نام النوم المعتاد ، الذى يختاره الناس فى العادة — كنوم الليل والقائلة — فهذا يخرج منه الريح فى العادة ، وهو لا يدرى إذا خرجت ، فلما كانت الحكمة خفية لا نعلم بها : قام دليلها مقامها . وهذا هو النوم الذى يحصل هذا فيه فى العادة .

وأما النوم الذى يشك فيه : هل حصل معه ريح أم لا ؟ فلا ينقض الوضوء . لأن الطهارة ثابتة بيقين ، فلا تزول بالشك .

وللناس فى هذه المسألة أقوال متعددة ، ليس هذا موضع تفصيلها . لكن هذا هو الذى يقوم عليه الدليل .

وليس فى الكتاب والسنة نص يوجب النقض بكل نوم .

فإن قوله « العَيْنُ وِكَاءُ السَّهِ ، فإذا نامت العينان استُطْلِق الوكاء » قد روى فى السنن من حديث على بن أبى طالب ومعاوية رضى الله عنهما ، وقد ضعفه غير واحد . وبتقدير صحته : فإنما فيه « إذا نامت العينان استطلق الوكاء » وهذا يفهم منه : أن النوم المعتاد هو الذى يستطلق منه الوكاء . ثم نفس الاستطلاق لا ينقض . وإنما ينقض ما يخرج مع الاستطلاق . وقد يسترخى الإنسان حتى ينطلق الوكاء ولا ينتقض وضوءه .

وإنما قوله فى حديث صفوان بن عسال « أمرنا أن لا ننزع خفافنا ، إذا كنا سَفْراً — أو مسافرين — ثلاثة أيام ولياليهن ، إلا من جنابة . لكن من غائط أو بول أو نوم » فهذا ليس فيه ذكر نقض النوم . ولكن فيه : أن لابس الخفين لا ينزعهما ثلاثة أيام إلا من جنابة . ولا ينزعهما من الغائط والبول والنوم . فهو نهى عن نزعهما لهذه الأمور . وهو يتناول النوم الذى ينقض . ليس فيه : أن كل نوم ينقض الوضوء .

هذا إذا كان لفظ « النوم » فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم . فكيف إذا

كان من كلام الراوى ؟ وصاحب الشريعة قد يعلم أن النـاس إذا كانوا قعوداً أو قياماً فى الصلاة أو غيرها ، فينعس أحدهم وينام ، ولم يأمر أحداً بالوضوء فى مثل هذا

أما الوضوء من النوم المعروف عند الناس : فهو الذى يترجح معه فى العادة خروج الريح وأما ما كان قد يخرج معه الريح ، وقد لا يخرج : فلا ينقض على أصل الجمهور ، الذين يقولون : إذا شَكَّ هل ينقض أو لا ينقض ؟ أنه لا ينقض . بناء على يقين الطهارة .

فصـل

وهو سبحانه أمرنا بالطهارتين الصغرى والـكبرى ، و بالتيمم على كل منهما ، فقال (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) فأمر بالوضوء . ثم قال (و إن كنتم جنبـاً فاطهروا) فأمر بالتطهر من الجنابة ، كما قال فى المحيض (٢ : ٢٢٢ فلا تقر بوهن حتى يطهرن . فإذا تطهرن فأْتُوهن من حيث أمركم الله) وقال فى سورة النســاء (٤:٤٣ ولاجنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا) وهذا يبين أن التطهر هو الاغتسال

والقرآن يدل على أنه لا يجب على الجنب إلا الاغتســال ، وأنه إذا اغتسل جاز له أن يَقْرَب الصلاة . والاغتســال من الجنابة فليس عليه نية رفع الحدث الأصغر ، كما قال جمهور العلمـاء . والمشهور فى مذهب أحمد : أن عليه نية رفع الحدث الأصغر . وكذلك ليس عليه فعل الوضـوء ، ولا ترتيب ولا موالاة عند الجمهور . وهو ظاهر مذهب أحمد .

وقيل : لا يرتفع الحدث الأصغر إلا بهما .

وقيل : لا يرتفع حتى يتوضأ . روى ذلك عن أحمد .

والقرآن يقتضى : أن الاغتسال كافٍ . وأنه ليس عليه بعد الغسل من الجنابة حدث آخر . بل صار الأصغر جزءاً من الأكبر . كما أن الواجب فى الأصغر جزء من الواجب فى الأكبر . فإن الأكبر يتضمن غسل الأعضاء الأربعة .

ويدل على ذلك : قول النبى صلى الله عليه وسلم لأم عطية واللواتى غسلن

ابنته « اغسلنها ثلاثاً ، أو خمساً ، أو أكثر من ذلك ، إن رأيتن ذلك . وابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها » .

فجعل غسل مواضع الوضوء جزءاً من الغسل . لـكنه يقدم كما تقدم الميامن .

وكذلك الذين نقلوا صفة غسله ، كعائشة رضى الله عنها ، ذكرت « أنه كان يتوضأ ، ثم يفيض المـاء على شعره ، ثم على سائر بدنه » ولا يقصد غسل مواضع الوضوء مرتين ، وكان لا يتوضأ بعد الغسل .

فقد دل الـكتاب والسنة على أن الجنب والحائض لا يغسلان أعضاء الوضوء ، ولا ينويان وضوءاً ، بل يتطهران ويغتسلان كما أمر الله تعالى .

وقوله (فاطهروا) أراد به الاغتسال . فدل على أن قوله فى الحُيَّض « حتى يطهرن فإذا تطهرن » أراد به الاغتسال ، كما قاله الجمهور : مالك والشافعى وأحمد . وأن من قال : هو غسل الفرج . كما قاله داود ، فهو ضعيف .

فصـــل

قال الله عز وجل (وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء. فلم تجدوا ماء . فتيمموا صعيداً طيبا) .

فقوله « فلم تجدوا ماء » يتعلق بقوله « على سفر » لا بالمرض . والمريض يتيمم وإن وجد الماء . والمسافر إنما يتيمم إذا لم يجد الماء . ذكر سبحانه وتعالى النوعين الغالبين : الذى يتضرر باستعمال الماء ، والذى لا يجده .

وقوله « على سفر » يعم السفر الطويل والقصير ، كما قاله الجمهور .

وقوله « وإن كنتم مرضى » كقوله فى آية الخوف (٤ : ١٠٢ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى : أن تضعوا أسلحتكم) وقوله فى الإحرام (٢ : ١٩٦ فمن كان منـكم مريضاً أو به أذى من رأسه) وفى الصيام (٢ : ١٨٥ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) ولم يوقت الله تعالى وقتاً فى المرض .

والذى عليه الجمهور : أنه لا يشترط فيه خوف الهلاك . بل من كان الوضوء يزيد مرضه ، أو يؤخر برؤه ، يتيمم . وكذلك فى الصيام والإحرام . ومن يتضرر بالماء لبرد ، فهو كالمريض عند الجمهور . لكن الله ذكر الضرر العام ، وهو المرض . بخلاف البرد . فإنه إنما يكون فى بعض البلاد لبعض الناس الذين لا يقدرون على الماء الحار .

وكذلك ذكر المسافر الذى لا يجد الماء ، ولم يذكر الحاضر . فإن عدمه فى الحضر نادر . لكن قد يحبس الرجل وليس عنده إلا ما يكفيه لشربه . كما أن المسافر قد لا يكون معه إلا ما يكفيه لشربه وشرب دوابه . فهذا عند الجمهور عادم للماء فيتيمم .

فصل

وقوله (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) .

ذكر أعظم ما يوجب الوضوء . وهو قضاء الحاجة . وأغلظ ما يوجب الغسل ، وهو ملامسة النساء . وأمر كلا منهما ، إذا كان مريضاً أو مسافراً لا يجد الماء : أن يتيمم . وهذا هو مذهب جمهور الخلف والسلف .

وقد ثبت تيمم الجنب فى أحاديث صحاح وحسان ، كحديث عمار بن ياسر رضى الله عنهما . وهو فى الصحيحين . وحديث عمران بن حصين ، رضى الله عنه وهو فى البخارى . وحديث أبى ذر ، وعمرو بن العاص ، وصاحب الشَّجَّة رضى الله عنهم . وهو فى السنن .

فهاتان آيتان من كتاب الله ، وخمسة أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد عرفت مناظرة ابن مسعود فى ذلك لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما .

ولهذا نظائر كثيرة من الصحابة . إذا عرفتها تعرف دلالة الكتاب والسنة عن الرجل العظيم القدر ، تحقيقاً لقوله (٤ : ٥٩ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله

والرسول) ولا يرد هذا النزاع إلا إلى الله والرسول المعصوم المبلغ عن الله ، الذى لاينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . الذى هوالواسطة بين الله و بين عباده .

فصـــل

[مس المرأة لاينقض الوضوء]

ونذكر هذا على قوله (أو لامستم النساء) .

المراد به : الجماع . كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من العرب . وهو يروى عن على رضى الله عنه وغيره . وهو الصحيح فى معنى الآية . وليس فى نقض الوضوء من مس النساء ، لا كتاب ولا سنة . وقد كان المسلمون دائما يمسون نساءهم . وما نقل مسلم واحد عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه أمر أحداً بالوضوء من مَسِّ النساء .

وقول من قال : إنه أراد ما دون الجماع ، و إنه ينقض الوضـوء . فقد روى عن ابن عمر والحسن « باليـد » وهو قول جماعة من السلف فى المس بشهوة ، والوضوء منه حسن مستحب لإطفاء الشهوة ، كما يستحب الوضوء من الغضب لإطفائه . وأما وجوبه : فلا .

وأما المس المجرد عن الشهوة : فما أعلم للنقض به أصلا من السلف .

وقوله تعالى (أو لامستم النساء) لم يذكر فى القرآن الوضوء منه ، بل إنما ذكر التيمم ، بعد أن أمر المحدث القائم للصلاة : بالوضوء . وأمر الجنب بالاغتسال فذكر الطهارة بالصعيد الطيب ، ولا بد أن يبين النوعين .

وقوله (أو جاء أحد منكم من الغائط) بيان لتيمم هذا .

وقوله (أو لامستم النساء) لم يذكر واحداً منهما لبيان طهارة الماء .

إذا كان قد عرف أصل هذا . فقوله « إذا قمتم فاغسلوا » وقوله « و إن كنتم جنباً فاطهروا » فالآية ليس فيها إلا أن اللامس إذا لم يجد المـاء يتيمم . فـكيف يكون هذا من الحدث الأصغر ؟ يأمر من مس المرأة أن يتيمم ، وهو لم يأمره أن

يتوضأ . فكيف يأمر بالتيمم من لم يأمره بالوضوء ؟ وهو إنما أمر بالتيمم من أمره بالوضوء والاغتسال . ونظير هذا يطول . ومن تدبر الآية قطع بأن هذا هو المراد .

فصـل

ودلت الآية على أن المسافر : يجامع أهله ، وإن لم يجد الماء ، ولايكره له ذلك كما قاله الله فى الآية . وكما دلت عليه الأحاديث . حديث أبى ذر وغيره .

فصـل

التيمم يرفع الحدث الأكبر والأصغر

وقوله (فتيمموا صعيداً طيبا ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج . ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) دليل على أن التيمم مطهر كالماء سواء .

وكذلك ثبت فى صحيح السنة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الصعيد الطيب طَهور المسلم ، وإن لم يجد الماء عشر سنين . فإذا وجدت الماء فأمِسّه بشرتك فإن ذلك خير » رواه الترمذى وصححه ورواه أبو داود والنسائى .

وفى الصحيح عنه : قال « جُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعل التراب طهوراً فى طهارة الحدث وطهارة الجنب . كما قال فى حديث أبى سعيد « إذا أتى أحدكم المسجد فلْيَقْلِبْ نعليه فلينظر فيهما ، فإن كان بهما أذى ـ أو خبث ـ فليدلكهما بالتراب . فإن التراب لهما طهور » وقال فى حديث أم سلمة « ذيل المرأة يطهره مابعده » .

فدل على أن التيمم مطهر ، يجعل صاحبه طاهراً ، كما يجعل الماء مستعمله فى الطهارة طاهراً ، إن لم يكن جنباً ولامحدثاً . فمن قال : إن المتيمم جنب أو محدث ، فقد خالف الكتاب والسنة . بل هو متطهر .

وقوله فى حديث عمرو بن العاص رضى الله عنه « أصليت بأصحابك وأنت

جنب ؟ » استفهام . أى هل فعلت ذلك ؟ فأخبره عمرو رضى الله عنه : أنه لم يفعله بل تيمم لخوفه : أن يقتله البرد . فسكت صلى الله عليه وسلم عنه ، وضحك . ولم يقل شيئاً .

فإن قيل : إن هذا إنكار عليه : أنه صلى مع الجنابة . فإنه يدل على أن الصلاة مع الجنابة لا تجوز . فإنه صلى الله عليه وسلم لم ينكر ما هو منكر ، فلما أخبره : أنه صلى بالتيمم . دل على أنه لم يصل وهو جنب .

فالحديث حجة على من احتج به ، وجعل المتيمم جنباً ومحدثاً . والله يقول (وإن كنتم جنباً فاطهروا) فلم يُجزْ الله له الصلاةَ حتى يتطهر . والمتيمم قد تطهر بنص الكتاب والسنة . فكيف يكون جنباً غير متطهر ؟

لكنها طهارة بدل . فإذا قدر على الماء بطلت هذه الطهارة ، وتطهر بالماء حينئذ . لأن البول المتقدم جعله محدثاً . والصعيد جعله مطهراً ، إلى أن يجد الماء . فإن وجد الماء فهو محدث بالسبب المتقدم لا أن الحدث كان مستمراً .

ثم من قال : التيمم مبيح ، لا رافع فإن نزاعه لفظى . فإنه إن قال : إنه يبيح الصلاة مع الجنابة والحدث ، و إنه ليس بطهور ، فهو يخالف النصوص . والجنابة محرمة للصلاة . فيمتنع أن يجتمع المبيح والمحرم على سبيل التمام . فان ذلك يقتضى اجتماع الضدين . والمتيمم غير ممنوع من الصلاة . فالمنع ارتفع بالاتفاق ، وحكم الجنابة المنع . فإذا قيل بوجوده ، بدون مقتضاها — وهو المنع — فهذا نزاع لفظى .

فصل

الاستنجاء بالماء ليس بواجب

وفى الآية دلالة على أن المتخلى لا يجب عليه غسل فرجه بالماء ، إنما يجب الماء فى طهارة الحدث بسبيله . على أن إزالة النَّجْو والخبث لا يتعين لها الماء . فإنه على ذلك تدل النصوص . إذ كان النبى صلى الله عليه وسلم أمر فيها تارة بالماء ، وتارة بغير الماء ، كما قد بُسط فى مواضع[١] .

(١) كالحديث المتقدم فى صفحة ١٤٧ فى طهارة النعل بالدلك .

إذ المقصود هنا : التنبيه على ما دلت عليه الآية . فإن قوله (أو جاء أحد منكم من الغائط ، فلم تجدوا ماء فتيمموا) نصٌّ فى أنه عند عدم الماء يصلى و إن تغوط . بلا غَسْل .

وقد ثبت فى السنة « أنه يكفيه ثلاثة أحجار » وأما مع العذر : فإنه قال (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) وهذا يتناول كل قائم ، وهو يتناول من جاء من الغائط ، كما يتناول من خرجت منه الريح . فلو كان غسل الفرجين بالماء واجباً على القائم إلى الصلاة . لكان واجباً كوجوب غسل الأعضاء الأربعة .

والقرآن يدل على أنه لا يجب عليه إلا ما ذكره من الغسل والمسح . وهو يدل على أن المتوضىء والمتيمم متطهر . والفرجان جاءت السنة بالاكتفاء فيهما بالاستجمار .

وقوله تعالى (٩ :١٠٨ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المتطهرين) يدل على أن الاستنجاء مستحب ، يحبه الله ، لا أنه واجب[1] . بل لما كان غير هؤلاء من المسلمين لا يستنجون بالماء ــ ولم يذمهم على ذلك بل أقرهم . ولكن خص هؤلاء بالمدح ــ دل على جواز ما فعله غير هؤلاء . وأن فعل هؤلاء أفضل ، وأنه مما فضل الله به الناس بعضهم على بعض .

فصل

الترتيب فى الوضوء وغيره من العبادات والعقود ، والنزاع فيه مشهور .

فمذهب الشافعى وأحمد : يجب . ومذهب مالك وأبى حنيفة : لا يجب . وأحمد قد نص على وجوبه نصوصاً متعددة . ولم يذكر المتقدمون ــ كالقاضى ، ومن قبله ــ عنه نزاعاً .

قال أبو محمد : لم أر عنه فيه خلافا .

قال : وحكى أبو الخطاب : رواية أخرى عن أحمد : أنه غير واجب .

(١) على أن «المتطهرين» هنا هم المزكون أنفسهم بهدى الرسالة من أقذار الجاهلية

قلت : هذه أخذت من نصه في القبضة للاستنشاق . فلو أخر غسلها إلى ما بعد غسل الرجلين : ففيه عن أحمد روايتان منصوصتان . فإنه قال في إحدى الروايتين : إنه لو نسيهما حتى صلى : تمضمض واستنشق ، وأعاد الصلاة ، ولم يعد الوضوء . لما في السنن عن المقدام بن معديكرب « أنه أُتي بوَضوء . فغسل كفيه ثلاثاً ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ، ثم غسل ذراعيه ثلاثاً ثم تمضمض واستنشق »

فغير أبي الخطاب فرق بينهما و بين غيرهما ، بأن الترتيب إنما يجب فيما ذكر في القرآن . وهما ليسا في القرآن .

وأبو الخطاب ـ ومن تبعه ـ رأوا هذا فرقاً ضعيفاً .

فإن الأنف والفم لو لم يكونا من الوجه لما وجب غسلهما . ولهذا خَرَّج الأصحاب : أنهما من الوجه . كما قال الخرقي وغيره « والفم والأنف من الوجه » ولأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بهما غسل الوجه . يبدأ بغسل ما بطن منه . وقدم المضمضة ، لأن الفم أقرب إلى الظاهر من الأنف . ولهذا كان الأمر به أوكد . وجاءت الأحاديث الصحيحة بالأمر به . ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يغسل سائر الوجه .

فإذا قيل بوجوبهما مع النزاع ، فهما كسائر ما نوزع فيه . مثل البياض الذي بين العذار والأذن ، فمالك وغيره يقول : ليس من الوجه . وفي النزعتين والتحذيف ثلاثة أوجه .

قيل : هما من الرأس . وقيل : من الوجه .

والصحيح : أن النزعتين من الرأس ، والتحذيف من الوجه[1] . فلو نسي ذلك فهو كما لو نسي المضمضة والاستنشاق .

فتسوية أبي الخطاب أقوى .

---

(١) هو القدر الذي يقع في جانب الوجه مهما وضع طرف خيط على رأس الأذن . والطرف الثاني على زاوية الجبين .

وعلى هذا : فأحمد إنما نص على من ترك ذلك ناسياً . ولهذا قيل له : نسى المضمضة وحدها ؟ فقال : الاستنشاق عندى أوكد . يعنى إذا نسى ذلك وصلى . قال : يغسلهما ، و يعيد الصلاة ، والإعادة إذا ترك الاستنشاق عنده أوكد ، للأمر به فى الأحاديث الصحيحة . وكذلك الحديث المرفوع ، فان جميع من نقل وضوء النبى صلى الله عليه وسلم أخبروا : أنه بدأ بهما .

وهذا حكى فعلا واحداً . فلا يمكن الجزم بأنه كان متعمداً .

وحينئذ فليس فى تأخيرهما عمداً سنة ، بل السنة فى النسيان . فان النسيان متيقن . فان الظاهر : أنه كان ناسياً إذا قُدِّر الشك . فاذا جاز مع التعمد ، فمع النسيان أولى . فالناسى معذور بكل حال ، بخلاف المتعمد . وهو القول الثالث . وهو الفرق بين المتعمد لتنكيس الوضوء ، و بين المعذور بنسيان أو جهل . وهو أرجح الأقوال . وعليه يدل كلام الصحابة ، وجمهور العلماء .

وهو الموافق لأصول المذهب فى غير هذا الموضع . وهو المنصوص عن أحمد فى الصورة التى خَرَّج منها أبو الخطاب .

فمن ذلك : إذا أخل بالترتيب بين الذبح والحلق . فإن الجاهل يعذر بلا خلاف فى المذهب . وأما العالم المتعمد : فعنه روايتان ، والسنة إنما جاءت عن النبى صلى الله عليه وسلم « كان يُسأل عن ذلك ؟ فيقول : افعل ، ولا حرج » لأنهم قدموا وأخروا بلا علم . لم يتعمدوا المخالفة للسنة . و إلا فالقرآن قدجاء بالترتيب لقوله (٢ : ١٩٦ ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنى قَلَّدت هديى ، ولَبَّدت رأسى ، فلا أُحِلّ وأحلق حتى أنحر » .

وقوله (٢٢:٢٩ ثم ليقضوا تَفَثَهم وليوفوا نذورهم وليَطَّوفوا بالبيت العتيق) أدل على الترتيب من قوله (٢ : ١٥٨ إن الصفا والمروة من شعائر الله) .

لكن يقال : قد فرقوا بأن هذه عبادة واحدة مرتبط بعضها ببعض . وتلك عبادات ، كالحج والعمرة والصلاة والزكاة .

وهكذا فرق أبو بكر عبد العزيز بين الوضوء وغيره . فقال : ذلك كله من الحج والدماء والذبح والحلق والطواف . والحج عبادة واحدة . ولهـذا متى وطىء قبل التحلل الأول فسد الحج عند الجمهور . وهل يحصل كالدم وحده ، أو كالدم والحلق ؟ على روايتين .

ومنها : إذا نسى بعض آيات السورة فى قيام رمضان . فإنه لايعيدها . ولا يعيد ما بعدها ، مع أنه لو تعمد تنكيس آيات السورة وقراءة المؤخر قبل المقدم : لم يجز بالاتفاق . و إنما النزاع فى ترتيب السور . نص على ذلك أحمد . وحكاه عن أهل مكة . سُئل عن الإمام فى شهر رمضان يدع الآيات من السورة ، ترى لمن خلفه أن يقرأها ؟ قال : نعم . ينبغى له أن يفعل . قد كانوا بمـكة يوكلون رجلا يكتب ما ترك الإمام من الحروف وغيرها . فإذا كان ليلة الختمة أعاده .

قال الأصحاب ـ كأبى محمد ـ و إنما استحب ذلك لتتم الختمة . و يكمل الثواب

فقد جعل أهل مكة وأحمد وأصحابه إعادة المنسى من الآيات وحده يكمل الختمة والثواب ، و إن كان قد أخل بالترتيب هنا . فإنه لم يقرأ تمام السورة . وهذا مأثور عن على رضى الله عنه « أنه نسى آية من سورة . ثم فى أثناء القراءة : قرأها ، وعاد إلى موضعه » ولم يشعر أحد أنه نسى إلا من كان حافظا .

فهـكذا من ترك غسل عضو أو بعضه نسياناً يغسله وحده ، ولا يعيد غسل ما بعده . فيكون قد غسله مرتين . فإن هذا لا حاجة إليه .

وهذا التفصيل يوافق ما نقل عن الصحابة والأكثرين . فإن الأصحـاب وغيرهم فعلوا كما نقله ابن المنذر عن على ، ومكحول والنخعى ، والزهرى والأوزاعى ، فيمن نسى مسح رأسه ، فرأى فى لحيته بللا . فمسح به رأسـه ، فلم يأمروه بإعادة غسل رجليه . واختاره ابن المنذر .

وقد نقل عن على ، وابن مسعود « ماأبالى بأى أعضائى بدأت » قال أحمد : إنما عنى به اليسرى على اليمنى . لأن مخرجهما من الـكتاب واحد .

ثم قال أحمد : حدثنى جرير عن قابوس عن أبيه « أن علياً سئل . فقيل له : أحدنا يستعجل ، فيغسل شيئاً قبل شيء ؟ فقال : لا . حتى يكون كما أمره الله تعالى » فهذا الذى ذكره أحمد عن على يدل على وجوب الترتيب .

وما نقله ابن المنذر فى صورة النسيان : يدل على أن الترتيب يسقط مع النسيان ، ويعيد المنسى فقط .

فدل على أن التفصيل قول على رضى الله عنه .

وقد ذكر من أسقطه مطلقاً : ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال « لا بأس أن تبدأ برجليك قبل يديك » .

لكن قال أحمد وغيره : لا نعرف لهذا أصلا . ونقلوا فى الوجوب عن سعيد ابن المسيب وعطاء والحسن . وهؤلاء أئمة التابعين .

وصورة النسيان مرادة قطعاً . فتبين أنها قول جمهور السلف ، أو جميعهم .

والأمر المنكر : أن تتعمد تنكيس الوضوء . فلا ريب أن هذا مخالف لظاهر الكتاب ، مخالف للسنة المتواترة . فإن هذا لو كان جائزاً لكان قد وقع أحياناً ، أو تبين جوازه ، كما فى ترتيب التسبيح لما قال النبى صلى الله عليه وسلم « أفضل الكلام — بعد القرآن — أربع . وهن من القرآن : سبحان الله والحمد لله . ولا إله إلا الله . والله أكبر . لا يضرك بأيتهن بدأت » .

ومما يدل على ذلك شرعاً ومذهباً : أن من نسى صلاة صلاها إذا ذكرها بالنص .

وقد سقط الترتيب هنا فى مذهب أحمد بلا خلاف . ومذهب أبى حنيفة وغيره .

ولكن حكى عن مالك : أنه لا يسقط . وقاسوا ذلك على ترتيب الطهارة .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » نص فى أنه يصليها فى أى وقت ذكر . وليس عليه غير ذلك .

وقد سلم الأصحاب : أن ترتيب الجمع لا يسقط بالنسيان .

وعموم الحديث يدل على سقوطه . فلو كانت المنسية هى الأولى من صلاتى الجمع : أعادها وحدها بموجب النص . ومن أوجب إعادة الثانية فقد خالف .

وكذلك يقال فى سائر أهل الأعذار ، كالمسبوق إذا أدركهم فى الثانية : صلاها معهم . ثم صلى الأولى . كما لو أدرك بعض الصلاة . وليس ترتيب صلاته على أول الصلاة بأعظم من ترتيب آخر الصلاة على أولها .

وإذا كان هكذا سقط ماأدرك ، ويقضى ماسقط . فهذا فى الصلاتين أولى . لاسيما وهو إذا لم يدرك من المغرب إلا تشهدا تشهد ثلاث شهدات ، كما فى حديث ابن مسعود المشهور فى قصة مسروق وحديثه .

وهذا أصل ثابت كالنص والإجماع . يعتبر به نظائره . وهو سقوط الترتيب عن المسبوق .

وكانوا فى أول الإسلام لايرتبون . فيصلون مافاتهم ، ثم يصلون مع الإمام . لكن نسخ ذلك . وقد روى أن أول من فعله معاذ . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « قد سن لكم معاذ فاتبعوه » .

والأئمة الأربعة : على أنه يقرأ فى ركعتى القضاء بالحمد وسورة .

وكذلك لو أدرك الإمام ساجداً سجد معه بالنص واتفاق الأئمة .

فقد سجد قبل القيام لمتابعة الإمام وإن لم يعتد به . لكنه لو فعل هذا عمداً لم يجز . فلو كبر وسجد ثم قام : لم تصح صلاته .

لكن هذا يستدل به على أن الركعة الواحدة يجب فيها الترتيب . فإن هذا السجود ــ ولو ضم إليه بعد السلام ركوعاً مجرداً ــ لم يصر ذلك ركعة . بل عليه أن يأتى بركعة بعدها سجدتان . لأنه أخل بالترتيب والموالاة .

فكذلك إذا نسى الركوع حتى تشهد وسلم . ففيه قولان فى المذهب : هل تبطل صلاته ؟ والمنصوص إن لم يطل الفصل بنى على مامضى ، وهو قول الشافعى رحمه الله وغيره .

وذهب طائفة من العلماء إلى سقوط الموالاة والترتيب فى الصلاة مع النسيان . فقال مكحول ، ومحمد بن أسلم ـ فى المصلى : ينسى سجدة أو ركعة ـ يصليها متى ما ذكرها . و يسجد للسهو . وقال الأوزاعى ـ لرجل نسى سجدة من صلاة الظهر ، فذكرها فى صلاة العصر ـ يمضى فى صلاته . فإذا فرغ سجد .

و يدل على هذا القول : أحاديث سجود السهو . فإنها تدل على أنه يتم الصلاة ، ثم يسجد للسهو ، ولو مع طول الفصل .

وأما المسبوق : فالسجود الذى فعله مع الإمام : كان لمتابعة الإمام . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكرة «زادك الله حرصاً . ولاتعد» وهو متمكن من أن يأتى بالركعة بعد السلام فلا عذر له حتى[1] و إذا نسى ركناً من الأولى حتى شرع فى الثانية . ففيها قولان .

مالك وأحمد لايقولان بالتلفيق . بل تلغو المنسي ركنها . وتقوم هذه مقامها . ولـكن هل يكون ذلك بالقراءة أو بالركوع ؟ فيه نزاع .

والشافعى يقول : ما فعله بعد الركوع المنسى ، فهو لغو . لأن فعله فى غير محله لا أن يفعل نظيره فى الثانية . فيكون هو تمام الأول . كما لو سلم من الصلاة ، ثم ذكر . فإن السلام يقع لغواً .

فأحمد ومالك يقولان : هو إنما يقصد بما فعله أن يكون من الركعة الثانية . لم يقصد أن يكون من الأولى ، وهو إذا قرأ أو ركع فى الركعة الثانية : أمكن أن يجعلها هى الأولى . فإن الترتيب بين الركعات يسقط بالعذر . فلا وجه لإبطال هذه . ولا يكون فاعلا له فى غير محله ، إلا إذا جعلت هذه ثانية . فإذا جعلت الأولى : كان قد فعله فى محله .

و إذا قيل : هو قصد الثانية قبل ، وقصد بالسجود فيها السجود فى الثانية لرعاية ترتيبه فى أبعاض الركعة بأن لا يجعل بعضها فى ركعة غيرها : أولى من

(١) بياض بالأصل

رعايتها فى الركعتين . فإن جعل الأولى ثانية يجوز للعذر ، كما فى المسبوق . وأما جعل سجود الثانية تماماً للأولى : فلا نظير له فى الشرع . و بسط هذا له مكان آخر .

والمقصود هنا : سقوط الترتيب فى الوضوء بالنسيان . وكذلك سقوط الموالاة كما هو قول مالك . وكذلك بغير النسيان من الأعذار ، مثل بُعد الماء . كما نقل عن ابن عمر . فإن الصلاة نفسها إذا جاز فيها عدم الموالاة للعذر ، فالوضوء أولى . بدليل صلاة الخوف فى حديث ابن عمر ، وأحاديث سجود السهو .

وأما حديث صاحب اللُّمْعة ، التى كانت فى ظهر قدمه : فمثل هذا لا ينسى . فدل أنه تركها تفريطا .

والموالاة فى غسل الجنابة : لا تجب ، للحديث الذى فيه أنه « رأى فى بدنه موضعاً لم يُصِبْه الماء ، فعصر عليه شعره » .

والأصحاب فرقوا بينه و بين الوضوء . فإنه لايجب ترتيبه ، فكذلك الموالاة . ومالك يوجب الموالاة ، و إن لم يوجب الترتيب فى الوضوء .

وأما فى الغسل : فالبدن كعضو واحد . والعضو الواحد لا ترتيب فيه بالاتفاق . وأما إذا تفريق الغسل : فهو كتعمد تفريق غسل العضو الواحد . لكن فرق بينهما . فإن غسل الجنابة كإزالة النجاسة ، لايتعدى حكم الماء محله . بخلاف الوضوء . فإن حكمه طهارة جميع البدن ، والمغسول أر بعة أعضاء . وهذا محل نظر . والجنب إذا وجد بعض مايكفيه استعمله . وأما المتوضىء : ففيه قولان للأصحاب . ومن جوز ذلك جعل الوضوء يتفرق للعذر ، وجعل ما غسل يحصل به بعض الطهارة . وكذلك الماسح على الخفين إذا خلعهما . هل يقتصر على مسح الرجلين أو يعيد الوضوء ؟ فيه قولان ، هما روايتان .

وقد قيل : إن المأخذ هو الموالاة . وقيل : إن المأخذ أن الوضوء لا ينتقض . فإذا عاد الحدث إلى الرِّجْل عاد إلى جميع الأعضاء . وهذا عند العذر : فيه نزاع كما تقدم .

وقد يكون الترتيب شرطا لا يسقط بجهل ولا نسيان . كما فى الحديث الصحيح « من ذبح قبل الصلاة فإنما هو شاة لحم » فالذبح للأضحية : مشروط الصلاة قبله . وأبو بردة بن نيار رضى الله عنه كان جاهلا . فلم يعذره بالجهل . بل أمره بإعادة الذبح . بخلاف الذين قدموا فى الحج : الذبح على الرمى ، أو الحلق على ما قبله . فإنه قال « افعل ولا حرج » فهاتان سنتان : سنة فى الأضحية ، إذا ذبحت قبل الصلاة : أنها لا تجزىء . وسنة فى الهدى ، إذا ذبح قبل الرمى جهلا : أجزأ .

والفرق بينهما ـ والله أعلم ـ أن الهدى صار نسكا بسوقه إلى الحرم وتقليده وإشعاره . فقد بلغ محله فى المكان والزمان . فإذا قُدِّم جهلا : لم يخرج عن كونه هدياً . وأما الأضحية : فإنها قبل الصلاة لا تتميز عن شاة اللحم . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « من ذبح قبل الصلاة ، فإنما هى شاة لحم قدمها لأهله » وإنما هى نسك بعد الصلاة . كما قال تعالى (فصل لربك وانحر) وقال (٦ : ١٦٢ إن صلاتى ونسكى) فصار فعله قبل هذا الوقت : كالصلاة قبل وقتها .

فهذا وقت الأضحية . وقته بعد فعل الصلاة ، كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك فى الأحاديث الصحيحة . وهو قول الجمهور من العلماء : مالك وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل ، وغيرهم . وإنما قَدَّر وقتها بمقدار الصلاة : الشافعى ومن وافقه من أصحاب أحمد ، كالخرقى .

وفى الأضحية . يشترط ، فى أحد القولين : أن يذبح بعد الإمام . وهو قول مالك ، وأحد القولين فى مذهب أحمد . ذكره أبو بكر . والحجة فيه : حديث جابر فى الصحيح[1] .

---

(١) قال « صلى بنا رسول الله يوم النحر بالمدينة . فتقدم رجال فنحروا وظنوا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد نحر . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم من نحر قبله : أن يعيد بنحر آخر ـ الحديث » متفق عليه .

وقد قيل : إن قوله (٤٩ : ١ لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) نزلت فى ذلك وكذلك فى الإفاضة من عرفة قبل الإمام قولان . فى مذهب أحمد : يجب فيه دم . فهذا عند من يوجبه بمنزلة اتباع المأموم الإمام فى الصلاة .

فصل

وما ذكره من نصه على قراءة مانسى : يدل على أن الترتيب يسقط بالنسيان فى القراءة . وقد ذكر أحمد وأصحابه : أن موالاة الفاتحة واجبة . وإذا تركها لعذر نسيان ، قالوا — واللفظ لأبى محمد — وإن كثر ذلك — أى الفصل — استأنف قراءتها إلا أن يكون المسكوت مأموراً به ، كالمأموم يشرع فى قراءة الفاتحة ثم يسمع قراءة الإمام فينصت له . ثم إذا سكت الإمام : أتم قراءتها وأجزأته . أومأ إليه أحمد . وكذلك إن كان السكوت نسياناً أو نُوَبا ، أو لانتقاله إلى غيرها غلطا : لم تبطل . فإذا ذكر : أتى بما بقى منها . فإن تمادى فيما هو فيه — بعد ذكرها — أبطلها . ولزمه استئنافها . قال : وإن قدَّم آية منها فى غير موضعها : أبطلها . وإن كان غلطا : رجع إلى موضع الغلط فأتمها .

فلم يسقطوا الترتيب بالعذر ، كما أسقطوا الموالاة . فإن الموالاة أخف . فإنه لو قرأ بعض سورة اليوم وبعضها غداً : جاز . ولو نكّسها : لم يجز .

ويفرق فى الترتيب بين الكلام المستقل الذى إذا أتى به وحده كان مما يسوغ تلاوته ، وبين ماهو مرتبط بغيره . فلو قال « صراط الذين أنعمت عليهم » لم يكن هذا كلاما مفيداً حتى يقول « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » ولو قال « إياك نعبد وإياك نستعين » ثم قال « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم » كان مفيداً . لكن مثل هذا لا يقع فيه أحد . ولا يبتدىء أحد الفاتحة بمثل ذلك ، لاعمداً ولا غلطا . وإنما يقع الغلط فيما يحتاج فيه إلى الترتيب . فهذا فرق بين ماذكروه فيما ينسى من الفاتحة وما ينسى من الختمة .

فصــل

ومما يبين أن الترتيب يسقط إذا احتاج إلى التكرار بلا تفريط من الإنسان : أن التيمم يجزىء بضربة واحدة ، كما دل عليه الحديث الصحيح ـ حديث عمار بن ياسر رضى الله عنهما ـ وهو مذهب أحمد بلا خلاف . وهو فى الصحيحين من حديث أبى موسى . ومن حديث ابن أَبْزَى .

ففى حديث ابن أَبْزَى « إنمـا كان يكفيك هكذا . فضرب بكفيه الأرض ونفخ فيهما . ثم مسح بهما وجهه وكفيه » وكذلك لمسـلم فى حديث أبى موسى « إنمـا كان يكفيك أن تقول هكذا . وضرب بيديه إلى الأرض . فنفض يديه . فمسح وجهه وكفيه » وللبخارى « ومسح وجهه وكفيه مرة واحدة » .

وقد اختلف الأصحاب فى هذه الصفة .

فقيل : يرتب . فيمسح وجهه ببطون أصابعه ، وظاهر يديه براحته .

وقيل : لا يجب ذلك . بل يمسح بهما وجهــه وظاهر كفيه .

وعلى الوجهين : لا يؤخر مسح الراحتين إلى ما بعد الوجه . بل يمسحهما : إما قبل الوجه ، وإما مع الوجه ، وظهور الـكفين . ولهذا قال ابن عقيل : رأيت التيمم بضربة واحدة قد أسقط ترتيباً مستحقا فى الوضوء . وهو أنه بعد أن مسح باطن يديه مسح وجهه .

وفى الصحيحين من حديث عمار بن ياسر من طريق أبى موسى رضى الله عنهم ، قال « إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا . ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة ، ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه» لفظ البخارى « وضرب بكفيه ضربة على الأرض . ثم نفضهما . ثم مسح بهما ظهر كفه بشماله ـ أو ظهر شماله بكفه ـ ثم مسح بهما وجهه » .

وهذا صريح فى أنه لم يمسح الراحتين بعد الوجه . ولا يختلف مذهب أحمد : أن ذلك لايجب . وأما ظهور الـكفين : فرواية البخارى صريحة فى « أنه مر على

ظهر الكف قبل الوجه » وقوله فى الرواية الأخرى « وظاهر كفيه » يدل على أنه مسح ظاهر كل منهما براحة اليد الأخرى . وقال فيها « ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر وجهه قبل الوجه[1] » .

وقال أبو محمد : فرض الراحتين سقط بإمرار كل واحدة على ظهر الكف . وهذا إنما يوجب سقوط فرض باطن الراحة . وأما باطن الأصابع : فعلى ما ذكره سقط مع الوجه .

وعلى كل حال : فباطن اليدين يصيبهما التراب حين يضرب بهما الأرض ، وحين يمسح بهما الوجه ، وظهرَ الكفين . و إن مسح إحداهما بالأخرى ، فهو ثلاث مرات .

ولو كان الترتيب واجباً لوجب أن يمسح باطنهما بعد الوجه . وهذا لا يمكن مع القول بضربة واحدة . ولو فعل ذلك للزم تكرار مسحهما مرة بعد مرة . فسقط لذلك . فإن التيمم لا يشرع فيه التكرار ، بخلاف الوضوء . فإنه ـ و إن غسل يديه ابتداء ، وأخذ بهما الماء لوجهه ـ فهو بعد الوجه يغسلهما إلى المرفقين . وهو يأخذ الماء بهما . فيتكرر غسلهما . لأن الوضوء يستحب فيه التكرار فى الجملة . لأنه طهارة بالماء . ولكن لو لم يغسل كفيه بعد غسل الوجه فهو محل نظر ، فإنه يغرف بهما الماء ، وقد قالوا : إذا نوى الاغتراف لم يَصِرْ الماء مستعملا . وإن نوى غسلهما فيه : صار مستعملا . و إن لم ينو شيئاً ففيه وجهان .

والصحيح : أنه لايصير مستعملا ، و إن نوى غسلهما فيه . لمجيء السنة بذلك . وهذا يقتضى أن غسلهما بنية الاغتراف لاتحصل به طهارتهما. بل لابد من غسل آخر

والأقوى : أن هذا لايجب . بل غسلهما بنية الاغتراف يجزىء عن تكرار غسلهما ، كما فى التيمم .

وأيضاً فإنه يغسل ذراعيه بيديه . فيكون هذا غسلا لباطن اليد .

---

(١) كذا . ولعله « الراحة »

ولو قيل : بل بقي غسلهما ابتداء ، ومع الوجه يسقط فرضهما ، كما قيل مثل ذلك فى التيمم : لكان متوجهاً . فإنه قال فى الوضوء (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق) كما قال فى التيمم (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) ففى الوضوء أخر ذكر اليد .

لكن الرواية التى انفرد بها البخارى : تبين أنه مسح ظهر الكفين قبل الوجه . وسائر الروايات مجملة ، تقتضى أنه لما مسح لم يمسح الراحتين بعد الوجه ، فكذلك ظهر الكفين . بل مسح ظهرهما مع بطنهما . لأن مسحهما جملة أقرب إلى الترتيب . فإن مسح العضو الواحد بعضه مع بعض أولى من تفريق ذلك

وأيضاً : فتكون الراحتان ممسوحتين مع ظهر الكف . والاعتداد بذلك أولى من الاعتداد بمسحهما مع الوجه .

وما ذكره بعض الأصحاب ـ من أنه يجعل الأصابع للوجه ، و بطون الراحتين لظهور الكفين ـ خلاف ما جاءت به الأحاديث . وليس فى كلام أحمد ما يدل عليه . وهو متعسر ، أو متعذر . وهو بدعة لا أصل لها فى الشرع . و بطون الأصابع لا تكاد تستوعب الوجه .

و إنما احتاجوا إلى هذا ليجعلوا بعض التراب لظاهر الكفين بعد الوجه .

فيقال لهم : كما أن الراحتين لا يمسحان بعد الوجه بلا نزاع ، فكذلك ظهر الكفين . فإنهم ـ و إن مسحوا ظهر الكفين بالراحتين ببطون الأصابع ـ مسحوا مع الوجه ، مسح باليدين قبل الوجه ، كما قال ابن عقيل . ولهذا اختار المجد : أنه لا يجب الترتيب فيه ، بل يجوز مسح ظهر الكفين قبل الوجه . كما دل عليه الحديث الصحيح . والحديث الصحيح يدل على أنه يمسح الوجه وظاهر الكفين بذلك التراب . وأن مسح ظهر الكفين بما بقى فى اليدين من التراب يكفى لظهر الكفين . فإن ألفاظ الحديث كلها تتعلق بأنه يمسح وجهه بيديه . ومسح اليدين

إحداهما بالأخرى : لم يجعل بعض باطن اليد للوجه و بعضه للكفين . بل بباطن اليدين مسح وجهه ومسح كفيه ، ومسح إحداهما بالأخرى .

وأجاب القاضى ومن وافقه ـ متابعة لأصحاب الشافعى ـ بأنه إذا تيمم لجرح فى عضو : يكون التيمم فيه عند وجوب غسله ، فيفصل بالتيمم بين أبعاض الوضوء ، هذا فعل مبتدع . وفيه ضرر عظيم ، ومشقة لا تأتى بهـا الشريعة . وهذا ونحوه إسراف فى وجوب الترتيب ، حيث لم يوجبه الله ورسوله . والنفاة يجوزون التنكيس لغير عذر . وخيار الأمور أوساطها . ودين الله بين الغالى والجافى . والله أعلم .

الحسنة والسيئة

وموقف العبد عندهما

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ . وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً . وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا) .

جود تفسيرها ، واستنباط دقيق معانيها

شيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ – ٧٢٨

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله

قال الشيخ الإمام ، العالم العلامة ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحرانى . تغمده الله تعالى برحمته .

الحمد لله . نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لاإله إلا الله ، وحده لاشريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل

فى قوله تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك) و بعضِ ماتضمنته من الحكم العظيمة .

هذه الآية : ذكرها الله فى سياق الأمر بالجهاد ، وذم النا كثين عنه . قال تعالى (٤:٧١ يا أيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكم . فانفروا ثُباتٍ ، أو انفروا جمعاً ـ الآيات) إلى أن ذكر صلاة الخوف . وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الرسول ، والتحاكم إلى الله و إلى الرسول . ورد ماتنازع فيه الناس إلى الله و إلى الرسول . وذم الذين يتحاكمون و يردون ماتنازعوا فيه إلى غير الله والرسول .

فكانت تلك الآيات : تبييناً للايمان بالله و بالرسول . ولهذا قال فيها (٤ : ٦٥ فلاوربك لايؤمنون ، حتى يُحكّموك فيما شَجَر بينهم . ثم لايجدوا فى أنفسهم حَرَجاً مما قضيت . و يسلموا تسليما) .

وهذا جهاد عما جاء به الرسول . وقد قال تعالى (٤٩:١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) وقال

تعالى (٩ : ٢٤ قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحبَّ إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله . فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لايهدى القوم الفاسقين) وقال (٩ : ١٩ ــ ٢١ أجعلتم سِقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ؟ لايستوون عند الله . والله لايهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله . وأولئك هم الفائزون . يُبَشِّرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات ــ الآية) .

وقال تعالى (٦١ : ١٠ ــ ١٤ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم : تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبةً فى جنات عدن . ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين . ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بنى إسرائيل ، وكفرت طائفة . فأيَّدنا الذين آمنوا على عدوهم . فأصبحوا ظاهرين) .

وذكر بعد آيات الجهاد (٤ : ١٠٥ ــ ١٢٥) إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراه الله ، ونَهْيَه عن ضد ذلك . وذكَّره فضل الله عليه ورحمته فى حفظه ، وعصمته من إضلال الناس له ، وتعليمه ما لم يكن يعلم . وذم من شاقّ الرسول ، واتبع غير سبيل المؤمنين . وتعظيم أمر الشرك ، وشديد خطره وأن الله لايغفره . ولكن يغفر مادونه لمن يشاء ــ إلى أن بيَّن أن أحسن الأديان : دين من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئا . بشرط أن تكون عبادته بفعل

الحسنات التى شرعها ، لا بالبدع والأهواء . وهم أهل ملة إبراهيم ، الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا (٤ : ١٢٥ واتخذ الله إبراهيم خليلا) .

فكان فى الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها : اتباع التوحيد ، وملة إبراهيم . وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبد الله بما ما أمر به على ألسن رسله من الحسنات .

وقد ذكر تعالى فى ضمن آيات الجهاد : ذم من يخاف العدو ، و يطلب الحياة . و بين أن ترك الجهاد : لا يدفع عنهم الموت . بل أينما كانوا أدركهم الموت ، ولو كانوا فى بروج مشيدة . فلا ينالون بترك الجهاد منفعة . بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة . فقال تعالى (٤ : ٧٧ ألم تر إلى الذين قيل لهم : كُفُّوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة . فلما كُتب عليهم القتالُ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشيةً . وقالوا : ربنا ، لِمَ كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى . ولا تظلمون فتيلا) .

وهذا الفريق قد قيل : إنهم منافقون . وقيل: نافقوا لما كُتب عليهم القتال . وقيل : بل حصل منهم جُبن وفَشَل . فكان فى قلوبهم مرض . كما قال تعالى (٤٧ : ٢٠ ، ٢١ فإذا أُنزلت سورة مُحكمة ، وذُكر فيها القتال : رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المَغْشِىّ عليه من الموت . فأولى لهم . طاعةٌ وقول معروف ـ الآية) وقال تعالى (٣٣ : ١٢ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسولُه إلا غرورا) .

والمعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء . ولكل من كان بهذه الحال .

ثم قال (٤ : ٧٨ أينما تكونوا يُدْرِكْكُم الموت ولو كنتم فى بروج مُشَيَّدة . وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . و إن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كُلٌّ من عند الله . فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ؟) .

فالضمير فى قوله « وإن تصبهم » يعود إلى من ذكر . وهم « الذين يخشون الناس » أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر . كما فى مواضع كثيرة .

وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود . وقيل : كانوا منافقين . وقيل : بل كانوا من هؤلاء وهؤلاء . والمعنى يعمُّ كل من كان كذلك . ولكن تناولُه لمن أظهر الإسلام وأُمِر بالجهاد : أولى .

ثم إذا تناول الذم هؤلاء : فهو للكفار الذين لايظهرون الإسلام أولى وأحرى

والذى عليه عامة المفسرين : أن « الحسنة » و « السيئة » يراد بهما النعم والمصائب . ليس المراد : مجرد مايفعله الإنسان باختياره ، باعتباره من الحسنات أو السيئات .

فصل

ولفظ « الحسنات » و « السيئات » فى كتاب الله : يتناول هذا وهذا . قال الله تعالى عن المنافقين (٣ : ١٢٠ إن تمسسكم حسنة تَسُؤْهم . وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا) وقال تعالى (٩ : ٥٠ إن تصبك حسنة تسؤهم . وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ويَتَوَلَّوْا وهم فرحون) وقال تعالى (٧ : ١٦٧ و بلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) وقال تعالى (٤٨:٤٢ وإنّا إذا أذقنا الإنسان منا رحمةً فرح بها . وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم ، فإن الإنسان كفور) وقال تعالى فى حق الكفار المتطيرين بموسى ومن معه (٧ : ١٣٠ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه . وإن تصبهم سيئة يطَّيروا بموسى ومن معه) ذكر هذا بعد قوله (٧ : ١٢٩ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) .

وأما الأعمال المأمور بها ، والمنهى عنها : ففى مثل قوله تعالى (٢٨ : ٨٤ من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) وقوله تعالى (١١٥:١١ إن الحسنات يذهبن السيئات . ذلك ذكرى للذاكرين) وقوله تعالى

(٢٥ : ٧٠ فأولئك يُبدِّل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيما) .

وهنا قال (ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ولم يقل : وما فعلت ، وما كسبت . كما قال (٤٢ : ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال تعالى (٥ : ٥٢ فاعلم أنما يريد الله : أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) وقال تعالى (٩ : ٥٣ قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الْحُسنَيَيْن ؟ ونحن نتربص بكم . أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وقال تعالى (١٣:٣٣ ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعةٌ أو تَحُلُّ قريباً من دارهم) وقال تعالى (٥ : ١٠٩ فأصابتكم مصيبة الموت) وقال تعالى (٢ : ١٥٦ و بشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله و إنا إليه راجعون) .

فلهذا كان قوله « ما أصابك من حسنة » و « من سيئة » متناول لما يصيب الإنسان ، ويأتيه من النعم التى تسره ، ومن المصائب التى تسوءه .

فالآية متناولة لهذا قطعاً . وكذلك قال عامة المفسرين .

قال أبو العالية « إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله » قال : هذه فى السراء « و إن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك » قال : وهذه فى الضراء .

وقال السدى « إن تصبهم حسنة قالوا » والحسنة الخِصْب ، ينتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤهم الغلمان « قالوا : هذه من عند الله . و إن تصبهم سيئة قالوا » ـ والسيئة : الضرر فى أموالهم ، تشاءما بمحمد ـ « قالوا : هذه من عندك » يقولون : بتركنا ديننا ، واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء . فأنزل الله « قل كل من عند الله » الحسنة والسيئة « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ » قال : القرآن .

وقال الوالبى عن ابن عباس « ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : مافتح الله عليك يوم بدر . وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالبى أيضاً عن ابن عباس « من حسنة » قال : ما أصاب من الغنيمة

والفتح فمن الله . قال «والسيئة» ما أصابه يوم أُحد . إذ شُجَّ فى وجهه ، وكُسِرَت رَباعيته .

وقال : أما «الحسنة» فأنعم الله بها عليك . وأما « السيئة » فابتلاك الله بها .

وروى أيضاً عن حجاج عن عطية عن ابن عبـاس « ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : هذا يوم بدر « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : هذا يوم أُحد . يقول : ما كان من نكبة : فمن ذنبك ، وأنا قدرت ذلك عليك .

وكذلك روى ابن عيينة عن إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح «فمن نفسك» قال : فبذنبك ، وأنا قدرتها عليك . روى هذه الآثار ابن أبى حاتم وغيره .

وروى أيضاً عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير . قال :ماتريدون من القدر ؟ أما تـكفيكم هذه الآية التى فى سورة النساء (وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك) ؟ أى من نفسك . والله ما وكلوا إلى القدر . وقد أُمِرُوا به . وإليه يصيرون .

وكذلك فى تفسير أبى صالح عن ابن عباس « إن تصبهم حسنة » الخصب والمطر « وإن تصبهم سيئة » الجدب والبلاء .

وقال ابن قتيبة « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : الحسنة النعمة . والسيئة البلية .

وقد ذكر أبو الفرج فى قوله « ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة » ثلاثة أقوال .

أحدها : أن « الحسنة » مافتح الله عليهم يوم بدر . و « السيئة » ما أصابهم يوم أُحد . قال : رواه ابن أبى طلحة ـ وهو الوالبى ـ عن ابن عباس .

قال : والثانى « الحسنة » الطاعة . و « السيئة » المعصية . قاله أبو العالية .

والثالث « الحسنة » النعمة . و « السيئة » البلية . قاله ابن منبه . قال : وعن أبى العالية نحوه . وهو أصح .

قلت : هذا هو القول المعروف بالإسناد عن أبي العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذى يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبى جعفر الدارى عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثانى : فهو لم يذكر إسناده . ولكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد . وكثير منها ضعيف . بل كذب . لا يثبت عمن نقل عنه . وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية .

فأما الصنف الأول : فهى تتناوله قطعاً . كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثانى : فليس مراداً دون الأول قطعاً . ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، باعتبار أن مايهديه الله إليه من الطاعة : هو نعمة فى حقه من الله أصابته . ومايقع منه من المعصية : هو سيئة أصابته . ونفسه التى عملت السيئة . و إذا كان الجزاء من نفسه ، فالعمل الذى أوجب الجزاء : أولى أن يكون من نفسه .

فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه . مع أن الجميع مقدر كما تقدم . وقد روى عن مجاهد عن ابن عباس : أنه كان يقرأ « فمن نفسك ، وأنا قدرتها عليك » .

فصل

والمعصية الثانية : قد تكون عقوبة الأولى . فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل .

قال النبى صلى الله عليه وسلم — فى الحديث المتفق على صحته — عن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق . فإن الصدق يهدى إلى البر . والبر يهدى إلى الجنة . ولايزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يُكْتَبَ عند الله صدوقا . و إياكم والكذب . فإن الكذب يهدى إلى الفجور ،

والفجور يهدى إلى النار . ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً » .

وقد ذكر فى غير موضع من القرآن مايبين أن الحسنة الثانية : قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئة الثانية : قد تكون من عقوبة الأولى . قال تعالى (٤ : ٦٦ ــ ٦٨ ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا . وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما . ولهديناهم صراطاً مستقيما) وقال تعالى (٢٩ : ٦٩ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقال تعالى (٤٧ : ٤ ــ ٦ والذين قاتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عَرَّفها لهم) وقال تعالى (٣٠ : ١٠ ثم كان عاقبةَ الذين أساءوا : السُّوأى) وقال تعالى (٥ : ١٦ كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وقال تعالى (٥٧ : ٢٨ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفْلين من رحمته . ويجعل لكم نوراً تمشون به . ويغفر لكم) وقال تعالى (٧ : ١٥٤ وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يَرْهَبون) وقال تعالى (٣: ١٣٨ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) وقال تعالى (٤١ : ٤٤ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء . والذين لا يؤمنون فى آذانهم وَقْر . وهو عليهم عمى) وقال تعالى (٧ : ٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يَمُدُّونهم فى الغَىِّ . ثم لايُقْصِرون) وقال تعالى (١٢ : ٢٤ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين) وقال تعالى (١٢ : ٢٢ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزى المحسنين) وقال تعالى (٢٨ : ١٤ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلما وكذلك نجزى المحسنين) وقال تعالى (٤٧ : ١ ــ ٣ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمد ــ وهو الحق من ربهم ــ كفر عنهم سيئاتهم . وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق

من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) وقال تعالى (٣٣ : ٧٠ ، ٧١ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى (٢٤ : ٥٤ قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فإن تولوا فإنما عليه ماحمل وعليكم ماحملتم . وإن تطيعوه تهتدوا . وماعلى الرسول إلا البلاغ المبين)

قال أبو عثمان النيسابورى : من أمَّرَ السنة على نفسه - قولا وفعلا - نطق بالحكمة . ومن أمَّر الهوى على نفسه - قولا وفعلا - نطق بالبدعة . لأن الله تعالى يقول « وإن تطيعوه تهتدوا » .

قلت : وقد قال فى آخر السورة (٢٤:٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره : أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم) .

وقال تعالى (٦ : ١٠٩ ، ١٠٠ وما يُشْعِرِكم أنها إذا جاءت لايؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال تعالى (٣ : ١٥٥ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم) وقال تعالى (٦١ : ٥ - ٧ وإذ قال موسى لقومه : يا قوم لم تؤذوننى ؟ وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . والله لايهدى القوم الفاسقين - إلى قوله - ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الإسلام ؟ والله لايهدى القوم الظالمين) وقال تعالى (٢:٨٨ وقالوا : قلوبنا غُلْف . بل لعنهم الله بكفرهم . فقليلا ما يؤمنون) وقال تعالى أيضاً (٤:١٥٥ وقولهم قلوبنا غلف . بل طبع الله عليها بكفرهم . فلا يؤمنون إلا قليلا) وقال تعالى (٢ : ٢٥٨ فبُهِت الذى كفر . والله لايهدى القوم الظالمين) وقال تعالى (٩ : ٢٥ ، ٢٦ ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً . وضاقت عليكم الأرض بمارحبت . ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها . وعذب الذين كفروا) وقال تعالى فى النوعين (٨:١٢ ، ١٣ إذ يوحى ربك إلى الملائكة : أنى معكم . فثبتوا الذين آمنوا . سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا

فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بَنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) وقال تعالى (٣ : ١٥١ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بماأشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا . ومأواهم النار . و بئس مثوى الظالمين) وقال تعالى (٥٩ : ٢ ـ ٤ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ماظننتم أن يخرجوا . وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف فى قلوبهم الرعب . يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين . فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليكم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) وقال تعالى (٣ : ١١١ ، ١١٢ لن يضروكم إلا أذى . و إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار . ثم لاينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثُقِفوا ، إلا بحبل من الله وحَبل من الناس . و باءوا بغضب من الله . وضُربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، و يقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وقال تعالى (٥ : ٨٠، ٨١ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا . لبئسما قَدَّمت لهم أنفسهم : أن سَخِط الله عليهم . وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ماانخذوهم أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون) وقال تعالى (٥:٨٢ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا . وأنهم لايستكبرون) وقال تعالى (٤٧ : ٢٢ ـ ٢٦ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله . فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلايتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ إن الذين ارتدوا على أدبارهم ، من بعد ما تبين لهم الهدى : الشيطانُ سَوَّلَ لهم ، وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله : سنطيعكم فى بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم) وقال تعالى (٩ : ٧٥ ـ ٧٧ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم

معرضون . فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ماوعدوه و بما كانوا يكذبون) وقال تعالى (٩ : ٨٣ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج . فقل:لن تخرجوا معى أبداً . ولن تقاتلوا معى عدوا . إنكم رضيتم بالقعود أول مرة . فاقعدوا مع الخالفين) وقال تعالى فى ضد هذا (٤٨ : ٢٠ — ٢٣ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها . فعجل لكم هذه . وكَفَّ أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين . و يهديكم صراطاً مستقيما — إلى قوله — ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوا الأدبار . ثم لايجدون ولياً ولانصيراً . سنة الله التى قد خلت من قبل . ولن تجد لسنة تبديلا) .

وتوليتهم الأدبار : ليس مما نُهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم . وهذا باب واسع .

فصل

و إذا كانت السيئات التى يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت — وهى مضرة — جاز أن يقال : هى مما أصابه من السيئات . وهى بذنوب تقدمت .

وعلى كل تقدير : فالذنوب التى يعملها : هى من نفسه . و إن كانت مقدرة عليه . فإنه إذا كان الجزاء — الذى هو مُسبب عنها من نفسه — فعمله الذى هو ذلك الجزاء : من نفسه بطريق الأولى . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته « نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » .

وقال له أبو بكر رضى الله عنه : علمنى دعاء . فقال « قل: اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رَبَّ كل شيء ومليكه . أشهد أن لا إله إلا أنت . أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشَرَكه ، وأن أقترف على نفسى سُوءًا ، أو أجُرَّه إلى مسلمٍ . قُلْهُ : إذا أصبحت ، و إذا أمسيت ، و إذا أخذت مضجعك» .

فقد بين أن قوله « فمن نفسك » يتناول العقوبات على الأعمــال ، ويتناول الأعمال . مع أن الــكل بقدر الله .

فصــل

وليس للقدَرِية أن يحتجوا بالآية لوجوه : ـ

منها : أنهم يقولون : فعل العبد ـ حسنةً كان ، أو سيئة ـ هو منه ، لا من الله . بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة مايفعل به الحسنات ، والسيئات . لــكن هذا عندهم : أحدثَ إرادةً فعل بها الحسنات . وهذا أحدث إرادةً فعل بها السيئات . وليس واحد منهما من إحداث الرب عندهم .

والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات . وهم لا يفرقون فى الأعمــال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر . لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات . بل هو عندهم لم يخلق لا هذا ولا هذا .

لــكن منهم من يقول : بأنه يُحْدِث من الأعمال الحسنة والسيئة : ما يكون جزاءًا . كما يقوله أهل السنة .

لــكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله . ولا كل السيئات . بل بعض هذا ، وبعض هذا .

الثانى : أنه قال « كل من عند الله » فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله . وهم لا يقولون بذلك فى الأعمال . بل فى الجزاء . وقوله ـ بعد هذا ـ « ماأصابك من حسنة ـ ومن سيئة » مثل قوله « وإن تصبهم حسنة » وقوله « وإن تصبهم سيئة » .

الثالث : أن الآية أريد بها : النعم ، والمصائب . كما تقدم . وليس للقدرية المجبرة أن تحتج بهذه الآية على نفى أعمالهم التى استحقوا بها العقاب . فإن قوله « كل من عند الله » هو النعم والمصائب . ولأن قوله « ماأصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » حجة عليهم . وبيان أن الإنسان هو فاعل

السيئات . وأنه يستحق عليها العقاب . والله ينعم عليه بالحسنات ـ عملها وجزائها ـ فإنه إذا كان ماأصابهم من حسنة فهو من الله : فالنعم من الله . سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء . و إذا كانت جزاء ـ وهى من الله ـ : فالعمل الصالح الذى كان سببها : هو أيضاً من الله . أنعم بهما الله على العبد . و إلا فلو كان هو من نفسه ـ كما كانت السيئات من نفسه ـ لـكان كل ذلك من نفسه . والله تعالى قد فرق بين النوعين فى الـكتاب والسنة . كما فى الحديث الصحيح الإلٰهى : عن الله « يا عبادى ، إنما هى أعمالـكم أحصيها لـكم ، ثم أُوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . وَمَنْ وجد غير ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه » وقال تعالى (٣ : ١٦٥ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أنَّى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم) وقال تعالى (٣٠ : ٣٦ و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) وقال تعالى (٣٠ : ٤١ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس . ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) وقال تعالى (١١ : ١٠١ وماظلمناهم ولـكن ظلموا أنفسهم) وقال تعالى (٤٣ : ٧٦ وما ظلمناهم ولـكن كانوا هم الظالمين) وقال تعالى (٣٨ : ٨٥ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقال تعالى للمؤمنين (٤٩ : ٧ ولـكن اللهَ حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وَزَيَّنَهُ فى قلوبكم . وكَرَّهَ إليكم الْـكُفْرَ والفسوقَ والعصيانَ . أُولئك هُمُ الراشدون) وقد أُمروا أن يقولوا فى الصلاة (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

فصل

وقد ظن طائفة : أن فى الآية إشكالا ، أو تناقضاً فى الظاهر ، حيث قال « كل من عند الله » ثم فرق بين الحسنات والسيئات . فقـال « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبرهم الآية . وليس فى الآية تناقض . لا فى ظاهرها ،

ولافى باطنها . لافى لفظها ولا معناها . فإنه ذكر عن المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض ، الناكصين عن الجهاد . ما ذكره بقوله (٤ : ٧٨ أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم فى بروجٍ مشيدة . وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك) هذا يقولونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى بسبب ماأمرتنا به من دينك ، والرجوع عما كنا عليه : أصابتنا هذه السيئات . لأنك أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات : هى المصائب . والأعمال التى ظنوا أنها سبب المصائب : هو أمَرَهم بها .

وقولهم « من عندك » تتناول مصائب الجهاد التى توجب الهزيمة ، لأنه أمرهم بالجهاد . وتتناول أيضاً مصائب الرزق على جهة التشاؤم ، والتطير . أى هذا عقوبة لنا بسبب دينك . كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه . وكما قال أهل القرية للمرسلين (٣٦ : ١٨ إنا تطيرنا بكم) وكما قال الكفار من ثمود لصالح ، ولقومه (٢٧ : ٤٨ اطَّيَّرنا بك وبمن معك) فكانوا يقولون عما يصيبهم — من الحرب ، والزلزال والجراح والقتل ، وغير ذلك مما يحصل من العدو — : هو منك . لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك . ويقولون عن هذا ، وعن المصائب السمائية : إنها منك . أى بسبب طاعتنا لك ، واتباعنا لدينك : أصابتنا هذه المصائب ، كما قال تعالى (٢٢ : ١١ ومن الناس من يعبد الله على حرف . فإن أصابه خير اطمأن به . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه . خسر الدنيا والآخرة) .

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل مابُعث به : مسبباً لشرٍّ أصابه : إما من السماء . وإما من آدمى . وهؤلاء كثيرون .

لم يقولوا « هذه من عندك » بمعنى : أنك أنت الذى أحدثتها . فإنهم يعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدث شيئاً من ذلك . ولم يكن قولهم « من عندك » خطاباً من بعضهم لبعض . بل هو خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن فهم هذا تبين له أن قوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك

من سيئة فمن نفسك » لا يناقض قوله « كل من عند الله » بل هو محقق له . لأنهم ـ هم ومن أشبههم إلى يوم القيامة ـ يجعلون ماجاء به الرسول ، والعملَ به : سبباً لما قد يصيبهم من مصائب . وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .

وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به ، و يقولون : ليس هذا مما أمر الله به . ولو كان مما أمر الله به : لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لايقدحون فى الأصل . لكن يقدحون فى القضية المعينة . فيقولون : هذا بسوء تدبير الرسول . كما قال عبد الله بن أُبيّ ابنُ سَلول يوم أُحد ـ إذ كان رأيه مع رأى النبى صلى الله عليه وسلم : أن لا يخرجوا من المدينة ـ فسأله صلى الله عليه وسلم ناسٌ ممن كان لهم رغبة فى الجهاد : أن يخرج . فوافقهم ، ودخل بيته ولبس لَأْمَتَه . فلما لبس لأمته ندموا . وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم « أنت أعلم . فإن شئت أن لا نخرج ، فلا نخرج . فقال : ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن ينزعها ، حتى يحكم الله بينه و بين عدوه » يعنى : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما يلزم الحج . لا يجوز ترك ما شرع فيه منه إلا عند العجز بالإحصار فى الحج .

فصل

والمفسرون ذكروا فى قوله « و إن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك » هذا وهذا .

فعن ابن عباس ، والسدى ، وغيرهما : أنهم يقولون هذا ، تشاؤماً بدينه .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . قال: بسوء تدبيرك ـ يعنى كما قاله عبد الله ابن أُبىّ وغيره يوم أُحد ـ وهم كالذين « قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا » .

فبكل حال : قولهم «من عندك» هو طعن فيما أمر الله به ورسوله : من الإيمان والجهاد . وجعل ذلك : هو الموجب للمصائب التى تصيب المؤمنين المطيعين ، كما أصابتهم يوم أحد . وتارة تصيب عدوهم . فيقول الكافرون : هذا بشؤم هؤلاء ،

كما قال أصحاب القرية للمرسلين « إنا تطيرنا بكم » وكما قال تعالى عن آل فرعون « فإذا جاءتهم الحسنة ، قالوا : لنا هذه . وإن تصبهم سيئة يَطَّيروا لموسى ومن معه . ألا إنما طائرهم عند الله . ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقال تعالى عن قوم صالح « قالوا : اطَّيرنا بك وبمن معك . قال: طائركم عند الله. بل أنتم قوم تفتنون»

ولما قال أهل القرية « إنا تطيرنا بكم . لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا : طائركم معكم . أئِنْ ذُكِّرتم ؟ بل أنتم قوم مسرفون » .

قال الضحاك : فى قوله « ألا إنما طائرهم عند الله » يقول : الأمر من قِبل الله . ما أصابكم من أمر فمن الله ، بما كسبت أيديكم . وقال ابن أبى طلحة : عن ابن عباس « معايبكم » وقال قتادة « عملكم عند الله » .

وفى رواية غير على : عملكم عند الله « ولكنكم قوم تفتنون » أى تبتلون بطاعة الله ومعصيته . رواهما ابن أبى حاتم وغيره .

وعن ابن إسحاق قال : قالت الرسل « طائركم معكم » أى أعمالكم .

فقد فسروا « الطائر » بالأعمال وجزائها ، لأنهم كانوا يقولون : إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم .

فبين الله سبحانه : أن طائرهم ـ وهو الأعمال وجزاؤها ـ هو عند الله . وهو معهم . فهو معهم لأن أعمالهم وما قُدِّر من جزائها معهم . كما قال تعالى(١٧ : ١٣ وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) وهو من الله . لأن الله تعالى قَدَّر تلك المصائب بأعمالهم . فمن عنده تتنزل عليهم المصائب ، جزاء على أعمالهم ، لا بسبب الرسل وأتباعهم .

وفى هذا يقال : إنهم إنما يجزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال فى هذه الآية ـ لما كان المنافقون والكفار ومَنْ فى قلبه مرض يقول : هذا الذى أصابنا هو بسبب ماجاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا ـ بين سبحانه : أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففي هذا رد على من أعرض عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا تصيبه تلك المصائب . وعلى من انتسب إلى الإيمان بالرسول ، ونسبها إلى فعل ماجاء به الرسول ، وعلى من أصابته مع كفره بالرسول ، ونسبها إلى ماجاء به الرسول .

فصــل

والمقصود : أن ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس سبباً لشيء من المصائب . ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لاتقتضي إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة . ولـكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم . لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم . لا بسبب طاعتهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال : ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، لـكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر ، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ، ليتميز طيبه من خبيثه . والنفوس فيها شر . والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه . قال تعالى (٣ : ١٤٠ وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لايحب القوم الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الـكافرين) وقال تعالى (٣ : ١٥٤ وليبتلي الله مافي صدوركم . وليمحص مافي قلوبكم) ولهـذا قال صالح عليه السلام لقومه « طائركم عند الله . بل أنتم قوم تفتنون » .

ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، و بالصبر عليها ترتفع درجاتهم وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسـلم قال « مامن غازية يغزون في سبيل الله ، فيسلمون و يغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم . و إن أصيبوا وأخفقوا : تم لهم أجرهم » .

وأما مايلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذلك يكتب لهم به عمل صالح .

كما قال تعالى (٩ : ١٢٠ ذلك بأنه لايصيبهم ظمأ ، ولا نَصَب ، ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولايطؤون مَوْطِئاً يغيظ الكفار ، ولاينالون من عدو نَيْلاً إلا كتب لهم به عمل صالح . إن الله لايضيع أجر المحسنين) .

وشواهد هذا كثيرة .

فصل

والمقصود : أن قوله « إن تُصِبْهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله » فإنهم جعلوا مايصيبهم من المصائب بسبب ماجاءهم به الرسول . وكانوا يقولون : النعمة التى تصيبنا هى من عند الله . والمصيبة من عند محمد . أى بسبب دينه وما أمر به . فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله . لامن عند محمد . محمد لايأتى لابنعمة ولابمصيبة ولهذا قال بعد هذا « فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً ؟ » قال : السدى وغيره : هو القرآن . فإن القرآن إذا هم فقهوا مافيه : تبين لهم أنه إنما أمرهم بالخير ، والعدل ، والصدق ، والتوحيد . لم يأمرهم بمايكون سبباً للمصائب . فإنهم إذا فهموا مافى القرآن علموا : أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به : يعلم بالأمر به حسنه ونفعه ، وأنه مصلحة للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه . بل فيه مضرة لهم .

فإنه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطيرون بالرسل وأتباعهم .

* * *

ومما يوضح ذلك : أنه لما قال « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال بعدها « وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيداً » فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات . وإذا شهد الله له كفى به شهيداً . ولم يضره جحد هؤلاء لرسالته ، بما ذكروه من الشبه التى هى

عليهم لا لهم بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته . والله تعالى قد شهد له : أنه أرسله للناس رسولا . فكان ختم الكلام بهذا إبطالا لقولهم : إن المصائب من عند الرسول . ولهذا قال ، بعد هذا « من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » .

فصـــل

وكان فيما ذكره إبطال لقول الجهمية المجبرة ونحوهم ، ممن يقول : إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب . وأنه قد يأمر العباد بمـا لا ينفعهم ، بل بما يضرهم . فإن فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .

يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل مايشاء .

والقرآن يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر .

فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها . وهى حجة على الفريقين .

* * *

فإن قال نفاة القدر : إنمـا قال فى الحسنة « هى من الله » وفى السيئة « هى من نفسك » لأنه يأمر بهذا ، وينهى عن هذا ، باتفاق المسلمين .

قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر . فما أمر به فقد شاءه . وما لم يأمر به لم يشأه . فكانت مشيئته وأمره حاضَّة على الطاعة دون المعصية . فلهذا كانت هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا « الحسنة من عند الله ، والسيئة من عندك » أرادوا : من عندك يا محمد ، أى بسبب دينك . فجعلوا رسالة الرسول هى سبب المصائب . وهذا غير مسألة القدر .

وإذا كان قد أريد : إن الطاعة والمعصية ـ مما قد قيل ـ كان قوله « كل من عند الله » حجة عليكم كما تقدم .

وقوله بعد هذا « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » لاينافى ذلك . بل « الحسنة » أنعم الله بها و بثوابها . و « السيئة » هى من نفس الإنسان ناشئة ، و إن كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى « من شر ماخلق » فمن المخلوقات ماله شر ، و إن كان بقضائه وقدره .

وانتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من إحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلاً وهذا فاعلاً ، و بدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها . وهذا مخالف للقرآن .

فصل

فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصى مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة . فما الفرق بين الحسنات ، التى هى النعم ، والسيئات ، التى هى المصائب ؟ فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟ .

قيل : لفروق بينهما : —

الفرق الأول : أن نعم الله و إحسانه إلى عباده يقع ابتداء بلا سبب منهم أصلاً . فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر ، وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط . و ينشىء للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة . وقد خلقهم فى الآخرة لم يعملوا خيراً . و يدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلاعمل . وأما العقاب : فلايعاقب أحداً إلا بعمله .

الفرق الثانى : أن الذى يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات : هو من إحسان الله ، و بفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة (٧ : ٤٣ الحمد لله الذى هدانا لهذا . وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) .

وفى الحديث الصحيح « ياعبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم . ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة : هو من

نعمته ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذى اهتدوا به : هو من نعمته .

وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين : هو من نعمته . كما قال تعالى (٤٩ : ١٧ ولكن الله حبب إليكم الإيمان ،وزينه فى قلوبكم . وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون . فضلاً من الله ونعمة) .

فجميع مايتقلب فيه العالم من خيرى الدنيا والآخرة : هو نعمة محضة منه بلاسبب سابق يوجب لهم حقاً . ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به . وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء .

فقوله « ما أصابك من حسنة فمن الله » حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما «السيئة » فلا تكون إلا بذنب العبد . وذنبه من نفسه . وهو لم يقل : إنى لم أقدر ذلك ولم أخلقه . بل ذكر للناس ماينفعهم .

فصل

فإذا تدبر العبد علم : أن ماهو فيه من الحسنات من فضل الله . فشكر الله . فزاده الله من فضله عملاً صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه . وإذا علم أن الشر لايحصل له إلا من نفسه بذنوبه : استغفر وتاب . فزال عنه سبب الشر . فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً . فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه . كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته « الحمد لله » فيشكر الله . ثم يقول « نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة . ونستغفره من المعصية . ثم يقول « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » فيستعيذ به من الشر الذى فى النفس ، ومن عقوبة عمله . فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه . فيستعيذ الله من شر النفس : أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا . ثم إذا عمل استعاذ بالله من

سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله . فاستعانه على الطاعة وأسبابها . واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلمُ العبدِ بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وماأصابه من سيئة فمن نفسه : يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما فى قوله « قل كل من عند الله » .

فبين أن الحسنات والسيئات : النعم والمصـائب ، والطاعات والمعاصى ، على قول من أدخلها فى « من عند الله » .

ثم بين الفرق الذى ينتفعون به . وهو أن هذا الخير : من نعمة الله ، فاشكروه يزدكم . وهذا الشر : من ذنوبكم . فاستغفروه ، يدفعه عنكم .

قال الله تعـالى (٨ : ٣٣ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وقال تعالى (١١ : ١ ـ ٣ الٓر كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لَدُنْ حكيم خبير : أن لا تعبدوا إلا الله . إننى لـكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى . ويُؤْتِ كل ذى فضلٍ فضله) .

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسَّى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين ، كآدم وغيره . وإذا أصر ، واحتج بالقدر : فقد تأسَّى بالأشقياء ، كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر : أن الجميع من عند الله ، تنبيها على الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله . والدعاء بذلك فى الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءاً ، أو أجره إلى مسلم » .

فيستغفر مما مضى . و يستعيذ مما يستقبل . فيكون من حزب السعداء .

و إذا علم أن الحسنة من الله ــ الجزاء والعمل ــ سأله أن يعينه على فعل الحسنات . بقوله (إياك نعبد و إياك نستعين) و بقوله (اهدنا الصراط المستقيم) وقوله (٣ : ٨ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) ونحو ذلك .

وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق : فإنه يحصل من هذا التسوية . فأعرض العاصى والمذنب عن ذم نفسه ، وعن التوبة من ذنوبها ، والاستعاذة من شرها . بل وقام فى نفسه : أن يحتج على الله بالقدر . وتلك حجة داحضة ، لاتنفعه . بل تزيده عذاباً وشقاء ، كما زادت إبليس لما قال (٧ : ١٦ فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم) وقال (١٥ : ٣٩ رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين) .

وكالذين يقولون يوم القيامة (٣٩ : ٥٧ لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) وكالذين قالوا (٦ : ١٤٨ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء)

فمن احتج بالقدر على مافعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله به ، من التوبة والاستغفار ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس فى الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجمع .

فصل

الفرق الثالث : أن الحسنة يضاعفها الله و ينميها ، و يثيب على الهمّ بها . والسيئة لايضاعفها ، ولايؤاخذ على الهمّ بها . فيعطى صاحب الحسنة : من الحسنات فوق ماعمل . وصاحبُ السيئة : لايجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى (٦ : ١٦٠ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلى مثلها . وهم لا يظلمون)

الفرق الرابع : أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم . فما من وجه من وجوهها : إلا وهو يقتضى الإضافة إليه .

وأما السيئة : فهو إنما يخلقها بحكمة . وهى باعتبار تلك الحكمة من إحسانه .

فإن الرب لايفعل سيئة قط . بل فعله كله حسن وحسنات . وفعله كله خير .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى دعاء الاستفتاح « والخير بيديك . والشر ليس إليك » فإنه لا يخلق شراً محضاً . بل كل ما يخلقه : ففيه حكمة ، هو باعتبارها خير . ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس . وهو شر جزئى إضافى . فأما شر كلى ، أو شر مطلق : فالرب منزه عنه . وهذا هو الشر الذى ليس إليه .

وأما الشر الجزئى الإضافى : فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط . بل إما أن يدخل فى عموم المخلوقات ، كقوله (٢٥ : ٢ وخلق كل شىء) .

و إما أن يضاف إلى السبب كقوله (١١٣ : ٢ من شر ماخلق) .

و إما أن يحذف فاعله ، كقول الجن (٧٢ : ١٠ و إنا لاندرى أشر أُريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ؟) .

* * *

وهذا الموضع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين فى القدر بالباطل .

فرقة كذبت بهذا ، وقالت : إنه لايخلق أفعال العباد ، ولايشاء كل ما يكون . لأن الذنوب قبيحة ، وهو لايفعل القبيح . و إرادتها قبيحة ، وهو لايريد القبيح .

وفرقة : لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة . بل قالت : إذا كان يخلق هذا : فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة . وما ثَمَّ فعل تنزه عنه . بل كل ما كان ممكناً جاز أن يفعله .

وجوّزوا : أن يأمر بكل كفر ومعصية . وينهى عن كل إيمان وطاعة ، وصدق وعدل . وأن يعذب الأنبياء ، و ينعم الفراعنة والمشركين ، وغير ذلك . ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول .

وهذا منكر من القول وزور ، كالأول . قال تعالى (٤٥ : ٢١ أم حسب

الذين اجترحوا السيئات : أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون) وقال تعالى (٦٨ : ٣٥ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالـكم كيف تحكمون) وقال تعالى (٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟) ونحو ذلك مما يوجب أنه يفرق بين الحسنات والسيئات ، و بين المحسن والمسىء . وأن من جوّز عليه التسوية بينهما : فقد أتى بقول منكر ، وزور ينكر عليه .

وليس إذا خلق مايتأذى به بعض الحيوان : لا يكون فيه حكمة . بل فيه من الحـكمة والرحمة مايخفى على بعضهم مما مالا يقدر قدره إلا الله .

وليس إذا وقع فى المخلوقات ماهو شر جزئى بالإضافة : يكون شراً كلياً عاما . بل الأمور العامة الـكلية : لا تـكون إلا خيراً ومصلحة للعباد ، كالمطر العام وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضى : أنه لايجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التى أيَّدَ بها أنبياءه الصادقين . فإن هذا شر عام للناس ، يضلهم و يفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وليس هذا كالملك الظالم ، والعدو . فإن الملك الظالم : لابد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم : خير من ليلة واحدة بلا إمام .

و إذا قدر كثرة ظلمه : فذاك ضرر فى الدين ، كالمصائب تـكون كفارة لذنوبهم و يثابون عليها ، و يرجعون فيها إلى الله ، و يستغفرونه و يتوبون إليه . وكذلك مايسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، و يقول ــ أى يدعى ــ أنه نبى : فلو أيَّدَه الله تأييد الصادق : للزم أن يسوى بينه و بين الصادق . فيستوى الهدى والضلال ، والخير

والشر، وطريق الجنة وطريق النار . ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا مايوجب الفساد العام للناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم (١) .

ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم : بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع ، كالخوارج . وأمر بالصبر على جور الأئمة . ونهى عن قتالهم والخروج عليهم . ولهذا قد يمكِّن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتَنَبِّئُون الكذابون : فلا يطيل تمكينهم . بل لابد أن يهلكهم . لأن فسادهم عام فى الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى (٦٩ : ٤٤ ـ ٤٦ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوَتين) وقال تعالى (٤٢ : ٢٤ أم يقولون افترى على الله كذبا . فإن يشأ الله يختم على قلبك) فأخبر : أنه ـ بتقدير الافتراء ـ لابد أن يعاقب من افترى عليه .

فصل

وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس . فاستدلت القدرية النفاة والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس . وإذا جاز أن يعذب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حيّ بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً ممن أمره على طاعة أمره : جاز أن لا يعين كل الخلق . فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام . وبين الشر الإضافى ، والشر المطلق . ولم يجعلوا فى الشر الإضافى حكمة يصير بها من قسم الخير .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزه عن تلك الأفعال . فإنا لو جوّزنا عليه هذا لجوّزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى .

---

(١) من هذا يعلم فساد دعوى من يقول : إن معجزة الأنبياء تكون كرامة للأولياء ، يعنى أن كرامة الولى من جنس معجزة النبى . والفرق بينهما : هو تحدى النبي وعدم تحدى الولى . وهذا من وحى شياطين الجن لشياطين الإنس زخرف القول غرورا .

فقالت المثبتة من الجهمية المجبرة : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك الخاص . و إنما يعلم أنه لايفعل بما لايفعل ، أو يفعل مايفعل : بالخبر ، خبر الأنبياء عنه . و إلا فمهما قُدِّر : جاز أن يفعله ، وجاز أن لا يفعله . ليس فى نفس الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضى التخصيص ببعض الأفعال دون بعض . بل ليس إلا مشيئة ، نسبتها إلى جميع الحوادث سواء . ترجّح أحد المتماثلين بلا مرجّح .

فقيل لهم : فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز . فلا يبقى المعجز دليلا على صدق الأنبياء . فلا يبقى خبر نبى يعلم به الفرق . فيلزم — مع الكفر بالأنبياء — أن لا يعلم الفرق ،لا بسمع ولا بعقل .

فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها . بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز البارى تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار . كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع .
و بين خطأ الطائفتين . وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً فى الخبر — ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التى بها يفعل ، وماخلقه من القوى وغيرها — هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة و إجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول . كما أن القدرية النفاة : مخالفون للكتاب والسنة و إجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول .

فصل

والمقصود هنا : الكلام على قوله (ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وأن هذه يقتضى : أن العبد لايزال شاكراً مستغفرا .

وقد ذكر : أن الشر لايضاف إلى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة .
وقد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة . هو سبحانه : الرحمن الذى وسعت رحمته كل شىء . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه ، وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم.

فإرادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فمنه (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله) .

وقد قال سبحانه (١٥ : ٤٩ ، ٥٠ نبيء عبادى : أنى أنا الغفور الرحيم) ثم قال (وأن عذابى هو العذاب الأليم) وقال تعالى (٥ : ٩٨ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه . فهى من موجب نفسه المقدسة ، ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذى خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة . فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده . ولا يأتيه الشر إلا من نفسه . فما أصابه من حسنة : فمن الله . وما أصابه من سيئة : فمن نفسه .

* * *

وقوله « وما أصابك » إما أن تكون كاف الخطاب له صلى الله عليه وسلم — كما قال ابن عباس وغيره — وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك (وأرسناك للناس رسولا) وإما أن تكون لكل واحد واحد من الآدميين ، كقوله (٨٢ : ٦ يا أيها الإنسان ، ما غرك بربك الكريم ؟) .

لكن هذا ضعيف . فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه . وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه . فلو أريد ذكرهم : لقيل « ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة » .

لكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم . وإذا كان هذا حكمه : كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأحرى . كما فى مثل قوله (٣٣ : ١ اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) وقوله تعالى (٣٩ : ٦٥ لئن أشركت ليحبطن عملك) وقوله (١٠ : ٩٤ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك . فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك) .

ثم هذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظه به . لكن يتناول غيره بطريق

الأولى ، كقوله (٦٦ : ١ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك ؟) ثم قال (قد فرض الله لكم تَحِلَّةَ أيمانكم) .

ونوع : قد يكون خطابه خطابا به لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين : الخطاب له . والمراد غيره .

وليس المعنى : أنه لم يخاطب بذلك . بل هو المقدم . فالخطاب له خطاب لجميع الجنس البشرى . و إن كان هو لا يقع منه مانهى عنه . ولا يترك ما أمر به . بل هذا يقع من غيره . كما يقول ولى الأمر للأمير : سافر غداً إلى المكان الفلانى . أى أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهى أعَزَّ من عنده عن شىء . فيكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » الخطاب له صلى الله عليه وسلم . وجميع الخلق داخلون فى هذا الخطاب بالعموم ، و بطريق الأولى . بخلاف قوله « وأرسلناك للناس رسولا » فإن هذا له خاصة . ولكن من يبلغ عنه يدخل فى معنى الخطاب . كما قال صلى الله عليه وسلم « بلغوا عنى ولو آية » وقال « نضَّرَ الله امرءًا سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه » وقال « ليبلغ الشاهد الغائب » وقال « إن العلماء ورثة الأنبياء » وقد قال تعالى فى القرآن (٦:١٩ وأُوحىَ إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغ) .

* * *

والمقصود هنا : أن « الحسنة » مضافة إليه سبحانه من كل وجه . و « السيئة » مضافة إليه لأنه خلقها . كما خلق « الحسنة » فلهذا قال « كل من عند الله » . ثم إنه إنما خلقها لحكمة . ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التى تفعل الشر بها لا لحكمة . فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً ، يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسنا . لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط .

وقد دخل فى هذا سيئات الجزاء والعمل . لأن المراد بقوله « ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة » النعم والمصائب ، كما تقدم . لكن إذا كانت المصيبة من نفسه ـ لأنه أذنب ـ فالذنب من نفسه بطريق الأولى . فالسيئات من نفسه بلا ريب . وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله « كل من عند الله » كما تقدم . لأنها لاتضاف إلى الله مفردة . بل إما فى العموم ، كقوله « كل من عند الله » .

وكذلك الأسماء التى فيها ذكر الشر ، لاتذكر إلا مقرونة ، كقولنا « الضار النافع المعطى المانع ، المعز المذل » أو مقيدة ، كقوله (٣٢ : ٢٢ إنا من المجرمين منتقمون) .

وكل ماخلقه ـ مما فيه شر جزئى إضافى ـ ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك . مثل إرسال موسى إلى فرعون . فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه . وذلك شر بالإضافة إليهم . لكن حصل به ـ من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة ، والاعتبار بقصة فرعون ـ ماهو خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضَرَّ به . كما قال تعالى (٤٣ : ٥٥ ، ٥٦ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) وقال تعالى بعد ذكر قصته (٧٩ : ٢٦ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) .

وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم : شَقِى برسالته طائفة من مشركى العرب وكفار أهل الكتاب . وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه . ولكن سعد بها أضعاف أضعاف هؤلاء .

ولذلك من شقى به من أهل الكتاب كانوا مبدلين محرفين قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم . فأهلك الله بالجهاد طائفة . واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك .

والذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم . لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلا الله . وهم دائماً يهتدى منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد .

فالمصلحة بإرساله و إعزازه ، و إظهار دينه ، فيها من الرحمة التى حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئى إضافى ، لما فى ذلك من الخير والحكمة أيضاً . إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض أصلا ، بل هو شر بالإضافة .

فصـل

الفرق الخامس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التى يعملها كلها أمور وجودية . أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقه ، ليس فى الحسنات أمر عدمى غير مضاف إلى الله . بل كلها أمر وجودى . وكل موجود وحادث فالله هو الذى يحدثه .

وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به ، أو ترك منهى عنه . والترك : أمر وجودى . فترك الإنسان لما نهى عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح ، و بأنه سبب للعذاب ، و بغضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هويته ، واشتهته وطلبته . كل هذه أمور وجودية . كما أن معرفته بأن الحسنات ـ كالعدل والصدق ـ حسنة ، وفعله لها أمور وجودية .

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبا لها بنية وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه . وطاعة لله ولرسوله ، و يثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها . قال تعالى (٤٩ : ٧ ولكن الله حبب إليكم الإيمان ، وزَيَّنه فى قلوبكم . وكَرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) وقال تعالى (٧٩ : ٤٠ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى) وقال تعالى (٢٩ : ٤٥ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

وفى الصحيحين عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله . ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر – بعد إذ أنقذه الله منه – يلقى فى النار » .

وفى السنن عن البراء بن عازب عن النبى صلى الله عليه وسلم « أوثق عُرَى الإيمان : الحب فى الله ، والبغض فى الله » .

وفيها عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله . ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » .

وفى الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه – لما ذكر الخلوف – قال « من جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وقد قال تعالى (٦٠: ٤ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه . إذ قالوا لقومهم : إنا بُرَآء منكم ومما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم . وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قولَ إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك . وما أملك لك من الله من شىء) .

وقال على لسان الخليل (٤٣ : ٢٦ ، ٢٧ إننى بَراء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى ، فإنه سيهدين) وقال (٣٦ : ٧٥ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عَدُوٌّ لى ، إلا رب العالمين) وقال (٦ : ٧٨ ، ٧٩ فلما أفَلَتْ ، قال : ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) .

فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ، ومن عابديه : هى أمور موجودة فى القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته وموالاة أوليائه : أمور موجودة فى القلب ، وعلى اللسان والجوارح . وهى تحقيق قول « لا إله إلا الله » وهو إثبات تأليه القلب لله حباً خالصاً وذلا صادقا . ومنع تأليهه لغير الله ، و بغض ذلك وكراهته . فلا يعبد إلا الله . و يحب أن يعبده ، ونبغض عبادة غيره . و يحب التوكل عليه وخشيته ودعاءه و يبغض التوكل على غيره وخشيته ودعاءه .

فهذه كلها أمور موجودة فى القلب . وهى الحسنات التى يثيب الله عليها .

وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لايفعلها لسكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التى لايحبها ولايبغضها فهذا لايثاب على عدم مايفعله من السيئات . ولكن لايعاقب أيضاً على فعلها . فكأنه لم يفعلها . فهذا تكون السيئات فى حقه بمنزلتها فى حق الطفل والمجنون والبهيمة . لاثواب ولا عقاب .

ولكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه تحريمها . فإن لم يعتقد تحريمها و يكرهها وإلا عوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

فصل

وقد تنازع الناس فى الترك : هل هو أمر وجودى أو عدمى ؟ . والأكثرون على أنه وجودى .

وقالت طائفة ـ كأبى هاشم ابن الجبائى ـ إنه عدمى وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لاعلى تركٍ يقوم بنفسه . و يسمون « المذمية » لأنهم رتبوا الذم على العدم المحض .

والأكثرون يقولون : الترك أمر وجودى . فلا يثاب من ترك المحظور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك المأمور : إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه . وهو أن يأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل فيمتنع . فهذا الامتناع أمر وجودى .

ولذلك فهو يشتغل عما أُمر به بفعل ضده ، كما يشتغل عن عبادة الله وحده بعبادة غيره . فيعاقب على ذلك .

ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده ، فلابد أ نه يكون عابداً لغيره . يعبد غيره فيكون مشركاً . وليس فى بنى آدم قسم ثالث . بل إما موحد ، أو مشرك ، أو من خلط هذا بهــذا كالمبدلين من أهل الملل : النصارى ومن أشبههم من الضلال ، المنتسبين إلى الإســلام . قال الله تعالى (١٦ : ٩٨ ـ ١٠٠ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقد قال تعــالى (١٥ : ٤٢ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) لمــا قال إبليس (١٥ : ٣٩ ، ٤٠ لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) قال تعــالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) .

فإبليس لايغوى المخلصين . ولاسلطان له عليهم . إنما سلطانه على الغاوين . وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله « الذين يتولونه والذين هم به مشركون » صفتان لموصوف واحد . فــكل من تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه .

قال تعالى (٣٦ : ٦٠ ، ٦١ ألم أعهد إليكم يابنى آدم : أن لاتعبدوا الشيطان ؟ إنه لــكم عدو مبين . وأن اعبدونى . هذا صراط مستقيم) .

وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان ، و إن كان يظن أنه يعبد الملائــكة والأنبياء . وقال تعالى (٣٤ : ٤٠ ، ٤١ و يوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائــكة : أهؤلاء إيا كم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجنّ . أ كثرهم بهم مؤمنون) .

ولهذا يتمثل الشياطين لمن يعبد الملائــكة والأنبياء والصالحين و يخاطبونهم

فيظنون أن الذى خاطبهم ملك أو نبى ، أو ولي . و إنما هو شيطان ، جعل نفسه ملكا من الملائكة ، كما يصيب عباد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات ، يسمون أسماء ، يقولون : هى أسماء الملائكة ، مثل ميططرون وغيره . و إنما هى أسماء الجن .

وكذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء والأولياء والملائكة قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه ، فيظنه النبى ، أو الصالح الذى دعاه . و إنما هو شيطان تصور فى صورته ، أو قال : أنا هو ، لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو .

وهذا الشر يجرى لمن يدعو المخلوقين ، من النصارى ومن المنتسبين إلى الإسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو مغيبهم . و يستغيثون بهم . فيأتيهم من يقول : إنه ذلك المستغاث به فى صورة آدمى راكباً ، و إما غير راكب . فيعتقد المستغيث : أنه ذلك النبى ، والصالح ، أو أنه سره ، أو روحانيته ، أو رقيقته تشكل ، أو يقول : إنه ملك جاء على صورته . و إنما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودعا غيره الميت من دونه . فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك . فظن أنه يدعو النبى ، أو الصالح ، أو الملك . وأنه هو الذى شفع له ، أو هو الذى أجاب دعوته . و إنما هو الشيطان ، ليزيده غلواً فى كفره وضلاله .

فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلا بد أن يكون مشركاً عابداً لغير الله . وهو فى الحقيقة : عابد للشيطان .

فكل واحد من بنى آدم إما عابد للرحمن ، و إما عابد للشيطان . قال تعالى (٤٣ : ٣٦ ـ ٣٩ ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً . فهو له قرين ، و إنهم ليصدونهم عن السبيل و يحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال : ياليت بينى و بينك بُعْدَ المشرقين . فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) وقال تعالى (٢٢ : ١٧ إن الذين آمنوا والذين هادوا

والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا . إن الله يفصل بينهم يوم القيامة . إن الله على كل شهيد) .

فبنو آدم منحصرون فى الأصناف الستة . و بسط هذا له موضع آخر .

فصل

والمقصود هنا : أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودى بفعل الحسنات ، كعبادة الله وحده ، وترك السيئات ، كترك الشرك ـ أمر وجودى، وفعل السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله ـ أمر وجودى . قال تعالى (٢٨:٨٤ من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) وقال تعالى (١٧ : ٧ إن احسنتم أحسنتم لأنفسكم . و إن أسأتم فلها) وقال تعالى (٤١ : ٤٦ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) وقال تعالى (١٠:٢٦،٢٧ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . ولا يرهق وجوهَهم قَتَرٌ ولا ذلة . أولئك أصحاب الجنــة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها . وترهقهم ذلة ـ إلى قوله ـ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال تعــالى (٣٠:١٠ ثم كان عاقبةَ الذين أساءوا : السوأى ، أن كذبوا بآيات الله . وكانوا به يستهزئون) .

فأما عدم الحسنات والسيئات : فجزاؤه عدم الثواب والعقاب .

و إذا فُرض رجل آمن بالرسول مجملا ، و بقى مدة لا يفعل كثيراً من المحرمات ، ولا سمع أنها محرمه ، فلم يعتقد تحريمها . مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولا علم أنه حرم نــكاح الأقارب سوى أر بعة أصناف ، ولا حرم بالمصاهرة أر بعة أصناف ـ حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه ـ فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ، ولا اعتقد تحريمها ، لأنه لم يسمع ذلك : فهذا لا يثاب ولا يعاقب .

ولــكن إذا علم التحريم فاعتقده : أثيب على اعتقاده . و إذا ترك ذلك ـ مع

دعاء النفس إليه ـ أثيب ثواباً آخر ، كالذى تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها كالصائم الذى تشتهى نفسه الأكل والجماع فينهاها ، والذى تشتهى نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها . فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيه لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغاله بالطاعات التى هى ضدها . فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

و إذا تبين هذا : فالحسنات التى يثاب عليها كلها وجودية ، نعمة من الله تعالى وما أحبته النفس من ذلك ، وكرهته من السيئات : فهو الذى حبب الإيمان إلى المؤمنين ، وزينة فى قلوبهم . وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

فصل

فى منشأ السيئات

وأما السيئات : فمنشؤها الجهل والظلم . فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها .

ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها ، أو لبغض نفسه لها .

وفى الحقيقة : فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل . و إلا فلو كان عالماً علماً نافعاً بأن فعل هذا يضره ضراراً راجحاً ، لم يفعله . فإن هذا خاصية العاقل . ولهذا إذا كان من الحسنات مايعلم أنه يضره ضراراً راجحاً ، كالسقوط من مكان عال ، أو فى نهر يغرقه ، أو المرور بجنب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمى ماله فى البحر ونحو ذلك : لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لامنفعة فيه . ومن لم يعلم أن هذا يضره ـ كالصبى ، والمجنون ، والساهى والغافل ـ فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره ـ مع علمه بما فيه من الضرر عليه ـ فلظنه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجزم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح . فلا بد من رجحان الخير ، إما فى الظن و إما فى المظنون ، كالذى يركب البحر و يسافر الأسفار البعيدة

للربح . فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر ، لكنه يترجح عنده السلامة والربح ، وإن كان مخطئاً فى هذا الظن .

وكذلك الذنوب : إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق . وكذلك الزانى : إذا جزم بأنه يرجم ، لم يزن . والشارب يختلف حاله . فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك . ولهذا كان الصحيح : أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بل يجوز أن تنتهى إلى القتل ، إذا لم ينتهِ إلا بذلك . كما جاءت بذلك الأحاديث . كما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات، متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله . بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته . بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله . ولا يستحضر تحريماً ، ولا وعيداً . فيبقى غافلا . غير مُستحضر للتحريم . والغفلةُ من أضداد العلم .

فصل

الغفلة والجهالة والشهوة : أصل كل شر

فالغفلة والشهوة أصل الشر . قال تعالى (١٨ : ٢٨ ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه . وكان أمره فُرُطاً) والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل . وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع . فإن الله تعالى جعل فى النفس حباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها . فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً . بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نُهًى ، وذو حجًى .

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان . لا من مجرد النفس . فإن الشيطان يزين لها السيئات ، ويأمرها بها ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن . التى هى منافع

لامضار . كما فعل إبليس بآدم وحواء . فقال (٢٠ : ١٢٠ ، ١٢١ يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما) (٧: ٢٠ وقال : مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين) .

ولهذا قال تعالى (٤٣ : ٣٦ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وقال تعالى (٣٥ : ٦ أفمن زُيِّنَ له سُوء عمله فرآه حَسَناً ؟) وقال تعالى (٦ : ١٠٨ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عَدْوًا بغير علم . كذلك زينا لكل أمةٍ عملهم . ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئُهم بما كانوا يعملون) .

وقوله « زينا لكل أُمة عملهم » هو بتوسيط تزيين الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنين للخير . وتزيين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى (٦ : ١٣٧ وكذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم لِيُرْدُوهم . وليَلْبِسوا عليهم دينهم) .

فأصل مايوقع الناس فى السيئات : الجهل ، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظَنُّ أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال الصحابة رضى الله عنهم « كل من عصى الله فهو جاهل » وفسروا بذلك قوله تعالى (٤ : ١٧ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة . ثم يتوبون من قريب) كقوله (٦ : ٥٤ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا . فقل : سلام عليكم . كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سُوءًا بجهالة . ثم تاب من بعده وأصلح . فأنه غفور رحيم) ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية . فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ؟ (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل . ومن تاب قبيل الموت : فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال « أجمع أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل

من عصى ربه فهو فى جهالة ، عمداً كان أو لم يكن . وكل من عصى الله فهو جاهل » وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً ــ من شيخ ، أو شاب ــ فهو بجهالة . وقال : من عصى ربه فهو جاهل . حتى ينزع عن معصيته . وقال أيضاً : هو إعطاء الجهالة العمد . وقال مجاهد أيضاً : من عمل سُوءًا خطأً ، أو إثماً عمداً : فهو جاهل . حتى ينزع منه . رواهن ابن أبى حاتم . ثم قال : وروى عن قتادة ، وعمرو بن مرة ، والثورى ، ونحو ذلك « خطأً ، أو عمداً » .

وروى عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا ولا حراما . ولـكن من جهالته : حين دخل فيه . وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصرى : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا مالهم مما عليهم . قيل له : أرأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها . فإنها جهالة .

قلت : ومما يبين ذلك : قوله تعالى (٣٥ : ٢٨ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء) وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته : فهو عالم . كما قال تعـالى (٣٩ : ٩ أَمَّنْ هو قانتٌ آناءَ الليل ساجِداً وقائماً ؟ يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه . قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟) .

وقال رجل للشعبى : أيها العالم . فقال : إنما العالم من يخشى الله .

وقوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » يقتضى أن كل من خشى الله فهو عالم . فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضى أيضاً : أن العالم من يخشى الله . كما قال السلف .

قال ابن مسعود « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلا » .

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين . حصر الأول فى الثانى . وهو مطرد وحصر الثانى فى الأول نحو قوله (٣٦ : ١١ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب) وقوله (٧٩:٤٥ إنما أنت منذر من يخشاها) وقوله (٣٢ : ١٥ ،

١٦ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّرُوا بهـا خَرُّوا سُجَّداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

وذلك : أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم . وهذا كالاستثناء . فإنه من النفى : إثبات ، عند جمهور العلماء . كقولنا «لا إلَهَ إلا الله» وقوله تعالى (٢١: ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقوله (٣٤ : ٢٣ ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقوله (٢٥ : ٣٣ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) .

وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه . لم يثبت له ما ذكر . ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك فى صيغة الحصر بطريق الأولى . فيقولون : نفى الخشية عن غير العلماء ، ولم يثبتها لهم .

والصواب : قول الجمهور . أن هذا كقوله (٧ : ٣٣ قل : إنمـا حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن . والإثم والبغى بغير الحق) فإنه ينفى التحريم عن غير هذه الأصناف ويثبتها لها . لـكن أثبتها للجنس . أو لـكل واحدٍ واحد من العلماء ؟ كما يقال : إنما يحج المسـلمون . ولا يحج إلا مسلم . وذلك أن المستثنى هل هو مقتضٍ أو شرط ؟ .

ففى هذه الآية وأمثالها : هو مقتض . فهو عام . فإن العلم بمـا أنذرت به الرسل يوجب الخوف . فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات ، وترك السيئات . وكل عاص فهو جاهل . ليس بتام العلم . يبين ماذكرنا من أن أصل السيئات الجهل ، وعدم العلم . وإذا كان كذلك . فعدم العلم ليس شيئاً موجوداً . بل هو مثل عدم القدرة ، وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .

* * *

والعدم : لافاعل له . وليس هو شيئاً . وإنما الشىء الموجود . والله تعالى خالق كل شىء . فلا يجوز أن يضاف العدم المحض إلى الله . لـكن قد يقترن به ماهو موجود .

فإذا لم يكن عالماً بالله ، لايدعوه إلى الحسنات ، وترك السيئات .

والنفس بطبعها متحولة . فإنهـا حية . والإرادة والحركة الإرادية من لوازم الحياة . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « أصدق الأسماء : حارث وهمام » فكل آدمى حارث وهمام . أى عامل كاسب ، وهو همام . أى يَهُمّ ويريد . فهو متحرك بالإرادة .

وقد جاء فى الحديث « مثل القلب : مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة ، ولَلقلبُ أشد تقلباً من القِدْر إذا استجمعت غليانا » .

فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها . فإذا هداها الله : علمها ماينفعها وما يضرها . فأرادت ماينفعها ، وتركت مايضرها .

فصل

والله سبحانه قد تفضل على بنى آدم بأمرين . هما أصل السعادة .

أحدهما : أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل مولو يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يُمَجِّسانه ، كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمة جَمعاء . هل تحسون فيهـا من جَدْعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم (٣٠ : ٣٠ فطرة الله التى فطر الناس عليهـا) » قال تعـالى (٣٠ : ٣٠ فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم) .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى : خلقت عبادى حُنفاء . فاجتالتهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا » .

فالنفس بفطرتها إذا تُركت كانت مقرة لله بالإلٰهية ، محبة له ، تعبده لاتشرك به شيئاً . ولـكن يفسدها مايزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل . قال تعالى (٧ : ١٧٢ و إذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم

ذرياتهم . وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟) .

وتفسير هذه الآية مبسوط فى غير هذا الموضع .

الثانى : أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، و بما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل إليهم من الرسل . قال تعالى (٩٦ : ١ ــ ٥ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من عَلَق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم) وقال تعالى (٥٥ : ١ ــ ٣ الرحمن عَلَّمَ القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان) وقال تعالى (٨٧ : ١ ــ ٣ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قَدَّر فهدى) وقال تعالى (٩٠ : ١٠ وهديناه النجدين) .

ففى كل أحد ما يقتضى معرفته بالحق ومحبته له . وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم ، يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة . وجعل فى فطرته محبة لذلك . لكن قد يُعرض الإنسان ــ بجاهليته وغفلته ــ عن طلب علم ما ينفعه .

وكونه لا يطلب ذلك ، ولا يريده : أمر عدمى ، لا يضاف إلى الله تعالى . فلا يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

الحركة والإرادة من لوازم النفس

لكن النفس كما تقدم : الإرادةُ والحركة من لوازمها . فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيي الحياة النافعة الكاملة . وكان مالها من الحياة الطبيعية موجباً لعذابها . فلا هى حية متنعمة بالحياة . ولا هى ميتة مستريحة من العذاب . قال تعالى (٨٧ : ٩ ــ ١٣ فذكِّر إن نفعت الذكرى . سيذكّر من يخشى . و يتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى) فالجزاء من جنس العمل . لما كان فى الدنيا : ليس بحى الحياة النافعة

التى خلق لأجلها . بل كانت حياته من جنس حياة البهائم . ولم يكن ميتاً عديم الإحساس : كان فى الآخرة كذلك . فإن مقصود الحياة : هو حصول ما ينتفع به الحىُّ و يستلذ به . والحى لابد له من لذة أو ألم . فإذا لم تحصل له اللذة : لم يحصل له مقصود الحياة . فإن الألم ليس مقصوداً .

كمن هو حى فى الدنيا ، و به أمراض عظيمة لاتدعه يتنعم بشىء مما يتنعم به الأحياء . فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ، ولا يحصل له .

فلما كان من طبع النفس الملازم لها : وجود الإرادة والعمل ، إذ هو حارث همام . فإن عرفت الحق وأرادته . وأحبته وعبدته : فذلك من تمام إنعام الله عليها . و إلا فهى بطبعها لابد لها من مراد معبود غير الله . ومرادات سيئة تضرها . فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده . وهذا عدم لايضاف إلى فاعل . ومن كونها بطبعها لابد لها من مراد معبود . فعبدت غيره . وهذا هو الشر الذى تعذبُ عليه . وهو من مقتضى طبعها مع عدم هداها .

* * *

والقدرية يعترفون بهذا جميعه و بأن الله خلق الإنسان مريداً . لكن يجعلون المخلوق كونه مريداً بالقوة والقبول . أى قابلا لأن يريد هذا وهذا .

وأما كونه مريداً لهذا المعين ، وهذا المعين : فهذا عندهم ليس مخلوقا لله . وغلطوا فى ذلك غلطاً فاحشاً . فإن الله خالق هذا كله .

و إرادة النفس لما يريده من الذنوب وفعلها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى فإن الله خالق كل شىء . وهو الذى ألهم النفس — التى سوّاها — فجورها وتقواها .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم آت نفسى تقواها ، وزَكِّها ، أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها » .

وهو سبحانه : جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره . وجعل فرعون وآله أئمة يدعون إلى النار ، و يوم القيامة لاينصرون .

لـكن هذا لايضاف مفرداً إلى الله تعالى ، لوجهين : من جهة علته الغائية ، ومن جهة سببه وعلته الفاعلة .

أما الغائية : فإن الله إنما خلقه لحـكمة هو باعتبارها خير ، لا شر . و إن كان شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً : توهم المتوهم مذهب جهم : أن الله يخلق الشر المحض الذى لا خير فيه لأحد . لا لحـكمة ولا رحمة . والاخبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب .

كما أنه إذا قيل : محمد وأمته يسفكون الدماء ، و يفسدون فى الأرض : كان هذا ذماً لهم ، وكان باطلا . و إذا قيل : يجاهدون فى سبيل الله لتـكون كلمة الله هى العليا ، و يكون الدين كله لله ، و يقتلون من منعهم من ذلك : كان هذا مدحاً لهم ، وكان حقا .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم . أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ماصنع ، وهو أرحم الراحمين . أرحم بعباده من الوالدة بولدها . والخير كله بيديه . والشر ليس إليه . بل لا يفعل إلا خيرا . وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة : فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة ـ كان هذا حقاً . وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل : إنه يخلق الشر الذى لا خير فيه ولا منفعة لأحد . ولا له فيها حكمة ولا رحمة . و يعذب النـاس بلا ذنب : لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولا ثناء عليه . بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس .

و بسط القول فى بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقد بينا بعض مافى خلق جهم و إبليس من السيئات : من الحـكمة والرحمة . وما لم نعلم أعظم ممـا علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين . ومالك يوم الدين .

الأحد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . الذى لايحصى العباد ثناء عليه . بل هو كما أثنى على نفسه . الذى له الحمد فى الأولى والآخرة . وله الحكم وإليه يرجعون . الذى يستحق الحمد والحب والرضا لذاته ، ولإحسانه إلى عباده . سبحانه وتعالى . يستحق أن يحمد لما له فى نفسه من المحامد والإحسان إلى عباده . هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقا .

* * *

وقد ذكرنا ــ فى غير هذا الموضع ــ ماقيل : من أن كل ماخلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين . يستحق أن يحمدوه ويشكروه عليه ، وهو من الآية . ولهذا قال فى آخر سورة النجم (٥٣ : ٥٥ فبأى آلاء ربك تتمارى ؟) وفى سورة الرحمن يذكر (كل من عليها فان) ونحو ذلك . ثم يقول عقب ذلك (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

وقال آخرون : منهم الزجاج ، وأبو الفرج بن الجوزى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى من هذه الأشياء المذكورة . لأنها كلها ينعم بها عليكم فى دلالتها إياكم على وحدانيته . وفى رزقه إياكم مابه قوامكم .

وهذا قالوه فى سورة الرحمن .

وقالوا فى قوله « فبأى آلاء ربك تتمارى ؟ » فبأى نعم ربك التى تدل على وحدانيته تتشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تُكَذِّب ؟ .

قلت : قد ضمن « تمارى » معنى تكذب . ولهذا عداه بالتاء . فإن التمارى : تفاعل من المراء . يقال : تمارينا فى الهلال . والمراء فى القرآن كفر . وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم . قال « تتمارى » أى يتمارون . ولم يقل : تميرك . فإن التفاعل يكون بين اثنين تماريا . قالوا : والخطاب للانسان . قيل للوليد بن المغيرة . فإنه قال (٥٣ : ٣٦ ـ ٣٨ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى

وفى : أن لاتزر وازرة وزر أخرى) ثم التفت إليه فقال « فبأى آلاء ربكما تتمارى ؟ » تـكذبان . كما قال (٥٥ : ١٤ ـ ١٦ خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

فنى كل ماخلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر . وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته .

فجميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد ، كالثقلين المخاطبين بقوله « فبأى آلاء ربكما تـكذبان ؟ » من جهة أنهـا آيات للرب ، يحصـل بها هدايتهم وإيمانهم الذى يسعدون به فى الدنيـا والآخرة . فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التى بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم . وإهلاك عدوهم ـ كما ذكره فى سورة النجم (٥٣ : ٥٠ ـ ٥٤ وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود ، فما أبقى . وقوم نوح من قبل ، إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ماغشى) يدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد . مابشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك (٥٣ : ٥٦ هذا نذير من النذر الأولى) قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن . فإن الله سمى كلا منهما بشيراً ونذيرا . فقال فى رسول الله (٧:١٨٨ إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون) وقال تعالى (٤٨:٨ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا) وقال تعالى فى القرآن (٤١ : ٢ كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيرا) وهما متلازمان .

وكل من هذين المعنيين : مراد . يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والـكتب الأولى .

وقوله « من النذر » أى من جنسها . أى رسول من الرسل المرسلين .

ففى المخلوقات : نعم من جهةحصول الهدى والإيمان ، والاعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

أفضل النعم

فأفضل النعم : نعمة الإيمان . وكل مخلوق من المخلوقات : فهو الآيات التى يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة . قال تعالى (١٢ : ١١١ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وقال تعالى (٥٠ : ٨ تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب) .

وما يصيب الإنسان ، إن كان يسره : فهو نعمة بينة . و إن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه . و يثاب بالصبر عليه . ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لايعلمها (٢ : ٢١٦ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لاتعلمون) .

وقد قال فى الحديث « والله لايقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . و إن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » . و إذا كان هذا وهذا : فكلاهما من نعم الله عليه .

وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء : فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها . فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء . كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا . وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفى الحديث « أعوذ بك من فتنة الفقر . وشر فتنة الغنى » .

والفقر : يصلح عليه خلق كثير . والغنا : لايصلح عليه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين . لأن فتنة الفقر أهون . وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر . لكن لما كان فى السراء : اللذة . وفى الضراء : الألم . اشتهر ذكر الشكر فى السراء ، والصبر فى الضراء . قال تعالى (١١: ٩ ، ١٠ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه ، إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته : ليقولن ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا

وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) ولأن صاحب السراء : أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء : أحوج إلى الصبر . فإن صَبْرَ هذا وشكر هذا : واجب . إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء : فقد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات . وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر ـ الذى هو حسنات ـ يغفر له مايغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء : لا يكون الشكر فى حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره فى الشكر : مما يغفر له ، لما يأتى به من الصبر . فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً : يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهذا حال يعسر على كثير من الناس . وبسط هذا له موضع آخر .

* * *

والمقصود هنا : أن الله تعالى منعم بهذا كله ، وإن كان لايظهر الإنعام به فى الابتداء لأكثر الناس . فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون . فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

وأما ذنوب الإنسان : فهى من نفسه . ومع هذا فهى ـ مع حسن العاقبة ـ نعمة وهى نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان . ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله « اللهم لاتجعلنى عبرة لغيرى ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتنى منى » .

وفى دعاء القرآن (١٠ : ٨٥ ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين) (٦٠ : ٥ ولا تجعلنا فتنة للذين كفروا) كما فيه (٢٥ : ٧٤ واجعلنا للمتقين إماماً) أى فاجعلنا أئمة لمن يقتدى بنا ويأتم . ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى .

و « الآلاء » فى اللغة : هى النعم ، وهى تتضمن القدرة .

قال ابن قتيبة : لما عدد الله فى هذه السورة ـ سورة الرحمن ـ نعماءه ، وذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته . جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها .

وقد روى الحاكم فى صحيحه والترمذى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمن حتى ختمها . ثم قال : مالى أراكم سكوتا ؟ الجن كان أحسن منكم رداً . ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ـ فبأى آلاء ربكما تكذبان ـ إلا قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب . فلك الحمد » .

القرآن كله تذكير بآيات الله

والله تعالى يذكر فى القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته . ويذكر بآياته التى فيها نعمه وإحسانه إلى عباده . ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى . وهى كلها متلازمة .

فكل ماخلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته .

لكن نعمة الرزق ، والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس : ظاهرة لكل أحد . فلهذا يستدل بها ، كما فى سورة النحل . وتسمى سورة النعم . كما قاله قتادة وغيره .

الفرق بين الحمد والشكر

وعلى هذا : فكثير من الناس يقول : الحمد أعم من الشكر . من جهة أسبابه . فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة . والشكر أعم من جهة أنواعه . فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا على نعمة . والحمد لله على كل حال . لأنه مامن حال يقضيها إلا وهى نعمة على عباده .

لكن هذا فهم من عرف مافى المخلوقات من النعم . والجهمية والجبرية : بمعزل عن هذا

وكذلك كل مايخلقه : ففيه له حكمة . فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة . والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه . بل ما ثم إلا نفع الخلق . فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة : لا يظهر فيها وصف حمد ، كالقادر الذى يفعل مالا ينتفع به ، ولا ينفع به أحداً . فهذا لا يحمد .

فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك بلا حمد مع تقصيرهم فى معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام . إذ كان عندهم يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء . وتحدث حوادث بلا قدرته .

وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامين . وهو محمود على حكمته ، كما هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال (٣ : ١٨ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فله الوحدانية فى إلهيته ، وله العدل ، وله العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة فقد نقص الرب بعض حقه .

والجهمى الجبرى لا يثبت عدلا ولا حكمة ، ولا توحيد إلهية . بل توحيد ربوبيته والمعتزلى أيضاً لا يثبت فى الحقيقة توحيد إلهية ولا عدلا فى الحسنات والسيئات ، ولا عزة ولا حكمة فى الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى غيره . وتلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع إليه ، بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها : ليس بحكيم ، بل سفيه .

وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة ، فقد ثبت : أنه رأس الشكر . فهو أول الشكر .

والحمد ـ وإن كان على نعمته وعلى حكمته ـ فالشكر بالأعمال : هو على نعمته. وهو عبادة له لإلهيته التى تتضمن حكمته . فقد صار مجموع الأمور داخلا فى الشكر .

ولهذا عظم القرآن أمر الشكر . ولم يعظم أمر الحمد مجرداً ، إذ كان نوعاً من الشكر .

وشرع الحمد ـ الذى هو الشكر المقول ـ أمام كل خطاب مع التوحيد .

ففى الفاتحة : الشكر والتوحيد . والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد . والباقيات الصالحات نوعان . فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر والتنزيه والتعظيم . ولا إله إلا الله . والله أكبر : فيها التوحيد والتكبير .

وقد قال تعالى (٤٠ : ٦٥ فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين) .

* * *

وهل الحمد على كل ما يحمد به الممدوح ، وإن لم يكن باختياره ، أولا يكون الحمد إلا على الأمور الاختيارية . كما قيل فى الذم ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه .

وفى الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ربنا ولك الحمد . ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شىء بعد ، أهلَ الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » هذا لفظ الحديث . « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين ، فقالوا « حق ماقال العبد » .

وهذا ليس لفظ الرسول . وليس هو بقول سديد . فإن العبد يقول الحق والباطل . بل حقٌّ ما يقوله الرب . كما قال تعالى (٣٨ : ٨٤ فالحق والحق أقول) .

ولكن لفظه « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف . أى الحمد أحق ما قال العبد . أو هذا ـ وهو الحمد ـ أحق ما قال العبد .

ففيه بيان : أن الحمد لله أحق ما قاله العباد . ولهذا أوجب قوله فى كل صلاة ، وأن تفتتح به الفاتحة . وأوجب قوله فى كل خطبة ، وفى كل أمر ذى بال .

والحمد ضد الذم . والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها : أوجب ذلك أن يحبه عباده و يحمدوه .

وأما إذا قيل : بل يخلق ماهو شر محض ، لا نفع فيه ، ولا رحمة ، ولا حكمة لأحد . و إنما يتصف بإرادة ترجح مِثْلا على مثل . لافرق عنده بين أن يرحم أو يعذب . وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للاحسان إلى الخلق ، بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده . وهو ـ مع هذا ـ يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، و يفعل ما يفعل لا لحكمة ـ ونحو ذلك ، مما يقوله الجهمية ـ : لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد و يحمدوه . بل هو موجب للعكس .

ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن . ويذكرون ذلك نظماً ونثراً .

وكثير من شيوخ هؤلاء وعلمائهم من يذكر فى كلامه مايقتضى هذا . ومن لم يقله بلسانه فقلبه ممتلىء به ، لكن يرى أن ليس فى ذكره منفعة ، أو يخاف من عموم المسلمين .

وفى شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله . و يجعلون الرب ظالماً لهم .

وهو خلاف ماوصف الله به نفسه ، فى قوله تعالى (٤٣ : ٧٦ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) وقوله (١١ : ١٠٢ و ١٦ : ١١٨ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقوله (٤١ : ٤٦ وما ربك بظلام للعبيد) .

كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم إلى بعض ، أو قصر فى حقه

لـكان يؤاخذه ، و يعاقبه و ينتقم منه . و يكون ذلك عدلا إذا لم يعتمد عليه .

ولو قال : إن الذى فعلته قُدِّر عليّ فلا ذنب لى فيه : لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء .

فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً بالقدر . فـكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر ؟ .

وهو سبحانه الحـكم العدل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة . و إن تَكُ حسنة يضاعفها . و يؤت من لدنه أجراً عظيما . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

فقوله « أحق ما قال العبد » يقتضى : أن حمد الله أحق ما قاله العبد . فله الحمد على كل حال . لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان ، الذى يستحق الحمد عليه سبحانه وتعالى . و إن كان العباد لا يعلمون .

* * *

وهو سبحانه خلق الإنسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لابد فيها من الشر لحـكمة بالغة ، ورحمة سابغة .

فإذا قيل : فلم لم يخلقها على غير هذا الوجه ؟ .

قيل : كان يكون ذلك خلقاً غير الإنسان . وكانت الحـكمة التى خلقها بخلق الإنسان لا تحصل . وهذا سؤال الملائـكة حيث قالوا (٢ : ٣٠ أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ؟) مالم تعلمه الملائـكة ، فـكيف يعلمه آحاد الناس .

ونفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى (٧٠ : ١٩ ـ ٢١ إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جَزوعاً . و إذا مسه الخير منوعا) وقال تعالى (٢١:٣٧ خلق الإنسان من عجل) .

فقد خُلقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها لحـكمة عظيمة ، ورحمة عميمة . فـكان ذلك خيراً ورحمة . و إن كان فيه شر إضافى ، كما تقدم . فهذا من جهة الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثانى من جهة السبب : فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التى تصلح النفس . فإنها خلقت بفطرتها تقتضى معرفة الله ومحبته . وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك . وهذا كله من فضل الله و إحسانه . لـكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات ـ من شياطين الإنس والجن ـ مالت إلى ذلك ، وفعلت السيئات . فـكان فعلها للسيئات . مركباً من عدم ماينفع وهو الأفضل . ووجود هؤلاء الذين خبروها . والعدم لايضاف إلى الله . وهؤلاء : القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحـكمة .

فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض الذى لاخير فيه : هو العدم المحض ، والعدم لا يضاف إلى الله : فإنه ليس شيئاً . والله خالق كل شيء : كانت السيئات منها باعتبار ذاتها فى نفسها مستلزمة للحركة الإرادية التى تحصل منها مع عدم ما يصلحها تلك السيئات .

والعبد إذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين .

إن اعترف به إقراراً بخلق الله كل شيء ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، و إقراراً بكلماته التامات التى لايجاوزهن بر ولا فاجر ، واعترافاً بفقره وحاجته إلى الله ، وأنه إن لم يهده فهو ضال . و إن لم يتب عليه فهو مصِرٌّ . و إن لم يغفر له فهو هالك : خضع لعزته وحكمته . فهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ، ويهديهم و يوفقهم لطاعته .

و إن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهى عنه ، و إقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول . وهذا من أتباع الشيطان . ولا يزيده ذلك إلا شرا . وقد ذكرنا أن الرب سبحانه محمود لنفسه ولإحسانه إلى خلقه . ولذلك هو يستحق المحبة لنفسه ولإحسانه إلى عباده . و يستحق أن يرضى العبد بقضائه . لأنه حكمه عدل . لا يفعل إلا خيرا وعدلا . ولأنه لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له « إن أصابته سراً شكر . فكان خيراً له . و إن أصابته ضراء صبر . فكان خيراً له » .

فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه ــ من الحمد والثناء ــ ولأنه محسن إلى المؤمن .

وما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب . فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحدهما : أن أعمال العباد لم تدخل فى الحديث . إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب ، كما فى قوله (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ولهذا قال « إن أصابته سراء شكر . فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر . فكان خيراً له » فجعل القضاء : ما يصيبه من سراء وضراء . هذا ظاهر لفظ الحديث . فلا إشكال عليه .

الوجه الثانى : أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت فى هذا . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » .

فإذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره . فيشكر الله عليه .

وإذا قضى عليه بسيئة : فهى إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها ، إذا لم يتب منها . فإن تاب أبدلت بحسنة . فيشكر الله عليها . وإن لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها ، فصبر عليها . فيكون ذلك خيراً له . والرسول صلى الله عليه وسلم قال « لا يقضى الله للمؤمن » والمؤمن هو الذى لا يصر على ذنب ، بل يتوب منه . فيكون حسنة كما قد جاء فى عدة آيات : إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله . ولا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، وشهوده بفره وحاجته إليه ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو .

فيحصل للمؤمن ـ بسبب الذنب ـ من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك . فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو فى ذنو به بين أمرين : إما أن يتوب ، فيتوب الله عليه . فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

و إما أن يكفر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها . فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب ، و بالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقد جاء فى بعض الأحاديث يقول الله تعالى « أهل ذكرى أهل مجالستى . وأهل شكرى أهل زيارتى . وأهل طاعتى أهل كرامتى . وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى . إن تابوا فأنا حبيبهم » أى محبهم فإن الله يحب التوابين و يحب المتطهرين « و إن لم يتو بوا فأنا طبيبهم . أبتليهم بالمصائب لأكفر عنهم المعائب » .

ما فى قوله « فى نفسك » من الفوائد

وفى قوله تعالى « من نفسك » من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ، ولا يسكن إليها . فإن الشر لا يجىء إلا منها . ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه . فإن ذلك من السيئات التى أصابته . وهى إنما أصابته بذنو به . فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها . و يستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله . و يسأل الله أن يعينه على طاعته . فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه : دعاء الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين انعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته . فلم يصبه شر ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

لكن الذنوب هى من لوازم نفس الإنسان . وهو محتاج إلى الهدى فى كل لحظة : وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه . فلماذا يسأل الهدى ؟ . وأن المراد بسؤال الهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .

بل العبد محتاج إلى أن يُعَلِّمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله . وإلى مايتولد من تفاصيل الأمور فى كل يوم . وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك .

فإنه لا يكفى مجرد علمه إن لم يجعله الله مريداً للعمل بعلمه . وإلا كان العلم حجة عليه . ولم يكن مهتدياً . والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم ـ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ إلا بهذه العلوم والارادات والقدرة على ذلك .

ويدخل فى ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه .

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء فى كل صلاة ، لفرط حاجتهم إليه . فليسوا إلى شىء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء . ورأى مافى النفوس من الجهل والظلم الذى يقتضى شقاءها فى الدنيا والآخرة . فيعلم أن الله ـ بفضله ورحمته ـ جعل هـذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر .

مافى قصص القرآن من العبر

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا فى القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها ، لما فى الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثانى بالأول ، وكانا مشتركين فى المقتضى للحكم فلولا أن فى نفوس الناس من جنس ما كان فى نفوس المكذبين للرسل ـ فرعون ومن قبله ـ لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لانشبهه قط . ولـكن الأمر

كما قال تعالى (٤١ : ٦٠ ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك) وكما قال تعالى (٥١ : ٥٢ كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول ، إلا قالوا : ساحر أو مجنون) وقال تعالى (٢ : ١١٨ كذلك قال الذين من قبلهم ، مثل قولهم . تشابهت قلوبهم) وقال تعالى (٩ : ٣٠ يضاهؤن به قول الذين كفروا من قبل) .

لتركبن سنن من قبلكم

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَتَسْلُكُنَّ سَنَن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقذة ، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » .

وقال « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يارسول الله ، فارس والروم ؟ قال : فمن ؟ » وكلا الحديثين في الصحيحين .

ولما كان في غزوة حُنين كان للمشركين شجرة — يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظلون بها متبركين . فقال بعض الناس « يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر . قلتم كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . إنها السنن . لَتَرْكَبُنَّ سَنَن من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن : أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدر الله .

أعظم السيئات

فأعظم السيئات : جحود الخالق ، والشرك به ، وطلب النفس أن تكون شريكة ونِدًّا له ، أو أن تكون إلهاً من دونه . وكلا هذين وقع . فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى . وقال (٢٨ : ٣٨ ما علمت لكم من إله غيرى) وقال (٧٩ : ٢٤ أنا ربكم الأعلى) وقال لموسى (٣٦ : ٢٩ لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) و (٤٣ : ٥٤ استخف قومه فأطاعوه) .

و إبليس يطلب : أن يعبد و يطاع من دون الله . فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذى فى فرعون و إبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفى نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا وهذا . إن لم يُعِنِ الله العبد ويهديه ، و إلا وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون ، بحسب الإمكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما فى نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر . وغيره عجز فأضمر .

وذلك : أن الإنسان إذا اعتبر ، وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم : رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

حب النفس للرياسة والعلو

فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها . فتجد أحدهم يوالى من يوافقه على هواه ، و يعادى من يخالفه فى هواه . و إنما معبوده : مايهواه ويريده . قال تعالى (٢٥ : ٤٣ أَرَأَيتَ من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) والناس عنده فى هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم . يقولون « يار باغى » أى صديق وعدو . فمن وافق هواهم : كان ولياً ، و إن كان كافراً مشركا . ومن لم يوافق هواهم : كان عدوا ، و إن كان من أولياء الله المتقين . وهذه هو حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لايتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلٰهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء — و إن كانوا يقرون بالصانع — لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى .

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل و إيمان ، لايطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ماهو عنده . فإن كان مطاعاً مسلماً : طلب أن يطاع فى أغراضه ، و إن

كان فيها ماهو ذنب ومعصية لله . ويكون من أطاعه فى هواه : أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون . وسائر المكذبين للرسل .

وإن كان عالماً ـ أو شيخاً ـ أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها ، كالصلوات الخمس . فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله ، والاقتداء به : أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مثل مادعا إليه موسى . قال تعالى (٢ : ٩١ وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله . قالوا : نؤمن بما أنزل علينا . ويكفرون بما وراءه . وهو الحق مصدقاً لما معهم) وقال تعالى (٩٨ : ٤ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) وقال تعالى (٤٢ : ١٤ وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم) .

عمل بنى إسرائيل كعمل فرعون

ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون . وسلط عليهم من انتقم به منهم . فقال تعالى عن فرعون (٢٨ : ٤ إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شِيَعاً . يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم . إنه كان من المفسدين) وقال تعالى عنهم (١٧ : ٣ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب : لتفسدن فى الأرض مرتين . ولَتَعْلُنَّ علواً كبيراً) ولهذا قال تعالى (٢٨ : ٨٣ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدن علواً فى الأرض ولا فساداً)

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليذكروه ، ويشكروه ، ويعبدوه وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هى العليا ، كما أرسل كل رسول بمثل ذلك . قال تعالى (٢١ : ٢٥ وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى

(٤٣ : ٤٥ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لايتفرقوا فيه . فقال (٢١ : ٩٢ إن هذه أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاعبدون) وقال تعالى (٢٣ : ٥١ ـ ٥٣ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً . إنى بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم . فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً . كل حزب بما لديهم فرحون) .

قال قتادة : أى دينكم دين واحد . وربكم رب واحد . والشريعة مختلفة[١] . وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس « إن هذه أمتكم أمة واحدة » أى دينكم دين واحد . قال ابن أبي حاتم : وروى عن سعيد بن جبير ، وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد نحو ذلك . وقال الحسن : بين لهم ما يتقون وما يأتون . ثم قال : إن هذه سنتكم سنة واحدة .

وهكذا قال جمهور المفسرين .

معنى « الأمة »

و « الأمة » الملة . والطريقة ، كما قال تعالى (٤٣ : ٢٢ قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ـ مقتدون) كما يسمى « الطريق » إماماً . لأن السالك فيه يأتم به . فكذلك السالك يؤمه ويقصده .

و « الأمة » أيضاً معلم الخير ، الذى يأتم به الناس . كما أن « الإمام » هو

---

(١) شريعة المرسلين واحدة فى الأساس والمقصد . وهى الدعاء إلى إخلاص العبادة لله وحده ، وعبادته بما شرع والبراءة من كل معبود سواه ، ومن كل مشرع سواه . لهداية الناس لما يختلفون فيه من الحق بإذنه ، فإنهم إنما يسعدون بمعرفة الحق وإيتاء كل ذى حق حقه . ويشقون بجهلهم الحقوق وتعديهم الحدود .

الذى يأتم به الناس . وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً . وأخبر (١٦ : ١٢٠ أنه كان أمة) .

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً . لا يتفرقون فيه ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » وقد قال الله تعالى (٤٢: ١٣ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين . ولاتتفرقوا فيه) ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضا . لا يختلفون ، مع تنوع شرائعهم .

المتبع للرسل يدعو إلى مايدعون إليه

فمن كان من المطاعين – من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك – متبعاً للرسل : أمر بما أمروا به . ودعا إلى ما دعوا إليه . وأحب من دعا إلى مثل ما دعا إليه . فإن الله يحب ذلك . فيحب ما يحبه الله تعالى . وهذا قصده فى نفس الأمر : أن تكون العبادة لله تعالى وحده . وأن يكون الدين كله لله .

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك : فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود . فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله : فهذا حال فرعون . ومن طلب أن يطاع مع الله : فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله . والله سبحانه وتعالى أمر : أن لايعبد إلا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعاداة فيه . وأن لايتوكل إلا عليه ، ولا يستعان إلا به .

فالمؤمن المتبع للرسل : يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليكون الدين كله لله ، لا له . وإذا أمر أحدٌ غيرُه بمثل ذلك : أحبه وأعانه ، وسُرَّ بوجود مطلوبه .

وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم : ابتغاء وجه ربه الأعلى . ويعلم أن الله قد مَنَّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله .

وهذا مذكور فى فاتحة الكتاب ، التى ذكرنا : أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أى شىء .

ولهذا فرضت عليهم قراءتها فى كل صلاة دون غيرها من السور . ولم ينزل فى التوراة ، ولا فى الإنجيل ، ولا فى الزبور ، ولا فى القرآن مثلها . فان فيها (إياك نعبد و إياك نستعين) .

المؤمن لا يرى له فضلا على أحد

فالمؤمن يرى : أن عمله لله ، لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله . لأنه إياه يستعين . فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاءً ولا شكوراً . لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار (٧٦ : ٩ إنما نطعمكم لوجه الله . لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً) ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه . فإنه قد علم : أن الله هو المانُّ عليه ، إذ استعمله فى الإحسان . وأن المِنَّة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص . فعليه هو : أن يشكر الله . إذ يَسَّره لليسرى . وعلى ذلك : أن يشكر الله . إذ يسر له من يقدم له ماينفعه من رزقٍ ، أو علمٍ أو نصرٍ ، أو غير ذلك .

ومن الناس : من يحسن إلى غيره لِيَمُنَّ عليه ، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمن عليه . فيقول : أنا فعلت بك كذا . فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه . ولا عمل لله ، ولا عمل بالله . فهو المرائى .

وقد أبطل الله صدقة المنان ، وصدقة المرائى . قال تعالى (٢ : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى . كالذى ينفق ماله رِئاء الناس . ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثله كمثل صَفْوان عليه تراب . فأصابه وابلٌ فتركه صَلْدًا . لايقدرون على شىء مما كسبوا . والله لايهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ، وتثبيتاً من أنفسهم : كمثل جنةٍ بِرَبْوَةٍ أصابها وابل ، فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفين . فإن لم يصبها وابل فَطَلٌّ . والله بما تعملون بصير) .

قال قتادة « تثبيتاً من أنفسهم » احتساباً من أنفسهم . وقال الشعبي : يقيناً ، وتصديقاً من أنفسهم . وكذلك قال الكلبي . قيل : يخرجون الصدقة طيبة بها أنفسهم . على يقين بالثواب ، وتصديق بوعد الله . يعلمون : أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطى محتسباً للأجر عند الله ، مصدقاً بوعد الله له : طلب من الله ، لامن الذى أعطاه ، فلا يمن عليه . كما لو قال رجل لآخر : أعط مماليكك هذا الطعام ، وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمن على المماليك . لا سيما إذا كان يعلم : أن الله قد أنعم عليه بالإعطاء .

فصل

الفرق السادس : أن يقال : إن مايبتلى به العبد من الذنوب الوجودية ـ وإن كانت خلقاً لله ـ فهو عقوبة له على عدم فعله ماخلقه الله له . وفطره عليه . فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لاشريك له . ودله على الفطرة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » وقال تعالى (٣٠ : ٣٠ فأقم وجهك للدين حنيفاً . فِطْرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

فهو لَمَّا لم يفعل ماخلق له ، وما فطر عليه ، وماأمر به ـ من معرفة الله وحده . وعبادته وحده ـ عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان مايفعله من الشرك والمعاصى .

قال تعالى للشيطان (١٧ : ٦٣ ـ ٦٥ اذهب . فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً ـ إلى قوله ـ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقال تعالى (١٦ : ٩٩ ، ١٠٠ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا . وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون) وقال تعالى (٧ : ٢٠١ ، ٢٠٢ إن الذين اتقوا إذا مَسَّهُمْ طائف من الشيطان تذكَّرُوا . فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يَمدُّونهم فى الغَيِّ ثم لا يُقْصِرون) .

إخلاص الدين لله يحفظ من تسلط الشيطان

فقد تبين : أن إخلاص الدين لله : يمنع من تسلط الشيطان ، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب . كما قال تعالى (١٢ : ٢٤ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين) .

فإذا أخلص العبد لربه الدين : كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له فى ضد ذلك . وإذا لم يخلص لربه الدين ، ولم يفعل ماخلق له ، وفطر عليه : عوقب على ذلك . وكان من عقابه : تسلط الشيطان عليه ، حتى يزين له فعل السيئات . وكان إلهامه لفجوره : عقوبة له على كونه لم يتق الله .

وعدم فعله للحسنات : ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدمى . لكن يعاقب عليه لكونه : عدم ما خلق له ، وما أمر به . وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدمى . لكن بفعل السيئات ، لا بالعقوبات التي يستحقها بعد إقامة الحجة عليه ، بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان .

والأكثرون يقولون : لا يعاقب عليه ، لأنه عدم محض . ويقولون : إنما يعاقب على الترك . وهذا أمر وجودى .

وطائفة ـ منهم : أبو هاشم ـ قالوا : بل يعاقب على هذا العدم . بمعنى أنه يعاقب عليه كما يعاقب على فعل الذنوب ، بالنار ونحوها .

وما ذكر فى هذا الوجه : هو أمر وسط . وهو أن يُعاقِبه على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها . ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله . فإذا عصى الرسول : استحق حينئذ العقوبة التامة . وهو أولا : إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره ، بأن يتوب منه . أو بأن لا تقوم عليه الحجة . وهو كالصبى الذى لا يشتغل بما ينفعه ، بل بما هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يبلغ . فإذا بلغ عوقب .

ثم ما تعوده من فعل السيئات : قد يكون سبباً لمعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يُعاقَب إلا على ذنبه . ولـكن العقوبة المعروفة : إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه. وأما اشتغاله بالسيئات : فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

الشر ليس إلى الله

وعلى هذا : فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه . فإنه ـ وإن كان الله خالق أفعال العباد ـ فخلقه للطاعات : نعمة ورحمة ، وخلقه للسيئات : له فيه حكمة ورحمة ، وهو ـ مع هذا ـ عدل منه ، فما ظلم الناس شيئا . ولـكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهم لأنفسهم نوعان : عدم عملهم بالحسنات . فهذا ليس مضافاً إليه . وعملهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التى خلقهم لها ، وأمرهم بها . فـكل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبر القرآن : تبين له أن عامة ما يذكره الله فى خلق الـكفر والمعاصى يجعله جزاءً لذلك العمل . كقوله تعالى (٦ : ١٢٥ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يُضِلَّه يجعل صدره ضَيِّقًا حرجاً كأنما يَصَّعَّدُ فى السماء . كذلك يجعل الله الرِّجس على الذين لايؤمنون) وقال تعالى (٦١ : ٥ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال تعالى (٩٢ : ٨ ـ ١٠ وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) .

وهذا وأمثاله : بذلوا فيه أعمالا ، عاقبهم بها على فعل محظور ، وترك مأمور .

وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم ، لـكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له . ولابد لهم من حركة وإرادة . فلما لم يتحركوا بالحسنات : حُرِّكوا بالسيئات ، عدلا من الله . حيث وضع ذلك موضعه فى محله القابل له ـ وهو القلب الذى لايكون إلا عاملا ـ فإذا لم يعمل الحسنة استعمل فى عمل السيئة . كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

وهذا الوجه ـ إذا حقق ـ يقطع مادة كلام القدرية المـكذبة ، والمجبرة الذين

يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة الله . و يجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً . والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك لالسبب ولا لحكمة .

فإذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم فى تلك الذنوب ، وطبع على قلوبهم : عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به . فما ظلمهم ، ولكن هم ظلموا أنفسهم .

يقال : ظلمته إذا نقصته حقه . قال تعالى (١٨ : ٣٣ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) .

وكثير من أولئك يسلمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاءاً له على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .

فلا ينازعون فى نفس خلق أفعال العباد . لكن يقولون : ماخلق شيئاً من الذنوب ابتداء ، بل إنما خلقها جزاء لئلا يكون ظالماً .

الذنب يحدثه العبد

فنقول : أول مايفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله . ثم مايكون جزاء على ذلك : فالله محدثه . وهم لاينازعون فى مسألة خلق الأفعال إلا من هذه الجهة . وهذا الذى ذكرناه : يوافقون عليه . لكن يقولون : أول الذنوب لم يحدثه الله ، بل يحدثه العبد ، لئلا يكون الجزاء عليه ظلماً .

وما ذكرناه : يوجب أن الله خالق كل شىء . فما حدث شىء إلا بمشيئته وقدرته . لكن أول الذنوب الوجودية : هو المخلوق . وذاك عقوبة على عدم فعل العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغى له أن يفعله .

وهذا العدم لايجوز إضافته إلى الله . وليس بشىء ، حتى يدخل فى قولنا « الله خالق كل شىء » وما أحدثه من الذنوب الوجودية ، فأولها : عقوبة للعبد على هذا العدم . وسائرها : قد يكون عقوبة للعبد على ما وجد . وقد يكون عقوبة له على استمراره على العدم .

فما دام لايخلص لله العمل : فلا يزال مشركا . ولا يزال الشيطان مسلطا عليه .

ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه — بأن استعمله ابتداء فيما خلق له ، وهذا لم يستعمله — هو تخصيص منه بفضله ورحمته . ولهذا يقول الله (٢:١٠٥ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بهـا ، كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد فى غيرها ، و بسبب عدم القوة قد تحصـل له أمراض وجودية ، وغير ذلك من حكمته .

و بتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب . والله أعلم بالصواب .

فصـل

ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان : قوله تعالى (٦:١٠٩، ١١٠ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة . ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وهذا من تمام قوله (ومايشعركم : أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم — الآية) فذكر : أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لمـا لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الإيمان .

لـكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وهم قد تركوا الإيمان ، وكذبوا الرسول . وهـذه أمور وجودية ، لـكن الموجب للعذاب : هو عدم الإيمان . وماذكر شرط فى التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول . فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسُه مباح — من أكل وشرب ، و بيع وسفر ، وغير ذلك — وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه .

ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه . وهو أمر وجودى ، لا ضد له إلا ذلك .

فصل

الفرق السابع : من الحسنات والسيئات التى تتناول الأعمال والجزاء فى كون هذه تضاف إلى النفس . وتلك تضاف إلى الله : أن السيئات التى تصيب الإنسان —

وهى مصائب الدنيا والآخرة ـ ليس لها سبب إلا ذنبه الذى هو من نفسه . فانحصرت فى نفسه .

وأما ما يصيبه من الخير والنعم : فإنه لا تنحصر أسبابه . لأن ذلك من فضل الله و إحسانه ، يحصل بعمله و بغير عمله . وعمله نفسه من إنعام الله عليه . وهو سبحانه لا يجزى بقدر العمل ، بل يضاعفه له . ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها ، لـكن يعلم أنها من فضل الله و إنعامه . فيرجع فيها إلى الله . فلا يرجو إلا الله . ولا يتوكل إلا عليه . و يعلم أن النعم كلها من الله . وأن كل ما خلقه فهو نعمة ، كما تقدم . فهو يستحق الشكر المطلق العام التام ، الذى لا يستحقه غيره .

ومن الشكر : ما يكون جزاء على مايَسَّره على يديه من الخير ، كشكر الوالدين وشكر من أحسن إليك من غيرهما . فإنه « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » لـكن لا يبلغ من حق أحد و إنعامه : أن يُشْـكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله . فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة ، التى لايقدر عليها مخلوق . ونعمة المخلوق إنما هى منه أيضاً . قال تعالى (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله) وقال تعالى (٤٥ :١٣ وسخر لـكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والـكفر لايقدر أحد على مثله .

فلهذا لم يَجُزْ أن يطاع مخلوق فى معصية الخالق كما قال تعالى (٢٩ : ٨ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً . و إن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما) وقال فى الآية الأخرى (٣١ : ١٥ و إن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما . وصاحبهما فى الدنيا معروفاً . واتبع سبيل من أناب إلىَّ) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « على المرء المسلم : السمع والطاعة فى عسره و يسره ، ومَنْشَطه ومكرهه ، مالم يؤمر بمعصية . فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنما الطاعة

فى المعروف » وقال « من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » وقال « لا طاعة لمخلوق على معصية الخالق » .

وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنه لايقدر أن يأتى بها إلا الله . فلا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولايذهب السيئات إلا هو . وأنه (٣٥: ٢ مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لهـا . وما يمسك فلا مرسل له من بعده) صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

وكذلك إذا علم مايستحقه الله من الشكر ـ الذى لايستحقه غيره ـ صار علمه بأن الحسنات من الله : يوجب له الصدق فى شكر الله ، والتوكل عليه .

ولو قيل : إنها من نفسه لـكان غلطاً . لأن منها ماليس لعمله فيه مدخل . وما كان لعمله فيه مدخل : فإن الله هو المنعم به . فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله . ولا ملجأ ولا منجَى منه إلا إليه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه فى النفس . فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى . فاستغفر ربه مما فعل وتاب . واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف « لايَرْجُوَنَّ عبد إلا ربه . ولا يخافَنَّ عبد إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، الذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب . ويعذب أطفال الـكفار وغيرهم عذاباً دائماً أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يُخاف الله خوفاً مطلقا ، سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب . ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك القاهر الذى لا ينضبط فعله ولاسطوته بل قد يقهر ويعذب من لاذنب له من رعيته .

فإذا صَدّق العبد بقوله تعالى « وماأصابك من سيئة فمن نفسك » علم بطلان هذا القول ، وأن الله لايعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه ، حتى المصائب التى تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف ـ ابن عباس وغيره ـ أن ماأصابهم يوم أحد من الغَمِّ والفشل : إنما كان بذنوبهم . لم يستثن من ذلك أحد .

وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « مايصيب المؤمن من وَصَب ولا نَصَب ، ولا هَمٍّ ولا حزن ولا غم ـ حتى الشوكه يشاكها ـ إلا كَفَّر الله بها من خطاياه » .

فصـل

السيئة خبيثة مذمومة

الفرق الثامن : أن السيئة إذا كانت من النفس . والسيئة خبيثة مذمومة ، وصفها بالخبث فى مثل قوله (٢٤ : ٢٦ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات) .

قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين . ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى (١٤ : ٢٦ ضرب الله مثلا : كلمة طيبة ـ ومثل كلمة خبيثة) وقال الله (٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والأقوال والأفعال صفات القائل الفاعل .

فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها .

فمن أراد : أن يجعل الحيات والعقارب يعاشرون الناس كالسنانير : لم يصلح .

ومن أراد : أن يجعل الذى يكذب شاهداً على الناس : لم يصلح .

وكذلك من أراد : أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم . أو يجعل العاجز الجبان مقاتلا عن الناس . أو يجعل الأحمق لذى لا يعرف شيئاً سائساً للناس ، أو للدواب : فمثل هذا يوجب الفساد فى العالم . وقد يكون غير ممكن . مثل من أراد أن يجعل الحجارة تسبح على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد إلى السماء كالريح ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون فى الجنة الطيبة التى ليس فيها من الخبث شىء . فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان فى النفس خبث طُهِّرت وهذبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة .

كما فى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم «إن المؤمنين إذا نجوا من النار ـ أى عبروا الصراط ـ وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا . فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا : أُذن لهم فى دخول الجنة » .

وهذا مما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخلص المؤمنون من النـار . فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا : أذن لهم فى دخول الجنة . فوالذى نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا » .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب . فيخلص من الغش .

فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب فـكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنة . فإنها من إنعام الحى القيوم الباقى ، الأول الآخر . فسببها دائم . فيدوم بدوامه.

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه : لم يطمع فى السعادة التامة ، مع ما فيه من الشر . بل علم تحقيق قوله تعالى (٤ : ١٢٣ من يعمل سوءاً يُجْزَ به) وقوله (٩٩ : ٧ ، ٨ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يَرَهْ ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)

وعلم أن الرب عليم حليم ، رحيم عدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان . وكل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يمين الله مَلْأى .

لايغيضها نفقة ، سَحَّاء الليلَ والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يَغِضْ مافى يمينه . والقسط بيده الأخرى يخفض و يرفع » .

وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ، ولا وضع للأشياء مواضعها . فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه . وهو سبحانه قد شهد (٣ :١٨ أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

ولهذا يقولون : لا ندرى ما يفعل بمن فعل السيئات . بل يجوز عندهم : أن يعفو عن الجميع . و يجوز عندهم : أن يعذب الجميع . و يجوز أن يعذب و يغفر بلا موازنة . بل يعفو عن شر الناس ، و يعذب خير الناس على سيئة صغيرة ، ولا يغفرها له .

وهم يقولون : السيئة لا تمحى ، لا بتو بة ولا حسنات ماحية ولا غير ذلك . وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا : لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر ، خبر الله ورسوله .

قالوا : وليس فى الكتاب والسنة ما يبين مايفعل الله بمن كسب السيئات ، إلا الكفر . وتأولوا قوله تعالى (٤ : ٣١ إن تجتنبوا كبائر ما ينهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) بأن المراد بالكبائر : قد يكون هو الكفر وحده . كما قال تعالى (٤ : ٤٨ إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

وقد ذكر هذه الأمور القاضى أبو بكر ابن الباقلانى وغيره ، ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جَهْم بن صفوان فى القدر وفى الوعيد . وهؤلاء قصدوا مناقضة المعتزلة فى القدر والوعيد .

فأولئك لما قالوا : إن الله لم يخلق أفعال العباد ، وأنه يشاء مالا يكون ، و يكون ما لا يشاء . وسلكوا مسلك نفاة القدر فى هذا ، وقالوا فى الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها . بل

يكون عذابه مؤبداً . فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته ـ عندهم ـ لايرحمه الله أبداً ، بل يخلده فى النار . فخالفوا السنة المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه فى القدر . وناقضهم جهم فى هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جهم . مع انتسابهم إلى أهل السنة والحديث ، واتباع السلف . وكذلك سلكوا فى الإيمان والوعيد مسلك المرجئة الغلاة ، كجهم وأتباعه .

وجهم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع فى الأسماء والصفات . فغلا فى نفى الأسماء والصفات . ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنية والفلاسفة ونحوهم . ووافقه المعتزلة فى نفى الصفات دون الأسماء .

والكُلاَّبية ـ ومن وافقهم من السالمية . ومن سلك مسلكهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية ـ وافقوه على نفى الصفات الاختيارية ، دون نفى أصل الصفات .

والكرَّامية ونحوهم : وافقوه على أصل ذلك . وهو امتناع دوام مالايتناهى . وأنه يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلما إذا شاء ، وفعالاً لما يشاء إذا شاء . لامتناع حوادث لا أول لها . وهو ـ عن هذا الأصل ، الذى هو نَفْيُ وجود مالا يتناهى فى المستقبل ـ قال بفناء الجنة والنار .

وقد وافقه أبو الهذيل إمام المعتزلة على هذا . لكن قال : بتناهى الحركات .

فالمعتزلة فى الصفات : مخانيث الجهمية .

وأما الكُلاَّبية : فيثبتون الصفات فى الجملة . وكذلك الاشعريون . ولكنهم ـ كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصارى ـ : الجهيمية الإناث . وهم مخانيث المعتزلة .

ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانيث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعرى وغيره هذا . لأن قائله لم يعلم أن جهما سبق هؤلاء إلى هذا الأصل ، أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه . وإلا فإن مخالفتهم للفلاسفة كبيرة جداً .

والشهرستانى يذكر عن شيوخهم : أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة . لأن الشهرستانى إنما يرى مناظرة أصحابه الأشعرية فى الصفات ونحوها مع المعتزلة ، بخلاف أئمة السنة والحديث . فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية . وهم المشهورون عند السلف والأمة بنفى الصفات .

وأهل النفى للصفات والتعطيل لهـا : هم عند السلف ، يقال لهم : الجهمية . وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

ابتداء ظهور بدع المعتزلة والجهمية

وأما المعتزلة : فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد . وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة . فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصرى فى أوائل المـائة الثانية .

وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القَدَر : قد حدث أهله قبل ذلك فى خلافة عبد الله بن الزبير ، بعد موت معاوية . ولهذا تكلم فيهم ابن عُمر وابن عباس — رضى الله عنهم — وغيرهما .

وابن عباس مات قبل ابن الزبير . وابن عمر مات عقب موته . وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين .

فبقى الناس يخوضون فى القدر بالحجاز والشام والعراق . وأكثره : كان بالشام والعراق بالبصرة . وأقله : كان بالحجاز .

ثم لمـا حدثت المعتزلة — بعد موت الحسن ، وتُكُلِّم فى المنزلة بين المنزلتين ، وقالوا بانفاذ الوعيد ، وخلود أهل التوحيد فى النار ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب — ضموا إلى ذلك القدر . فإن به يتم التغليظ على أهل الذنوب . ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفى الصفات .

ذبح الجعد بن درهم

إلى أن ظهر الجعد بن درهم ، وهو أولهم . فضحى به خالد بن عبد الله القَسْرِى

وقال « أيها الناس ، ضحوا . تقبل الله ضحايا كم . فإنى مضح بالجعد بن درهم . إنه زعم : أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليما . تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم نزل فذبحه . وهذا كان بالعراق .

ثم ظهر جَهْم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ . ومنها ظهر رأى جهم . ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق : أكثر كلاماً فى رد مذهب جهم من أهل الحجاز والشام والعراق ، مثل إبراهيم بن طهمان وخارجة بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك ، وأمثالهم ـ وقد تكلم فى ذمهم ـ وابن الماجشون وغيرهما وكذلك الأوزاعى وحماد بن زيد وغيرهم .

ابتداء المحنة

وإنما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة . فإنهم فى إمارة المأمون قَوُوا وكثروا . فإنه كان قد أقام بخراسان مدة . واجتمع بهم . ثم كتب بالمحنة من طرسوس[١] سنة ثمان عشرة ومائتين . وفيها مات . وردوا أحمد بن حنبل إلى الحبس ببغداد ، إلى سنة عشرين . وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم فى الكلام . فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه ، وبَيَّن أن لا حجة لهم فى شىء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وامتحانَهم إياهم : جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه . فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، حتى لاتنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة . فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم فى العامة ، وخافوا الفتنة . فأطلقوه .

مروجو الفتنة بخلق القرآن

وكان أحمد بن أبى دؤاد قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن من جميع الطوائف . فجمع له مثل أبى عيسى محمد بن عيسى بن غوث ، ومن أكابر النجارية أصحاب حسين النجار .

---

(١) وكان خرج إليها لغزو الروم

وأئمة السنة ـ كابن المبارك ، وأحمد بن إسحاق ، والبخارى وغيرهم ـ يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين ـ من أصحاب أحمد وغيرهم ـ يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون أن بشر بن غياث المريسى ـ وإن كان قد مات قبل محنة أحمد ، وابن أبى دؤاد ونحوهما ـ كانوا معتزلة . وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق . وكانت الجهمية أتباع جهم ، والنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو ، والمعتزلة هؤلاء ، يقولون : القرآن مخلوق . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة . أحدهما : نفى الصفات . والثانى : الغلو فى القدر والإرجاء . فجعل الإيمان مجرد معرفة القلب . وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .

وهذان مما غلت المعتزلة فى خلافه فيهما .

ماوافق فيه الأشعرى جهما

وأما الأشعرى : فوافقه على أصل قوله ، ولـكن قد ينازعه منازعات لفظية .

وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات ـ لا الارادة ولا غيرها ـ فهو إذا قال : إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصى . فمعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب .

وأما الأشعرى : فهو يثبت الصفات ـ كالارادة ـ فاحتاج حينئذ أن يتـكلم فى الإرادة : هل هى المحبـة أم لا ؟ وأن المعاصى : هل يحبها الله أم لا ؟ فقال : إن المعاصى يحبها الله ويرضاها ، كما يريدها .

وذكر أبو المعالى الجوينى : أنه أول من قال ذلك ، وأن أهل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصى .

وذكر الأشعرى فى الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم . أشك فى بعضهم .

الهروى لايثبت حكمة ولا سببا

وشاع هذا القول فى كثير من الصوفيـة ومشايخ المعرفة والحقيقة . فصاروا يوافقون جهماً فى مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفرين له فى مسائل الصفات ، كأبى إسماعيل الأنصارى الهروى ، صاحب كتاب « ذم الـكلام » فإنه من المبالغين فى ذم الجهمية لنفيهم الصفات . وله كتاب « تـكفير الجهمية » و يبالغ فى ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة والحديث . ور بمـا كان يلعنهم .

وقد قال له بعض الناس ـ بحضرة نظام الملك ـ أتلعن الأشعرية ؟ فقال : ألعن من يقول : ليس فى السموات إله ، ولا فى المصحف قرآن ، ولا فى القبر نبى . وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو فى مسألة إرادة الـكائنات ، وخلق الأفعال : أبلغ من الأشعرية . لايثبت سبباً ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحـكم لا تبقى له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحِكَم عنده : هى المشيئة . لأن العارف المحقق ـ عنده ـ هو من يصل إلى مقام الفناء . فيغنى عن جميع مراداته بمراد الحق . وجميع الـكائنات مرادة له . وهذا هو الحـكم عنده . و « الحسنة » و « السيئة » يفترقان فى حظ العبد ، لـكونه ينعم بهذه ، و يعذب بهذه . والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس . ومقام الفناء ليس فيه الامشاهدة مراد الحق .

وهذه المسألة وقعت فى زمن الجنيد ، كما ذكر ذلك فى غير موضع .

و بين لهم الجنيد الفرق الثانى . وهو أنهم ـ مع مشاهدة المشيئة العامة ـ لابد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه . وهو الفرق بين

ما يحبه وما يبغضه . و بين ذلك لهم الجنيد ، كما قال فى التوحيد : هو إفراد الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد ، من أهل التصوف والمعرفة : كان قد اهتدى ونجا وسعد .

ومن لم يسلك فى القدر مسلكه ، بل سوى بين الجميع : لزمه أن لا يفرق بين الحسنات والسيئات ، و بين الأنبياء والفساق . فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء ، وهذه الأعمال .ولا يبغض هؤلاء ، وهذه الأعمال . بل جميع الحوادث : هو يحبها كما يريدها ، كما قاله الأشعرى . و إنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون . وهؤلاء يعذبون .

الأشعرى أعقل من الصوفية

والأشعرى لما أثبت الفرق بين هذا وهذا ـ بالنسبة إلى المخلوق ـ كان أعقل منهم فإن هؤلاء يدعون : أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لايفرق بين هذا وهذا .

وهم غلطوا فى حق العبد وحق الرب .

مايلزم على مذهب الصوفية فى الفناء

أما فى حق العبد : فيلزمهم أن تستوى عنده جميع الحوادث . وهـذا محال قطعا . وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشيـاء . أما الفناء عن جميعها : فممتنع . فإنه لا بد أن يفرق كل حى بين ما يؤلمه و بين ما يلذه . فيفرق بين الخبز والتراب ، والماء والشراب .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعى الإيمانى الرحمانى الذى به فرق الله بين أوليائه وأعدائه . وظنوا أنهم مع الجمع القدرى .

وعلى هذا : فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته ، بل لابد للعبد من أن يفرق . فإن لم يفرق بالفرق الشرعى ـ فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه

و بين ما يرضاه وما يسخطه ـ و إلا فرق بالفرق الطبعى بهواه وشيطانه . فيحب ما تهواه نفسه ، وما يأمر به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير فى المعاصى . وآخرون فى الفسوق . وآخرون فى الكفر . حتى جوّزوا عبادة الأصنام .

أهل وحدة الوجود

ثم كثير منهم من ينتقل إلى وحدة الوجود . وهم الذين خالفوا الجنيد ، وأئمة الدين فى التوحيد . فلم يفرقوا بين القديم والمحدث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود . كما قد بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع . وهو قول أهل الوحدة ، كابن عربى الحاتمى ، وابن سبعين ، والقونوى ، والتلمسانى ، والبلبانى ، وابن الفارض ، وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفى الحِكَم والعدل والأسباب فى القدر بين أهل الكلام والمتصوفة ، الذين أوقعوا جهماً فى هذا الأصل . وهو بدعته الثانية التى اشتهرت عنه ، بخلاف الإرجاء . فإنه منسوب إلى طوائف غيره .

الحكمة فى الأفعال

فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل مايقدر عليه ويمكن فعله ، من غير مراعاة حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . و يقولون : إن مشيئته هى محبته .

ولهذا تجد من اتبعهم : غير معظّم للأمر والنهى ، والوعد والوعيد . بل هو منحل عن الأمر الشرعى كله ، أو عن بعضه ، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه . فإنهم أرادوا : أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء ، وأن كل ماشاءه فقد أحبه . وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها . بل غايته : أنه يسوق المقادير إلى المواقيت .

لم يبق عندهم فرق فى نفس الأمر بين المأمور والمحظور . بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله ـ كالأشعرى ـ فى أنه فى نفس الأمر : لا حَسَن ولا سىء . و إنما الحسن

والقبح : مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً . وذلك فرق يعود إلى حظ العبد . وهؤلاء يدعون الفناء عن الحظوظ .

قول الهروى : إن فى الأمر الشرعى تلبيسا

فتارة : يقولون فى امتثال الأمر والنهى : إنه من مقام التلبيس ، أو مايشبه هذا . كما يوجد فى كلام أبى إسماعيل الهروى صاحب منازل السائرين .

وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أى العامة . كما يقوله الشيخ المغربى ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

فى كلام الشاذلى مايستلزم تعطيل الأمر

ومن يسلك مسلكهم : غايته ـ إذا عظم الأمر والنهى ـ أن يقول ، كما نقل عن الشاذلى : يكون الجمع فى قلبك مشهوداً . والفرق على لسانك موجودا .

ولهذا يوجد فى كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهى . مثل أن يدعو : أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه ونحو هذا ، مما يوجب أنه يجوز عنده : أن يجعل الذين اجترحوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم . ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما يوجد فى جواب الشاذلى . وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

دعوى الصوفية أن الله يعطى الكفرة والفجرة كرامات

وآخرون ـ من عوام هؤلاء ، يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً ، بل كافراً . ويقولون: هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء . ماهى متعلقة لا بصلاة ، ولا بصيام[1] . ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء .

---

(١) يقولون : إنها ميزة ذاتية ، تعطى القداسة الذاتية . لأنها لا تكون إلا لأولاد المقدسين من الشيوخ الذين خلقوا من النور الأول . هذا دينهم وعقيدتهم الوثنية المتفرعة عن وحدة الوجود . وأن ربهم هو النواة التى انبثق وخرج منها الكون . كخروج النخلة من النواة .

وتكون كراماتهم : من الأحوال الشيطانية ، التي يكون مثلها للسحرة والـكهان . قال الله تعالى (٢ : ١٠١ ، ١٠٢ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الـكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ماتتلوا الشياطين على مُلك سليمان . وما كفر سليمان . ولـكن الشياطين كفروا . يعلمون الناس السحر . وما أنزل على الملـكين ببابل هاروت وماروت) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلـكم ، حَذْو القُذَّة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

المتبعون لما تتلو الشياطين من الـكفر

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن : عدل كثير منهم ـ ممن أضله الشيطان من المنتسبين إلى الإسـلام ـ إلى أن نبذ كتاب الله وراء ظهره ، واتبع ماتتلوه الشياطين . فلا يعظم أمر القرآن ولانهيه . ولايوالى من أمر القرآن موالاته . ولا يعادى من أمر القرآن بمعاداته . بل يعظم من رآه يأتى ببعض خوارقهم ، التى يأتى بمثلها السحرة والـكهان . بإعانة الشياطين . وهى تحصل بما تتلوه الشياطين .

ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشيطان . ولـكن يعظم ذلك لهواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة . وهؤلاء كفار . كالذين قال الله تعالى فيهم (٤ : ٥١ ألم تر إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الـكتاب ؟ يؤمنون بالجِبْت والطاغوت . ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أُولٰئِكَ الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) .

وهؤلاء ضاهئوا الـكفار الذين قال الله تعالى فيهم (٢ : ١٠١ ، ١٠٢ ولَمَّا جاءهم رسولٌ من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أُوتوُا الـكتابَ كتابَ الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان . وما كفر سليمان . ولـكن الشياطين كفروا ـ الآية) .

ومنهم : من لا يعرف أن هذا من الشياطين

الفتنة بما يقع من الشعوذات والمخاريق
على يد أولياء الشيطان

وقد يقع فى مثل هذا طوائف من أهل الكلام ، والعلم ، وأهل العبادة ، والتصوف . حتى جوزوا عبادة الكواكب ، والأصنام . لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة . التى تعينهم عليها الشياطين . لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش . فلايبالون بشركهم بالله ، ولا كفرهم به و بكتابه . إذا نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس . وتعظيمهم لهم . لرياسة ينالونها ، أو مال ينالونه . و إن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك : عملوه ، ودعوا إليه . بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له فى الباطن . لأجل مصلحة الجمهور . كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية .

مضاهاة الروم والفرس

وقد دخل فى رأى هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء . وهذا مما ضاهئوا به فارس والروم وغيرهم . فإن فارس كانت تعظم الأنوار ، وتسجد للشمس وللنار . والروم كانوا ـ قبل النصرانية ـ مشركين ، يعبدون الكواكب والأصنام ، فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى . فإن أولئك ضاهئوا أهل الكتاب فيما بُدِّل أو نسخ . وهؤلاء ضاهئوا من لا كتاب له من المجوس والمشركين ، فارس والروم ، ومن دخل فى ذلك من الهند واليونان .

ومذهب الملاحدة الباطنية : مأخوذ من قول المجوس بالأصلين ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس .

وأصل قول المجوس : يرجع إلى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هو إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفس .

أصل الشر عبادة النفس والشيطان

فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكان الرب ، وأن يعدلا به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان . وقد علّم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه أن يقول ـ إذا أصبح ، و إذا أمسى ، و إذا أخذ مضجعه ـ « اللهم ربَّ جبريل وميكائيل و إسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اخْتُلِف فيه من الحق بإذنك . إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك) مع قوله تعالى (١٥ : ٤٢ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقوله (٣٨ : ٨٥ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) .

وقد ظهرت دعوى النفس الإلهية فى فرعون ، ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه ، وظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله ، كالمسيح وغيره .

أصل الشرك فى بنى آدم

وأصل الشرك فى بنى آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين . فإنهم لما ماتوا : عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

فهذا أول شرك كان فى بنى آدم . وكان فى قوم نوح . فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض . يدعوهم إلى التوحيد . وينهاهم عن الشرك . كما قال تعالى (٧١ : ٢٣ وقالوا لاتذَرُنَّ آلهتكم . ولاتذرن وَدًّا ولا سُوَاعا ، ولايغوث ويَعُوق ونَسْراً . وقد أضلوا كثيرا) وهذه أسماء قوم صالحين كانوا فى قوم نوح . فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ، ثم ذهبت هذه الأصنام ، لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب . كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره . إن لم تكن أعيانها ، وإلا فهى نظائرها .

وأما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .

فمتى لم يؤمن الخلق بأنه « لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة دون ماسواه . وأنه يحب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع ، من واجب ومستحب ـ فلا بد أن يقعوا فى الشرك وغيره .

فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة إلى الله سواء . لايحب شيئاً دون شىء : فلا فرق عنده بين من يعبده وحده ، لايشرك به شيئا . و بين من يعبد معه آلهة أخرى . وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة . ليس معها حكمة ، ولا رحمة ، ولا عدل . ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس فى نيل ماتريده بدون طاعة الله ورسوله .

ولى الصوفية له صفات الرب سبحانه

ثم إذا جوزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح . ولم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق . وجوزوا الخوارق مطلقا . وحكوا فى ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالا منكرة .

فقال بعضهم : إن الولى يعطى قول « كن » وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على الولى فعل ممكن . كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربى والذين اتبعوه . قالوا : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس عندهم ما يقال : إنه غير مقدور عليه للولى ، حتى ولا الجمع بين الضدين ، ولا غير ذلك . وزاد ابن عربى : أن الولى لايعزب عن قدرته شىء من الممكنات . والذى لا يعزب عن قدرته شىء من الممكنات : هو الله وحده .

فهذا تصريح منهم : بأن الولى مثل الله ، إن لم يكن هو الله .

وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل مايعلمه الله . و يقدر على كل مايقدر الله عليه . وادعوا أن هذا كان للنبى ، ثم انتقل إلى الحسن بن على ، ثم من الحسن إلى ذريته واحداً بعد واحد . حتى انتهى ذلك إلى أبى الحسن الشاذلى ، ثم إلى ابنه .

خاطبنى بذلك : من هو من أكابر أصحابهم .

وحدثنى الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .

وحدثنى بعض الشيوخ ، الذين لهم سلوك وخبرة : أنه كان هو وابن هود فى مكة ، فدخلا الكعبة . فقال له ابن هود ـ وأشار إلى وسط الكعبة ـ هذا مهبط النور الأول . وقال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك إلهاً ، ماذا كنت تقول له ؟ قال : فقفّ شعرى من هذا الكلام وانخنست ـ أو كما قال .

دعوى سهل التسترى قدرة الولى على منع قيام الساعة

ومن الناس من يحكى عن سهل بن عبد الله : أنه لما دخل الزنج البصرة . قيل له فى ذلك . فقال : هاه ، إن ببلدكم هذا من لو سألوا الله أن يزيل الجبال عن أماكنها لأزالها . ولو سألوه : أن لايقيم القيامة لما أقامها . لكنهم يعلمون مواضع رضاه ، فلا يسألونه إلا مايحب .

وهذه الحكاية : إما كذب على سهل ـ وهو الذى نختار أن يكون حقاً ـ أو تكون غلطا منه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك : أن ما أخبر الله أن يكون فلا بد أن يكون . ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون : لم يجبهم ، مثل إقامة القيامة ، وأن لايملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين ، وغير ذلك . بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد فى أن لايكون .

لكن الدعاء سبب يقضى الله به ماعلم الله : أنه سيكون بهذا السبب ، كما يقضى بسائر الأسباب ما علم : أنه سيكون بها .

من دعا من الأنبياء فلم يستجب له

وقد سأل الله تعالى ـ من هو أفضل من كل من فى البصرة بكثير ـ ماهو دون هذا فلم يجابوا . لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغفر لأبيه . وكما سأله نوح عليه السلام سأله نجاة ابنه . فقيل له (١١ :

٤٦ يانوح ، إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح . فلاتسألني ماليس لك به علم) .

وأفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : قيل له فى شأن عمه أبى طالب (٩ : ١١٣ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) وقيل له فى المنافقين (٦٣ : ٦ سواء عليهم أستغفرت لهم ، أم لم تستغفر لهم . لن يغفر الله لهم) وقد قال تعالى عموماً (٢:٢٥٥ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وقال (٣٤:٢٢ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فمن هذا الذى لو سأل الله ما يشاؤه هو أعطاه إياه ؟ ! .

وسيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أخبر : أنه « يسجد تحت العرش ، ويحمد ربه ، ويثنى عليه . فيقال له : أى محمد ، ارفع رأسك ، وقُلْ يُسْمَع . وسَلْ تُعْطَ . واشفع تُشَفَّع . قال : فَيَحُدُّ لى حداً . فأدخلهم الجنة » وقد قال تعالى (٧ : ٥٥ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية . إنه لايحب المعتدين) .

الاعتداء فى الدعاء

وأى اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لايفعل ماقد أخبر أنه لابد أن يفعله ، أو أن يفعل ماقد أخبر : أنه لايفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه (٢ : ١٨٦ وإذا سألك عبادى عنى ؟ فإنى قريب . أجيب دعوة الداعى إذا دعان) وقال (٤٠ : ٦٠ وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من داع يدعو الله بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم : إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته . وإما أن يَدَّخر له من الخير مثلها . وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها » .

فالدعوة التى ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب بها أو مثله . وهذا غاية الإجابة . فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً . أو مفسداً للداعى أو لغيره . والداعى

جاهل ، لايعلم مافيه المفسدة عليه . والرب قريب مجيب . وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها . والـكريم الرحيم : إذا سئل شيئاً بعينه ، وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه : أعطاه نظيره ، كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له . فإنه يعطيه من ماله نظيره . ولله المثل الأعلى .

وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ـ لما طلبت منه طائفة من بنى عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم ـ فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

وقد روى فى الحديث « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » وهذا حق .

فصل

فى الشكر والتوحيد والتوكل والاستغفار

ولما كان الأمر كما أخبر الله به فى قوله « ماأصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » أوجب هذا : أن لايطلب العبد الحسنات ـ والحسنات تدخل فيها كل نعمة ـ إلا من الله . وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذى لا يستحقه غيره . ويعلم أنه لا إله إلاَّ هو . كما قال تعالى (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله) .

فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده . ثم قال (وإذا مسكم الضُّرُّ فإليه تجأرون) وهذا إخبار عن حالهم ، والجؤار : يتضمن رفع الصوت .

والإنسان إنما يجأر إذا أصابه الضر . وأما فى حال النعمة : فهو ساكن ، إما شاكراً وإما كفوراً (١٦ : ٥٤ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون) .

وهذا المعنى قد ذكره الله فى غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه ، وإسباغ النعماء عليه ، فيضيف العبد ـ بعد ذلك ـ الإنعام إلى غيره . ويعبد غيره تعالى . ويجعل المشكور غيره على النعم ، كما قال تعالى (٣٠ : ٣٣ ، ٣٤ وإذا

مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه . ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم . فتمتعوا فسوف تعلمون) وقال تعالى (٦ : ٦٣ ، ٦٤ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعاً وخُفْية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب . ثم أنتم تشركون) وقال تعالى (٣٩ : ٨ و إذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه . ثم إذا خَوَّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل . وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله . قل تمتع بكفرك قليلا . إنك من أصحاب النار) .

وقوله « نسى ما كان يدعو إليه » أى نسى الضر الذى كان يدعو الله لدفعه . إليه ، كما قال فى سورة الأنعام (٦ : ٤٠ ، ٤١ قل أرأيتكم إن أتتكم عذاب الله ، أو أتتكم الساعة : أغير الله تدعون ، إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون . فيكشف ماتدعون إليه إن شاء . وتنسون ماتشركون) .

فذم الله سبحانه حزبين : حزباً لايدعونه فى الضراء . ولايتوبون إليه . وحزباً يدعونه و يتضرعون إليه و يتوبون إليه . فإذا كشف الضر عنهم : أعرضوا عنه ، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان ـ كالمعطلة ، والمشركة ـ حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعو الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال (٦ : ٤٢ ، ٤٣ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك . فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ؟ ولكن قَسَتْ قلوبهم . وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقال تعالى (٢٣ : ٧٦ ولقد أخذناهم بالعذاب . فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) وقال تعالى (٩ : ١٢٦ أو لا يرون : أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ؟ ثم لايتوبون . ولاهم يذكرون) وقال تعالى (٣٢ : ٢١ ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) وحزب يتضرعون إليه فى حال الضراء . و يتوبون إليه . فإذا كشفها عنهم : أعرضوا عنه ، كما قال تعالى (١٠ : ١٢ و إذا

مس الإنسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعداً أو قائماً . فلما كشفنا عنه ضُره مَرَّ ، كأن لم يَدْعُنا إلى ضر مَسَّه . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) وقال تعالى (٤١: ٥١ و إذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه . و إذا مسه الشر فذو دعاء عريض) وقال تعالى (١٧ : ٦٧ و إذا مسكم الضر فى البحر ضَلَّ من تدعون إلا إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم . وكان الإنسان كفورا) وقال فى المشركين ما تقدم « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون » .

أهل الصبر والشكر

والممدوح : هو القسم الثالث . وهم الذين يدعونه ، ويتوبون إليه . ويثبتون على عبادته ، والتوبة إليه فى حال السراء . فيعبدونه ويطيعونه فى السراء والضراء . وهم أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام . فقال تعالى (٢١ : ٨٧ ، ٨٨ وذا النون إذ ذهب مُغاضبا . فظن أن لن نقدر عليه . فنادى فى الظلمات : أن لا إله إلا أنت ، سبحانك ! إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له . ونجيناه من الغم . وكذلك نُنْجِى المؤمنين) وقال تعالى (٣٨ : ٣٤ ، ٣٥ ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جَسَدا . ثم أناب . قال : رب اغفر لى ، وهَبْ لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى . إنك أنت الوهاب) وقال تعالى (٣٨ : ٢١ ـ ٢٥ وهل أتاك نَبَأُ الخصم ، إذ تَسَوَّروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود . ففزع منهم . قالوا : لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ، ولا تُشْطِطْ . واهدنا سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة . ولى نعجة واحدة ، فقال : أكْفِلْنِيها . وعَزَّنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نِعاجه . وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وقليل ما هم ـ وظن داود أنَّمَا فَتَنَّاه . فاستغفر ربه . وخَرَّ راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك . وإن له عندنا لزُلْفَى وحسن مآب)

وقال تعالى عن آدم وحواء (٧ : ٢٢ ، ٢٣ فَدَلاّهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سَوْآتهما . وطفقا يَخْصِفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما : ألم أَنْهَكما عن تلكما الشجرة ؟ وأقل لكما : إن الشيطان لكم عدو مبين ؟ قالا ربنا ، ظلمنا أنفسنا . وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال (٢ : ٣٧ فتلقى آدم من ربه كلمات . فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم) .

تفسير آية « وكأين من نبي ـ الخ »

وقال تعالى عن المؤمنين الذين قَتِل نبيهم (٣ : ١٤٦ ـ ١٤٨ وكأين من نبي قتل[1] معه رِبِّيُّون كثير . فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله . وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم ، إلا أن قالوا : ربنا اغفرلنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا . وثبت أقدامنا . وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين) .

وقوله « قتل » أى النبي قُتِل . هذا أصح القولين . وقوله « معه رِبِّيُّون كثير » جملة في موضع الخبر ، صفة للنبي ـ صفة بعد صفة ـ أى كم من نبي معه ربيون كثير قُتِلَ ، ولم يقتلوا معه . فإنه كان يكون المعنى : أنه قتل وهم معه . والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير ، وقتل في الجملة . وأولئك الربيون ما وَهَنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا .

و « الربيون » الجموع الكثيرة . وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى : هو الذي يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أحد ، لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قُتِل : انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وسيجزي الله الشاكرين » وهي التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله

---

(١) قراءة حفص « قاتل » وفي قراءة غيره « قتل » بالبناء للمفعول و «قتّل» بتشديد التاء .

عنه يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم . وقال « من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لايموت » .

فإنه عند قتل النبي وموته : تحصل فتنة عظيمة للناس ـ المؤمنين والكافرين ـ وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ، ولما يلقيه الشيطان فى قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ، وما بقي يقوم دينه . وإنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك . فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبي قتل ؟ .

فإن بني إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء . والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله فى غير حرب ولا قتال . بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير . فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا . وما استكانوا . والله يحب الصابرين . ولكن استغفروا لذنوبهم التى بها تحصل المصائب ـ فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم ـ وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا . ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى (٤٩ : ١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك هم الصادقون) وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين . سألوا ربهم ما يفعل لهم فى أنفسهم من التثبيت ، وما يعطيهم من عنده من النصر . فإنه هو الناصر وحده . وما النصر إلا من عند الله . وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم . قال تعالى لما أنزل الملائكة (٨ : ١٠ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله . إن الله عزيز حكيم) وقال تعالى (٣: ١٤٨ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين) وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان ـ وإن كانت بقضاء الله وقدره ـ وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لايتوكل إلا عليه وحده . فلا يأتى

بالحسنات إلا هو . فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده ، والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

جمع النبي صلى الله عليه وسلم كل أمور التوحيد فى دعائه

وهذه الأمور كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمعها فى الصلاة . كما ثبت عنه فى الصحيح « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئتَ من شيء بعد ، أهلَ الثناء والمجد . أحق ماقال العبد ، وكلنا لك عبد » فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى . و بيان أن حمده أحق ما قاله العبد . ثم يقول بعد ذلك « اللهم لامانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الَجدِّ منك الجد » .

وهذا تحقيق لوحدانيته : لتوحيد الربوبية : خلقاً ، وقدرا ، وبداية ، وهداية . هو المعطى المانع . لامانع لما أعطى . ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الإلهية ـ شرعاً وأمراً ، ونهياً ـ وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبختا ورياسة فى الظاهر أو فى الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجد منك الجد » أى لا ينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

ولهذا قال « لا ينفعه منك » ولم يقل « لا ينفعه عندك » فإنه لو قيل ذلك : أوهم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صاحب الجد : إذا سلمت من العذاب فى الآخرة فما أبالى ، كالذين أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك فى الدنيا وهم من السعداء . فقد يظن ذو الجد ـ الذى لم يعمل بطاعة الله من بعده ـ أنه كذلك . فقال « ولا ينفع ذا الجد منك » ضَمَّن « ينفع » معنى « ينجى ويخلص » فبين أن جده لا ينجيه من العذاب . بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله . ولا ينفعه جده منك . فلا ينجيه ولا يخلصه .

عنه يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم . وقال « من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لايموت » .

فإنه عند قتل النبي وموته : تحصل فتنة عظيمة للناس ـ المؤمنين والكافرين ـ وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ، ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ، وما بقي يقوم دينه . وإنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك . فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبي قتل ؟ .

فإن بني إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء . والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال . بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير . فما وَهَن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا . وما استكانوا . والله يحب الصابرين . ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب ـ فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم ـ وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا . ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى (٤٩ : ١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . أولئك هم الصادقون) وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين . سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من التثبيت ، وما يعطيهم من عنده من النصر . فإنه هو الناصر وحده . وما النصر إلا من عند الله . وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم . قال تعالى لما أنزل الملائكة (٨ : ١٠ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله . إن الله عزيز حكيم) وقال تعالى (٣ : ١٤٨ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين) وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان ـ وإن كانت بقضاء الله وقدره ـ وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لايتوكل إلا عليه وحده . فلا يأتي

بالحسنات إلا هو . فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده ، والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

جمع النبي صلى الله عليه وسلم كل أمور التوحيد فى دعائه

وهذه الأمور كان النبى صلى الله عليه وسلم يجمعها فى الصلاة . كما ثبت عنه فى الصحيح « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئتَ من شىء بعد ، أهلَ الثناء والمجد . أحق ماقال العبد ، وكلنا لك عبد » فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى . و بيان أن حمده أحق ما قاله العبد . ثم يقول بعد ذلك « اللهم لامانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الَجدِّ منك الجد » .

وهذا تحقيق لوحدانيته : لتوحيد الربوبية : خلقاً ، وقدرا ، و بداية ، وهداية . هو المعطى المانع . لامانع لما أعطى . ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الإلهية ـ شرعاً وأمراً ، ونهياً ـ وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبختا ورياسة فى الظاهر أو فى الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجد منك الجد » أى لا ينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

ولهذا قال « لا ينفعه منك » ولم يقل « لا ينفعه عندك » فإنه لو قيل ذلك : أوهم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صاحب الجد : إذا سلمت من العذاب فى الآخرة فما أبالى ، كالذين أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك فى الدنيا وهم من السعداء . فقد يظن ذو الجد ـ الذى لم يعمل بطاعة الله من بعده ـ أنه كذلك . فقال « ولا ينفع ذا الجد منك » ضَمَّن « ينفع » معنى « ينجى ويخلص » فبين أن جده لا ينجيه من العذاب . بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله . ولا ينفعه جده منك . فلا ينجيه ولا يخلصه .

معنى « لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت »

فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد، وتحقيق قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله (١١ : ١٢٣ فاعبده وتوكل عليه) وقوله (١١ : ٨٨ عليه توكلت وإليه أنيب) وقوله (٧٣ : ٨ ، ٩ واذكر اسم ربك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو . فاتخذه وكيلا) .

فقوله « لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت » توحيد الربوبية الذى يقتضى : أنه سبحانه : هو الذى يُسأل ويُدعَى ، ويُتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه . كما يحتج به فى القرآن على المشركين .

فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد ـ توحيد الربوبية ـ ومع هذا يشركون بالله . فيجعلون له أنداداً ، يحبونهم كحب الله . ويقولون : إنهم شفعاؤنا عنده ، وإنهم يتقربون بهم إليه . فيتخذونهم شفعاء وقرباناً ، كما قال تعالى (١٠ : ١٨ ويعبدن من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقال تعالى (٣٩ : ٣ والذين اتخذوا من دون الله أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقال تعالى (٤٦ : ٢٧ ، ٢٨ ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قُرباناً آلهة ؟ بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) .

وهذا التوحيد : هو عبادة الله وحده لاشريك له . وأن لانعبده إلا بما أحبه ومارضيه . وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله ـ صلوات الله عليهم ـ فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ماسواهما .

وهو يتضمن : أن يحب الله حباً لايماثله ولا يساويه فيه غيره ، بل يقتضى : أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه .

فإذا كان الرسول ـ لأجل أنه رسول الله ـ يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه ، فكيف بربه سبحانه وتعالى ؟ .

وفى صحيح البخارى أن عمر قال « يارسول الله ، والله إنك لأحب إلىَّ من كل شىء ، إلا من نفسى . فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فوالذى بعثك بالحق ، إنك لأحب إلىَّ من نفسى . قال : الآن ياعمر » .

وقد قال تعالى (٣٣ : ٦ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وقال تعالى (٩ : ٢٤ قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لايهدى القوم الفاسقين) .

فإن لم يكن الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله : أحبَّ إلى العبد من الأهل والمال ـ على اختلاف أنواعه ـ فإنه داخل تحت هذا الوعيد .

توحيد الإلٰهية

فهذا التوحيد ـ توحيد الإلٰهية ـ يتضمن فعل المأمور وترك المحظور .

ومن ذلك : الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه لاخالق ولا رازق ، ولا معطى ولا مانع ، إلا الله وحده . فيقتضى : أن لايسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به ، كما قال تعالى فى النوعين (إياك نعبد وإياك نستعين) وقال (١١ : ١٢٣ فاعبده وتوكل عليه) .

وهذا التوحيد : هو الفارق بين الموحدين والمشركين . وعليه يقع الجزاء والثواب فى الأولى والآخرة . فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين . فإن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء .

توحيد الربوبية

أما توحيد الربوبية : فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مع الله غيره ،

ولكن هذا يناقض قول القدرية . فإنهم إذا جعلوا العبد هو الذى يحدث ، ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقه : لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلاً لما لم يكن فاعلاً له . فبدعائه جعله مجيباً له ، وبتوبته جعله قابلاً للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلاً للشفاعة .

معنى « إذن الله »

وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه .

فإن « الإذن » نوعان : إذن بمعنى المشيئة والخلق ، بمعنى الإباحة والإجازة .

فمن الأول : قوله فى السحر (٢ : ١٠٢ وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) فإن ذلك بمشيئة الله ، وقدرته . وإلا فهو لم يبح السحر .

والقدرية تنكر هذا «الإذن» وحقيقة قولهم : إن السحر يضر بدون إذن الله

وكذلك قوله (٣ : ١٦٦ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله) فإن الذى أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل ، والهزيمة : إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

والنوع الثانى : قوله (٣٣ : ٤٥ ، ٤٦ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه) وقوله (٥٩ : ٥ ما قطعتم من لِينةٍ أو تركتموها قائمةً على أصولها . فبإذن الله) فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ، ورفع الجناح والحرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه . ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر . فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقادراً عليها ، ومشيئا لها ، فعنده : كل شافع وداع قد فعل مافعل بدون خلق الله وقدرته ، وإن كان قد أباح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار : فهو عندهم بغير إذنه . لا هذا الإذن ولا هذا الإذن . فإنه لم يبح ذلك باتفاق المسلمين . وعندهم : أنه لم يشأه ولم يخلقه . بل كان بدون مشيئته وخلقه .

والمشركون المقرون بالقدر ، يقولون : إن الشفعاء يشفعون بالإذن القدرى ، و إن لم يأذن لهم إباحةً وجوازاً .

ومن كان مكذباً بالقدر ـ مثل كثير من النصارى ـ يقولون : إن شفاعة الشفعاء بغير إذن ، لاقدرى ولا شرعى .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدرى .

ومن سأل الله بغير إذنه الشرعى : فقد شفع عنده بغير إذن قدرى ولاشرعى

فالداعى المأذون له فى الدعاء : مؤثر فى الله عندهم . لكن بإباحته .

والداعى غير المأذون له : إذا أجاب دعاه ، فقد أثر فيه عندهم ، لا بهذا الإذن ولا بهذا الإذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره . والله تعالى يقول « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ »

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعى ، و إن كان خالقاً لفعله ـ كشفاعة نوح لابنه ، وشفاعة إبراهيم لأبيه ، وشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبيّ بن سلول ، حين صلى عليه بعد موته . وقوله « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » قد قلتم : إنه يعم النوعين . فإنه لو أراد الإذن القدرى : لكان كل شفاعة داخلة فى ذلك ، كما يدخل فى ذلك كل كفر وسحر . ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه ، ومالا يكون بإذنه . ولو أراد الإذن الشرعى فقط : لزم قول القدرية . وهؤلاء قد شفعوا بغير إذن شرعى ؟ .

الشفاعة التامة المقبولة

قيل : المنفى من الشفاعة بلا إذن : هى الشفاعة التامة ، وهى المقبولة ، كما فى قول المصلي « سمع الله لمن حمده » أى استجاب له . وكما فى قوله تعالى (٢ : ٣ هُدًى

للمتقين) وقوله (٧٩ : ٤٥ إنما أنت منذر من يخشاها) وقوله (٥٠ : ٤٥ فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد) ونحو ذلك .

فإن الهدى ، والإنذار ، والتذكير ، والتعليم : لابد فيه من قبول المتعلم . فإذا تعلم حصَل له التعليم المقصود . وإلا قيل : علمته فلم يتعلم . كما قيل (٤١ : ١٧ وأما ثمود : فهديناهم . فاستحبوا العمى على الهدى) فكذلك الشفاعة .

مقصود الشفاعة

فالشفاعة : مقصودها قبول المشفوع إليه . وهى الشفاعة التامة . فهذه هى التى لا تكون إلا بإذنه . وأمَّا إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته : كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها . كما قال نوح (١١ : ٤٧ رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم . وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) وكما نهى الله النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين . وقال له (٩ : ٨٤ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً . ولاتقم على قبره . إنهم كفروا بالله ورسوله . وماتوا وهم فاسقون) وقال له (٦٣ : ٦ سواء عليهم ، أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم) . ولهذا قال على لسان المشركين (٣٦ : ١٠٠ ، ١٠١ فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم) .

فالشفاعة المطلوبة : هى شفاعة المطاع الذى تقبل شفاعته . وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه ، قدراً وشرعاً . فلا بد أن يأذن فيها . ولا بد أن يجعل العبد شافعاً . فهو الخالق لفعله ، والمبيح له ، كما فى الداعى : هو الذى أمره بالدعاء ، وهو الذى يجعل الداعى داعياً . فالأمر كله لله ، خلقاً وأمراً . كما قال (ألا له الخلق والأمر) .

وقد روى فى حديث ــ ذكره ابن أبى حاتم وغيره ــ أنه قال « فمن يثق به ، فليدعه » أى فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر .

الشفاعة المنفية

ولما كان المراد بالشفاعة المنفية : هى الشفاعة المطلقة ، وهى المقصود بالشفاعة وهى المقبولة ، بخلاف المردودة . فإن أحداً لا يريدها ، لا الشافع ولا المشفوع له ، ولا المشفوع إليه . ولو علم الشافع والمشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها . والشفاعة المقبولة : هى النافعة . بين ذلك فى مثل قوله (٣٤ : ٢٢ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقوله (٢٠ : ١٠٩ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) فنفى الشفاعة المطلقة . و بين أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له . وهو الإذن الشرعى . بمعنى : أباح له ذلك . وأجازه . كما قال تعالى (٢٢:٣٩ أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظلموا) وقوله (٣٣ : ٥٣ لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم) وقوله (٢٤ : ٥٨ لِيستأذنْكم الذين ملكت أيمانكم) ونحو ذلك .

وقوله « إلا لمن أذن له » هو إذن للمشفوع له . فلا يأذن فى شفاعة مطلقة لأحد . بل إنما يأذن فى أن يشفعوا لمن أذن لهم فى الشفاعة فيه . قال تعالى (٢٠ : ١٠٨ ، ١٠٩ يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) وفيه قولان :

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن . فهو الذى تنفعه الشفاعة .

وهذا هو الذى يذكره طائفة من المفسرين . لا يذكرون غيره . لأنه لم يقل « لا تنفع إلا من أذن له » ولا قال « لا تنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له » بل قال (لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له) فهى لا تنفع ، ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم . كما قال تعالى فى الآية الأخرى (٣٤ : ٢٢ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

ولا يقال : لا تنفع إلا لشفيع مأذون له . بل لو أريد هذا ، لقيل : لا تنفع

الشفاعة عنده إلا من أذن له . و إنما قال « لمن أذن له » وهو المشفوع له ، الذى تنفعه الشفاعة .

وقوله « حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم » لم يعد إلى « الشفعاء » بل عاد إلى المذكورين فى قوله « وما لهم فيهما من شِرْك . وماله منهم من ظهير » ثم قال « ولا تنفع الشفاعة عنده » ثم بين أن هذا منتفٍ « حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق » فلا يعلمون ماذا قال ، حتى يُفَزَّعَ عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟ .

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع .

فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط . فإنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له . إذ قد يأذن له إذناً خاصاً .

وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمنين . وكذلك قال السلف فى هذه الآية .

قال قتادة فى قوله « ٢٠ : ١٠٩ إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » قال : كان أهل العلم يقولون : إن المقام المحمود الذى قال الله تعالى (١٧ : ٧٩ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) هو شفاعته يوم القيامة . وقوله « إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » إن الله يُشَفِّع المؤمنين بعضهم فى بعض .

قال البغوى « إلا من أذن له الرحمن » أذن الله له أن يشفع له « ورضى له قولا » أى ورضى قوله . قال ابن عباس : يعنى قال « لا إله إلا الله » قال البغوى : فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن .

وقد ذكروا القولين فى قوله تعالى « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » وقدم طائفة هناك : أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ماقدموه هنا .

منهم البغوى . فإنه لم يذكر هنا فى الاستثناء إلا المشفوع له . وقال هناك : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » فى الشفاعة ، قاله تكذيباً لهم ، حيث قالوا

(١٠ : ١٨ هؤلاء شفعـاؤنا عند الله) قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلك ذكروا القولين فى قوله (٤٣ : ٨٦ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ، إلا من شهد بالحق) وسنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى ، ونبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية . وهو يعم النوعين .

وذلك : أنه سبحانه قال « يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً » و « الشفاعة » مصدر شفع شفاعة . والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى محل الفعل تارة . ويماثله الذى يسمى لفظه « المفعول به » تارة ، كما يقال : أعجبنى دَقّ الثوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ « العلم » يضاف تارة إلى العلم ، وتارة إلى المعلوم . فالأول كقوله (٢ : ٢٥٥ ولا يحيطون بشىء من علمه) وقوله (٤ : ١٦٥ أنزله بعلمه) وقوله (١١ : ١٤ إنما أنزل بعلم الله) ونحو ذلك .

والثانى : كقوله (٣١ : ٣٤ إن الله عنده علم الساعة) فالساعة هنا : معلومة ، لا عالمة . وقوله حين قال فرعون (٢٠ : ٥١ فما بال القرون الأولى ؟) قال موسى (٢٠ : ٥٢ علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى) ومثل هذا كثير .

فالشفاعة مصدر ، لابد لها من شافع ومشفوع له .

والشفاعة : تعم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فإذا قال « يومئذ لاتنفع الشفاعة » نفى النوعين : شفاعة الشفعاء . والشفاعة للمذنبين . فقوله « إلا من أذن له الرحمن » يتناول النوعين : من أذن له الرحمن ورضى له قولاً من الشفعاء . ومن أذن له الرحمن ورضى له قولاً من المشفوع له . وهى تنفع المشفوع له ، فتخلصه من العذاب . وتنفع الشافع ، فتقبل منه ، ويكرم بقبولها ، ويثاب عليه .

والشفاعة يومئذ لاتنفع لاشافعاً ولا مشفوعاً له (٧٨ : ٣٨ إلا من أذن له

الرحمن وقال : صواباً) فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضى قولهم : هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة . وهذا موافق لسائر الآيات .

فإنه تارة يشترط فى الشفاعة إذنه . كقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟)

وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) ثم قال (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) .

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صوابا . والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول : لا ينفع الزرع إلا فى وقته . فهو يتناول زرع الحارث ، وزرع الأرض ، لكن هنا قال «إلا من أذن له الرحمن» والاستثناء مفرغ . فإنه لم يتقدم قبل هذا من يُسْتثنى منه هذا . و إنما قال « لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن » فإذا لم يكن فى الكلام حذف ، كان المعنى : لاتنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة . ويكون المعنى : أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

و إن جعل فيه حذف ـ تقديره : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن ـ كان المصدر مضافاً إلى النوعين ، كل واحد بحسبه ، يضاف إلى بعضهم ، لكونه شافعاً ، و إلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله (٢ : ١٧٧ ولكن البرَّ من آمن بالله) أى من يؤمن . و (٢ : ١٧١ مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق) أى مَثَل داعى الذين كفروا كمثل الناعق ، أو مَثَل الذين كفروا كمثل منعوق به ، أى الذى ينعق به . والمعنى فى ذلك كله ظاهر معلوم .

فلهذا كان من أفصح الكلام : إيجازه ، دون الإطناب فيه .

وقوله « يومئذ لاتنفع الشفاعة » إذا كان من هذا الباب ، لم يحتج : أن الشافع تنفعه الشفاعة . و إن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة .

وفى الآية الأخرى « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » من هؤلاء وهؤلاء .

لـكن قد يقال : التقدير : لاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه . فيكون الإذن للطائفتين ، والنفع للمشفوع له ، كأحد الوجهين ، أو ولا تنفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء . فـكما أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين . فالشافع ينتفع بالشفاعة . وقد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « اشفعوا تؤجروا . ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » .

ولهذا كان من أعظم مايكرم به الله عبده محمداً صلى الله عليه وسلم : هو الشفاعة التى يختص بها . وهى المقام المحمود ، الذى يحمده به الأولون والأخرون .

وعلى هذا لا تحتاج الآية إلى حذف ، بل يكون معناها : يومئذ لاتنفع الشفاعة لا شافعاً ولا مشفوعا إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا .

ولذلك جاء فى الصحيح : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يا بنى عبد مناف ، لاأملك لـكم من الله من شىء . ياصفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاأملك لك من الله من شىء . يا عباس عم رسول الله ، لا أملك لك من الله من شىء » .

وفى الصحيح أيضاً « لا أُلفِين أحدكم يأتى يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء أو شاة لها يَعار ، أو رقاع تَخفُق . فيقول : أغثنى ، أغثنى . فأقول : قد أبلغتك . لا أملك لك من الله من شىء » .

فيعلم من هذا : أن قوله « ولايملـكون من دونه الشفاعة » و «لايملـكون منه خطاباً » على مقتضاه . وأن قوله فى الآية « لا يملـكون منه » كقوله صلى الله عليه وسلم « لا أملك لـكم من الله من شىء » وهو كقول إبراهيم لأبيه (٦٠ : ٤ وما أملك لك من الله من شىء) .

وهذه الآية تشبه قوله تعالى (٣٧:٧٨ ، ٣٨ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن . لا يملـكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائـكة صفاً . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، وقال صوابا) فإن هذا مثل قوله « يومئذ لا تنفع الشفاعة

إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً » ففى الموضعين : اشترط إذنه . فهناك ذكر « القول الصواب » وهنا ذكر « أن يرضى قوله » ومن قال الصوابَ رضى الله قوله . فإن الله إنما يرضى بالصواب .

لا يملك أحد من الخلق من دون الله شفاعة ولا غيرها

وقد ذكروا فى تلك الآية قولين .

أحدهما : أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب : لا يملكون شفاعة إلا بإذنه

والثانى : لايقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد « لايملكون منه خطاباً » قال : كلاما . هذا من تفسيره الثابت عنه . وهو من أعلم — أو أعلم — التابعين بالتفسير .

قال الثورى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد ، فحسبُك به . وقال : عرضتُ المصحف على ابن عباس : أقفه عند كل آية وأسأله عنها . وعليه اعتمد الشافعى وأحمد والبخارى فى صحيحه .

وهذا يتناول « الشفاعة » أيضاً .

وفى قوله « لايملكون منه خطاباً » لم يذكر استثناء . فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً . إذ المخلوق لايملك شيئاً يشارك فيه الخالق ، كما قد ذكرناه فى قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » أن هذا عام مطلق . فإن أحداً — ممن يُدْعَى من دونه — لايملك الشفاعة بحال . ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكا لهم . وكذلك قوله « لايملكون منه خطابا » هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم : هؤلاء هم الكفار . لايملكون مخاطبة الله فى ذلك اليوم .

قال ابن عطية : قوله « لايملكون » الضمير للكفار . أى لا يملكون — من إفضاله وإكماله — أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها . وهذا مبتدع . وهو خطأ محض .

والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال فى آية أخرى

(٢٠ : ١٠٨ وخشعت الأصوات للرحمن . فلا تسمع إلا همساً) وفى حديث التجلى الذى فى الصحيح – لما ذكر مرورهم على الصراط – قال صلى الله عليه وسلم « ولا يتكلم أحد إلا الرسل . ودعوى الرسل : اللهم سَلِّمْ سلم » فهذا فى وقت المرور على الصراط . وهو بعد الحساب والميزان . فكيف بما قبل ذلك ؟ .

وقد طُلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولى العزم ، وكل يقول « إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله . وإنى فعلت كذا وكذا ، نفسى ، نفسى ، نفسى » فإذا كان هؤلاء لايتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة ، فكيف بغيرهم ؟ .

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة ، وبعد أن ذكر الكافرين . فقال (٧٨ : ٣١ – ٣٨ إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابًا . وكأساً دِهاقا . لايسمعون فيها لَغْواً ولا كِذَّابا . جزاء من ربك عطاء حسابا . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لايملكون منه خطابا) ثم قال (يوم يقوم الروح والملائكة صَفًّا . لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، وقال : صوابا) فقد أخبر : أن « الروح والملائكة » يقومون صفاً ، لايتكلمون . وهذا هو تحقيق قوله « لايملكون منه خطابا » والعرب تقول : ما أملك من أمر فلان ، أو من فلان شيئاً : أى لا أقدر من أمره على شىء . وغاية مايقدر عليه الإنسان من أمر غيره : خطابه ، ولو بالسؤال .

فهم فى ذلك الموطن لايملكون من الله شيئاً ، ولا الخطابَ . فإنه لايتكلم أحد إلا بإذنه . ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . قال تعالى (٦٠ : ٤ إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك . وما أملك لك من الله من شىء) فقد أخبر الخليل : أنه لا يملك لأبيه من الله من شىء . فكيف غيره ؟ .

وقال مجاهد أيضاً « إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » قال : حقاً فى الدنيا ، وعملا به . رواه – والذى قبله – عبد بن حميد . وروى عن عكرمة « وقال صواباً » قال : الصواب قول لا إله إلا الله .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى : مَنْ أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح .

وقوله فى سورة طه « لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » فإذا جعلت هذه مثل تلك : فتكون الشفاعة هى الشفاعة المطلقه . وهى الشفاعة فى الحسنات وفى دخول الجنة ، كما فى الصحيحين « أن الناس يهتمون يوم القيامة . فيقولون : لو استشفعنا على ربنا ، حتى يرحمنا من مقامنا هذا ؟ » فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم .

وفى حديث الشفاعة « أدخلْ من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » فهذه شفاعة فى أهل الجنة . ولهذا قيل : إن هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد صلى الله عليه وسلم . ويشفع غيره فى العصاة .

فقوله « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » يدخل فيها الشفاعة فى أهل الموقف عموماً ، وفى أهل الجنة ، وفى المستحقين للعذاب . وهو سبحانه فى هذه وتلك : لم يذكر العمل . إنما قال « وقال صواباً » وقال « ورضى له قولا » لكن قد دل الدليل على أن « القول الصواب المرضى » لا يكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح . لكن نفس القول مرضى . فقد قال الله (٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب) .

وقد ذكر البغوى وأبو الفرج ابن الجوزى وغيرهما فى قوله « ولا يملك الذين يدعون من دون الشفاعة إلا من شهدنا بالحق وهم يعلمون » قولين . أحدهما : أن المستثنى هو الشافع . ومحل « من » الرفع . والثانى : هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : فى معنى الآية قولان . أحدهما : أنه أراد بـ « الذين يدعون من دونه » آلهتهم . ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة . فقال « إلا من شهد بالحق» وهو شهادة أن لا إله إلا الله «وهم يعلمون» بقلوبهم ماشهدوا به بألسنتهم . قال : وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثانى : أن المراد بـ « الذين يدعون» عيسى وعزيراً والملائكة ، الذين عبدهم

المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد « إلا من شهـد بالحق » وهى كلمة الإخلاص « وهم يعلمون » أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائـكة . وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوى « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق » هم عيسى وعزير والملائـكة . فإنهم عُبدوا من دون الله . ولهم الشفاعة . وعلى هذا تـكون « من » فى محل رفع . وقيل « من » فى محل خفض . وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة . يعنى : أنهم لا يملـكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق . قال : والأول أصح .

قلت : قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبى حاتم . روى بإسناده المعروف عن مجاهد ـ على شرط الصحيح ـ عن مجاهد قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » عيسى وعزير والملائـكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائـكة « إلا من شهد بالحق » يعلم الحق . هذا لفظه . جعل « شفع » متعدياً بنفسه وكذلك لفظ . . . . (١)

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لا يكون مخفوضا ، كما قاله البغوى . فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم . ويكون على هذا يقال : شفعته ، وشفعت له ، كما يقال : نصحته ، ونصحت له . و « شفع » أى صار شفيعاً للطالب . أى لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً « إلا من شهد بالحق هم يعلمون » أن الله ربهم .

وروى بإسناده عن قتادة « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الملائكة وعيسى وعزير . أى إنهم قد عُبدوا من دون الله ، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة .

قلت : كلا القولين معناه صحيـح . لـكن التحقيق فى تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع . ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً . لا يستثنى من ذلك أحد عند الله . فإنه لم يقل : ولا يشفع أحد . ولا قال : لا يشفع لأحد ، بل قال

(١) بياض بالأصل قدر أربع كلمات .

« ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » وكل من دُعى من دون الله لا يملك الشفاعة ألبتة .

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله .

وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم لم يعبد كما عبد المسيح (١) . وهو — مع هذا — له شفاعة ، ليست لغيره . فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله دون من لم يدع .

فمن جعل الاستثناء متصلا ، فإن معنى كلامه : أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ، إلا أن يشهد بالحق . وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم . ويبقى الذين لم يُدْعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد . وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه . وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

تحقيق معنى « لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة »

وأيضاً فقوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » يتناول كل معبود من دونه . ويدخل فى ذلك الأصنام . فإنهم كانوا يقولون : هم يشفعون لنا . قال

(١) بل عبد كما عبد المسيح سواء . فقد أطرى — على لسان البوصيرى وغيره من الشعراء المشركين — كما أطرى عيسى . وقيل عنه : إنه النور الأول الذى انبثق من الله ، كما قيل عن عيسى سواء . وقيل : إن الحقيقة المحمدية هى الدرجة الثانية فى تعين الحقيقة الإلهية ، كما قال النصارى فى عيسى . وأقيمت على قبره القبة الخضراء تقدس ويتبرك بها ، كما يتبرك النصارى بآثار عيسى والقسس سواء . وهو صلى الله عليه وسلم — وبرأه الله — يدعى ويستغاث به من دون الله ، كما قال البوصيرى :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم
يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم

والذين روجوا عبادة البشر من الأنبياء والأولياء — عيسى ومن قبل عيسى — هم الصوفية الذين روجوا ويروجون الشرك بجميع ألوانه فى كل وقت إلى يوم القيامة وهم يزخرفونه للعامة بنسبته إلى الأنبياء والأولياء . محادة للرسول ، واتباعاً لغير سبيل المؤمنين .

تعالى (١٠ : ١٨ و يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . و يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ؟ قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض؟)

فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان فى هذا إطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم . وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة

فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان فى هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين . والقرآن كله يبطل هذا المعنى . ولهذا قال تعالى (٥٣ : ٢٦ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى) وقال تعالى (٢١ :٢٦ـ ٢٨ وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه ! بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول . وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون) فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب . فعلم : أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق .

تحقيق معنى « من دونه »

وأيضاً فإن فى القرآن : إذا نفى الشفاعة من دونه : نفاها مطلقا . فإن قوله « من دونه » إما أن يكون متصلا بقوله « يملكون » أو بقوله « يدعون » أو بهما . فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه . أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا . وهذا أظهر . لأنه قال « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » فأخر « الشفاعة » وقدم « من دونه » .

ومثل هذا كثير فى القرآن « يدعون من دون الله » و « يعبدون من دون الله » كقوله (١٠ : ١٨ و يعبدون دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) وقوله (١٠ : ١٠٦ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) .

بخلاف ما إذا قيل : لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونه . فإن هذا لا نظير له فى القرآن . واللفظ المستعمل فى مثل هـذا أن يقال : لا يملك الذين يدعون

الشفاعة إلا بإذنه ، أو لمن ارتضى ، ونحو ذلك . لا يقال فى هذا المعنى « من دونه » فإن الشفاعة هى من عنده . فكيف تكون من دونه ؟ لكن قد تكون بإذنه ، وقد تكون بغير إذنه .

وأيضاً ، فإذا قيل « الذين يدعون » مطلقا . دخل فيه الرب تعالى . فإنهم كانوا يدعون الله ، و يدعون معه غيره . ولهذا قال (٢٥ : ٦٨ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر) .

والتقدير الثالث : لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه . وهذا أجود من الذى قبله . لكن يرد عليه مايرد على الأول .

لا يملك أحد من دون الله الشفاعة

ومما يضعفهما : أن « الشفاعة » لم تذكر بعدها صلة لها . بل قال « لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » فنفى ملكهم الشفاعة مطلقا . وهذا هو الصواب . وأن كل من دُعِى من دون الله : لا يملك الشفاعة . فإن المالك للشىء : هو الذى يتصرف فيه بمشيئته وقدرته . والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه . فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال . ولا يقال فى هذا « إلا بإذنه » إنما يقال ذلك فى الفعل . فيقال (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) .

وأما فى الملك : فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها . فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبى فمن دونه مالكا لها . بل هذا ممتنع ، كما يمتنع أن يكون خالقاً ورباً . وهذا كما قال (٣٤ : ٢٢ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . ومالهم فيهما من شرك . وماله منهم من ظهير) فنفى الملك مطلقا . ثم قال (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه . لم يثبت أن مخلوقا يملك الشفاعة . بل هو سبحانه له الملك وله الحمد . لا شريك له فى الملك. قال تعالى (٢٥ : ١ ـ ٣ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له مُلك السموات والأرض .

ولم يتخذ ولداً . ولم يكن له شريك فى الملك . وخلق كل شىء فقدره تقديرا)

ولهذا ـ لما نفى الشفعاء من دونه ـ نفاهم نفياً مطلقا بغير استثناء . و إنما يقع الاستثناء : إذا لم يقيدهم بأنهم من دونه . كما قال تعالى (٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم . ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) وكما قال تعالى (٦ : ٧٠ وذكّر به أن تُبْسَل نفس بما كسبت . ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع) وكما قال تعالى (٣٢ : ٤ مالـكم من دونه من ولى ولا شفيع) فلما قال « من دونه » نفى الشفاعة مطلقا . و إذا ذكر « بإذنه » لم يقل « من دونه » كقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وقوله (١٠ : ٣ مامن شفيع إلا من بعد إذنه) .

معنى قوله فى وصف القرآن « متشابهاً ، ومثانى »

فمن تدبر القرآن : تبين له أنه كما قال تعالى (٣٩ : ٢٣ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ، مثانى) يشبه بعضه بعضا . و يصدق بعضه بعضا . ليس بمختلف ولا بمتناقض ٤ : ٨٢ . ولو كان من عند غير الله : لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

وهو « مثانى » يُثَنِّى الله فيه الأقسام ، و يستوفيها .

والحقائق : إما متماثلة . وهو « المتشابه » و إما مماثلة . وهى : الأصناف والأقسام والأنواع . وهى « المثانى » .

و « التثنية » يراد بها : جنس التعديد ، من غير اقتصار على اثنين فقط . كما فى قوله تعالى (٦٧ : ٤ ارجع البصر كرّتين) يراد به : مطلق العدد ، كما تقول : قلت له مرة بعد مرة . تريد : جنس العدد . وتقول : هو يقول كذا ، و يقول كذا . و إن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه « جعل يقول بين السجدتين : رب اغفر لى . رب اغفر لى » لم يرد :

أن هذا قاله مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الغالطين . بل يريد : أنه جعل يثنى هذا القول ، و يعدده ، ويكرره ، كما كان يثنى لفظ التسبيح .

وقد قال حذيفة رضى الله عنه فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم « إنه ركع نحواً من قيامه ، يقول فى ركوعه : سبحان ربى العظيم . سبحان ربى العظيم » وذكر « أنه سجد نحواً من قيامه ، يقول فى سجوده : رب اغفر لى . رب اغفر لى » .

وقد صرح فى الحديث الصحيح « أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران » فإنه قام بهذه السور كلها . وذكر « أنه كان يقول : سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى العظيم . سبحان ربى الأعلى ، سبحان ربى الأعلى »

فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، لا الاقتصار على مرتين . فإن «الاثنين» أول العدد الكثير . فذكر أول الأعداد ، يعنى أنه عدد هذا اللفظ ، لم يقتصر على مرة واحدة . فالتثنية التعديد . والتعديد : يكون للأقسام المختلفة .

وليس فى القرآن تكرار محض ، بل لابد من فوائد فى كل خطاب .

فـ « المتشابه » فى النظائر المتماثلة . و « المثانى » فى الأنواع . وتكون التثنية فى المتشابه ، أى هذا المعنى قد ثُنِّى فى القرآن لفوائد أخر .

فـ « المثانى » تعم هذا وهذا . وفاتحة الكتاب : هى «السبع المثانى» لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

لا يملك أحد من الخلق الشفاعة ألبتة

والمقصود هنا : أن قوله « ولا يملك الذين من يدعون من دونه الشفاعة » قد تم الكلام هنا . فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة ألبتة . ثم استثنى « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » فهذا استثناء منقطع . والمنقطع يكون فى المعنى المشترك بين المذكورين . فلما نفى ملكهم الشفاعة ، بقيت الشفاعة بلا مالك لها

كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل يشفعون فى أحد ؟ فقال : نعم « من شهد بالحق وهم يعلمون » .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون . فالملائكة والأنبياء والصالحون ـ و إن كانوا لا يملكون الشفاعة ـ لكن إذا أذن الرب لهم شفعوا . وهم لا يؤذن لهم إلا فى الشفاعة للمؤمنين ، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله . فيشهدون بالحق وهم يعلمون . لا يشفعون لمن قال هذه الكلمة تقليداً للآباء والشيوخ . كما جاء الحديث الصحيح : أن الرجل يسأل فى قبره ؟ « ما تقول فى هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هو عبد الله ورسوله . جاءنا بالبينات والهدى . وأما المرتاب ، فيقول : هاه هاه ، لا أدرى . سمعت الناس يقولون شيئا فقلته » فلهذا قال « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » .

وقد تقدم قول ابن عباس : يعنى من قال « لا إله إلا الله » يعنى : خالصاً من قلبه .

والأحاديث الصحيحة الواردة فى الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما تكون فى أهل « لا إله إلا الله » .

وقد ثبت فى صحيح البخارى : أن أبا هريرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : يا أبا هريرة ، لقد ظننتُ أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أولَ منك ، لما رأيتُ من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة : من قال « لا إله إلا الله » خالصاً من قبل نفسه » .

فبين أن المخلص لها من قبل نفسه : هو أسعد بشفاعته صلى الله عليه وسلم من غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا « أن لا إله إلا الله » كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولوا العلم (٣ : ١٨ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

فإذا شهدوا ـ وهم يعلمون ـ كانوا من أهل الشفاعة ، شافعين ، ومشفوعا لهم .

فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم فى بعض ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة . كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال –فى الحديث الطويل ، حديث التجلى والشفاعة– « حتى إذا خلص المؤمنون من النار . فوالذى نفسى بيده ، مامنكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار . يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا مَنْ عرفتم . فتحرم صورهم على النار – وذكر تمام الحديث » .

وسبب نزول الآية – على ماذكروه – مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج ابن الجوزى : سبب نزولها : أن النضر بن الحرث ونفراً معه قالوا « إن كان مايقول محمد حقا . فنحن نتولى الملائكة . فهم أحق بالشفاعة من محمد . فنزلت هذه الآية » قاله مقاتل .

وعلى هذا : فيقصد أن الملائكة وغيرهم لايملكون الشفاعة . فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم : بالذى يوجب أن يشفعوا لكم . فإن أحدا ممن يدعى من دون الله لا يملك الشفاعة . ولكن « من شهد بالحق وهم يعلمون » فإن الله يُشَفِّع فيه .

فالذى تنال به الشفاعة : هى الشهادة بالحق . وهى شهادة أن لا إله إلا الله . لا تنال بتولى غير الله ، لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا الصالحين .

من تشفع بغير الله

فمن والى أحداً من هؤلاء ودعاه ، وحج إلى قبره ، أو موضعه ، ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له : لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً . وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره . فإن الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له . ومن تولى أحدا من دون الله فهو مشرك .

فهذا القول والعبادة الذى يقصد به المشركون الشفاعة : يحرم عليهم الشفاعة .

فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين ـ ليشفعوا لهم ـ كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم، الذى به طلبوا شفاعتهم: به حُرموا شفاعتهم، وعوقبوا بنقيض قصدهم. لأنهم أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا.

عبادة المشركين للموتى بزعم أنهم يشفعون لهم

وكثير من أهل الضلال: يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التى فيها شرك، أو هى شرك خالص، كما ظن ذلك المشركون الأولون. وكما يظنه النصارى، ومن ضل من المتسبين إلى الإسلام. الذين يدعون غيره الله، ويحجون إلى قبره أو مكانه، وينذرون له، ويحلفون به. ويظنون: أنه بهذا يصير شفيعا لهم. قال تعالى (١٧: ٥٦، ٥٧ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله. فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب. ويرجون رحمته. ويخافون عذابه. إن عذاب ربك كان محذوراً).

قال طائفة من السلف: كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة. فبين الله أنهم لايملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله. كما بين أنهم لايملكون الشفاعة. وهذا لا استثناء فيه، وإن كان الله يجيب دعاءهم. ثم قال «أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب. ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً» فبين: أن هؤلاء المزعومين، الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله، ويخافون عذابه، ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة، كسائر عباده المؤمنين. وقد قال تعالى (٣: ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا. أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون؟).

ضلال الناس فى أنواع الشفاعة

وللناس فى الشفاعة أنواع من الضلال، قد بسطت فى غير هذا الموضع.

فكثير منهم: يظن أن الشفاعة هى بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له، كماذكر ذلك أبو حامد الغزالى وغيره. ويقولون: من كان أكثر صلاة على

النبي صلى الله عليه وسلم ، كان أحق بالشفاعة من غيره . وكذلك من كان أحسن ظنا بشخص ، وأكثر تعظيماً له : كان أحق بشفاعته .

وهذا غلط . بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا : نتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحدا ـ من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه ـ كان ذلك سبباً لشفاعته له . وليس الأمر كذلك .

بل الشفاعة : سببها توحيد الله ، و إخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة . فإن الشفاعة : من الله مبدؤها ، وعلى الله تمامها . فلا يشفع أحد إلا بإذنه . وهو الذى يأذن للشافع . وهو الذى يقبل شفاعته فى المشفوع له .

الشفاعة سبب من أسباب الرحمة

و إنما الشفاعة سبب من الأسباب التى بها يرحم الله من يرحم من عباده . وأحق الناس برحمته : هم أهل التوحيد والإخلاص له ، فكل من كان أكمل فى تحقيق إخلاص « لا إله إلا الله » علماً وعقيدة ، وعملاً وبراءة ، وموالاة ومعاداة : كان أحق بالرحمة .

والمذنبون ـ الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ،فخفت موازينهم ، فاستحقوا النار ـ : من كان منهم من أهل « لا إله إلا الله » فإن النار تصيبه بذنوبه . ويميته الله فى النار إماتة . فتحرقه النار إلا موضع السجود . ثم يخرجه الله من النار بالشفاعة . ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فبين أن مدار الأمر كله : على تحقيق كلمة الإخلاص ، وهى « لا إله إلا الله » لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم ، كما ظنه الجاهليون .

وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

ما كان يقول صلى الله عليه وسلم فى الرفع من الركوع

والمقصود هنا : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين « الحمد » الذى هو رأس الشكر ، و بين « التوحيـد والاستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء مابينها ، وملء ماشئت من شيء بعد . أهلَ الثناء والمجد . أحق ماقال العبد — وكلنا لك — : لامانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ثم يقول « اللهم طهرنى بالثلج والبرد ، والماء البارد . اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » كما رواه مسلم فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم —إذا رفع رأسه من الركوع— قال : اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ماشئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ماقال العبد — وكلنا لك عبد — لامانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — إذا رفع رأسه من الركوع — قال : سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ماشئت من شيء بعد . اللهم طهرنى بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ » .

وقد روى مسلم فى صحيحه أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « اللهم لك الحمد » وقال « وملء الأرض ، وملء مابينهما » .

ولم يذكر فى بعض الروايات . لأن « السموات والأرض » قد يراد بهما : العلو والسفل مطلقاً . فيدخل فى ذلك الهواء وغيره . فإنه عال بالنسبة إلى ماتحته ، وسافل بالنسبة إلى مافوقه . فقد يُجعل من السماء ، كما يجعل السحاب سماء ، والسقف سماء . وكذا قال فى القرآن (٥٧ : ٤ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة

أيام ثم استوى على العرش) ولم يقل « وما بينهما » كما يقول (١٠ : ٣ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش . ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع) .

فتارة يذكر قوله « وما بينهما » فيما خلقه فى ستة أيام . وتارة لا يذكره . وهو مراد . فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكره دخل فى لفظ « السموات والأرض » ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم تارة يقول « ملء السموات وملء الأرض » ولا يقول « وما بينهما » وتارة يقول « وما بينهما » وفيها كلها « وملء ما شئت من شيء بعد » وفى رواية أبى سعيد « أحق ما قال العبد » إلى آخره . وفى رواية ابن أبى أوفى « الدعاء بالطهارة من الذنوب » .

فى الحمد رأس الشكر والاستغفار

فى هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فإن ربنا غفور شكور . فالحمد بإزاء النعمة . والاستغفار : بإزاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى (٤ : ٧٩ ماأصابك من حسنة فمن الله ، وماأصابك من سيئة فمن نفسك) .

فى سيد الاستغفار « أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبى » وفى حديث أبى سعيد « الحمد رأس الشكر ، والتوحيد » كما جمع بينهما فى أم القرآن . فأولها : تحميد ، وأوسطها : توحيد ، وآخرها : دعاء . وكما فى قوله (٤٠ : ٦٥ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين) .

وفى حديث الموطأ « أفضل ما قلت ، أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . وهو على كل شيء قدير . من قالها : كتب الله له ألف حسنة . وحط عنه ألف سيئة . وكانت له حِرْزاً من الشيطان يومه ذلك . ولم يأت أحد ، بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه .

ومن قال فى يوم مائة مرة : سبحان الله و بحمده ، حُطَّتْ خطاياه ، ولو كانت مثل زَبَد البحر » .

فضائل وأدعية

وفضائل هذه الـكلمات فى أحاديث كثيرة . وفيها : التوحيد والتحميد .

فقوله « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » توحيد . وقوله « له الملك وله الحمد » تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد ، والتحميد ، والاستغفار ، فى مواضع . مثل حديث كفارة المجلس « سبحانك اللهم و بحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك » فيه : التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار . من قالها فى مجلس ، إن كان مجلس لغط ، كانت كفارة له ، و إن كان مجلس ذكر : كانت كالطابع له . وفى حديث أيضاً « إن هذا يقال عقب الوضوء » .

ففى الحديث الصحيح فى مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » وفى حديث آخر أنه يقول « سبحانك اللهم و بحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

وقد روى عن طائفة من السلف ، فى الـكلمات التى تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الـكلمات .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك و بحمدك . رب إنى ظلمت نفسى ، فاغفر لى . إنك خير الغافرين » « اللهم لا إله إلا أنت . سبحانك و بحمدك . رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى . فأنت خير الراحمين » «لا إله

إلا أنت . سبحانك و بحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فتب عليَّ . إنك أنت التواب الرحيم » .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء : فيهـا التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار .

فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله . فإنه لايأتى بالحسنات إلا هو .

والاستغفار : من ذنوب النفس ، التى منها تأتى السيئات .

وقد قرن الله فى كتابه بين التوحيـد ، والاستغفار فى غير موضع . كقوله (٤٧ : ١٩ فاعلم أنه لاإله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وفى قوله (١١ : ٢ أن لا تعبدوا إلا الله . إننى لـكم منه نذير و بشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) وفى قوله (٤١ : ٦ قل إنما أنا بشر مثلـكم يوحى إلىَّ أنمـا إلهـكم إلهٌ واحدٌ . فاستقيموا إليه ، واستغفروه) .

وفى حديث رواه ابن أبى عاصم وغيره « يقول الشيطان : أهلـكت الناس بالذنوب ، وأهلـكونى بالاستغفار ؛ و بلاإله إلا الله . فلما رأيت ذلك بَثَثْتُ فيهم الأهواء . فهم يذنبون ولا يستغفرون . لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

ما تقتضيه « لا إله إلا الله »

و « لا إله إلا الله » تقتضى الإخلاص والتوكل . والإخلاص : الشـكر . فهى أفضل الـكلام . وهى أعلى شعب الإيمـان . كما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال « الإيمان بضع وستون ـ أو بِضْع وسبعون ـ شُعبة . أعلاها : قول لاإله إلا الله . وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

ف « لا إله إلا الله » هى قطب رحى الإيمان ، و إليها يرجع الأمر كله .

والـكتب المنزلة : مجموعة فى قوله تعـالى (إياك نعبد و إياك نستعين) وهى

معنى « لا إله إلا الله » و « لا حول ولا قوة إلا بالله » هى من معنى « لا إله إلا الله » و « الحمد لله » فى معناها ، و « سبحان الله ، والله أكبر » من معناها . لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

فصل

وقد ظن بعض المتأخرين : أن معنى قوله « فمن نفسك » أى أفمن نفسك ؟ وأنه استفهام ، على سبيل الإنكار . ومعنى كلامه : إن الحسنات والسيئات ، كلها من الله ، لامن نفسك .

وهذا القول يباين معنى الآية . فإن الآية بينت أن السيئات من نفس الإنسان . أى بذنو به . وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه .

وممن ذكر ذلك : أبو بكر بن فَوْرك . فإنه قال : معناه : أفمن نفسك ؟ يدل عليه قول الشاعر :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بَهْرًا عدد الرمل والحصى والتراب

قلت : و إضمار الاستفهام — إذا دل عليه الكلام — لا يقتضى جواز إضماره فى الخبر المخصوص من غير دلالة . فإن هذا يناقض المقصود . و يستلزم أن كل من أراد أن ينفى ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يُقَدِّر فى خبره استفهاماً . و يجعله استفهام إنكار .

وهذا من جهة العربية نظير مازعمه بعضهم فى قول إبراهيم عليه السلام « ٦ : ٧٦ هذا ربى » أهذا ربى ؟ .

قال ابن الإنبارى : هذا القول شاذ . لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذا كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله (٢١ : ٣٤ أفإن مِتَّ فهم الخالدون ؟) .

وهذا لاحجة فيه . لأنه قد تقدم الاستفهام فى أول الجملة ، فى الجملة الشرطية (٢١ : ٣٤ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) فلم يحتج إلى ذكره ثانية . بل ذكره

يفسد الكلام . ومثله قوله (٣ : ١٤٤ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟) وقوله (٢ : ٨٧ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟) وقوله (٢ : ١٠٠ أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟) وهذا من فصيح الكلام وبليغه . واستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدرى ، وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر ، أم بثمان ؟

وقوله :

كذبتك عينك، أم رأيت بواسط غلسَ الظلام من الرباب خيالا ؟

تقديره : أكذبتك عينك ؟ .

وهذا لا حجة فيه . لأن قوله فيما يُعَد « أم بثمان » و « أم رأيت » يدل على الألف المحذوفة فى البيت الأول . وأما الثانى : فإن كانت « أم » هى المتصلة ، فكذلك . وإن كانت هى المنفصلة . فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم : أن النفس لا تأثير لها فى وجود السيئات . وليست سبباً فيها . بل قد يقولون : إن المعاصى علامة محضة على العقوبة ، لاقترانها بها . لا أنها سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وللعقل .

والقرآن يبين فى غير موضع : أن الله لم يُهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب . فقال هنا (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقال لهم فى شأن أُحد (٣ : ١٦٥ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أنَّى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم) وقال تعالى (٤٢ : ٣٠ وما أصابتكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . ويعفو عن كثير) وقال تعالى فى سورة الشورى أيضاً (٤٢ : ٤٨ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) وقال تعالى (١٠ : ٥٠ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً . ماذا يستعجل منه المجرمون ؟) وقال تعالى (٣٦ : ٢٠٨ ، ٢٠٩ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى . وما كنا ظالمين) وقال تعالى (٢٨ : ٥٩ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم

آياتنا . وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) وقال تعـالى (٣٠ : ٤١ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عملوا . لعلهم يرجعون) وقال تعـالى (٣٢ : ٢١ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر . لعلهم يرجعون) وقال تعالى (٤٢ : ٣٤ أو يُوبِقْهُنَّ بما كسبوا . و يعفو عن كثير) وقال تعالى فى سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لمـا أهلـكها بذلك العذاب (٦٨ : ٣٣ ولعـذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) وقال تعـالى (٣ : ١١٧ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيه صِرٌّ أصابت حَرْث قوم ظلموا أنفسهم فأهلـكته . وما ظلمهم الله . ولـكن أنفسهم يظلمون) وقال تعالى عن أهل سبأ (٣٤ : ١٦، ١٧ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْل العَرِم — إلى قوله — ذلك جزيناهم بما كفروا . وهل نجازى إلا الـكفور ؟) وقال تعالى (١١ : ١٠٢ وكذلك أَخْذُ ر بك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . إن أَخْذَه أليم شديد) وقال تعالى (١٧ : ١٥ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)

وفى الحديث الصحيح الإلٰهى « يا عبادى ، إنما هى أعمالـكم أحصيها عليـكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً : فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك : فلا يلومن إلا نفسه » .

وفى سيد الاستغفار « أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى » وقال تعـالى (٥٢ : ٤٧ و إن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك . ولـكن أكثرهم لايعلمون) .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على عبد الله ورسوله محمد وآله وصحبه وسـلم . ورضى الله عن الصحـابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

الطـــلاق الثلاث

وما يترتب عليــه

من درر

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه وأرضاه :

هل يحل لمن طلق امرأته ثلاثاً أن يراجعها بدون نكاح زوج ثان ؟ وما هو هذا النكاح ؟ وهل نكاح المحلل يعتبر فى الشرع نكاحاً تحل به لزوجها الأول ؟.

أجاب رضى الله عنه :

الحمد لله رب العالمين .

إذا وقع بالمرأة الطلاق الثلاث : فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، بالكتاب والسنة ، و إجماع الأمة . ولم يقل أحد من علماء المسلمين : إنها تباح بعد وقوع الطلاق الثلاث بدون زوج ثانٍ . ومن نقل هذا عن أحد منهم فقد كذب.

ومن قال ذلك ، واستحل وطئها ، بعد وقوع الطلاق الثلاث بدون نكاح رغبة صحيح ، وزوج ثان : فإن كان جاهلا يعذر بجهله ــ مثل أن يكون قد نشأ فى ناس ومكان لايعرفون فيه شرائع الإسلام ، أو يكون حديث عهد بالإسلام ، ونحو ذلك ــ فإنه يُعَرَّف دين الإسلام. فإن أصرّ على القول بأنها تباح ، بعد وقوع الثلاث ، بدون نكاح ثانٍ ، وعلى استحلال هذا الفعل : فإنه يستتاب . فإن تاب ، وإلا قتل ، كأمثاله من المرتدين الذين يجحدون وجوب الواجبات ، وتحريم المحرمات ، وحل المباحات ، التى علم ضرورة : أنها من دين الإسلام . وثبت ذلك بنقل الأمة المتواتر عن نبيها عليه أفضل الصلاة والسلام . وظهر ذلك بين الخاص والعام . كمن يجحد وجوب مبانى الإسلام : من الشهادتين ، والصلوات الخمس . وصيام شهر رمضان . وحج البيت الحرام . أو يجحد تحريم الظلم وأنواعه : كالربا ، والميسر . أو تحريم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن . وما يدخل فى ذلك : من تحريم نكاح الأقارب ، سوى بنات العمومة والخؤولة . وتحريم المحرمات

بالمصاهرة . وهن أمهات النسـاء و بناتهن ، وحلائل الآباء والأبناء ، ونحو ذلك من المحرمات . أوحل الخبز واللحم ، والنـكاح واللباس ، وغير ذلك ممـا علمت إباحته بالاضطرار من دين الإسلام .

فهذه المسائل لم يتنازع فيها المسلمون : لا سُنِّيُّهم ، ولا بِدعيُّهم .

ولـكن تنازعوا فى مسائل كثيرة من مسائل الطلاق والنـكاح . وغير ذلك من الأحكام ، كتنازع الصحابة ـ والفقهاء بعدهم ـ فى لفظة « الحرام » هل هى طلاق ، أو يمين ، أو غير ذلك ؟ .

وكتنازعهم فى الـكنايات الظاهرة : كالخَلِيَّة ، والبَرِيَّة ، والْبَتَّة : هل يقع بها واحدة رجعية ، أو بائن ، أو ثلاث ، أو يفرق بين حال وحال ؟

وكتنازعهم فى المُولِى : هل يقع بإيلائه الطلاق عند انقضاء المدة ، إذا لم يَفِىء فيها ، أم يوقف إلى ما بعد انقضائها ، حتى يفىء أو يطلق ؟

وكتنازع العلماء فى طلاق السكران والمـكره . وفى الطلاق بالخط . وطلاق الصبى المميز . وطلاق الأب على ابنه . وطلاق الحـكَم الذى هو من أهل الزوج بدون توكيله . كما تنازعوا فى بذل أجر العوض فى الخلع بدون توكيلها . وغير ذلك من المسائل التى يعرفها العلماء .

وتنازعوا أيضاً فى مسائل تعليق الطلاق بالشرط . ومسائل الحلف بالطلاق والعتاق ، والظهار ، والحرام ، والنذر . كقوله : إن فعلت كذا فعلىّ الحج ، أو صوم شهر ، أو الصدقة بألفٍ .

وتنازعوا أيضاً فى كثير من مسائل الأيمان مطلقاً فى موجب اليمين .

وهذا كتنازعهم فى تعليق الطلاق بالنـكاح . هل يقع أو لا يقع ؟ أو يفرق بين العموم والخصوص ؟ أو بين ما يكون فيه مقصود شرعى ، أو ليس فيه ؟ و بين أن يقع فى نوع مِلكٍ ، أو فى غير مِلكٍ ؟

وتنازعوا فى الطلاق المعلق بالشرط بعد النكاح : على ثلاثة أقوال .

فقيل : يقع مطلقا . وقيل : لا يقع . وقيل : يفرق بين الشرط الذى يقصد وقوع الطلاق عند وجوده . و بين الشرط الذى يقصد عدمه وعدم الطلاق عنده .

فالأول ، كقوله : إن أعطيتينى ألفاً فأنت طالق . والثانى كقوله : إن فعلت كذا فعبيدى أحرار ، ونسائي طوالق ، وعلىّ الحج .

وأما النذر المعلق بالشرط : فاتفقوا على أنه : إذا كان مقصوده وجود الشرط ، كقوله : إن شفى الله مريضى ، أو سَلَّمَ مالى الغائب ، فعلىّ صوم شهر ، أو الصدقة بمائة : أنه يلزمه .

وتنازعوا فيما إذا لم يكن مقصوده وجود الشرط ، بل مقصوده عدم الشرط ، وهو حالف بالنذر . كما إذا قال : لا أسافر ، و إن سافرت فعلىّ الصوم ، أو الحج ، أو الصدقة ، أو علىّ عتق رقبة ، ونحو ذلك : على ثلاثه أقوال .

فالصحابة وجمهور السلف : على أنه يجزئه كفارة يمين . وهو مذهب الشافعى وأحمد . وهو آخر الروايتين عن أبى حنيفة . وقول طائفة من المالكية ، كابن وهب ، وابن أبى الغمر وغيرهما .

وهل يتعين ذلك ، أم يجزئه الوفاء ؟ على قولين فى مذهب الشافعى وأحمد .

وقيل : عليه الوفاء . كقول مالك ، و إحدى الروايتين عن أبى حنيفة . وحكاه بعض المتأخرين : قولا للشافعى . ولا أصل له فى كلامه .

وقيل : لا شىء عليه بحال . كقول طائفة من التابعين . وهو قول داود وابن حزم .

وهكذا تنازعوا ــ على هذه الأقوال الثلاثة ــ فيمن حلف بالعتاق ، أو الطلاق : أن لا يفعل شيئاً . كقوله : إن فعلت كذا فعبدى حر ، أو امرأتى طالق . هل يقع ذلك إذا حنث ، أو تجزئه كفارة يمين ، أو لا شىء عليه ؟ على ثلاثة أقوال . ومنهم من فرّق بين الطلاق والعتاق .

واتفقوا على أنه إذا قال : إن فعلت كذا فعلىّ أن أطلّقَ امرأتى : لا يقع به

الطلاق . بل ولايجب عليه أن يفعله ، إذا لم يكن قربة . ولـكن هل عليه كفارة يمين ؟ على قولين .

أحدهما : يجب عليه كفارة يمين . وهو مذهب أحمد فى المشهور عنه . ومذهب أبى حنيفة فيما حكاه ابن المنذر ، والخطابى ، وابن عبد البر ، وغيرهم . وهو الذى وصل إلينا فى كتب أصحابه .

وحكى القاضى أبو يعلي وغيره عنه : أنه لا كفارة فيه .

والثانى : لا شىء عليه . وهو مذهب الشافعى .

فصـــل

وأما إذا قال : إن فعلته فعليّ إذاً عتق عبدى . فاتفقوا على أنه لا يقع العتق لمجرد الفعل . لـكن يجب عليه العتق . وهو مذهب مالك ، و إحدى الروايتين عن أبى حنيفة .

وقيل : لا يجب عليه شىء . وهو قول طائفة من التـابعين . وقول داود ، وابن حزم .

وقيل : عليه كفارة يمين . وهو قول الصحابة ، وجمهور التابعين . ومذهب الشافعى وأحمد . وهو مخير بين التـكفير والإعتاق ، على المشهور عنهما .

وقيل : يجب التـكفير عيناً .

ولم ينقل عن الصحابة شىء فى الحلف بالطلاق ـ فيما بلغنا ، بعد كثرة البحث وتتبع كتب المتقدمين والمتأخرين ـ بل المنقول عنهم : إما ضعيف ـ بل كذب من جهة النقل ـ و إما أن لا يكون فيه دليـل على وقوع الحلف بالطلاق . فإن الناس لم يكونوا يحلفون بالطلاق فى عهدهم . ولـكن نقل عن طـائفة منهم فى الحلف بالعتق : أنه تجزئه كفارة يمين . كما إذا قال : إن فعلت كذا فعبدى حر .

وقد نقل عن بعض هؤلاء نقيض هذا القول ، وأنه يعتق .

وقد تكلمنا على أسانيد ذلك فى غير هذا الموضع .

ومن قال من الصحابة والتابعين : إنه لا يقع العتق . فإنه لايوقع الطلاق بطريق الأولى . كما صرّح بذلك من صرّح به من التابعين .

و بعض العلماء : ظن أن الطلاق لانزاع فيه . فاضطره ذلك إلى أن عَكَس موجب الدليل . فقال : يقع الطلاق ، دون العتاق .

وقد بُسط الكلام على هذه المسائل — وُبيِّن ما فيها من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان . والأئمة الأر بعة ، وغيرهم من علماء المسلمين ، وحجة كل قول — فى غير هذا الموضع .

وتنازع العلماء : فيما إذا حلف بالله ، أو بالطلاق ، أو بالظهار ، أو الحرام ، أو النذر : أنه لا يفعل شيئاً ، ففعله ناسياً ليمينه ، أو جاهلا بأنه المحلوف عليه : فهل يحنث ؟ كقول أبى حنيفة ومالك ، وأحد القولين للشافعى ، و إحدى الروايات عن أحمد . أو لايحنث بحال ؟ كقول المكيين . والقول الآخر للشافعى ، والرواية الثانية عن أحمد . أو يفرق بين اليمين بالطلاق والعتاق وغيرها ؟ كالرواية الثالثة عن أحمد . وهو اختيار القاضى والخرقى وغيرهما من أصحاب أحمد . والقفال من أصحاب الشافعى .

وكذلك لو اعتقد : أن امرأته بانت بفعل المحلوف عليه . ثم تبين له :أنها لم تبن . ففيه قولان .

وكذلك إذا حلف بالطلاق ، أو غيره ، على شىء يعتقده كما حلف عليه ، فتبين بخلافه . ففيه ثلاثة أقوال كما ذكر .

ولو حلف على شىء يشك فيه ، ثم تبين صدقه . ففيه قولان : عند مالك يقع . وعند الأكثرين لايقع . وهو المشهور من مذهب أحمد . والمنصوص عنه فى رواية حرب : التوقف فى هذه المسألة . فيخرج على وجهين . كما إذا حلف ليفعلن اليوم كذا . ومضى اليوم ، وشك فى فعله . هل يحنث ؟ على وجهين .

واتفقوا على أنه يرجع فى اليمين إلى نية الحالف . إذا احتملها لفظه ، ولم يخالف الظاهر ، أو خالفه وكان مظلوما .

وتنازعوا : هل يرجع إلى سبب اليمين و بساطها وما يصحبها ؟ على قولين . فمذهب المدنيين ـ كمالك وأحمد وغيره ـ أنه يرجع إلى ذلك . والمعروف فى مذهب أبى حنيفة والشافعى : أنه لايرجع . لـكن فى مسائلهما ما يقتضى خلاف ذلك . و إن كان السبب أعم من اليمين : عمل به عنـد من يرى السبب . و إن كان خاصاً : فهل يقصر اليمين عليه ؟ فيه قولان فى مذهب أحمد وغيره .

و إن حلف على معين يعتقده على صفة ، فتبين خلافها : ففيه أيضاً قولان .

وكذلك لو طلق امرأته لصفة . ثم تبين بخلافها . مثل أن يقول : أنت طالق أَن دخلت الدار ـ بالفتح ـ أى لأجل دخولك الدار ، ولم تـكن دخلت : فهل يقع به الطلاق ؟ على قولين فى مذهب أحمد وغيره . وكذلك إذا قال : أنت طالق لأنك فعلت كذا ، ونحو ذلك . ولم تـكن فعلته .

ولو قيل له : امرأتك فَعلتْ كذا . فقال : هى طالق . ثم تبين أنهم كذبوا عليها . ففيه قولان .

الطلاق فى الحيض ، و بلفظ « الثلاث » ولفظ « الحرام »

وتنازع الناس فى الطلاق المحرم ، كالطلاق فى الحيض . وكجمع الثلاث عند الجمهور الذين يقولون : إنها حرام . ولـكن الأر بعة وجمهور العلماء يقولون : كونه حراماً لا يمنع وقوعه . كما أن الظهار محرم ، و إذا ظاهر : ثبت عليه حكم الظهار . وكذلك النذر : قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عنه . ومع هذا يجب عليه الوفاء به بالنص والإجماع .

والذين قالوا : لايقع ، اعتقدوا أن كل مانهى الله تعالى عنه فإنه يقع فاسداً . لا يترتب عليه حكمه .

والجمهور : فرقوا بين أن يكون الحكم نعمة لاتناسب فعل المحرم ، كحل الأموال ، والأبضاع ، و إجزاء العبادات . و بين أن يكون عقوبة تناسب فعل المحرم ، كالأيمان والتحريم . فإن المنهى عن شىء ، إذا فعله : قد يلزمه بفعله كفارة ، أو حَدّ ، أو غير ذلك من العقوبات .

فكذلك قد ينهى عن فعل شىء . فإذا فعله : لزمه به واجبات ومحرمات . ولكن لا ينهى عن شىء إذا فعله : أحلت له ـ بسبب فعله المحرم ـ الطيبات ، فبرئت ذمته من الواجبات . فإن هذا من باب الإكرام والإحسان . والمحرمات لا تكون سبباً محضاً للاكرام والإحسان ، بل هى سبب للعقوبات ، إذا لم يعف الله تبارك وتعالى . كما قال تعالى (٤ : ١٦٠ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وقال تعالى (٦ : ١٤٦ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظُفُر ـ إلى قوله تبارك وتعالى ـ ذلك جزيناهم ببغيهم) .

وكذلك ما ذكره ربنا سبحانه وتعالى فى قصة البقرة ، من كثرة لجاجتهم وتنطعهم فى سؤالهم ، وتوقفهم عن امتثال أمره : فقد كان سبباً لزيادة التشديد عليهم فيما أوجب . ومنه قوله تعالى (٥ : ١٠١ لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكم) .

وحديث النبى صلى الله عليه وسلم « إن أعظم المسلمين فى المسلمين جُرْماً : من سأل عن شىء لم يحرم ، فحرم من أجل مسألته » .

ولما سألوه عن الحج « أفى كل عام ؟ قال : لا . ولو قلت : نعم لوجب . ولو وجب لم تطيقوه . ذرونى ، ما تركتكم . فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه . و إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » .

ومن هنا قال طائفة من العلماء : إن الطلاق الثلاث حرمت به المرأة ، عقوبة للرجل حتى لا يطلق هذا الطلاق . فإن الله يبغض الطلاق . و إنما تأمر به الشياطين

والسحرة ، كما قال تعالى فى السحر (٢ : ١٠٢ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الشيطان ينصب عرشه على البحر . ويبعث جنوده ، فأقربهم إليه منزلة : أعظمهم فتنة . فيأتى أحدُهم ، فيقول : ما زلتُ به حتى شرب الخمر . فيقول : الساعةَ يتوب . ويأتى الآخر ، فيقول : ما زلت به حتى فعل كذا وكذا . فيقول : الساعة يتوب . ويأتى الآخر ، فيقول : ما زلت به حتى فرقت بينه و بين امرأته . فيقبله بين عينيه ، ويقول : أنتَ ، أنتَ » .

حكمة قصر الطلاق على ثلاث

وقد روى أهل التفسير والحديث والفقه : أنهم كانوا فى أول الإسلام يطلقون بغير عدد . يطلق الرجل المرأة . ثم يدعها ، حتى إذا شارفت انقضاء العدة راجعها . ثم يطلقها ضِراراً . فقصَرهم الله على الطلقات الثلاث . فإن الثلاث أول حدّ الكثرة ، وآخر حدّ القلة .

ولولا أن الحاجة داعية إلى الطلاق : لكان الدليل يقتضى تحريمه ، كما دلت عليه الآثار والأصول . ولكن الله تعالى أباحه رحمة منه بعباده ، لحاجتهم إليه أحيانا . وحرمه فى مواضع باتفاق العلماء . كما إذا طلقها فى الحيض ، ولم تكن سألته الطلاق . فإن هذا الطلاق حرام باتفاق العلماء . والله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بأفضل الشرائع ، وهى الحنيفية السمحة . كما قال صلى الله عليه وسلم «أحب الدين إلى الله : الحنيفية السمحة» فأباح لعباده المؤمنين الوطء بالنكاح والوطء بملك اليمين .

واليهود والنصارى : لايطأون إلا بالنكاح . لايطأون بملك اليمين .

وأصل ابتداء الرق : إنما يقع من السبى والغنائم . والغنائم لم تحل إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . كما ثبت فى الحديث الصحيح : أنه قال « فُضِّلنا على الأنبياء بخمس : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لى الأرض مسجداً

وطهورا . وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد كان قبلنا . وكان النبى يبعث إلى قومه خاصةً ، و بعثتُ إلى الناس عامة . وأُعْطِيت الشفاعة » .

فأباح الله سبحانه للمؤمنين أن ينكحوا ، وأن يطلقوا ، وأن يتزوجوا المرأة المطلقة ، بعد أن تتزوج بغير زوجها .

والنصارى يحرمون النكاح على بعضهم . ومن أباحوا له النكاح : لم يبيحوا له الطلاق .

واليهود يبيحون الطلاق . لكن إذا تزوجت المطلقة بغير زوجها : حرمت عليه عندهم .

والنصارى لا طلاق عندهم . واليهود لا مُراجَعة عندهم ، بعد أن تتزوج غيره . والله تعالى أباح للمؤمن هذا وهذا .

ولو أبيح الطلاق بغير عدد ـ كما كان فى أول الأمر ـ كان الناس يطلقون دائما ، إذ لم يكن أمر يزجرهم عن الطلاق : ففى ذلك من الضرر والفساد ما أوجب تحريم ذلك .

ولم يكن فساد الطلاق لمجرد حق المرأة فقط ، كالطلاق فى الحيض ، حتى يباح دائما بسؤالها . بل نفس الطلاق ، إذا لم تدع إليه الحاجة : منهى عنه باتفاق العلماء ، إما نهى تحريم ، وإما نهى تنزيه .

وما كان مباحاً للحاجة : يقدر بقدر الحاجة . والثلاث : هى مقدار ما أبيح للحاجة . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال . يلتقيان ، فيُعرض هذا ، و يُعرض هذا . وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .

وكما قال « لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر : أن تُحِدّ على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوج . فإنها تُحِدّ عليه أربعة أشهر وعشرا » .

وكما رخص للمهاجر : أن يقيم بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا .

وهذه الأحاديث فى الصحيح . وهذا مما احتج به من لايرى وقوع الطلاق

إلا مع القصد . ولا يرى وقوع طلاق المكره . كما لا يكفر من تكلم بكلمة من الكفر مكرهاً ، بالنص والإجماع . ولو تكلم بالكفر مستهزئاً بآيات الله . و بالله ورسوله : كفر . كذلك من تكلم بالطلاق هازلاً : وقع به(1) .

ولو حلف بالكفر ، فقال : إن فعل كذا فهو برىء من الله ورسوله . أو فهو يهودى أو نصرانى : لم يكفر بفعل المحلوف عليه ، و إن كان هذا حكماً معلقاً بشرط فى اللفظ . لأن مقصوده الحلف به ، بغضاً له ونفوراً عنه . لا إرادةً له . بخلاف من قال : إن أعطيتمونى ألفاً كفرت . فإن هذا يكفر .

وهكذا يقول من يفرق بين الحلف بالطلاق وتعليقه بشرط لايقصد وجوده . و بين الطلاق المقصود عند وقوع الشرط .

هل الخلع فسخ أو طلاق ؟

ولهذا ذهب كثير من السلف والخلف إلى أن الخلع فسخ للنكاح . وليس هو من الطلقات الثلاث . كقول ابن عباس . والشافعى وأحمد ، فى أحد قوليهما . لأن المرأة افتدت نفسها من الزوج ، كافتداء الأسير . ليس هو من الطلاق المكروه فى الأصل . ولهذا يباح فى الحيض ، بخلاف الطلاق .

وأما إذا عدل هو عن الخلع ، وطلقها إحدى الثلاث بعوض : فالتفريط منه .

وذهب طائفة من السلف ـ كعثمان بن عفان وغيره ـ إلى أنه لايجب فى الخلع عدة إلا استبراؤها . وهو مذهب إسحاق وغيره . ورووا فى ذلك حديثاً مرفوعاً . و بعض المتأخرين من أصحاب الشافعى وأحمد : جعلوه مع الأجنبى فسخاً كالإقالة .

والصواب : أنه مع الأجنبى كما هو مع المرأة . فإنه إذا كان افتداء للمرأة ، كما يفتدى الأسير ، فقد يفتدى الأسير بمال منه و بمال من غيره . وكذلك العبد

---

(1) لاسواء . فإنما كفر لاتخاذه آيات الله هزؤا . وإذا هزل أو سخر بقول لا يقصده ولا يخطر له معناه على بال . فما بال الزوجة والأولاد والزوجية التى لا غبار عليها تفصم عراها ؟ وهل ما يروى فى هذا من القوة والثبوت بحيث يقوى على فصمها ؟ !

يعتق بمال يبذله هو ، و بمـال يبذله الأجنبي . وكذلك الصلح يصح مع المدعى عليه ، ومع أجنبي . فإن هذا جميعه من باب الإسقاط والإزالة .

و إذا كان الخلع رفعاً للنكاح ، وليس هو من الطلاق الثلاث : فلا فرق بين أن يكون المال المبذول من المرأة ، أو من أجنبي .

وتشبيه فسخ النكاح بفسخ البيع : فيه نظر . فإن البيع لا يزول إلا برضى المتبايعين . لا يستقل أحدهما بإزالته ، بخلاف النكاح . فإن المرأة ليس لهـا إزالته . بل الزوج يستقل بذلك . لـكن افتداؤها نفسها منه كافتداء الأجنبي لها .

ومسائل الطلاق ، وما فيها من الإجماع والنزاع : مبسوطة فى غير هذا الموضع .

* * *

والمقصود هنا : أنه إذا وقع به الثلاث : حرمت عليه المرأة بإجماع المسلمين . كما دل عليه الـكتاب والسنة . ولا تبـاح له إلا بنكاح ثانٍ مقصود به قصد النكاح الأول ، و بوطئه لها ، عند عامة السلف والخلف . فإن النـكاح المأمور به : يؤمر فيه بالعقد و بالوطء ، بخلاف المنهى عنه . فإنه نهى فيه عن كُلٍّ من العقد والوطء . ولهـذا كان النكاح الواجب والمستحب : يؤمر فيه بالوطء مع العقد . والنـكاح المحرم : يحرم فيه مجرد العقد .

وقد ثبت فى الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال لامرأة رفاعة القُرَظى ـ لما أرادت أن ترجع إلى رفاعة بدون الوطء ـ لا ، حتى تذوقى عُسيلته ، و يذوق عسيلتك » .

وليس فى هذا خلاف إلا عن سعيد بن المسيب ، فإنه ـ مع أنه أعلم التابعين ـ لم تبلغه السُنة فى هذه المسألة .

والنـكاح المبيح : هو النـكاح المعروف عند المسلمين . وهو النـكاح الذى جعل الله فيه بين الزوجين سكونا ومودة ورحمة . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه « حتى تذوقى عسيلته ، و يذوق عسيلتك » .

فأما نكاح المحلِّل : فإنه لا يحلها للأول عند جماهير السلف .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله المحلِّلَ والمحلَّل له » وقال عمر بن الخطاب « لا أوتَى بمحَلِّل ولا محلَل له إلا رجمتهما » .

وكذلك قال عثمان ، وعلي ، وابن عباس ، وابن عمر رضى الله عنهم وغيرهم « إنه لا يبيحها إلا نكاح رغبة ، لا نكاح تحليل » ولم يُعرف عن أحد من الصحابة : أنه رخص فى نكاح التحليل .

ولكن تنازعوا فى نكاح «المتعة» فإن نكاح المتعة خير من نكاح التحليل من ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه كان مباحاً فى أول الإسلام ، بخلاف التحليل .

الثانى : أنه رخص فيه ابن عباس ، وطائفة من السلف ، بخلاف التحليل . فإنه لم يرخص فيه أحد من الصحابة .

الثالث : أن المتمتع له رغبة فى المرأة ، وللمرأة رغبة فيه إلى أجل . بخلاف المحلل . فإن المرأة ليس لها رغبة فيه بحال . وهو ليس له رغبة فيها كذلك . بل رغبته فى أخذ ما يُعطاه . و إن كان له رغبة : فهى من رغبته فى الوطء ، وقضاء الشهوة فقط ، لا فى اتخاذها زوجةً . فهى رغبة من جنس رغبة الزانى . ولهذا قال ابن عمر « لا يزالان زانيين ، و إن مكثا عشرين سنة . إذا اللهُ علم من قلبه : أنه يريد أن يحلها له » ولهذا انعدمت فيه خصائص النكاح . فإن النكاح المعروف : كما قال الله تعالى (٣٠ : ٢١ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها . وجعل بينكم مودةً ورحمة) والتحليل فيه : البغضة والنفرة ولهذا لا يظهره أصحابه . بل يكتمونه ما استطاعوا كما يُكتم السِّفاح .

ومن شعائر النكاح : إعلانه . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أعلنوا النكاح ، واضربوا عليه بالدُّف » ولهذا يكفى فى إعلانه : الشهادة عليه . عند طائفة من العلماء . وطائفة أخرى : توجب الإشهاد والإعلان . فإذا تواصَوا بكتمانه : بطل

ومن ذلك : الوليمة عليه ، والنثار ، والطيب ، والشراب . ونحو ذلك مما جرت به عادة الناس فى النكاح .

وأما التحليل : فإنه لايفعل فيه شىء من هذا . لأن أهله لم يريدوا أن يكون المحلل زوج المرأة . ولا أن تكون المرأة زوجه . وإنما المقصود عندهم : استعارته لينزو عليها . كما جاء فى الحديث المرفوع : تسميته « بالتيس المستعار » ولهذا شبّه بحمار العشريين ، الذى يكترى للتقفيز على الإناث . ولهذا لاتبقى المرأة مع زوجها إذا عادت إليه بعد التحليل كما كانت قبله . بل لا بد أن يحصل بينهما نوع من النفرة . ولهذا لم يكن فى التحليل مقصود صحيح يأمر به الشارع . وصار الشيطان يشبه فيه بأشياء مخالفة للاجماع ، بل للفطرة .

فصار طائفة من عامة الناس : يظنون أن ولادتها لذكر يحلها ، أو أن وطئها بالرِّجْل على قدمها ، أو رأسها ، أو فوق سقفٍ ، أو سُلّمٍ هى تحته : يحلها .

ومنهم : من يظن أنهما إذا التقيا بعرفات ، كما التقى آدم وامرأته : أحلها ذلك

ومنهن : من إذا تزوجت بالمحلل : لم تمكنه من نفسها . بل تمكنه من أَمَةٍ لها .

ومنهن : من تعطيه شيئاً ، وتوصيه بأن يقرّ بوطئها .

ومنهم : من يحلل الأم و بنتها . إلى أمور أُخر ، قد بسطت فى غير هذا الموضع بيناها فى كتاب « بيان الدليل على بطلان التحليل » .

ولا ريب : أن المنسوخ من الشريعة ، وما تنازع فيه السلف : خير من مثل هذا . فإنه لو قدر أن الشريعة تأتى بأن الطلاق لا عدد له : لكان هذا ممكناً . وإن كان هذا منسوخا .

وأما إن يقال : إن من طلق امرأته : فإنها لا تحل له حتى يستكرى أو تستكترى هى من يطؤها ، فهذا لا تأتى به شريعة .

وكثير من أهل التحليل يفعلون أشياء محرمة باتفاق المسلمين . فإن المرأة المعتدة:

لا يحل لغير زوجها أن يصرّح بخطبتها . سـواء كانت معتدة من عدة طلاق ، أو عدة وفاة . قال تعالى (٢ : ٢٣٥ ولاجناح عليكم فيما عَرَّضتم به من خِطْبة النساء أو أَكْنَنْتُم فى أنفسكم . علم الله أنـكم ستذكرونهن . ولـكن لا تواعدونهن سراً ، إلا أن تقولوا قولا معروفا . ولا تعزموا عُقْدَة النكاح حتى يبلغ الـكتاب أجله) .

فنهى الله سبحانه وتعالى عن المواعدة سراً ، وعن عزم عقدة النكاح حتى يبلغ الـكتاب أجله . وإذا كان هذا فى عدة الموت : فهو فى عدة الطلاق أشـد باتفاق المسلمين . فإن المطلقة قد ترجع إلى زوجها بخلاف من مات عنها .

وأما التعريض : فإنه يجوز فى عدة المتوفى عنهـا ، ولا يجوز فى عدة المطلقة الرجعية . وفيما سواهما نزاع .

فهذه المطلقة ثلاثاً : لاتحل لأحد أن يواعدها سراً ، ولا يعزم عقدة النـكاح حتى يبلغ الـكتاب أجله باتفاق المسلمين .

و إذا تزوجت بزوج ثان ، وطلقها ثلاثاً : لم يحل للأول أن يواعدها سراً . ولايعزم عقدة النكاح حتى يبلغ الـكتاب أجله ، باتفاق المسلمين . وذلك أشد وأشد

و إذا كانت مع زوجها : لم يحل لأحد أن يخطبها ، لا تصريحاً ولا تعريضاً باتفاق المسلمين . فإذا كانت لم تتزوج بعدُ : لم يحل للمطلق ثلاثاً أن يخطبهـا ، لا تصريحاً ولا تعريضاً باتفاق المسلمين .

وخِطْبتها فى هذه الحال : أعظم من خطبتها بعد أن تتزوج بالثانى . وهو أن أهل التحليل : قد يواعد أحدهم المطلقة ثلاثاً و يعزمان ــ قبل أن تنقضى عدتها . وقبل نـكاح الثانى ــ على عقدة النـكاح ، بعد النكاح الثانى ــ نكاح المحلل ــ و يعطيها ما تنفقه على شهود عقد التحليل والمحلل . وما تنفقه على نفسها عليها فى عدة التحليل . والزوج المحلل لا يعطيها مهراً ولا نفقة عدة ولا متعة طلاق .

فإن كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز فى عدة نكاحها بالثانى : أن يخطبها الأول ، لا تصريحاً ولا تعريضا . فكيف إذا خطبها قبل أن تتزوج بالثانى ؟ .

و إذا كان بعد أن يطلقها الثانى : لا يحل للأول أن يواعدها سراً ، ولا أن يعزم عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله . فكيف إذا فعل ذلك من قبل أن تطلق ؟ بل قبل أن تتزوج ؟ بل قبل أن تنقضى عدتها منه ؟

فهذا كله : يحرم باتفاق المسلمين . وكثير من أهل التحليل يفعله .

وليس فى التحليل صورة اتفق المسلمون على حلها . ولا صورة أباحها النص .

بل من صور التحليل : ما أجمع المسلمون على تحريمه .

ومنها ما تنازع فيه العلماء .

وأما الصحابة : فلم يثبت عن أحد منهم : أنه أباح شيئاً من صور التحليل .

وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه « لعن المحلل والمحلل له » .

وهذا ــ وغيره ــ يبين : أن من التحليل ماهو شر من نكاح المتعة وغيره من الأنكحة التى تنازع فيها السلف .

وعلى كل حال : فالصحابة أفضل هذه الأمة ، و بعدهم التابعون ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « خير القرون : القرن الذى بعثت فيهم . ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

فنكاح : تنازع السلف فى جوازه : أقرب من نكاح أجمع السلف على تحريمه . و إن تنازع فيه الخلف . فإن أولئك أعظم علماً وديناً .

وما اشتبه على بعضهم تحريمه : كان أمره أحق مما اتفقوا على تحريمه . و إن اشتبه تحريمه على من بعدهم . والله تعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته وسلامه على محمد وآله أجمعين .

شرع الإســـــلام فى

الفرق بين الطلاق الحلال والحرام

من درر

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

٦٦١ – ٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقى إلا بالله

قال الشيخ الإمام العالم العلامة ، شيخ الإسلام تقى الدين : أحمد بن تيمية رضى الله عنه وأرضاه . وجعل الجنة متقلبه ومثواه :

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادى له . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله . صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد ، فهذا :

فصل

مختصر فيما يحل من الطلاق وما يحرم . وهل يلزم الطلاق المحرّم ، أو لا يلزم ؟ .

فنقول : الطلاق منه ما هو محرم بالكتاب والسنة والإجماع .

ومنه ما ليس بمحرّم .

فالطلاق المباح باتفاق العلماء : أن يطلق الرجل امرأته طلقة واحدة ، إذا طهرت من حيضها ، بعد أن تغتسل ، وقبل أن يطأها . ثم يدعها ، فلا يطلقها حتى تنقضى عدتها . وهذا الطلاق : يسمى طلاق السنة . فإن أراد أن يرتجعها فى العدة فله ذلك بدون رضاها ، ولا رضى وليها ، و بلا مهر جديد . و إن تركها حتى تنقضى العدة : فعليه أن يسرحها بإحسان . فقد بانت منه .

فإن أراد أن يتزوجها ، بعد انقضاء العدة : جاز له ذلك ، لكن لابد أن يكون بعقد جديد ، كما تزوجها ابتداء ، أو يتزوجها غيره .

ثم إذا ارتجعها فى العدة ، أو تزوجها بعد العدة ، وأراد أن يطلقها : فإنه يطلقها كما تقدم .

ثم إذا ارتجعها ، أو تزوجها مرة ثانية ، وأراد أن يطلقها : فإنه يطلقها كما تقدم .

فإذا طلقها الطلقة الثالثة : حرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، كما حرم الله ذلك ورسوله . فحينئذ لا يباح له أن يتزوجها ويعقد عليها إلا عقد النكاح المعروف ، الذى يفعله الناس إذا كان الرجل راغباً فى نكاح المرأة ليعاشرها ، لا لأجل أن يفارقها .

وأما إن تزوجها بقصد أن يحلها لغيره : فإنه محرم عند أكثر العلماء ، كما نقل عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وغيرهم ، كما دل على ذلك النصوص النبوية والأدلة الشرعية .

ومن العلماء من رخص فى ذلك ، كما قد بين ذلك فى غير هذا الموضع .

وإن كانت المرأة ممن لا تحيض ، لصغرها ، أو كبرها : فإنه يطلقها متى شاء . وسواء كان وطئها أو لم يكن وطئها . فإن هذه عدتها ثلاثة أشهر . ففى أى وقت طلقها فقد طلقها لعدتها . فإنها لا تعتد بقروء ولا بحمل .

لكن من العلماء من يسمى ذلك « طلاق سنة » ومنهم من لا يسميه طلاق سنة ولا بدعة .

وإن طلقها فى الحيض ، أو طلقها بعد أن يطأها ، وقبل أن يتبين حملها : فهذا الطلاق محرم . ويسمى «طلاق البدعة» وهو حرام بالكتاب والسنة والإجماع .

وإن كان قد تبين حملها ، وأراد أن يطلقها : فله أن يطلقها . وهل يسمى هذا « طلاق سنة » أو لا يسمى طلاق سنة ولا بدعة ؟ فيه نزاع لفظى .

وهذا الطلاق المحرم فى الحيض ، وبعد الوطء ، وقبل تبين الحمل : هل يقع أو لا يقع ؟ سواء كانت واحدة ، أو ثلاثا ؟ فيه قولان معروفان للسلف والخلف .

وإن طلقها ثلاثا فى طهر واحد بكلمة أو كلمات ، مثل أن يقول : أنت طالق ثلاثا ، أو طالق وطالق وطالق ، أو أنت طالق ثم طالق ثم طالق ، أو يقول : عشر تطليقات ، أو مائة طلقة ، أو ألف طلقة ، ونحو ذلك من العبارات .

فهذا للعلماء ـ من السلف والخلف ـ فيه ثلاثة أقوال ، سواء كانت مدخولا بها أو غير مدخول بها .

ومن السلف من فرّق بين المدخول بها وغير المدخول بها .

وفيه قول رابع محدث مبتدع .

أحد الأقوال : أنه طلاق مباح لازم . وهو قول الشافعي وأحمد في الرواية القديمة عنه . اختارها الخرقى .

والثانى : أنه طلاق محرم . وهو قول مالك وأبى حنيفة ، وأحمد فى الرواية المتأخرة . اختارها أكثر أصحابه .

وهذا القول منقول عن كثير من السلف من الصحابة والتابعين . والذى قبله منقول عن بعضهم .

والثالث : أنه محرم . ولا يلزم منه إلا طلقة واحدة . وهذا القول منقول عن طائفة من السلف والخلف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل الزبير ابن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف . ويروى عن علي ، وابن مسعود ، وابن عباس رضى الله عنهم القولان . وهو قول داود وأكثر أصحابه . ويروى ذلك عن أبى جعفر محمد بن علي بن حسين ، وابنه جعفر بن محمد . ولهذا ذهب إلى ذلك من ذهب من الشيعة . وهو قول بعض أصحاب أبى حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل .

وأما القول الرابع ـ وهو المحدث المبتدع ، الذى قاله بعض المعتزلة والشيعة ـ ولا يعرف عن أحد من السلف : فهو أنه لا يلزمه شيء .

الطلاق المشروع : هو الرجعى

والقول الثالث : هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة . فإن كل طلاق شرعه الله فى القرآن لمدخول بها : إنما هو الطلاق الرجعى . لم يشرع الله لأحد أن يطلق الثلاث جميعاً . ولا شرع له أن يطلق المدخول بها طلاقاً بائنا .

لكن إذا طلقها قبل الدخول بها بانت منه . فإذا انقضت عدتها بانت منه .

فالطلاق ثلاثة أنواع : باتفاق المسلمين .

الطلاق الرجعى . وهو الذى يمكن للزوج أن يرتجعها فيه بغير اختيارها . و إذا مات أحدهما فى العدة ورثه الآخر .

والطلاق البائن : وهو مايبقى المطلق فيه خاطبا من الخطاب . لاتباح له إلا بعقد جديد .

والطلاق المحرم لها : لاتحل له حتى تنكح زوجاً غيره . وهو ماإذا طلقها ثلاث تطليقات متفرقات ، كما أذن الله ورسوله . وهو أن يطلقها ، ثم يراجعها فى العدة ، أو يتزوجها ثم يطلقها ثم يرجعها . أو يتزوجها . ثم يطلقها الطلقة الثالثة . فهذا الطلاق المحرم لها ، حتى تنكح زوجاً غيره باتفاق العلماء .

وليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم طلاق بائن يحسب من الثلاث .

الخلع فسخ لا طلاق

ولهذا كان مذهب فقهاء الحديث ـ كالإمام أحمد فى ظاهر مذهبه ، والشافعى فى أحد قوليه ، و إسحق بن راهو يه ، وأبى ثور ، وابن المنذر ، وداود، وغيرهم ـ : أن الخلع فسخ للنكاح ، وفرقه بائنة بين الزوجين . لا يحسب من الثلاث . وهذا هو الثابت عن الصحابة رضى الله عنهم كابن عباس .

ولذلك ثبت عن عثمان بن عفان ، وابن عباس وغيرهما : أن المختلعة ليس عليها أن تعتدد بثلاثة قروء . إنما عليها الاستبراء بحيضة .

وهو قول إسحق بن راهو يه وابن المنذر . وهو إحدى الروايتين عن أحمد . وروى فى ذلك أحاديث معروفة فى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم يصدق بعضها بعضاً . وتُبين أن ذلك ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد روى عن طائفة من الصحابة رضىالله عنهم : أنهم جعلوا الخلع طلاقا .

لـكن ضعف أئمة الحديث ـ كالإمام أحمد بن حنبل ، وابن خزيمة ، وابن المنذر ، والبيهقى ، وغيرهم ـ ماروى فى ذلك عنهم .

فصـــل

والخلع : أن تبذل المرأة عوضاً لزوجها ليفارقها . قال الله تعالى (٢:٢٢٧ـ٢٣١ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قُروء . ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن ، إن كن يؤمنَّ بالله واليوم الآخر . و بعولتهن أحق بردهن فى ذلك ، إن أرادوا إصلاحاً . ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة . والله عزيز حكيم . الطلاق مرتان . فإمساك بمعروف ، أوتسريح بإحسان . ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لايقيما حدود الله . فإن خفتم أن لايقيما حدود الله : فلاجناح عليهما فيما افتدت به . تلك حدود الله . فلا تعتدوها . ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . فإن طلها فلا تحل له من بعد حتى تنـكح زوجاً غيره . فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا . إن ظنا أن يقيما حدود الله . وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون . و إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف . أوسرحوهن بمعروف . ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا . ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . ولا تتخذوا آيات الله هزواً . واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الـكتاب والحـكمة يعظـكم به . واتقوا الله . واعلموا أن الله بكل شيء عليم) .

فبين الله سبحانه أن المطلقة بعد الدخول تتربص ، أى تنتظر ثلاثة قروء . و«القرء » عند أكثر الصحابة ـ كعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وأبى موسى ، وغيرهم ـ الحيض . ولا تزال فى العدة حتى تنقضى الحيضة الثالثة . وهذا مذهب أبى حنيفة وأحمد فى أشهر الروايتين عنه . وذهب ابن عمر وعائشة وغيرهما : إلى أن العدة تنقضى بطعنها فى الحيضة الثالثة . وهو مذهب مالك والشافعى .

فأما المطلقة قبل الدخول : فيقول الله تعـالى فيها (٣٣ : ٤٩ يا أيها الذين

آمنوا إذا نـكحتم المؤمنات . ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لـكم عليهن من عِدَّة تعتدونها . فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً) .

ثم قال « و بعولتهن أحق بردهن فى ذلك » أى فى ذلك التربص .

ثم قال « الطلاق مرتان » فبين أن الطلاق الذى ذكره ، وهو الطلاق الرجعى الذى يكون فيه الزوج أحق بردها : هو مرتان ، مرة بعد مرة ، كما إذا قيل للرجل : سبح مرتين ، أو سبح ثلاث مرات ، أو مائة مرة . فلا بد أن يقول : سبحان الله ، سبحان الله . حتى يستوفى العدد . فلو أراد أن يُجمل ذلك ، فيقول «سبحان الله» و يقول « مرتين » أو « مائة مرة » لم يكن قد سبح إلا مرة واحدة .

والله تعـالى لم يقل : الطلاق طلقتان . بل قال « مرتان » فإذا قال الرجل لامرأته : أنت طالق ثنتين ، أو ثلاثاً ، أو عشراً ، أو ألفاً . لم يكن قد طلقها إلا مرة واحدة .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين جُويرية رضى الله عنهـا « لقد قلتُ بعدك أربعَ كلمات ، لو وزنت بما قُلْتِيه لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه . سبحان الله زِنَةَ عرشه . سبحان الله رِضَى نفسه . سبحان الله مداد كلماته » معناه : أن الله سبحانه يستحق التسبيح بعدده . وذلك : كقوله صلى الله عليه وسـلم « اللهم ربنا لك الحمد مِلْءُ السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شىء بعد » ليس المراد : أنه يسبح تسبيحاً بقدر ذلك .

فالمقدار :تارة يكون وصفاً لفعل العبد ، وفعله محصور . وتارة يكون لما يستحقه الرب سبحانه . فذاك الذى يعظم قدره . و إلا فلو قال المصلى فى صلاته « سبحان الله عدد خلقه » لم يكن قد سبح إلا مرة واحدة .

ولِمَا شرع النبى صلى الله عليه وسلم للمصلى : أن يسبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، و يحمد ثلاثاً وثلاثين ، و يكبر ثلاثاً وثلاثين . فلو قال « سبحـان الله والحمد لله والله أكبر عدد خلقه » لم يكن قد سبح إلا مرة واحدة .

ولا نعرف أحداً طلق على عهد النبي صلى الله عليه وسلم امرأته ثلاثا بكلمة واحدة فألزمه النبي صلى الله عليه وسلم بالثلاث . ولا روى فى ذلك حديث صحيح ولاحسن . ولانقل أهل الـكتب المعتمد عليها فى ذلك شيئاً . بل رويت فى ذلك أحاديث كلها ضعيفة باتفاق علماء الحديث ، بل موضوعة . بل الذى ثبت فى صحيح مسلم وغيره ـ من السنن والمسانيد ـ عن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر : طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر رضى الله عنه : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة . فلو أمضيناه عليهم ؟! فأمضاه عليهم » .

وفى رواية لمسلم وغيره عن طاوس أن أبا الصهباء قال لابن عباس « أتعلم أنما كانت الثلاث تُجعل واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر ، وثلاثاً من إمارة عمر ؟ فقال ابن عباس : نعم » .

وفى رواية : أن أبا الصهباء ، قال لابن عباس « هات من هَناتك . ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر واحدة ؟ قال : قد كان ذلك . فلما كان فى زمن عمر : تتايع الناس فى الطلاق. فأجازه عليهم »

وروى الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا سعيد بن إبراهيم حدثنا أبى عن محمد بن إسحق حدثنى داود بن الحصين عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « طلق رُكانة بن عبد يزيد ـ أخو بنى المطلب ـ امرأته ثلاثا فى مجلس واحد . فحزن عليها حزنا شديداً . قال فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف طلقتها ؟ قال : طلقتها ثلاثاً . قال فقال : فى مجلس واحد ؟ قال : نعم . قال : فإنما تلك واحدة . فأرجعها إن شئت . قال : فراجعها » فـكان ابن عباس يرى أن الطلاق عند كل طهر . وقد أخرجه أبو عبد الله الضياء المقدسى فى كتابه « المختارة » الذى هو أصح من صحيح الحاكم. وهكذا روى أبو داود وغيره من حديث ابن جريج عن بعض ولد أبى رافع عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما

وهذا موافق لما رواه طاووس عن ابن عباس .

وعكرمة أعلم الناس بابن عباس . فإن عكرمة كان مولاه وصاحباً له . وكان طاووس خاصاً عند ابن عباس ، يجتمع به مع خاصة ابن عباس ، لتعظيم ابن عباس له . وعطاء وغيره ـ من أصحابه ـ كانوا يجتمعون به مع العامة . ولهذا كان طاوس ، وعكرمة : يفتيان بأن الثلاث واحدة . وكذلك ابن إسحاق لما روى هذا الحديث أخذ به لصحته عنده . وكان يقول : رجل جهل السنة فرد إليها .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لركانة « فى مجلس واحد ؟ قال : نعم » يتناول ما إذا طلقها بكلمة واحدة ، أو كلمات متفرقات فى مجلس واحد . فإنه لم يقل : بكلمة أو كلمات .

وهذا مما لا أعرف فيه نزاعاً بين العلماء . فإن الأصل : أن جمع الثلاث فى الطهر الواحد يحرم عند الجمهور . فليس له أن يردف الطلاق الطلاق .

ولكن تنازع هؤلاء : هل له أن يطلقها واحدة ثانية فى الطهر الثانى ، وثالثة فى الطهر الثالث من غير رجعة ؟ على قولين . هما روايتان عن أحمد .

إحداهما : له ذلك . وهو قول أبى حنيفة .

والثانية : ليس له ذلك . وهو مذهب مالك ، وظاهر مذهب أحمد المشهور عنه . وعليه أكثر الأصحاب .

وذلك : أن الله أمر المطلق ـ إذا بلغت المطلقة أجلها ـ أن يمسكها بمعروف ، أو يسرحها بإحسان . فلم يجعل له قسما ثالثاً يفعله ، وطلاقه مرة بائنة : ليس إمساكا لها بمعروف ، أو تسريحاً بإحسان . فإن التسريح بالإحسان : هو أن يُسَيِّبَهَا إذا انقضت العدة . فلا يَحبِسُهَا .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لركانة « فى مجلس واحد ؟ » مفهومه : أنه لو لم يكن فى مجلس واحد ، لم يكن الأمر كذلك . وذلك : لأنها لو كانت فى مجالس لأمكن فى العادة : أن يكون قد ارتجعها . فإنها عنده . والطلاق بعد الرجعة يقع .

والمفهوم لا عموم له فى جانب المسكوت عنه . بل قد يكون فيه تفصيل ، كقوله « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث » أو لم « ينجسه شىء » وهو إذا بلغ قلتين فقد يحمل الخبث ، وقد لا يحمله .

وقوله « فى الإبل السائمة : الزكاة » وهى إذا لم تكن سائمة قد تكون فيها الزكاة ، زكاة التجارة . وقد لا يكون فيها .

وكذلك قوله « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غفر له ماتقدم من ذنبه » فان من لم يقمها فقد يغفر له بسبب آخر .

وكقوله « من صام رمضان إيماناً واحتساباً . غفر له ما تقدم من ذنبه » . وقوله تعالى (٢ : ٢١٨ إلا الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله . أولئك يرجون رحمة الله) ومن لم يكن كذلك فقد يعمل عملا آخر . يرجو به رحمة الله مع الإيمان . وقد لا يكون كذلك .

فلو كان فى مجالس : فقد يكون له فيها رجعة . وقد لا يكون كذلك ، بخلاف المجلس الواحد ، الذى جرت عادة صاحبه بأن لا يراجعها فيه . فإن له فيه الرجعة . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم . فإنه قال « ارجعها إن شئت » لم يقل ـ كما قال فى حديث ابن عمر « مره فليراجعها » فأمره بالمراجعة . والرجعة : يستقل بها الزوج . بخلاف المراجعة .

وقد روى أبو داود وغيره « أن ركانة طلق امرأته ألبتة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ماأردتَ بها إلا واحدة ؟ فقال : والله ماأردتُ بها إلا واحدة . فردها إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وأبو داود : لما لم يرو فى سننه الحديث الذى فى مسند أحمد . قال : حديث « ألبتة » أصح من حديث ابن جريج « أن ركانة طلق امرأته ثلاثاً » لأن أهل بيته أعلم .

لكن الأئمة الأكابر ، العارفون بعلل الحديث والتفقه ـ كالإمام أحمد بن حنبل ، والبخارى ، وغيرهما ، وأبى عبيد ، وأبى محمد بن حزم ، وغيره ـ ضعفوا

حديث « ألبتة » و بينوا أن رواته قوم مجاهيل . لم تعرف عدالتهم ولا ضبطهم ، وأحمد أثبت حديث « الثلاث » و بين : أنه الصواب . مثل قوله : حديث ركانة لا يثبت « أنه طلق امرأته ألبتة » وقال أيضا : حديث ركانة فى « ألبتة » ليس بشىء ، لأن ابن إسحاق يرو يه عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس « أن ركانة طلق امرأته ثلاثاً » وأهل المدينة يسمون من طلق ثلاثاً «طلق ألبتة » .

وأحمد إنما عدل عن حديث ابن عباس ، لأنه كان يرى : أن الثلاث جائزة ، موافقةً للشافعى .

فأمكن أن يقال : حديث ركانة منسوخ . ثم لما رجع عن ذلك ، وتبين أنه ليس فى القرآن والسنة طلاق مبـاح إلا الرجعى : عدل عن حديث ابن عباس . لأنه أفتى بخلافه . وهذا علة عنده فى إحدى الروايتين . لـكن الرواية الأخرى ، التى عليها أصحابه : أنه ليس بعلة .

فيلزم أن يكون مذهبه : العمل بحديث ابن عباس .

وقد بينـا فى غير هذا الموضع أعذار الأئمة المجتهدين رضى الله عنهم ، الذين ألزموا من أوقع الثلاث بلفظ واحد جملة : بها ، مثل عمر رضى الله عنه . فإنه لمـا رأى الناس قد أكثروا مما حرمه الله عليهم ، من جمع الثلاث ، ولا ينتهون عن ذلك إلا بعقو بة ، رأى عقو بتهم بإلزامهم إياها ، لئلا يفعلوها : إما من نوع التعز ير العارض ، الذى يفعل عند الحاجة . كما كان يضرب فى الخمر ثمانين ، و يحلق الرأس و ينفى ، وكما منع النبى صلى الله عليه وسـلم الثلاثة الذين خُلفوا عن الاجتماع بنسائهم . و إما أن عمر رضى الله عنه ظن : أن جعلهـا واحدة : كان مشروطاً بشرط ، وقد زال . كما ذهب إلى مثل ذلك فى متعة الحج . إما مطلقاً ، و إما متعة فسخ الحج إلى العمرة .

والإلزام بالفرقة لمن لم يقم بالواجب : مما يسوغ فيه الاجتهاد . لـكن تارة

تـكون حقاً للمرأة . كما فى العِنِّين والمُولِي . عند جمهور العلماء ، والعاجز عن النفقة ، عند من يقول به .

وتارة يقال : إنه حق لله . كما فى الحـكمين بين الزوجين ، عند الأكثرين ، إذا لم يجعلا وكيلين .

وكما فى وقوع الطلاق على المولي عند من يقول بذلك من السلف والخلف ، إذا لم يَفِيء فى مدة التربص .

وكما قال من قال من الفقهاء ، من أصحاب أحمد وغيره : إنهما إذا تطاوعا فى الإتيان فى الدبر فُرق بينهما .

وكما فى الأب الصالح : إذا أمر ابنه بالطلاق ، لما رآه من مصلحة الولد . فعلى الولد أن يطيعه . كما قال أحمد وغيره . كما أمر النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر أن يطيع أباه ، لما أمره أبوه عمر بطلاق امرأته .

فالإلزام ــ إما من الشارع ، وإما من الإمام ــ بالفرقة : إذا لم يقم الزوج بالواجب هو من موارد الاجتهاد .

فلما كان الناس ، إذا لم يلتزموا بالثلاث مفرقة كما أمر الله : يفعلون المحرم . رأى عمر : إلزامهم بذلك . لأنهم لم يلتزموا طاعة الله ورسوله مع بقاء النكاح .

ولـكن كثير من الصحابة والتابعين نازعوا من قال ذلك . إما لأنهم لم يروا التعزير بمثل ذلك . وإما لأن الشارع لم يعاقب بمثل ذلك .

وهذا فيمن يستحق العقوبة . وأما من لم يستحقها ، لجهل أو تأويل : فلا وجه لإلزامه بالثلاث .

وهذا شرع شرعه النبى صلى الله عليه وسلم . كما شرع نظائر له لا تحصى .

ولهذا قال من قال من السلف والخلف : إن ماشرعه النبى صلى الله عليه وسلم من التمتع وفسخ الحج إلى العمرة ــ كما أمر به أصحابه فى حجة الوداع ــ هو شرع مطلق ، كما أخبر صلى الله عليه وسلم به لمـا سئل « أعمرتنا هذه لعامنا هذا ؟

أم للأبد ؟ فقال : لا . بل لأبد الأبد . دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة » .

فهذا يبين أن قول من قال : إنما شرع الفسخ لمعنى يختص بهم . مثل شأن جواز العمرة فى أشهر الحج : قول فاسد . لوجوه مبسوطة فى غير هذا الموضع .

وقد قال الله تعالى (٤ : ٥٩ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا) .

فأمر المؤمنين ــ عند تنازعهم ــ برد ماتنازعوا فيه إلى الله والرسول .

فما تنازع فيه السلف والخلف : وجب رده إلى الكتاب والسنة .

وليس فى الكتاب والسنة ما يوجب الإلزام بالثلاث ، لمن أوقعها جملة بكلمة أو كلمات ، بدون رجعة أو عقد . بل إنما فى الكتاب والسنة : الإلزام بذلك لمن طلق الطلاق الذى أباحه الله ورسوله .

وعلى هذا يدل القياس والاعتبار بسائر أصول الشرع .

فإن كل عقد يباح تارة ، ويحرم تارة . كالبيع أو النكاح إذا فُعِل على الوجه المحرّم : لم يكن لازماً نافذاً . كما يلزم الحلال الذى أباحه الله ورسوله .

ولهذا اتفق المسلمون على أن ماحرمه الله من نكاح المحارم ، ومن النكاح فى العدة ، ونحو ذلك : يقع باطلا غير لازم .

وكذلك ماحرمه الله من بيع المحرمات ، كالخمر والخنزير والميتة .

وهذا بخلاف ما كان محرم الجنس ــ كالظهار ، والقذف ، والكذب ، وشهادة الزور ونحو ذلك ــ فإن هذا يستحق مَنْ فعله العقوبة بما شرعه الله من الأحكام . فإنه لا يكون تارة حلالا وتارة حراماً ، حتى يكون تارة صحيحاً وتارة فاسداً .

وما كان محرماً من أحد الجانبين مباحاً من الجانب الآخر ، كافتداء الأسير ، واشتراء المجحود عتقه ، ورشوة الظالم لدفع ظلمه ، أو لبذل الحق الواجب . وكاشتراء

الإنسان الشاة المصراة وما دلس عيْبُه ، و إعطاء المؤلفة قلوبهم ليفعل الواجب ، أو ليترك المحرم ، وكبيع الجالب لمن تلقى منه ، ونحو ذلك . فإن المظلوم يباح له مافعله وله أن يفسخ العقد . وله أن يمضيه . بخلاف الظالم ، فإن ما فعله ليس بلازم .

والطلاق : هو مماأباحه الله تارة . وحرمه أخرى . و إذا فُعل على الوجه الذى حرمه الله ورسوله : لم يكن لازماً نافذاً ، كما يلزم ما أحله الله ورسوله . كما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

وقد قال الله تعالى (٢ : ٢٢٩ الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فبين سبحانه أن الطلاق الذى شرعه للمدخول بها ـ وهو الطلاق الرجعى ـ مرتان ، و بعد المرتين : إما إمساك بمعروف ، بأن يراجعها . فتبقى زوجته . وتبقى معه على طلقة واحدة . و إما تسريح بإحسان ، بأن يرسلها إذا انقضت العدة ، كما قال تعالى (٣٣ : ٤٩ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها . فمتعوهن وسرحوهن سَراحاً جميلاً) .

ثم قال بعد ذلك (٢ : ٢٢٩ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ، إلا أن يخافا أن لايقيما حدود الله . فإن خفتم أن لايقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) .

وهذا هو الخلع . سماه « افتداء » لأن المرأة تفتدى نفسها من أسر زوجها ، كما يفتدى الأسير من آسره ، والعبد نفسه من سيده بما يبذله .

ثم قال (٢ : ٢٣٠ فإن طلقها) يعنى هذا الزوج الثانى (فلا جناح عليهما) يعنى عليها وعلى الزوج الأول (أن يتراجعا . إن ظنا أن يقيما حدود الله) .

الطلاق للعدة

وكذلك قال الله تعالى (٦٥ : ١ ـ ٣ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن . وأحصوا العدة . واتقوا الله ربكم . لاتخرجوهن من بيوتهن . ولايخرجن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف . أو فارقوهن بمعروف . وأشهدوا ذوى عدل منكم . وأقيموا الشهادة لله . ذلكم يُوعَظُ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لايحتسب * ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدراً) .

وفى الصحيحين والسنن والمسانيد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما « أنه طلق امرأته ، وهى حائض . فذكر ذلك عمر للنبى صلى الله عليه وسلم . فقال : مُرْهُ فليراجعها ، حتى تحيض ثم تطهر . ثم تحيض ، ثم تطهر . ثم إن شاء بعدُ أمسكها . وإن شاء طلقها قبل أن يجامعها . فتلك العدة التى أمر الله أن يُطَلَّق لها النساء » وفى رواية فى الصحيح « أنه أمره : أن يطلقها طاهراً أو حاملا » . وفى رواية أخرى فى الصحيح « وقرأ النبى صلى الله عليه وسلم (إذا طلقتم النساء فطلقوهن فى قُبل عدتهن) » .

وعن ابن عباس وغيره من الصحابة رضى الله عنهم « الطلاق على أربعة أوجه . وجهان حلال . ووجهان حرام . فأما اللذان هما حلال : فأن يطلق الرجل امرأته طاهراً فى غير جماع ، أو يطلقها حاملا قد استبان حملها . وأما اللذان هما حرام : فأن يطلقها حائضاً ، أو يطلقها بعد الجماع . لايدرى اشتمل الرحم على ولد أم لا ؟ » رواه الدارقطنى وغيره .

فقد بين النبى صلى الله عليه وسلم : أنه لايحل له أن يطلقها إلا إذا طهرت من الحيض . فيطلقها قبل أن يجامعها . وهذا هو الطلاق للعدة ، أى لاستقبال العدة .

فإن ذلك الطهر : أول العدة . فإن طلقها قبل العدة : يكون طلاقهـا قبل الوقت الذى أذن الله فيه . ويكون قد طَوَّل عليها التربص . وطلقها من غير حاجة به إلى طلاقها .

الطلاق مما يبغضه الله

والطلاق فى الأصل : مما يبغضه الله . وهو أبغض الحلال إلى الله . وإنما أباح منه مايحتاج إليه الناس ، كما تباح المحرمات للحاجة . فلهذا حرمها بعد الطلقة الثالثة ، حتى تنكح زوجاً غيره ، عقوبة . لينتهى الإنسان عن إكثار الطلاق . فإذا طلقها لم تزل فى العدة متربصة ثلاثة قروء ، وهو مالك لها ، يرثها وترثه . وليس له فائدة فى تعجيل الطلاق قبل وقته . كما لا فائدة له فى مسابقة الإمام فى الصلاة . ولهذا لايعتد له بما فعله من الصلاة قبل الإمام . بل تبطل صلاته إذا تعمد ذلك فى أحد قولى العلماء . وهو لايزال معه فى الصلاة حتى يسلم .

ولهذا جوز أكثر العلماء الخلع فى الحيض . لأنه ـ على قول فقهاء الحديث ـ ليس بطلاق ، بل هو فرقة بائنة ، وفى أحد قوليهم :تستبرىء منه بحيضه ،لاعدة عليها ولأنها تملك نفسها بالاختلاع . فلهما فائدة فى تعجيل الإبانة ، لدفع الشر الذى بينهما . بخلاف الطلاق الرجعى . فإنه لا فائدة فى تعجيـله قبل وقته . بل ذلك شر بلا خير .

وقد قيل : إنه طلاق فى وقت لايرغب فيها . وقد لايكون محتاجاً إليه ، بخلاف الطلاق وقت الرغبة . فإنه لا يكون إلا عن حاجة .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم لعمر « مره فليراجعها » مما تنازع فيه العلماء فى مراد النبى صلى الله عليه وسلم .

ففهم منه طائفة من العلماء : أن الطلاق قد لزمه . فأمره : أن يرتجعها . ثم يطلقها فى الطهر إن شاء .

وتنازع هؤلاء : هل الارتجاع واجب ، أو مستحب ؟ وهل له أن يرتجعها فى

الطهر الأول ، أو الثانى ؟ وفى حكمة هذا النهى ، على أقوال ذكرناها . وذكرنا مأخذها فى غير هذا الموضع .

وفهم طائفة أخرى : أن الطلاق لم يقع . ولكنه لما فارقها ببدنه ـ كما جرت العادة من الرجل إذا طلق امرأته . اعتزلها ببدنه ، واعتزلته ببدنها ـ فقال لعمر « مره فليراجعها » ولم يقل « فليرتجعها » و « المراجعة » مفاعلة من الجانبين ، أى ترجع إليه ببدنها . فيجتمعان كما كانا . لأن الطلاق لن يلزمه . فإذا جاء الوقت الذى أباح الله فيه الطلاق : طلقها حينئذ إن شاء .

قال هؤلاء : ولو كان الطلاق قد لزم ، لم يكن فى الأمر بالرجعة ـ ليطلقها طلقة ثانية ـ فائدة . بل فيه مضرة عليهما . فإن له أن يطلقها بعد الرجعة بالنص والإجماع . وحينئذ يكون فى الطلاق ـ مع الأول ـ تكثير الطلاق ، وتطويل العدة ، وتعذيب الزوجين جميعاً . فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يوجب عليه أن يطأها قبل الطلاق . بل إذا وطئها لم يحل له أن يطلقها حتى يبين حملها ، أو تطهر الطهر الثانى . وقد يكون زاهداً فيها فيكره أن يطأها ، فتعلق منه . فكيف يجب عليه وطؤها ؟ ولهذا لم يوجب الوطء أحد من الأئمة الأربعة ، وأمثالهم من أئمة المسلمين .

ولكن أخر الطلاق إلى الطهر الثانى . ولولا أنه طلقها أولاً لكان له أن يطلقها فى الطهر الأول . لأنه لو أبيح له الطلاق فى الطهر الأول : لم يكن له فى إمساكها فائدة مقصودة بالنكاح . إذا كان لايمسكها إلا لأجل الطلاق . فإنه لو أراد أن يطلقها فى الطهر الأول : طلقها قبل الوطء . فإن طلاقها بعد الوقت لايجوز بالنص والإجماع . فلايكون فى إمساكها ـ إذا طلقها فى الطهر الأول ـ إلا زيادة ضرر عليهما . والشارع لايأمر بذلك . فإذا كان ممنوعا من طلاقها فى الطهر الأول ليكون متمكناً من الوطء الذى لايتعقبه طلاق . فإن لم يطأها ، أو وطئها ، أو حاضت بعد ذلك : فله أن يطلقها . ولأنه إذا امتنع من وطئها فى ذلك الطهر ، ثم

طلقها فى الطهر الثانى : دل على أنه محتاج إلى طلاقها . لأنه لارغبة له فيها . إذ لو كانت له فيها رغبة لجامعها فى الطهر الأول .

قالوا : ولأنه لم يأمر عمر بالإشهاد على الرجعة ، كما أمر الله ورسوله . ولو كان الطلاق قد وقع ــ وهو يرتجعها ــ لأمره بالإشهاد على الرجعة . ولأن الله لما ذكر الطلاق فى غير آية لم يأمر أحداً بالرجعة ، لاسيما الرجعة عقيب الطلاق ، بل قال (٢ : ٢٣٠ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) فخير الزوج ــ إذا قارب انقضاء العدة ــ بين أن يمسكها بمعروف ، وهو الرجعة . و بين أن يسيبها ، فيخلى سبيلها إذا انقضت العدة ، ولا يحبسها بعد انقضاء العدة ، كما كانت محبوسة عليه فى العدة . قال الله تعالى (لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) .

وأيضاً : فلو كان الطلاق المحرم قد لزم : لـكان قد حصل الفساد الذى كرهه الله ورسوله . وذلك الفساد لا يرتفع برجعة يباح له الطلاق بعدها .

الطلاق المحرم لايلزم

والأمر برجعة لا فائدة فيها : مما ينزه عنه الله ورسوله . فإنه إن كان راغباً فى المرأة : فله أن يرتجعها . و إن كان راغباً عنها : فليس له أن يرتجعها . فليس فى أمره برجعتها ــ مع لزوم الطلاق له ــ مصلحة شرعية ، بل فيه زيادة مفسدة . و يجب تنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأمر بما يستلزم زيادة الفساد . والله ورسوله إنما نهى عن الطلاق البدعى لمنع الفساد . فـكيف يأمر بما يستلزم زيادة الفساد ؟ .

وقول الطائفة الثانية أشبه بالأصول والنصوص . فإن هـذا القول الأول متناقض . إذ الأصل الذى عليه السلف والفقهاء : أن العبادات والعقود المحرمة إذا فعلت على الوجه المحرم : لم تـكن لازمة صحيحة . وهذا ــ وإن نازع فيه طائفة من أهل الـكلام ــ فالصواب : مع السلف ، وأئمة الفقهاء . لأن الصحابة

والتابعين لهم بإحسان كانوا يستدلون على فساد العبادات والعقود بتحريم الشارع لها . وهذا متواتر عنهم .

وأيضاً : فإن لم يكن ذلك دليلا على فسادها : لم يكن قد جاء عن الشارع ما يبين الصحيح من الفاسد .

فإن الذين قالوا : النهى لايقتضى الفساد . قالوا : نعلم صحة العبادات والعقود وفسادها بجعل الشارع هذا شرطا أو مانعاً ، ونحو ذلك . وقوله : هذا صحيح . وليس بصحيح ، من خطاب الوضع والإخبار .

ومعلوم : أنه ليس فى كلام الله ورسوله هذه العبارات . مثل قوله : الطهارة شرط فى الطلاق . والكفر مانع من صحة الحج . وهذا العقد لايصح . وهذه العبادة : لاتصح ، ونحو ذلك . بل إنما فى كلامه : الأمر والنهى ، والتحليل والتحريم . ونفي القبول والصلاح ، كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله صلاة بغير طهور . ولاصدقة من غلول » وقوله « هذا لايصلح » وفى كلامه « إن الله يكره كذا » وفى كلامه : الوعد والوعيد ، ونحو ذلك من العبارات .

فلو لم تستفد الصحة والفساد إلا بما ذكره ــ وهو لايلزم أن يكون قد بين ذلك ــ فهذا مما يعلم فساده قطعا .

وأيضاً : فالشارع يحرم الشىء لما فيه من المفسدة الخالصة ، أو الراجحة . ومقصوده بالتحريم : المنع من ذلك الفساد ، و بقاؤه معدوما .

فلو كان ــ مع التحريم ــ يرتب عليه من الأحكام ما يرتب على الحلال . فجعله لازماً نافذاً كالحلال . لكان ذلك إلزاماً منه بالفساد الذى قصد عدمه فيلزم أن يكون ذلك الفساد قد أراد عدمه ، مع أنه ألزم الناس به . وهذا متناقض ينزه عنه الشارع صلى الله عليه وسلم .

قاعدة أصولية

وقد قال بعض هؤلاء : إنه لما حرم الطلاق الثلاث ، لئلا يلزم المطلق : دل على لزوم الندم له إذا فعله . وهذا يقتضى صحته .

فيقال له : هذا يتضمن أن كل مانهى الله عنه يكون صحيحاً ، كالجمع بين المرأة وعمتها ، لئلا يفضى إلى قطيعة الرحم .

فيقال : هذا دليل على صحة العقد . إذ لو كان فاسداً لم تحصل القطيعة . وهذا جهل .

وذلك : أن الشارع بين حكمته فى منعه مما نهى عنه . وأنه لو أباحه للزم الفساد . فقوله (لاتدرى ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ؟) وقوله صلى الله عليه وسلم « لاتنكح المرأة على عمتها ولاخالتها . فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » ونحو ذلك .

فبين أن الفعل لو أبيح لحصل به الفساد ، فحرم منعاً من هذا الفساد . ثم إن الفساد إنما ينشأ من إباحته ومن فعله ، إذا اعتقد الفاعل له : أنه مباح ، أو أنه صحيح . فأما مع اعتقاد أنه محرم باطل ، والتزام أمر الله ورسوله : فلا تحصل المفسدة . و إنما تحصل المفسدة من مخالفة أمر الله ورسوله . والمفاسد فتنة وعذاب .

وقد قال الله تعالى (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره : أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

وقول القائل : لوكان الطلاق غير لازم، والجمع غير لازم : لم يحصل الفساد . ويقال : هذا هو مقصود الشارع صلى الله عليه وسلم ، فنهى عنه وحكم ببطلانه ليزول الفساد . ولولا ذلك لفعله الناس ، واعتقدوا صحته . فيلزم الفساد .

وهذا نظير قول من يقول : النهى عن الشىء يدل على أنه مقصود ، وأنه شرعى ، وأنه يسمى بيعاً ، ونكاحاً ، وصوماً ، كما يقولون فى نهيه عن نكاح

الشغار ، ولعنه المحلل والمحلل له ، ونهيه عن بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، ونهيه عن صوم يومى العيدين ونحو ذلك .

فيقال : أما تصوره حساً ، فلا ريب فيه . وهذا كنهيه عن نكاح الأمهات والبنات ، وعن بيع الخمر والميتة ولحم الخنزير والأصنام ، كما فى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه « إن النبى صلى الله عليه وسلم قال أن الله حرم بيع الخمر والميتة ولحم الخنزير والأصنام. فقيل : يارسول الله ، أرأيت شحوم الميتة ؟ فإنه يطلى بها السفن ، وتدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس . فقال : لا . هو حرام . ثم قال : قاتل الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم . فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها » .

فتسميته لهذا نكاحاً وبيعاً ، لم يمنع أن يكون فاسداً باطلاً . بل دل على إمكانه حساً .

وقول القائل « إنه شرعى » إن أراد : أنه يسمى بما سماه به الشارع . فهذا صحيح . وإن أراد : أن الله أذن فيه . فهذا خلاف النص والإجماع . وإن أراد : أنه رتب عليه حكمه ، وجعله يحصل المقصود ، ويلزم الناس حكمه ، كما فى المباح ـ فهذا باطل بالإجماع فى أكثر الصور . وسائر الصور هى من موارد النزاع . ولا يمكنه أن يدعى ذلك فى صورة مجمع عليها . فإن أكثر مايحتج به هؤلاء : بنهيه عن الطلاق فى الحيض ، ونحو ذلك مما هو من موارد النزاع .

فليس معهم صورة قد ثبت فيها مقصودهم ، لا بنص ولا إجماع .

وكذلك المحلل الملعون ، لعنه لأنه قصد التحليل للأول بعقده . لا لأنه أحلها فى نفس الأمر . فإنه لو تزوجها بنكاح رغبة ، لكان قد أحلها بالإجماع . وهذا غير ملعون بالإجماع . فعلم أن اللعنة إنما هى لمن قصد التحليل . فعلم أن الملعون لم يحللها فى نفس الأمر . وقد دلت اللعنة على تحريم فعله . والمنازع يقول : فعله مباح . فتبين أنه لاحجة معهم . بل الصواب مع السلف وأئمة الفقهاء .

ومن خرج عن هذا الأصل ـ من العلماء المشهورين فى بعض المواضع ـ فإن لم يكن له جواب صحيح ، وإلا فقد تناقض فى مواضع غير هذه .

والأصول لا تناقض فيها ، إذا ما ثبتت بنص أو إجماع . وما سوى ذلك : فالتناقض موجود فيه . فليس هو حجة على أحد .

والقياس الذى لايتناقض : هو موافق للنص والإجماع . بل ولا بد أن يكون النص قد دل على الحكم ، كما قد بسط فى موضع آخر .

وهذا معنى « العصمة » فإن كلام المعصوم لا يتناقض .

فلا نزاع بين المسلمين أن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم فيما بلغه عن الله تعالى .

وكذلك الأمة أيضاً : معصومة أن تجتمع على ضلالة . بخلاف ماسوى ذلك .

كل بشر يؤخذ من قوله إلا رسول الله

ولهذا كان مذهب أئمة الدين : أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإنه الذى فرض الله على جميع الخلائق : الإيمان به وطاعته ، وتحليل ماحلله ، وتحريم ما حرمه . وهو الذى فرق الله به بين المؤمن والكافر ،وأهل الجنة وأهل النار ، والهدى والضلالة ، والغى والرشاد . فالمؤمنون أهل الجنة أهل الهدى والرشاد هم الذين اتبعوه .

والكفار : أهل النار ، أهل الغى والضلال : الذين لم يتبعوه .

فمن آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً ، واجتهد فى متابعته : فهو من المؤمنين السعداء ، وإن كان قد أخطأ وغلط فى بعض ما جاء به . فلم يبلغه أو لم يفهمه . قال الله تعالى عن المؤمنين (٢ : ٢٨٦ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وقد ثبت فى بعض الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن الله قال : قد فعلت » .

وفى السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلماء ورثة الأنبياء . إن

الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما . و إنما ورثوا العلم . فمن أحذ به أخذ بحظ وافر » .

وقد قال تعالى (٢١ : ٧٨ ، ٧٩ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نَفَشَتْ فيه غنم القوم . وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان . وكلا آتينا حكماً وعلما) فقد خص أحد النبيين الكريمين بالفهم ، مع ثنائه على كل منهما بأنه آتاه حكما وعلماً .

خطأ المجتهد لا يوجب ذمه

فهكذا إذا خص الله أحد العالمين بعلم أمر وفهمه : لم يوجب ذلك ذم من لم يحصل له ذلك من العلماء . بل كل من اتقى الله مااستطاع فهو من أولياء الله المتقين ، و إن كان قد خفى عليه من الدين ماعلمه غيره .

وقد قال وثلة ابن الأسقع — و بعضهم يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم — « من طلب علماً فأدركه فله أجران . ومن طلب علماً فلم يدركه فله أجر واحد » .

وهذا يوافقه ما فى الصحيح عن عمرو بن العاص وعن أبى هريرة رضى الله عنهما عن النبيصلى الله عليه وسلم « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . و إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر » .

ولبسط هذه الأصول موضع آخر .

و إنما المقصود هنا : التنبيه على هذا . لأن الطلاق المحرم مما يقول فيه كثير من الناس : إنه لازم . والسلف — أئمة الفقهاء والجمهور — يسلمون أن النهى يقتضى الفساد . ولا يذكرون فى الاعتذار عن هذه الصورة فرقاً صحيحاً .

وهذا مما تسلط به عليهم من نازعوهم فى أن النهى يقتضى الفساد . واحتج بما سلموه له من الصورة . وهذه حجة جدلية . لاتفيد العلم بصحة قوله . و إنما تفيد أن منازعيه أخطأوا : إما فى صورة النقض ، و إما فى محل النزاع . وخطؤهم فى إحداهما لا يوجب نقض ما ثبت بالكتاب . والسنة : أن الله لم يشرع لعباده قط إلا طلاقاً رجعياً .

بل هذا الأصل أصل عظيم ، عليه مدار كثير من الأحكام الشرعية . فلا يمكن نقضه بقول بعض العلماء الذين ليس معهم نص ولا إجماع . بل الأصول والنصوص تناقض قولهم .

الطلاق المحرم لا يقع

ومن تدبر الكتاب والسنة : تبين له أن الله لم يشرع الطلاق المحرم جملة قط.

وأما الطلاق البائن : فإنه شرعه قبل الدخول ، و بعد انقضاء العدة .

وطائفة من العلماء يقولون : لمن لم يجعل الثلاث المجموعة إلا واحدة : أنتم خالفتم عمر . وقد استقر الأمر على الالتزام بذلك فى زمن عمر . و بعضهم يجعل ذلك إجماعاً .

فيقال لهم : أنتم خالفتم عمر فى الأمر المشهور عنه ، الذى اتفق عليه الصحابة . بل وفى الأمر الذى معه فيه الكتاب والسنة . فإن منكم من يجوز التحليل .

وقد ثبت عن عمر أنه قال « لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما » .

وقد اتفق الصحابة على النهى عنه ــ مثل عثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، وغيرهم ــ ولا يعرف عن أحد من الصحابة : أنه أعاد المرأة إلى زوجها بنكاح تحليل .

وعمر وسائر الصحابة معهم الكتاب والسنة ، كلعن النبى صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له . وقد خالفهم من خالفهم فى ذلك اجتهاداً . والله يرضى عن جميع علماء المسلمين .

وأيضاً فقد ثبت عن عمر : أنه كان يقول فى الخلية والبرية ونحو ذلك « إنها طلقة رجعية » وأكثرهم يخالفون عمر فى ذلك .

وقد ثبت عن عمر رضى الله عنه : أنه خير المفقود إذا رجع فوجد امرأته تزوجت « خَيَّره بين امرأته و بين المهر » وهذا أيضاً معروف عن غيره من الصحابة

كعثمان وعلى . وذكره أحمد عن ثمانية من الصحابة رضى الله عنهم . وقال : إلى أى شىء يذهب الذى يخالف هؤلاء ؟ .

ومع هذا فأكثرهم يخالفون عمر وسائر الصحابة فى ذلك . ومنهم من ينقض حكم من حكم به .

وعمر والصحابة رضى الله عنهم جعلوا الأرض المفتوحة عنوة ـ كأرض الشام ومصر والعراق وخراسان والمغرب ـ فيئاً للمسلمين . ولم يقسم عمر ولا عثمان أرضاً فتحها المسلمون عنوة . ولم يستطب عمر أنفس جميع الغانمين فى هذه الأرضين .

فإن ظن بعض العلماء : أنه استطاب أنفسهم فى سواد العراق : فهو غالط . بل طلب منه بلال والزبير وغيرهما قسمة الأرض المفتوحة عنوة . فلم يجبهم .

ومع هذا فطائفة منهم تخالف عمر والصحابة فى مثل هذا الأمر العظيم ، الذى استقر الأمر عليه من زمنهم. بل منهم من ينقض حكم من حكم بحكمهم أيضاً

فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم : لم يخمسوا قط مال فىء ، ولا خمسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا جعلوا خمس الغنيمة خمسة أقسام متساوية ومع هذا فكثير منهم يخالف ذلك . ونظائر هذا متعددة .

والأصل الذى اتفق عليه علماء المسلمين : أن ما تنازعوا فيه وجب رده إلى الله والرسول ، كما قال تعالى (٤ : ٥٩ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا) .

ولا يجوز لأحد أن يظن بالصحابة : أنهم ـ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أجمعوا على خلاف شريعته . بل هذا من أقوال أهل الاتحاد والإلحاد .

لا ينسخ ماشرع الرسول أحد بعده

ولا يجوز دعوى نسخ ما شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم بإجماع أحد بعده ، كما تظنه طائفة من الغالطين . بل كل ما أجمع المسلمون عليه فلا يكون إلا موافقا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . لا يكون مخالفاً له ألبتة .

بل كل نص منسوخ بإجماع الأمة : فمع إجماع الأمة النص الناسخ له . تحفظ الأمة النص الناسخ كما تحفظ النص المنسوخ . وحفظ الناسخ أهم عندها وأوجب عليها من حفظ المنسوخ .

ويمتنع أن يكون عمر والصحابة معه أجمعوا على خلاف نص النبي صلى الله عليه وسلم . ولكن قد يجتهد الواحد من الصحابة ، وينازعه غيره . وهذا موجود فى مسائل كثيرة ـ هذا منها ـ كما بسط فى موضع غير هذا .

اجتهاد الصحابة ، ومخالفة بعضهم بعضا

ولهذا لما رأى عمر رضى الله عنه : أن المبتوتة لانفقة لها ولا سكنى ، وظن أن القرآن يدل عليه : نازعه فيه أكثر الصحابة . فمنهم من قال : لها السكنى فقط . ومنهم من قال : لانفقة لها ولا سكنى . وكان من هؤلاء ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وفاطمة بنت قيس . وهى التى روت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لها « ليس لك نفقة ولا سكنى » فلما احتجوا عليها بحجة عمر ، وهى قوله تعالى (٦٥ : ١ لاتخرجوهن من بيوتهن . ولا يخرجن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قالت هى وغيرها من الصحابة ـ كابن عباس وجابر وغيرهما ـ « هذا فى الرجعية . لقوله تعالى (٦٥ : ١ لاتدرى : لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ؟) فأى أمر يحدث بعد الثلاث ؟ » . وفقهاء الحديث مع فاطمة بنت قيس .

وكذلك أيضاً فى الطلاق ، لما قال الله تعالى (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) قال غير واحد من الصحابة والتابعين والعلماء : هذا يدل على أن الطلاق

الذى ذكره الله : هو الطلاق الرجعى ، فإنه لو شرع إيقاع الثلاث عليه : كان المطلق يندم إذا فعل ذلك ، ولا سبيل له إلى رجعتها . فيحصل له ضرر بذلك . والله قد أمر العباد بما ينفعهم . ونهاهم عما يضرهم . ولهذا قال تعالى أيضاً ـ بعد ذلك ـ (٦٥ : ٢ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف) وهذا إنما يكون فى الطلاق الرجعى . لا يكون فى الثلاث ، ولا فى البائن . وقال تعالى (٦٥ : ٢ وأشهدوا ذوى عدل منكم) فأمر بالإشهاد على الرجعة . والإشهاد عليها مأمور به باتفاق الأمة . قيل : أمر إيجاب . وقيل : أمر استحباب .

الإشهاد على الرجعة ، لا على الطلاق

وقد ظن بعض الناس : أن الإشهاد هو على الطلاق . وظن أن الطلاق الذى لايشهد المطلق عليه : لايقع . وهذا خلاف إجماع السلف ، وخلاف الكتاب والسنة . ولم يقل أحد من العلماء المشهورين به . فإن الطلاق قد أذن فيه أولا ، ولم يأمر فيه بالإشهاد . وإنما أمر بالإشهاد حين قال « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقهن بمعروف » والمراد هنا بالمفارقة : تخلية سبيلها . إذا انقضت العدة . وهذا ليس بطلاق ولارجعة ولانكاح . ولاإشهاد فى هذا باتفاق المسلمين . فعلم أن الإشهاد : إنما هو على الرجعة .

ومن حكمة ذلك : أنه قد يطلقها و يرتجعها . فيزين له الشيطان كتمان ذلك حتى يطلقها بعد ذلك طلاقا محرماً ، ولا يدرى أحد به . فتكون معه حراماً . فأمره الله أن يشهد على الرجعة ، ليظهر أنه قد وقعت منه طلقة . كما أمر النبى صلى الله عليه وسلم من وجد اللقطة « أن يشهد عليها » لئلا يزين له الشيطان كتمان اللقطة .

وهذا بخلاف الطلاق . فإنه إذا طلقها ولم يراجعها ، بل خلى سبيلها . فإنها تظهر للناس أنها ليست امرأته . بل هى مطلقته . بخلاف ماإذابقيت زوجة عنده . فإنه لايدرى الناس : أطلقها ، أم لم يطلقها .

وأما النكاح : فلا بد من التمييز بينه و بين السفاح ، واتخاذ الأخدان . كما أمر الله تعالى . ولهذا نصت السنة على إعلانه . فلا يجوز أن يكون كالسفاح مكتوماً

لـكن هل الواجب مجرد الإشهاد ، أو مجرد الإعلان ، وإن لم يكن إشهاد ؟ ويكفى أيهما كان ؟ هذا فيه نزاع بين العلماء ، كما قد ذكر فى موضعه .

وقال الله تعـالى (٦٥ : ٢ ، ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . و يرزقه من حيث لا يحتسب) .

من يتقى الله فى الطلاق

وهذه الآية عامة فى كل من يتقى الله . وسياق الآية يدل على التقوى المرادة من هذا النص العام .

فمن اتقى الله فى الطلاق ، فطلق كما أمر الله تعالى : جعل الله له مخرجاً مما ضاق على غيره « ومن يتعد حدود الله » فيفعل ماحرم الله عليه « فقد ظلم نفسه » ومن كان جاهلا بتحريم طلاق البدعة ، فلم يعلم أن الطلاق فى الحيض محرم ، أو أن جمع الثلاث محرم : فهذا إذا عرف التحريم وتاب ، صـار ممن اتقى الله . فاستحق أن يجعل الله له مخرجا .

ومن كان يعلم أن ذلك حرام ، وفعل المحرم ، وهو يعتقد أنها تحرم عليه ، ولم يكن عنده إلا من يفتيه بأنها تحرم عليه : فإنه يعاقب على ظلمه لنفسه ، عقو بةً بقدَرِ الله ، كمعاقبة أهل السبت بمنع الحيتان أن تأتيهم يوم سَبْتِهم . فإنه ممن لم يتق الله . فعوقب بالضيق . و إن هداه الله ، فعرفه الحق ، وألهمه التو بة ، فتاب . فالتائب من الذنب كمن لاذنب له . وحينئذ فقد دخل فيمن يتقى الله . فيستحق أن يجعل الله له فرجاً ومخرجاً . فإن نبينا محمداً صلى الله عيه وسلم نبى الرحمة ، ونبى الملحمة . فكل من تاب فله فرج فى شرعه ، بخلاف شرع من قبلنا . فإن التائب منهم كان يعاقب بعقو بات ، كقتل أنفسهم وغير ذلك .

ولهذا كان ابن عباس رضى الله عنهما إذا سئل عمن طلق امرأته ثلاثاً ؟ يقول

له « لو اتقيت الله لجعل الله لك فرجاً ومخرجاً » وكان تارة يوافق عمر رضى الله عنه فى الإلزام بذلك للمكثرين من فعل البدعة المحرمة عليهم ، مع علمهم بأنها محرمة عليهم . وروى عنه : أنه كان تارة لايلزم إلا بواحدة .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يغضب على أهل هذه البدعة ، ويقول « أيها الناس ، من أتى الأمر على غير وجهه ، عوقب بتركه ، وإلا فو الله ما لنا طاقة بكل ما تحلفون » .

لم يكن نكاح تحليل فى الصدر الأول

ولم يكن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا أبى بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي رضى الله عنهم نكاح تحليل ظاهر ، تعرفه الشهود والمرأة والأولياء . ولم ينقل أحد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا خلفائه الراشدين : أنهم أعادوا المرأة على زوجها بنكاح تحليل . فإنهم إنما كانوا يطلقون ـ فى الغالب ـ طلاق السنة . ولم يكونوا يحلفون بالطلاق ولا يعرفونه . ولهذا لم ينقل عن الصحابة نقل خاص فى الحلف بالطلاق . وإنما نقل عنهم الكلام فى إيقاع الطلاق ، لا فى الحلف به .

الحلف بالطلاق وبالنذر ، وأيمان البيعة

والفرق ظاهر بين الطلاق وبين الحلف به . كما يعرف الفرق بين النذر وبين الحلف بالنذر .

فإذا كان الرجل يطلب من الله حاجة . فقال : إن شفى الله مريضى ـ أو قضى دينى ، أو خلصنى من هذه الشدة ـ فلله عليّ أن أتصدق بألف درهم ، أو أن أصوم شهراً ، أو أعتق رقبة . فهذا تعليق نذر يجب عليه الوفاء به بالكتاب والسنة والإجماع .

وإذا علق النذر على وجه اليمين . فقال : إن سافرت معكم ، أو إن زوجت

فلاناً ، أو إن لم أضرب فلاناً ، أو إن لم أسافر من عندكم : فعلىَّ الحج ، أو فما لى صدقة ، أو فعلىَّ العتق : فهذا عند الصحابة وجمهور العلماء : هو حَالِفٌ بالنذر . ليسَ بناذرٍ . فإذا لم يف بما التزمه أجزأه كفارة يمين .

وكذلك أفتى الصحابة فيمن قال : إن فعلت كذا فكل مملوك لى حرٌّ : أنه يمين ، يجزئه فيها كفارة اليمين . وكذلك قال كثير من التابعين فى هذا كله ، لما أحدث الحجاج بن يوسف تحليف الناس بأيمان البيعة . وهو التحليف بالطلاق والعتاق والتحليف باسم الله وصدقة المال . وقيل : كان منها التحليف بالحج ماشياً. فتكلم حينئذ التابعون ومن بعدهم فى هذه الأيمان . وتكلموا فى بعضها على ذلك .

فمنهم من قال : إذا حنث بها لزمه ما التزمه .

ومنهم من قال : لا يلزمه إلا الطلاق والعتاق .

ومنهم من قال : بل هذا من جنس أيمان أهل الشرك . لا يلزم بها شىء .

ومنهم من قال : بل هى من أيمان المسلمين . يلزم بها مايلزم بسائر أيمان المسلمين .

واتبع هؤلاء مانقل فى هذا الجنس عن الصحابة ، وما دل عليه الكتاب والسنة . كما قد بسط فى موضع آخر .

نكاح التحليل

والمقصود هنا : أنه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين رضى الله عنهم : لم تكن امرأة ترد إلى زوجها بنكاح تحليل . ولعله كان إنما يفعل سراً . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « لعن الله آكل الربا وموكله ، وشاهديه ، وكاتبه . ولعن المحلل والمحلل له » قال الترمذى : حديث صحيح . ولعن صلى الله عليه وسلم فى الربا « الآخذ والمعطى ، والشاهدين ، والكاتب » لأنه دين يكتب و يشهد عليه .

ولعن فى التحليل « المحلل والمحلل له » ولم يلعن الشاهدين ، والكاتب . لأنه لم يكن على عهده تكتب الصَّدُقات فى كتاب . فإنهم كانوا يقدمون الصداق فى العادة العامة قبل الدخول . ولا يبقى ديناً فى ذمة الزوج . فلا يحتاج إلى كتاب وشهود . وكان المحلل يكتم ذلك ، هو والزوج ـ المحلَّل له ـ والمرأة والأولياء والشهود ، لايدرون بذلك .

ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له . إذ كانوا هم الذين فعلوا المحرم ، دون هؤلاء .

والتحليل : لم يكونوا يحتاجون إليه فى الأمر الغالب . إذ كان الرجل إنما يقع به الطلاق الثلاث ـ إذا طلق ـ بعد رجعة أو عقد . فلا يندم بعد الثلاث إلا نادر من الناس . وكان يكون ذلك بعد عصيانه ، وتعديه لحدود الله . فيستحق العقوبة . فيلعن من يقصد تحليل المرأة له . و يلعن هو أيضاً . لأنهما تعاونا على الإثم والعدوان .

المحدثات أوقعت الناس فى الحرام

فلما حدث الحلف بالطلاق ، واعتقد كثير من الفقهاء : أن الحانث يلزمه ما ألزمه نفسه . وأنه لا تجزئه كفارة يمين . واعتقد كثير منهم : أن الطلاق المحرم يلزم . واعتقد كثير منهم : أن جمع الثلاث ليس بمحرم . واعتقد كثير منهم : أن طلاق السكران يقع . واعتقد كثير منهم : أن طلاق المكره يقع . وكان بعض هذه الأقوال مما تنازع فيه الصحابة ، و بعضها مما قيل بعدهم : كثر اعتقاد الناس بوقوع الطلاق المحرَّم ، مع ما يقع من الضرر العظيم ، والفساد فى الدين والدنيا بمفارقة الرجل امرأته .

فصار الملزِمون بالطلاق المحرم فى هذه المواضع المتنازع فيها حزبين : حزباً اتبعوا ماجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضى الله عنهم فى تحريم التحليل . فحرموا هذا ، مع تحريمهم لما لم يحرمه الرسول صلى الله عليه وسلم فى تلك

الصور . فصار فى قولهم من الأغلال والآصار ، والحرج العظيم ، المفضى إلى مفاسد عظيمة فى الدين والدنيا أمور :

منها : ردة بعض الناس عن الإسلام ، حين أُفتى بإلزامه ما التزمه .

ومنها : سفك الدم المعصوم .

ومنها : زوال العقل .

ومنها : العداوة بين الناس .

ومنها : تنقيص شريعة الإسلام .

إلى كثير من الآثام ، إلى غير ذلك من الأمور .

وحزباً رأوا أن يزيلوا ذلك الحرج العظيم بأنواع من الحيل التى بها تعود المرأة إلى زوجها .

ما أحدث من الحيل كان سبباً فى الطعن على الإسلام

وكان مما أُحدث أولا : نكاح التحليل . ورأى طائفة من العلماء أن فاعله يثاب ، لما رأى فى ذلك من إزالة تلك المفاسد بإعادة المرأة إلى زوجها . وكان هذا حيلة للتخلص من جميع صور وقوع الطلاق .

ثم أحدثت فى الأيمان حيل أخرى .

فأحدث أولا الاحتيال فى لفظ اليمين . ثم أحدث الاحتيال بخلع اليمين . ثم أحدث الاحتيال بدور الطلاق . ثم أحدث الاحتيال بطلب إفساد النكاح .

وقد أنكر جمهور السلف والعلماء وأئمتهم هذه الحيل وأمثالها . ورأوا أن فى ذلك إبطال حكمة الشريعة ، و إبطال حقائق الأيمان المودعة فى آيات الله . وجعل ذلك من جنس المخادعة ، والاستهزاء بآيات الله . حتى قال أيوب السختيانى فى مثل هؤلاء « يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان . لو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون على » .

ثم تسلط الكفار والمنافقون بهذه الأمور على القدح فى الرسول صلى الله

عليه وسلم . وجعلوا ذلك من أعظم ما يحتجون به على من أمر به ، ونصره وعزره ، ومن أعظم مايصدون به عن سبيل الله ، و يمنعون من أراد الإيمان به . ومن أعظم ما يمتنع الواحد منهم به عن الإيمان ، كما أخبر من أُمر منهم بذلك عن نفسه . وذكر : أنه كان يتبين له محاسن الإسلام ، إلا ما كان من جنس التحليل . فإنه الذى لا يجد فيه ما يشفى الغليل .

الأيمان المحدثة ، والتحليل : من الخبائث والآصار

التى تنافى شريعة رسول الله

وقد قال تعالى (٧ : ١٥٦ ، ١٥٧ ورحمتى وسعت كل شىء . فسأكتبها للذين يتقون و يؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل . يأمرهم بالمعروف . و ينهاهم عن المنكر . و يُحِلُّ لهم الطيبات ، و يحرم عليهم الخبائث . و يضع عنهم إصْرَهم والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعَزَّروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون) .

فوصف الله رسوله بأنه يأمر بكل معروف . و ينهى عن كل منكر . و يحل كل طيب . و يحرم كل خبيث . و يضع الآصار والأغلال التى كانت على من قبله . وكل من خالف ما جاء به من الكتاب والحكمة ـ من الأقوال الموجودة ـ فهىَ من الأقوال المبتدعة ، التى أحسنُ أحوالها : أن تكون من الشرع المنسوخ ، الذى رفعه الله بشرع محمد صلى الله عليه وسلم ، و إن كان قائله من أفضل الأمة وأجلها . وهو فى ذلك القول مجتهد قد اتقى الله ما استطاع . وهو مثاب على اجتهاده وتقواه . مغفور له خطؤه . فلا يلزم الرسول بقول قاله غيره باجتهاده .

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيحين أنه قال « إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران . و إذا اجتهد الحاكم فأخطأ ، فله أجر » .

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : أنه كان يقول ـ لمن بعثه أميراً على سرية أو جيش ـ « و إذا حاصرت أهل حصن ، فسألوك : أن تُنزلهم على حكم الله . فلا تنزلهم على حكم الله . فإنك لا تدرى ما حكم الله فيهم . ولـكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك » .

وهذا يوافق ما ثبت فى الصحيح « أن سعد بن معاذ لما حكمه النبى صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظه ـ وكان النبى صلي الله عليه وسلم قد حاصرهم ، ونزلوا على حكمه ، فأنزلهم على حكم سعد بن معاذ ، لـما طلب منه حلفاؤهم من الأنصار : أن يحسن إليهم . وكان سعـد بن معاذ على خلاف ما ظن به بعض قومه ، مقدماً لرضى الله ورسوله على رضى قومه . ولهذا لـما مات اهتز له عرش الرحمن ، فرحاً بقدوم روحه ـ فحكم فيهم : أن تقتل مقاتلتهم ، و يسبى حريمهم ، وتقسم أموالهم فقال النبى صلى الله عليه وسـلم : لقد حكمت فيهم بحكم الملك ـ وفى رواية : لقد حكمت فيهم بحكم الله ـ من فوق سبع سموات » .

اجتهاد العلماء ورثة الأنبياء

والعلماء ورثة الأنبياء . وقد قال تعـالى (٢١ : ٧٨ ، ٧٩ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث . إذ نفشت فيه غنم القوم . وكنا لحـكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان . وكلا آتينا حكما وعلما) فهذان نبيان كريمان حكما فى حكومة واحدة ، فخص الله أحدهما بفهمها ، مع ثنائه علي كل منهما بأنه آتاه حكما وعلما .

فـكذلك العلماء المجتهدون رضى الله عنهم ، للمصيب منهم أجران ، وللآخر أجر . وكل منهم مطيع لله بحسب استطاعته . ولا يكلفه الله ما عجز عن علمه .

ومع هذا فلا يلزم الرسول صلى الله عليه وسلم بقول غيره . ولا يلزم ما جاء به من الشريعة شيء من الأقوال المحدثة ، لاسيما إن كانت شنيعة .

ولهذا كان الصحابة رضى الله عنهم إذا حكموا باجتهـادهم ينزهون شرع الرسول صلى الله عليه وسلم عن خطأهم وخطأ غيرهم ، كما قال عبد الله بن مسعود

رضى الله عنه ــ فى المفوضة ــ « أقول فيها برأيى ، فإن يكن صواباً فمن الله . وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان . والله ورسوله بريئان منه » وكذلك روى عن الصديق رضى الله عنه فى الكلالة . وكذلك عن عمر رضى الله عنه فى بعض الأمور .

وهذا مع أنهم كانوا يصيبون فيما يقولونه على هذا الوجه ، حتى ليوجد النص موافقاً لاجتهادهم . كما وافق النص اجتهاد ابن مسعود وغيره .

وإنما كانوا أعلم بالله وبرسوله وبما يجب من تعظيم شرع الرسول صلى الله عليه وسلم : أن يضيفوا إليه إلا ما علموه منه .

وما أخطأوا فيه ــ وإن كانوا مجتهدين ــ قالوا : إن الله ورسوله بريئان منه .

وقد قال الله تعالى (٥ : ٩٩ ما على الرسول إلا البلاغ . والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) وقال (٢٤ : ٥٤ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فإن تولوا : فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُملتم . وإن تطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلا البلاغ المبين) وقال (٧ : ٦ فلنسألن الذين أُرسِل إليهم ولنسألن المرسلين) .

ولهذا توجد المسائل التى تنازعت فيها الأمة على أقوال . وإنما القول الذى بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم واحد منها ، وسائرها خطأ مغفور ، إذا كان أهلها من أهل الاجتهاد ــ أهل العلم والدين ــ فهم مطيعون لله ورسوله ، مأجورون غير مأزورين كما إذا خفيت جهة القبلة فى السفر : اجتهد كل قوم . فصلوا إلى جهة من الجهات الأربع . فإن الكعبة ليست إلا فى جهة واحدة منها ، وسائر المصلين مأجورون على صلاتهم ، حيث اتقوا الله ما استطاعوا .

ومن آيات ما بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم : أنه إذا ذكر مع غيره ــ على الوجه المبين ــ ظهر النور والهدى على ما بعث به ، وعلم أن القول الآخر دونه .

فإن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد قال الله سبحانه وتعالى (١٧ : ٨٨ قل لئِن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله . ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وهذا

التحدى والتعجيز ثابت فى لفظه ونظمه ومعناه ، كما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

ومن أمثال ذلك : ماتنازع المسلمون فيه من مسائل الطلاق . فإنك تجد الأقوال فيها ثلاثة : قول فيه آصار وأغلال ، وقول فيه خداع واحتيال ، وقول فيه علم واعتدال . فقول يتضمن نوعاً من الظلم والفاحشة والعار . وقول يتضمن سبيل المهاجرين والأنصار .

وتجدهم فى مجالس الأيمان بالنذر والطلاق والعتاق على ثلاثة أقوال :

قول : يسقط حرمة أيمان المسلمين ، ويجعلها بمنزلة أيمان المشركين .

وقول : يجعل الأيمان لازمة . ليس فيها كفارة ولا تَحِلَّة ، كما كان شرع غير أهل القبلة .

وقول : يقيم حرمة أيمان التوحيد والإيمان . ويفرق بينها وبين أيمان أهل الشرك والأوثان . ويجعل فيها من الكفارة والتحليل ، ما جاء به نص التنزيل . واختص به أهل القرآن ، دون أهل التوراة والإنجيل .

وهذا هو الشرع الذى جاء به خاتم المرسلين وإمام المتقين ، أفضل الخلق أجمعين . صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كبيراً .

آخره والحمد لله رب العالمين .

الأمر بالمعروف . والنهى عن المنكر

من درر

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

٦٦١ – ٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل فى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هو الذى أنزل الله به كتبه . وأرسل به رسله . وهو من الدين .

فإن رسالة الله : إما إخبار ، وإما إنشاء . فالإخبار : عن نفسه ، وعن خلقه مثل التوحيد ، والقصص الذى يندرج فيه الوعد والوعيد . والإنشاء : الأمر والنهى والإباحة .

وهذا كما ذكر فى الحديث أن « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » لتضمنها الثلث الذى هو التوحيد . إذ القرآن : قصص ، وتوحيد ، وأمر .

وقوله سبحانه فى صفة نبينا صلى الله عليه وسلم (٧ : ١٥٧ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ويُحِل لهم الطيبات . ويحرم عليهم الخبائث) هو بيان لكمال رسالته . فإنه صلى الله عليه وسلم هو الذى أمر الله على لسانه بكل معروف . ونهى عن كل منكر . وأحل كل طيب . وحرم كل خبيث .

ولهذا روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

وقال فى الحديث المتفق عليه « إنما مثلى ومثل الأنبياء : كمثل رجل بنى داراً . فأتمها وأكملها ، إلا موضع لَبِنَة ، فكان الناس يُطيفون بها ، ويعجبون من حسنها ، ويقولون : لولا موضع اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة » .

فبه أكمَلَ الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف ، والنهى عن كل منكر ، وإحلال كل طيب ، وتحريم كل خبيث .

وأما من كان قبله من الرسل : فقد كان يحرم على أممهم بعض الطيبات . كما قال الله تعالى (٤ : ١٦٠ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) .

ور بما لم يحرم عليهم جميع الخبائث ، كما قال تعالى (٣ : ٩٣ كل الطعام كان حِلًّا لبنى إسرائيل ، إلا ماحَرَّم إسرائيل على نفسه ، من قبل أن تنزل التوراة).

وتحريم الخبائث : يندرج فى معنى النهى عن المنكر ، كما أن إحلال الطيبات : يندرج فى الأمر بالمعروف . لأن تحريم الطيبات ممانهى الله عنه . وكذلك الأمر بجميع المعروف ، والنهى عن كل منكر : مما لم يتم إلا لرسول الله الذى تمم الله به مكارم الأخلاق المندرجة فى المعروف . وقد قال الله تعالى (٥ : ٣ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى . ورضيت لكم الإسلام دينا) فقد أكمل الله لنا الدين . وأتم علينا النعمة . ورضى لنا الإسلام دينا .

وكذلك وصف الأمة بما وصف به نبيها ، حيث قال (٣:١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف . وتنهون عن المنكر . وتؤمنون بالله) وقال تعالى (٩ : ٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

ولهذا قال أبو هريرة رضى الله عنه « كنتم خير الناس للناس . تأتون بهم فى القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة » .

فبين الله سبحانه : أن هذه الأمة خير الأمم للناس . فهم أنفعهم لهم . وأعظمهم إحسانا إليهم . لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقَدْر ، حيث أمروا بكل معروف ، ونهوا عن كل منكر لكل أحد ، وأقاموا ذلك بالجهاد فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم . وهذا كمال النفع للخلق .

وسائر الأمم لم يأمروا كل أحد بكل معروف ، ولا نهوا كل أحد عن كل منكر ، ولا جاهدوا على ذلك ، بل منهم من لم يجاهد . والذين جاهدوا ـ كبنى إسرائيل ـ فعامة جهادهم :كان لدفع عدوهم عن أرضهم ، كما يُقاتَل الصائل الظالم ، لالدعوة المجاهَدين إلى الهدى والخير . ولأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن

المنكر، كما قال موسى لقومه (٥ : ٢١ ـ ٢٤ ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم . ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : ياموسى ، إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ـ إلى قوله ـ قالوا : يا موسى ، إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ههنا قاعدون) .

وقال تعالى (٢ : ٢٤٦ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ؟ إذ قالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نُقاتل فى سبيل الله . قال : هل عسيتم إن كُتِب عليكم القتال أن لا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ؟ وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) فعللوا القتال : بأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم . ومع هذا كانوا ناكلين عما أُمروا به من ذلك . ولهذا لم تحل لهم الغنائم ، ولم يكونوا يطؤون بملك اليمين .

ومعلوم أن أعظم الأمم المؤمنين قبلنا : هم بنو إسرائيل ، كما جاء فى الحديث المتفق على صحته فى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « عُرِضَتْ عليَّ البارحة الأنبياء بأممهم . فجعل النبي يمر ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان . والنبي ومعه الرهط . والنبي وليس معه أحد . ورأيت سواداً كثيراً ـ وفى رواية : فإذا الظِّراب ممتلئة بالرجال ـ فقلت : هذه أمتى ؟ فقيل : هؤلاء بنو إسرائيل . ولكن انظر هكذا وهكذا . فرأيت سواداً كثيراً قد سَدَّ الأفق . قيل : هؤلاء أمتك . ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس . ولم يبين لهم . فتذاكر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أما نحنُ فوُلدنا فى الشرك ، ولكنا آمنا بالله ورسوله . ولكن هؤلاء أبناؤنا ؟ فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : هم الذين لايكتوون . ولايسترقون . ولايتطيرون . وعلى ربهم يتوكلون . فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن . فقال : أمنهم أنا يارسول الله ؟ قال : نعم . فقام آخر ، فقال : أمنهم أنا ؟ فقال : سبقك بها عكاشة » .

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة . لأن الله تعالى قد أخبر : أنهم يأمرون بكل معروف . وينهون عن كل منكر . فلو اتفقوا على إباحة محرم ، أو إسقاط واجب ، أو تحريم حلالٍ ، أو إخبارٍ عن الله تعالى أو خلقه بباطل : كانوا متصفين بالأمر بالمنكر ، والنهى عن المعروف . والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ليس من الكلم الطيب والعمل الصالح . بل الآية تقتضى : أن مالم تأمر به الأمة : فليس من المعروف ، ومالم تنه عنه : فليس من المنكر . إذ كانت آمرة بكل معروف ، ناهية عن كل منكر . فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر ، أو تنهى كلها عن معروف ؟

والله سبحانه وتعالى ــ كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ــ فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله (٣ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . وأولئك هم المفلحون) .

وإذا أخبر الله بوقوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها ، لم يكن من شرط ذلك : أن يصل أمر الآمر ونهى الناهى منها إلى كل مكلف فى العالم . إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة . فكيف يشترط فيما هو من توابعها ؟ بل الشرط : أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم . ثم إذا فرطوا فلم يَسْعَوا فى وصوله إليهم ــ مع قيام فاعله بما يجب عليه ــ كان التفريط منهم لا منه .

وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يجب على كل أحد بعينه . بل هو على الكفاية ، كما دل عليه القرآن .

ولما كان الجهاد من تمام ذلك : كان الجهاد أيضاً كذلك . فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه : أثم كل قادر بحسب قدرته . إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » .

وإذا كان كذلك ، فمعلوم : أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإتمامه

بالجهاد : هو من أعظم المعروف الذى أمرنا به . ولهذا قيل « ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف ، ونهيك عن المنكر غير منكر » .

الأمر بالمعروف لا يكون إلا بالمعروف

وإذا كان هو من أعظم الواجبات أو المستحبات . فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة . إذ بهذا بُعثت الرسل ، ونزلت الكتب . والله لا يحب الفساد . بل كل ما أمر الله به فهو صلاح . وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات . وذم الفساد والمفسدين فى غير موضع .

فحيث كانت مفسدة الأمر والنهى أعظم من مصلحته : لم يكن مما أمر الله به ، وإن كان قد تُرِكَ واجبٌ وفُعِلَ محرم . إذ المؤمن عليه أن يتقى الله فى عباد الله وليس عليه هداهم .

وهذا من معنى قوله تعالى (٥ : ١٠٥ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم لايضركم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم) والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب .

فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — كما قام بغيره من الواجبات — لم يضره ضلال الضال .

وذلك يكون تارة بالقلب . وتارة باللسان .وتارة باليد .

فأما القلب : فيجب بكل حال . إذ لاضرر فى فعله . ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « وذلك أدنى — أو أضعف — الإيمان » وقال « ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وقيل لابن مسعود رضى الله عنه « من ميت الأحياء ؟ فقال : الذى لايعرف معروفا ، ولا ينكر منكراً » وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه « كالكُوزِ مُجَخِّياً »[1] فى حديث حذيفة بن اليمان

---

(١) المجخى — بفتح الجيم وكسر الخاء مشدداً — المائل عن الاستقامة والاعتدال . شبه القلب الذى لايعى الخير بالكوز المائل الذى لايثبت فيه شىء

رضى الله عنهما فى الصحيحين « تعرض الفتن على القلوب عرضَ الحصير ـ الحديث » .

من هم الآمرون بالمعروف ؟!!

وهنا يغلط فريقان من الناس .

فريق يترك ما يجب عليه من الأمر والنهى ، تأويلا لهـذه الآية . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته « أيها الناس ، إنـكم تقرؤون هذه الآية (٥ : ١٠٥ عليـكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) و إنكم تضعونها على غير موضعها . و إنى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن النـاس إذا رأوا المنـكر فلم يغيروه ، أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب منه » .

والفريق الثانى : من يريد أن يأمر و ينهى ـ إما بلسانه ، و إما بيده ـ مطلقاً من غير فقه ، ولاحلم ولاصبر ، ولا نظر فيما يصلح من ذلك وما لايصلح ، ومايقدر وعليه وما لا يقدر ، كما فى حديث أبى ثعلبة الخشنى سألت عنها ـ يعنى الآية ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بل ائتمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر . حتى إذا رأيت شُحاً مطاعاً وهوى متبعاً ، ودنيا مُؤثَرة ، و إعجاب كل ذى رأى برأيه . ورأيت أمراً لايَدان لك به ، فعليك بنفسك . ودع عنك أمر العوام . فإن من ورائك أيام الصبر . الصبر فيهن مثل قبض على الجمر . للعامل فيهن كأجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله » .

فيأتى بالأمر والنهى معتقداً أنه مطيع لله ولرسوله . وهو معتد فى حدوده ، كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهى ، كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهى والجهـاد على ذلك . وكان فساده أعظم من صلاحه .

ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم « بالصبر على جور الأئمة . ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة » وقال « أدوا إليهم حقوقهم . وسلوا الله حقوقكم » .

وقد بسطنا القول فى ذلك فى غير هذا الموضع .

لزوم السنة والجماعة

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة : لزوم الجماعة ، وترك قتال الأئمة ، وترك ، القتال فى الفتنة .

وأما أهل الأهواء ــ كالمعتزلة ــ فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم .

وتجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة « التوحيد » الذى هو سلب الصفات . و « العدل » الذى هو التكذيب بالقدر . و « المنزلة بين المنزلتين » و « إنفاذ الوعيد » و « الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » الذى فيه قتال الأئمة .

وقد تكلمتُ على قتال الأئمة فى غير هذا الموضع .

وجماع ذلك : داخل فى القاعدة العامة ، فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد ، والحسنات والسيئات ، أو تزاحمت . فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد ، وتعارضت المصالح والمفاسد .

فإن الأمر والنهى ــ وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ، ودفع مفسدة ــ فينظر فى المعارض له . فإن كان الذى يفوت من المصالح ، أو يحصل من المفاسد : أكثر . لم يكن مأموراً به ، بل يكون محرما ، إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته .

الاعتبار بالمصالح والمفاسد

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة .

فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص : لم يعدل عنها ، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر . وقَلَّ إن تُعْوِزَ النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام .

وعلى هذا : إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لايفرقون بينهما ، بل إما أن يفعلوهما جميعاً ، أو يتركوهما جميعاً : لم يجز أن يؤمروا بمعروف ، ولا أن ينهوا عن منكر ، بل ينظر . فإن كان المعروف أكثر : أمر به . وإن استلزم ماهو دونه من المنكر . ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهى حينئذ من باب الصد عن سبيل الله ، والسعى فى زوال طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وزوال فعل الحسنات .

وإن كان المنكر أغلب : نهى عنه . وإن استلزم فوات ماهو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف ، المستلزم للمنكر الزائد عليه : أمراً بمنكر ، وسعياً فى معصية الله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان : لم يأمر بهما . ولم ينه عنهما . فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهى ، وتارة لايصلح لا أمر ولا نهى ، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين . وذلك فى الأمور المعينة الواقعة .

وأما من جهة النوع : فيؤمر بالمعروف مطلقا ، وينهى عن المنكر مطلقاً .

وفى الفاعل الواحد والطائفة الواحدة : يؤمر بمعروفها ، وينهى عن منكرها . ويحمد محمودها . ويذم مذمومها ، بحيث لايتضمن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه ، أوحصول منكر فوقه . ولا يتضمن النهى عن المنكر حصول ماهو أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه .

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن ، حتى يتبين له الحق . فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية . وإذا تركها كان عاصياً . فترك الأمر الواجب معصية . وفعل مانهى عنه من الأمر معصية . وهذا باب واسع . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هدى رسول الله فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ومن هذا الباب : ترك النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أُبى ابن سُلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور ، لما لهم من أعوان . فإزالة منكره بنوع من عقابه

مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم ، و بنفور الناس إذا سمعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه . ولهذا لما خطب الناسَ فى قضية الإفك بما خطبهم به ، واعتذر عنه ، وقال له سعد بن معاذ قوله الذى أحسن فيه : حمى له سعد بن عبادة — مع حسن إيمانه وصدقه — وتعصب لكل منهم قبيلةُ حتى كادت تكون فتنة .

وأصل هذا : أن تكون محبة الإنسان للمعروف و بغضه ، و إرادته لهذا وكراهته لهذا : موافقاً لحب الله و بغضه ، وإرادته وكراهته الشرعيين . وأن يكون فعله للمحبوب ، ودفعه للمكروه ، بحسب قوته وقدرته . فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وقد قال (٦٤ : ١٦ فاتقوا الله ما استطعتم)

الموالاة والمعاداة القلبية

فأما حب القلب و بغضه ، و إرادته وكراهته : فينبغى أن تكون كاملة جازمة ، لاتوجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان . وأما فعل البدن : فهو بحسب قدرته .

ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة ، وفعل العبد معها بحسب قدرته . فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع .

فإن من الناس من يكون حبه و بغضه و إرادته وكراهته بحسب محبة نفسه و بغضها ، لا بحسب محبة الله ورسوله ، و بغض الله ورسوله . وهذا من نوع الهوى . فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه (٢٨ : ٥٠ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) فإن أصل الهوى : هو محبة النفس . و يتبع ذلك بغضها .

حقيقة الهوى

ونفس الهوى — وهو الحب والبغض الذى فى النفس — لايلام العبد عليه . فإن ذلك قد لا يملكه . و إنما يلام على اتباعه ، كما قال تعالى (٣٨ : ٢٦ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض . فاحكم بين الناس بالحق . ولا تتبع الهوى فيضلك

عن سبيل الله) وقال تعالى (٢٨ : ٥٠ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث منجيات : خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الفقر والغنى . وكلمة الحق فى الغضب والرضى . وثلاث مهلكات : شُح مطاع . وهوى متبع . و إعجاب المرء بنفسه » .

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغوض ، ووجد و إرادة وغير ذلك . فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله : فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه .

واتباع الأهواء فى الديانات أعظم من اتباع الأهواء فى المشتهيات .

فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، كما قال الله تعالى (٢٨: ٥٠ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله. والله لا يهدى القوم الظالمين) وقال تعالى (٣٠ : ٢٨ ، ٢٩ ضرب لكم مثلا من أنفسكم . هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم . فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفَتِكم أنفسكم ؟ كذلك نُفَصِّل الآيات لقوم يعقلون . بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم . فمن يهدى من أضل الله؟ ومالهم من ناصرين) وقال تعالى (٦: ١١٩ وقد فصل لكم ماحرم عليكم إلا مااضطررتم إليه . و إن كثير ليَضِلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين) وقال تعالى (٥ : ٧٧ قل : يا أهل الكتاب ، لاتغلوا فى دينكم غير الحق . ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً . وضلوا عن سواء السبيل) وقال تعالى (٢ : ١٢٠ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع مِلَّتهم . قل : إن هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) وقال فى الآية الأخرى (٢ : ١٤٥ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين) وقال تعالى (٥ : ٤٩ وأن أحكم بينهم بما أنزل الله . ولا تتبع أهواءهم . واحْذَرْهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) .

ولهـذا كان من خرج عن موجب الـكتاب والسنة ـ من المنسو بين إلى العلماء والعباد ـ يجعل من أهل الأهواء ، كما كان السلف رحمهم الله يسمونهم « أهل الأهواء » .

وذلك : أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه . والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذى بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم . ولهذا قال تعـالى فى موضع (٦ : ١١٩ و إن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم) وقال فى موضع آخر (٢٨:٥٠ ومن أضل ممن تبع هواه بغير هدى من الله ؟) .

فالواجب على العبد : أن ينظر فى نفس حبه و بغضه . ومقدار حبه و بغضه : هل هو موافق لأمر الله ورسوله ؟ وهو هُدى الله الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، بحيث يكون مأموراً بذلك الحب والبغض . لا يكون متقدماً فيه بين يدى الله ورسوله . فإن الله تعالى قد قال (٤٩:١ يا أيها الذين آمنوا لا تُقَدِّموا بين يدى الله ورسوله) .

ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله : ففيه نوع من التقدم بين يدى الله ورســوله . ومجرد الحب والبغض هوًى . لـكن المحرم منه : اتباع حبه و بغضه بغير هدًى من الله . ولهذا قال لنبيه داود (٣٨ : ٢٦ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يَضِلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد) .

فأخبر : أن من اتبع هواه : أضله ذلك عن سبيل الله . وسبيل الله هو هداه الذي بعث به رسوله ، وهو السبيل إليه .

الإخلاص واتباع السنة شرط قبول العمل

وتحقيق ذلك : أن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنـكر : هو من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها . وقد قال تعالى (٦٧ : ٢ ليبلوكم : أيكم أحسن عملا ؟)

وهو كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله : أخلصه وأصو به . فإن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صوابا : لم يقبل . و إذا كان صوابا ، ولم يكن خالصاً : لم

يقبل ، حتى يكون خالصاً صوابا . والخالص : أن يكون لله . والصواب : أن يكون على السنة .

فالعمل الصالح : لابد أن يراد به وجه الله تعالى . فإن الله تعالى لايقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده . كما فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء . وهو كله للذى أشرك »[1] .

التوحيد الذى بعث الله به رسله

وهذا هو التوحيد الذى هو أصل الإسلام . وهو دين الله الذى بعث به جميع رسله . وله خلق الخلق ، وهو حقه على عباده : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

ولابد ـ مع ذلك ـ أن يكون العمل صالحاً ، وهو ما أمر الله به ورسوله ، وهو الطاعة . فكل طاعة عمل صالح ، وكل عمل صالح طاعة . وهو العمل المشروع المسنون : إذ العمل المشروع المسنون : هو المأمور به أمر إيجاب ، أو استحباب . وهو العمل الصالح . وهو الحسن . وهو البر . وهو الخير . وضده : المعصية . والعمل الفاسد . والسيئة . والفجور . والظلم .

ولما كان العمل لابد فيه من شيئين : النية ، والحركة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أصدق الأسماء حارث ، وهمام » فكل أحد حارث همام : له عمل ونية . لكن النية المحمودة التى يقبلها الله ، ويثيب عليها : هى أن يراد الله وحده بذلك العمل .

والعمل المحمود : هو الصالح ، وهو المأمور به . ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه « اللهم اجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

---

(١) رواه ابن ماجه ، واللفظ له ، وابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى .

وإذا كان هذا حدَّ كل عمل صالح ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : يجب أن يكون كذلك ، هذا فى حق الآمر الناهى نفسه .

العلم والفقه شرط فى الآمر الناهى

ولا يكون عمله صالحاً إن لم يكن بعلم وفقهٍ . كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه « مَنْ عَبَدَ الله بغير علم : كان ما يفسد أكثر مما يصلح » وكما فى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه « العلم أمام العمل ، والعمل تابعه » وهذا ظاهر . فإن القصد والعمل : إن لم يكن بعلمٍ كان جهلاً ، وضلالاً ، واتباعاً للهوى ، كما تقدم . وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية ، وأهل الإسلام . فلابد من العلم بالمعروف والمنكر ، والتمييز بينهما . ولابد من العلم بحال المأمور وحال المنهى .

الصراط المستقيم فى الأمر بالمعروف

ومن الصلاح : أن يأتى بالأمر والنهى على الصراط المستقيم . والصراط المستقيم : أقرب الطرق الموصل إلى حصول المقصود .

ولابد فى ذلك من الرفق . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما كان الرفق فى شىء إلا زانه . ولا كان العُنف فى شىء إلا شانه » وقال صلى الله عليه وسلم « إن اللهَ رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ، ويُعطى عليه مالا يُعطى على العُنْف »

ولا بد أيضاً أن يكون حليما ، صبوراً على الأذى . فإنه لابد أن يحصل له أذًى . فإن لم يحلم ويصبر كان مايفسد أكثر مما يصلح ، كما قال لقمان لابنه (٣١ : ١٧ وأْمُرْ بالمعروف ، وانْهَ عن المنكر . واصبر على ماأصابك . إن ذلك من عزم الأمور) .

ولهذا أمر الله الرسل — وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — بالصبر ، كقوله لخاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة . فإن أول ما أرسل أنزلت عليه سورة (يا أيها المدثر) بعد أن أنزلت عليه سورة « اقرأ » التى بها نُبِّىء . فقال الله تعالى (٧٤ : ١ — ٧ يا أيها المدَّثِّر . قُمْ فأنذر . ورَبَّك

فـكَبِّر . وثيابك فطَهِّر . والرُّجْزَ فاهْجُرْ . ولا تَمْنُنْ تستكثر . ولربك فاصبر) .

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة . وختمها بالأمر بالصبر . ونفس الإنذار أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . فَعُلم أنه يجب بعد ذلك الصبر . وقال تعالى (٥٢ : ٤٨ واصبر لحكم ربك . فإنك بأعيننا) وقال تعالى (٧٣ : ١٠ فاصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلاً) وقال (٤٦ : ٣٠ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال (٦٨ : ٤٨ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) وقال (١٦ : ١٢٧ واصبر وما صبرك إلا بالله) وقال (١١ : ١١٦ واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين) .

فلا بد من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر . العلم قبل الأمر والنهى . والرفق معه . والصبر بعده .

و إن كان كل من الثلاثة لابد أن يكون مستصحباً فى هذه الأحوال .

وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف ـ ورووه مرفوعاً ـ ذكره القاضى أبو يعلى فى المعتمد « لا يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر : إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به . فقيهاً فيما ينهى عنه . رفيقاً فيما يأمر به . رفيقاً فيما ينهى عنه . حليما فيما يأمر به . حليما فيما ينهى عنه » .

لاينبغى ترك الأمر بالمعروف لصعوبته

وليعلم : أن الأمر بهذه الخصال فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر : مما يوجب صعوبته على كثير من النفوس . فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه . وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال ، أو أقل . فإن ترك الأمر الواجب معصية ، وفعل مانهى الله عنه فى الأمر معصية . فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار . والمنتقل من معصية إلى معصية كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل ، قد يكون الثانى شراً من الأول . وقد يكون دونه ، وقد يكونان سواء . فهكذا تجد المقصر فى الأمر والنهى ، والمعتدى فيه . قد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكونان سواء .

سبب المصائب : السيئات . وسبب النعم : الطاعة

ومن المعلوم ـ بما أرانا الله من آياته فى الآفاق ، وفى أنفسنا ، و بما شهد به فى كتابه ـ : أن المعاصى سبب المصائب . فسيئات المصائب والجزاء : من سيئات الأعمال . وأن الطاعة سبب النعمة . فإحسان العبد العمل سبب لإحسان الله . قال تعالى (٤٢ : ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . و يعفو عن كثير) وقال تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقال تعالى (٣ : ١٥٥ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم) وقال تعالى (٣ : ١٦٥ أوَ لَمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أنَّى هذا ؟ قل: هو من عند أنفسكم) وقال (٤٢ : ٣٤ أو يُوبِقْهُنَّ بما كسبوا و يعف عن كثير) وقال (٤٢ : ٤٨ و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) وقال تعالى (٨ : ٣٣ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) .

وقد أخبر الله سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم ـ كقوم نوح وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقوم فرعون ـ فى الدنيا . وأخبر بما سيعاقبهم به فى الآخرة . ولهذا قال مؤمن آل فرعون (٤٠ : ٣٠ ـ ٣٣ ياقوم ، إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . وما الله يريد ظلماً للعباد . و ياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ، مالكم من الله من عاصم . ومن يضلل الله فما له من هاد) .

وقال تعالى (٦٨ : ٣٣ كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر) وقال (٩ : ١٠١ سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم) وقال (٣٢ : ٢١ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) وقال (٤٤ : ١٠ ـ ١٦ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ـ إلى قوله ـ يوم نبطش البطشة الكبرى . إنا منتقمون) .

ولهذا يذكر الله فى عامة سور الإنذار ماعاقب به أهل السيئات فى الدنيا وما أعده لهم فى الآخرة . وقد يذكر فى السورة وعد الآخرة فقط . إذ عذاب الآخرة أعظم ، وثوابها أعظم . وهى دار القرار . وإنما يذكر مايذكره من الثواب والعقاب فى الدنيا تبعاً . كقوله فى قصة يوسف (١٢ : ٥٦ ، ٥٧ وكذلك مكّنا ليوسف فى الأرض . يتبوّأ منها حيث يشاء . نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال (٣ : ١٤٨ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) وقال (١٦ : ٤١ ، ٤٢ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظُلموا لنبوأنهم فى الدنيا حسنة . ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام (١٦ : ١٢٢ وآتيناه أجره فى الدنيا . وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) .

وأما ذكره لعقوبة الدنيا والآخرة ففى سورة النازعات ، إذ قال (٧٩ : ١–٤٦ والنازعات غرقا والناشطات نشطا — ثم قال — يوم ترْجُف الراجفة يتبعها الرادفة) فذكر القيامة مطلقا . ثم قال (هل أتاك حديث موسى ؟ إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طُوَى . اذهب إلى فرعون إنه طغى — إلى قوله — إن فى ذلك لعبرةً لمن يخشى) ثم ذكر المبدأ والمعاد مفصلا . فقال (أأنتم أشد خلقاً ، أم السماء ؟ بناها — إلى قوله — فإذا جاءت الطامة الكبرى — إلى قوله — فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) إلى آخر السورة .

وكذلك فى سورة المزمل ذكر قوله (٧٣ : ١١ — ١٦ وذرنى والمكذبين أولى النَّعْمة ومَهِّلْهم قليلاً . إن لدينا أنكالاً وجحيماً . وطعاماً ذا غُصّة وعذاباً أليماً — إلى قوله — كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول . فأخذناه أخذاً وَبيلاً) .

وكذلك فى سورة الحاقة ذكر قصص الأمم — كثمود ، وعاد ، وفرعون —

ثم قال تعالى (٦٩ : ١٢-٣٦ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحُمِلت الأرض والجبال فَدُكَّتا دَكَّة واحدة) إلى تمام ماذكره من أمر الجنة والنار.

وكذلك فى سورة « ن والقلم » ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حق أموالهم وماعاقبهم به . ثم قال (٦٨ : ٣٣ كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

وكذلك فى سورة « التغابن » قال (٦٤ : ٥ - ٧ ألم يأتكم نبأُ الذين كفروا من قبل ، فذاقوا وبال أمرهم ؟ ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات . فقالوا : أبشر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا . واستغنى الله . والله غنى حميد) ثم قال تعالى (زعم الذين كفروا : أن لن يبعثوا . قل : بلى ، وربى لتبعثن) ثم لَتُنَبَّؤُن بما عملتم ، وذلك على الله يسير .

وكذلك فى سورة « ق » ذكر حال المخالفين للرسل ، وذكر الوعد والوعيد فى الآخرة .

وكذلك فى سورة « القمر » ذكر هذا وهذا . وكذلك فى آل حم مثل « حم غافر » و « السجدة » و « الزخرف » و « الدخان » وغير ذلك ، إلى غير ذلك مما لايحصى .

فإن التوحيد والوعد والوعيد من أول ماأنزل ، كما فى صحيح البخارى عن يوسف بن ماهَكٍ قال « إنى عند عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، إذ جاءها عراق . فقال : أى الكفن خير ؟ قالت : ويحك ، وما يضرك ؟ قال : ياأم المؤمنين ، أرينى مصحفك . قالت : لم ؟ قال : لعلي أؤلف القرآن عليه . فإنه يُقرأ غير مؤلف . قالت : وما يضرك أيَّهُ قرأتَ قَبلُ ؟ إنما نزل أولَ مانزل منه : سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام . ثم نزل الحلال والحرام . ولو نزل أولَ شىء : لاتشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً . ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لاندع الزنا أبداً . لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم - وإنى لجارية

حديثة السن ألعبُ ـ (٥٤ : ٤٦ بل الساعةُ مَوْعِدُهم والساعةُ أَدْهَى وأَمَرّ) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده . قال : فأخرجتْ له المصحف ، فأملَتْ عليه آى السورة » .

و إذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان ، فقد يذنب الرجل والطائفة ، و يسكت آخرون عن الأمر والنهى . فيكون ذلك من ذنوبهم . و ينكر عليهم آخرون إنكاراً منهياً عنه ، فيكون ذلك من ذنوبهم . فيحصل التفرق والاختلاف والشر . وهذا من أعظم الفتن والشرور قديماً وحديثاً . إذ الإنسان ظلوم جهول . والظلم والجهل أنواع . فيكون ظلم الأول وجهله من نوع ، وظلم كل من الثانى والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر .

أسباب الفتن

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك . ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ، ومن دخل فى ذلك من ملوكها ومشايخها ، ومن تبعهم من العامة من الفتن هذا أصلها . و يدخل فى ذلك أسباب الضلال والغى : الأهواء الدينية والشهوانية ، البدع فى الدين ، والفجور فى الدنيا .

وذلك أن أسباب الضلال والغى ، التى هى البدع فى الدين والفجور فى الدنيا : مشتركة ، تعم بنى آدم ، لما فيهم من الظلم والجهل . فيذنب بعض الناس بظلم نفسه وغيره ـ بفعل الزنا أو التلوط أو غيره ، أو بشرب خمر . أو ظلم فى المال بخيانة أو سرقة ، أو غصب ونحو ذلك .

ومعلوم أن هذه المعاصى ـ و إن كانت مستقبحة مذمومة فى العقل والدين ـ فهى مشتهاة فى الطباع أيضاً . ومن شأن النفوس : أنها لا تحب اختصاص غيرها بشىء وزيادته عليها ، لكن تريد أن يحصل لها ماحصل له . وهذا هو الغبطة التى هى أدنى نوعى الحسد . فهى تريد الاستعلاء على الغير ، والاستئثار دونه ، أو تحسده وتتمنى زوال النعمة عنه ، و إن لم يحصل . ففيها من إرادة العلو والفساد

والاستكبار والحسد ما يتقاضاها : أن تختص عن غيرها بالشهوات . فكيف إذا رأت الغير قد استأثر عليها بذلك ، واختص به دونها ؟ فالمعتدل منهم فى ذلك : الذى يحب الاشتراك والتساوى . وأما الآخر : فظلوم حسود .

وهذان يقعان فى الأمور المباحة والأمور المحرمة لحق الله .

فما كان جنسه مباحاً — من أكل وشرب ، ونكاح ، ولباس ، وركوب ، وأموال — إذا وقع فيها الاختصاص : حصل بسببه الظلم والبخل والحسد .

وأصلها الشح . كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إياكم والشح . فإنه أهلك من كان قبلكم . أمرهم بالبخل فبخلوا . وأمرهم بالظلم فظلموا . وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » ولهذا قال الله تعالى فى وصف الأنصار (٥٩ : ٩ والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم) أى من قبل المهاجرين (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) أى لا يجدون الحسد مما أوتى إخوانهم من المهاجرين (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ثم قال (ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون) .

وسمع عبد الرحمن بن عوف وهو يطوف بالبيت يقول « رَبِّ قِنِي شُحَّ نفسى . رب قنى شح نفسى » فقيل له فى ذلك . فقال « إذا وُقيت شح نفسى فقد وقيت البخل والظلم والقطيعة » أو كما قال .

فهذا الشح — الذى هو شدة حرص النفس — : يوجب البخل بمنع ما عليه ، والظلم بأخذ مال الغير . ويوجب قطيعة الرحم . ويوجب الحسد . وهو كراهة ما اختص به الغير وتمنى زواله والحسد فيه بخل ، وظلم . فإنه بخل بما أعطيه عن غيره . وظلم بطلب زوال ذلك عنه .

فإذا كان هذا فى جنس الشهوات المباحة ، فكيف بالمحرمة ، كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك ؟ وإذا وقع فيها اختصاص ، فإنه يصير فيها نوعان .

أحدهما : بغضها لما فى ذلك من الاختصاص والظلم ، كما يقع فى الأمور المباحة الجنس .

والثانى : بغضها لما فى ذلك من حق الله .

الذنوب ثلاثة أقسام

ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام .

أحدها : مافيه ظلم للناس ، كالظلم بأخذ الأموال ، ومنع الحقوق ، والحسد ونحو ذلك .

والثانى : مافيه ظلم للنفس فقط ، كشرب الخمر والزنا ، إذا لم يتعد ضررهما .

والثالث : ما يجتمع فيه الأمران . مثل أن يأخذ المتولى أموال الناس ليزنى بها و يشرب بها الخمر . ومثل أن يزنى بمن يرفعه على الناس بذلك السبب و يضرهم ، كما يقع ممن يحب بعض النساء والصبيان . وقد قال الله تعالى (٧ : ٣٣ قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) .

إنما تستقيم أمور الناس بالعدل

وأمور الناس إنما تستقيم فى الدنيا مع العدل الذى قد يكون فيه الاشتراك فى بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق ، و إن لم تشترك فى إثم . ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة ، و إن كانت كافرة . ولا يقيم الظالمة ، و إن كانت مسلمة .

و يقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر . ولا تدوم مع الظلم والإسلام [١] .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « ليس ذنب أسرع عقو بة من البغى وقطيعة الرحم » فالباغى يصرع فى الدنيا ، و إن كان مغفورا له مرحوما فى الآخرة .

---

(١) يقصد الظاهر من شرائع الإسلام . أما الإسلام الصادق ــ علماً وعقيدة وعملا : فلا يكون معه ظلم .

وذلك : أن العدل نظام كل شيء . فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق . ومتى لم تقم بالعدل لم تقم . وإن كان لصاحبها من الإيمان مايجزى به فى الآخرة .

طبيعة النفس حب العلو

فالنفس فيها داعى الظلم لغيرها بالعلو عليه ، والحسد له ، والتعدى عليه فى حقه . وفيها داعى الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة ـ كالزنا وأكل الخبائث ـ فهى قد تظلم من لا يظلمها . وتؤثر هذه الشهوات ، وإن لم يفعلها غيرها . فإذا رأت نظراءها قد ظلموا ، أو تناولوا هذه الشهوات : صار داعى هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير .

وقد يصير ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده ، وطلب عقابه ، وزوال الخير عنه ، مالم يكن فيها قبل ذلك . ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين ، يكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين . وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر والجهاد على ذلك من الدين .

والناس هنا ثلاثة أقسام : قوم لايقومون إلا فى أهواء نفوسهم . فلا يرضون إلا بما يعطونه ، ولا يغضبون إلا لما يحرمونه . فإذا أعطى أحدهم مايشتهيه من الشهوات الحلال أو الحرم : زال غضبه . وحصل رضاه . وصار الأمر الذى كان عنده منكراً ـ ينهى عنه ويعاقب عليه ، ويذم صاحبه ، ويغضب عليه ـ صار فاعلا له ، وشريكا فيه ، ومعاونا عليه ، ومعاديا لمن ينهى عنه وينكر عليه .

وهذا غالب فى بنى آدم . ترى الإنسان يسمع من ذلك مالا يحصيه إلا الله .

وسببه : أن الإنسان ظلوم جهول . فلذلك لايعدل ، بل ربما كان ظالما فى الحالين . يرى قوماً ينكرون على المتولى ظلمه لرعيته ، واعتداءه عليهم . فيُرضِى أولئك المنكرين ببعض الشيء ، فينقلبون أعوانا له . وأحسن أحوالهم : أن يسكتوا عن الإنكار عليه . وكذلك تراهم على من يشرب الخمر ويزني ، ويسمع الملاهى ،

حتى يُدخلوا أحدهم معهم فى ذلك ، أو يرضوه ببعض ذلك . فتراه حينئذ قد صار عوناً لهم .

وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أقبح من الحال التى كانوا عليها . وقد يعودون إلى ماهو دون ذلك أو نظيره .

وقوم يقومون قومة ديانة صحيحة ، يكونون فى ذلك مخلصين لله ، مصلحين فيما عملوه ، و يستقيم لهم ذلك ، حتى يصبروا على ما أوذوا . فهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وهم من خير أمة أخرجت للناس . يأمرون بالمعروف . و ينهون عن المنكر . و يؤمنون بالله .

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا . وهم من غالب المؤمنين .

فمن فيه دين وله شهوة يجتمع فى قلبه إرادة الطاعة وإرادة المعصية . ور بما غلب هذا تارة وهذا تارة .

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل : الأنفس ثلاث : أمارة ، ولَوَّامة ، ومطمئنة .

فالأولون : هم أهل النفس الأمارة التى تأمر بالسوء .

والوسط : هم أهل النفس المطمئنة التى يقال لها (٨٩ : ٢٧ ـ ٣٠ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ر بك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى)

وهؤلاء هم أهل النفس اللوامة ، التى تفعل الذنب ثم تلوم عليه . وتتلون . تارة كذا وتارة كذا . وتخلط عملا صالحا وآخر سيئاً .

ولهذا لما كان الناس فى زمن أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ـ وهما اللذان أُمِر المسلمون بالاقتداء بهما ـ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر » لما كان الناس أقرب عهداً بالرسالة ، وأعظم إيماناً وصلاحاً ، وأئمتهم أقوم بالواجب ، وأثبت فى الطمأنينة : لم تقع فتنة . إذ كانوا فى حكم القسم الوسط .

ولما كان فى آخر خلافة عثمان ، وفى خلافة علي رضى الله عنهما كثر القسم

الثالث . فصار فيهم شهوة وشبهة ، مع الإيمان والدين . قد صار ذلك فى بعض الولاة و بعض الرعايا . ثم كثر ذلك بعد . فنشأت الفتنة التى سببها ماتقدم ــ من عدم تمحيص التقوى والطاعة فى الطرفين ، واختلاطهما بنوع من الهوى والمعصية فى الطرفين ــ وكل منهما متأول : أنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وأنه مع الحق والعدل . ومع هذا التأويل نوع من الهوى . ففيه نوع من الظن وماتهوى الأنفس ، و إن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى .

فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله ، ويتوكل عليه فى أن يَعْمُر قلبه بالإيمان والتقوى ، ولا يزيغه ، ويثبته على الهدى والتقوى ، ولا يتبع الهوى ، كما قال تعالى (٤٢ : ١٥ فلذلك فادع . واستقم كما أمرت . ولا تتبع أهواءهم . وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب . وأُمِرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم)

وهذا أيضاً حال الأمة فيما تفرقت فيه ، واختلفت فى المقالات والعبادات . وهذه الأمور مما تعظم بها المحنة على المؤمنين . فإنهم محتاجون إلى شيئين : إلى دفع الفتنة التى ابتلى بها نظراؤهم ــ من فتنة الدين والدنيا ــ عن نفوسهم ، مع قيام المقتضى لها . فإن معهم نفوسا وشياطين ، كما مع غيرهم . فمع وجود ذلك من نظائرهم يقوى المقتضى عندهم ، كما هو الواقع . فيبقى الداعى الذى فى نفس الشيطان وشيطانه . ودواعى الخير كذلك ، وما يحصل من الداعى بفعل الغير والنظير .

فكم من الناس من لم يرد خيراً ولا شراً ، حتى رأى غيره ــ لاسيما إن كان نظيره ــ يفعله ، ففعله . فإن الناس كأسراب القطا ، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض .

ولهذا كان المبتدىء بالخير و بالشر له من الأجر والوزر مثل من تبعه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « من سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا . ومن سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً »

وذلك لاشتراكهم فى الحقيقة . وأن حكم الشىء حكم نظيره . وشبيه الشىء منجذب إليه .

دواعى الخير والشر

فإذا كان هذان داعيين قويين ، فكيف إذا انضم إليهما داعيان آخران .

وذلك : أن كثيراً من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ماهم فيه ، ويبغضون من لايوافقهم . وهذا ظاهر فى الديانات الفاسدة : من موالاة كل قوم لموافقيهم ، ومعاداتهم لمخالفيهم . وكذلك فى أمور الدنيا والشهوات : كثيراً ما يختار أهلها ويؤثرون من يشاركهم فى أمورهم وشهواتهم ، إما للمعاونة على ذلك ، كما فى المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطريق ونحو ذلك . وإما لتلذذهم بالموافقة ، كما فى المجتمعين على شرب خمر ـ مثلا ـ فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر عندهم . وإما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير : إما حسداً له على ذلك ، وإما لئلا يعلو عليهم بذلك ، ويحمده الناس دونهم . وإما لئلا يكون له عليهم حجة . وإما لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه ، أو بمن يرفع ذلك إليهم ، أو لئلا يكونوا تحت مِنَّته وخطره ، ونحو ذلك من الأسباب . قال الله تعالى (٢ : ١٠٩ وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم ـ من بعد إيمانكم ـ كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق) وقال تعالى فى المنافقين (٤ : ٨٩ وَدُّوا لو تكفرون كما كفروا . فتكونون سواء) وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه « ودت الزانية لو زنى النساء كلهن » .

والمشاركة : قد يختارونها فى نفس الفجور ، كالاشتراك فى الشرب ، والكذب والاعتقاد الفاسد . وقد يختارونها فى النوع ، كالزانى الذى يود أن يزنى غيره ، والسارق الذى يود أن يسرق غيره أيضاً ، لكن فى غير العين التى زنى بها والتى سرقها .

وأما الداعى الثانى : فقد يأمرون الشخص بمشاركتهم فيما هم عليه من المنكر

فإن شاركهم وإلا عادوه ، وآذوه على وجه قد ينتهى إلى حد الإكراه ، أو لا ينتهى إلى حد الإكراه .

ثم إن هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم فى قبيح فعلهم ، أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه . فإنهم متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم : انتقصوه واستخفوا به . وجعلوا ذلك حجة عليه فى أمور أخرى . وإن لم يشاركهم عادوه وآذوه . وهذه حال غالب الظالمين القادرين .

وهذا الموجود فى المنكر نظيره موجود فى المعروف ، وأبلغ منه ، كما قال الله تعالى (٢ : ١٦٦ والذين آمنوا أشد حباً لله) فإن داعى الخير أقوى . فإن الإنسان فيه داع يدعوه إلى الإيمان والعلم ، والصدق والعدل ، وأداء الأمانة . فإذا وجد من يعمل ذلك مثله : صار له داع آخر ، لا سيما إذا كان نظيره . لاسيما مع المنافسة . وهذا محمود حسن .

فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ، ومشاركته له ، من المؤمنين والصالحين ، ومن يبغضه إذا لم يفعل ذلك : صار له داع ثالث .

فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك ، وعادوه وعاقبوه على تركه : صار له داع رابع .

مقابلة السيئات بالحسنات

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات ، كما يقابل الطبيب المرض بضده . فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه . وذلك بشيئين : بفعل الحسنات وترك السيئات ، مع وجود ماينفى الحسنات ، ويقتضى السيئات . وهذه أربعة أنواع .

ويؤمر أيضاً بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة ، بحسب قدرته وإمكانه . قال تعالى (والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق . وتواصوا بالصبر) روى عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال «لو فكر الناس كلهم فى سورة العصر لكَفَتْهم » وهو كما قال . فإن الله تعالى أخبر

فيها : أن جميع الناس خاسرون إلا من كان فى نفسه : مؤمناً صالحاً ، ومع غيره : موصياً بالحق ، موصياً بالصبر .

و إذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سبباً لعلو الدرجة ، وعظيم الأجر . كما سئل النبى صلى الله عليه وسلم « أى الناس أشد بلاءاً ؟ قال : الأنبياء . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل . يُبْتَلَى الرجل على حسب دينه . فإن كان فى دينه صلابة : زِيدَ فى بلائه . و إن كان فى دينه رِقّة :خُفف عنه . وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على وجه الأرض وليس عليه خطيئة » وحينئذ فيحتاج من إلى الصبر مالا يحتاج إليه غيره . وذلك هو سبب الإمامة فى الدين ، كما قال تعالى (٣٢ : ٢٤ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا . وكانوا بآياتنا يوقنون) فلا بد من الصبر على فعل الحسن المأمور به ، وعلى ترك السىء المحظور المنهى عنه .

الصبر على الأذي

و يدخل فى ذلك : الصبر على الأذى ، وعلى ما يقال . والصبر على مايصيبه من المكاره ، والصبر عن البَطَر عند النعم ، وغير ذلك من أنواع الصبر .

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له مايطمئن به ، و يتنعم به ، و يتغذى به . وهو اليقين . كما فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيها الناس ، سلوا الله اليقين والعافية . فإنه لم يعط أحد ــ بعد اليقين ــ خيراً من العافية . فسلوهما الله » .

وكذلك إذا أمر غيره بحسن ، أو أحب موافقته له على ذلك ، أو نهى غيره عن سىء : فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحساناً يحصل به مقصوده : من حصول المحبوب ، واندفاع المكروه . فإن النفوس لاتصبر على المر إلا بنوع من الحلو . لا يمكن غير ذلك . ولهذا أمر الله تعالى بتأليف القلوب ، حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً فى الصدقات . وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (٧ : ١٩٩ خذ العفو وأْمُرْ بالعُرْف ، وأعرض عن الجاهلين) وقال تعالى (٩٠ : ١٧ وتواصوا بالصبر

وتواصوا بالمرحمة) فلا بد أن يصبر وأن يرحم . وهذا هو الشجاعة والكرم .

ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة ، وهى الإحسان إلى الخلق . و بينها و بين الصبر تارة .

ولا بد من الثلاثة : الصلاة ، والزكاة ، والصبر . لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك فى صلاح نفوسهم ، و إصلاح غيرهم . لا سيما كلما قويت الفتنة والمحنة فإن الحاجة إلى ذلك تكون أشد .

الحاجة إلى السماحة والصبر

فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بنى آدم . لاتقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم إلا بهما . ولهذا فإن جميعهم يتمادحون بالشجاعة والكرم ، حتى إن ذلك عامة ما يمدح به الشعراء ممدوحيهم فى شعرهم . وكذلك يتذامون بالبخل والجبن .

والقضايا التى يتفق عليها عقلاء بنى آدم لا تكون إلا حقاً ، كاتفاقهم على مدح الصدق والعدل ، وذم الكذب والظلم . وقال النبى صلى الله عليه وسلم ـ لما سأله الأعراب ، حتى اضطروه إلى سَمُرة . فتعلقت بردائه ـ فالتفت إليهم ، وقال « والذى نفسى بيده ، لو أن عندى عدد هذا العِضاه نَعَماً لقسمته فيكم . ثم لا تجدونى بخيلا ، ولا جباناً ، ولا كذوباً » لكن يتنوع ذلك بتنوع المقاصد والصفات . فإنما الأعمال بالنيات . و إنما لكل امرىء مانوى .

ولهذا جاء الكتاب والسنة بذم البخل والجبن ، ومدح الشجاعة والسماحة فى سبيل الله ، دون ما ليس فى سبيله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « شر ما فى المرء : شُحٌّ هالع ، وجبن خالع » وقال « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ . فقالوا : الجَدُّ بن قيس ، على أنا نُزَنِّه بالبخل . فقال : وأىُّ داء أدوى من البخل ؟ » وفى رواية « إن السيد لا يكون بخيلا . بل سيدكم : الأبيض الجعد ، البراء بن معرور »

وكذلك فى الصحيح قول جابر بن عبد الله لأبى بكر الصديق رضى الله عنهم

« إما أن تعطيني ، وإما أن تبخل عني . فقال : تقول : و إما أن تبخل عني ؟ وأى داء أدوى من البخل ؟ » فجعل البخل من أعظم الأمراض .

وفى صحيح مسلم عن سليمان بن ربيعة قال قال عمر رضى الله عنه « قسم النبى صلى الله عليه وسلم قَسْما . فقلت : يارسول الله ، والله لغير هؤلاء أحق به منهم . فقال : إنهم خيرونى بين أن يسألونى بالفحش و بين أن يُبَخِّلونى . ولست بباخل » يقول : إنهم سألونى مسألة لا تصلح . فإن أعطيتهم و إلا قالوا : هو بخيل . فقد خيرونى بين أمرين مكروهين ، لايتركونى من أحدهما : المسألة الفاحشة ، والتبخيل . والتبخيل أشد . فأدفع الأشد بإعطائهم .

البخل وأنواعه

والبخل جنس تحته أنواع : كبائر وغير كبائر . قال تعـالى (٣ : ١٨٠ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم . بل هو شرٌّ لهم . سَيُطَوَّقون مابخلوا به يوم القيامة) وقال (٤ : ٣٦ ، ٣٧ واعبدوا الله . ولا تشركوا به شيئاً . و بالوالدين إحسانا ـ إلى قوله ـ إن الله لايحب من كان مختالا فخور . الذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل) وقال تعالى (٩ : ٥٤ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله و برسوله . ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى ولاينفقون إلا وهم كارهون) وقال (٩ : ٧٦ ، ٧٧ فلما آتاهم من فضله بخلوا به . وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يَلْقَوْنه) وقال (٤٧ : ٣٨ ومن يبخلْ فإنما يبخل عن نفسه) وقال (فو يل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن و يمنعون الماعون) وقال (٩ : ٢٤ ، ٢٥ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يُحْمَى عليها فى نار جهنم فتُكْوَى بها جِباههم وجنوبهم وظهورهم ـ الآية) وكثير من الآي فى القرآن من الأمر بالإيتاء والإعطاء ، وذم من ترك ذلك كله ذَمٌّ للبخل .

بحث فى الجبن

وكذلك ذمه للجبن كثير فى مثل قوله (٨ : ١٦ ومن يُوَلِّهم يومئذ دُبُره إلا مُتَحَرِّفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب من الله . ومأواه جهنم و بئس المصير) وقوله عن المنافقين (٩ : ٥٧ و يحلفون بالله إنهم لمنكم . وماهم منكم . ولكنهم قوم يفْرَقون . لو يجدون ملجأ أو مَغَارات أو مُدَّخَلا لوَلَّوْا إليه وهم يَجْمَحون) وقوله (٤٧ : ٢٠ فإذا أنزلت سورة مُحكمة وذُكر فيها القتال : رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المَغْشِيِّ عليه من الموت) وقوله (٤ : ٧٧ ألم تر إلى الذين قيل لهم : كُفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتو الزكاة ؟ فلما كُتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية . وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا) .

وما فى القرآن من الحض على الجهاد والترغيب فيه ، وذم الناكلين عنه والتاركين له : كله ذم للجبن .

ولما كان صلاح بنى آدم لا يتم — فى دينهم ودنياهم — إلا بالشجاعة والكرم : بين الله سبحانه : أنه من تولَّى عنه — بترك الجهاد بنفسه — أبدل الله به من يقوم بذلك ومن تولى عنه — بانفاق ماله — أبدل الله به من يقوم بذلك . فقال (٩ : ٣٨ ، ٣٩ يا أيها الذين آمنوا ، مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله ، اثَّاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما . و يستبدل قوماً غيركم . ولا تضره شيئاً . والله على كل شىء قدير) وقال تعالى (٤٧ : ٣٨ هاأنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا فى سبيل الله . فمنكم من يبخل . ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . والله الغنى ، وأنتم الفقراء . و إن تتولوا يستبدل قوماً غيركم . ثم لا يكونوا أمثالكم) .

و بالشجاعة والكرم فى سبيل الله فَضَّل الله السابقين . فقال (٥٧ : ١٠

لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . وكلا وعد الله الحسنى) وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال فى سبيله ، ومدحه فى غير آية من كتابه . وذلك هو الشجاعة والسماحة فى طاعته سبحانه . فقال (٢ : ٢٤٩ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ؟ والله مع الصابرين) وقال تعالى (٨ : ٤٥ ، ٤٦ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا . واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . واصبروا إن الله مع الصابرين) .

والشجاعة ليست هى قوة البدن . فقد يكون الرجل قوى البدن ضعيف القلب . وإنما هى قوة القلب وثباته . فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته للقتال ، وعلى قوة القلب وخبرته به . والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة ، دون التهور الذى لايفكر صاحبه . ولا يميز بين المحمود والمذموم .

ولهذا كان القوى الشديد : هو الذى يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل مايصلح دون مالا يصلح . فأما المغلوب حين غضبه : فليس هو بشجاع ولا شديد .

وقد تقدم : أن جماع ذلك هو الصبر . فإنه لابد منه .

الصبر صبران

والصبر صبران : صبر عند الغضب ، وصبر عند المصيبة . كما قال الحسن رحمه الله « ماتجرّع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب ، وجرعة صبر عند المصيبة »

وذلك لأن أصل ذلك : هو الصبر على المؤلم . وهذا هو الشجاع الشديد الذى يصبر على المؤلم .

والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه : أثار الغضب . وإن كان ممالا يمكن دفعه : أثار الحزن . ولهذا يحمر الوجه عند الغضب ، لثوران الدم عند استشعار القدرة . ويصفرُّ عند الحزن ، لغور الدم عند استشعار العجز .

ولهذا جمع النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن

ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « ماتعدون الرَّقوب فيكم ؟ قالوا : الرقوب الذى لايولد له . قال : ليس ذاك بالرقوب ، ولكن الرقوب : الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئاً . ثم قال : ماتعدون الصُّرَعة فيكم ؟ قلنا : الذى لايصرعه الرجال . فقال : ليس بذلك . ولكن الصرعة : هو الذى يملك نفسه عند الغضب » .

فذكر مايتضمن الصبر عند المصيبة ، والصبر عند الغضب .

قال الله تعالى فى المصيبة (٢ : ١٥٥ ، ١٥٦ وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون ـ الآية) .

وقال تعالى فى الغضب (٤١ : ٣٥ وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا . وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم) .

وهذا الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر الغضب : نظير الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر النعمة ، كما فى قوله تعالى (١١ : ٩ ـ ١١ ولئن أُذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نَعْماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى . إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) وقال (٥٧ : ٢٣ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) .

و بهذا وَصَف كعب بن زهير من وصفه من الصحابة المهاجرين رضى الله عنهم . حيث قال :

لايفرحون إذا نالت سيوفهم قوماً وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

وكذلك قال حسان بن ثابت فى صفة الأنصار رضى الله عنهم .

لافخر إن هم أصابوا من عدوهم وإن أصيبوا فلا خُور ولا هلع

وقال بعض العرب ، فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم « يَغْلِب فلا يبطَر . ويُغلَبُ فلا يضجر » .

مايدعو إلى تعدى الحدود

ولما كان الشيطان يدعو الناس ـ عنـد هذين النوعين ـ إلى تعدى الحدود بقلوبهم ، وأصواتهم ، وأيديهم : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك . فقال ـ لمـا قيل له : وقد بكى لمـا رأى إبراهيم فى النزع ـ « أتبكى ، وأنت تنهى عن البكاء ؟ فقال : إنمـا نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نَغْمة : لهو ولعب ، ومزامير شيطان . وصوت عند مصيبة : لطم خدود ، وشق جيوب ، ودعاء بدعوى الجاهلية » فجمع بين الصوتين .

وأما نهيه عن ذلك فى المصائب : فمثل قوله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » وقال « أنا برىء من الحالقة ، والصَّالقة ، والشَّاقَّة » وقال « ما كان من العين والقلب : فمن الله . وما كان من اليد واللسان : فمن الشيطان » وقال « إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ، ولا حزن القلب ، ولـكن يعذب بهذا أو يرحم ـ وأشار إلى لسانه » وقال « من يُنَحْ عليه ، فإنه يعذب بما نيح عليه » واشترط على النساء فى البيعة « أن لا ينحن » وقال « إن النائحة ـ إذا لم تتب قبل موتها ـ فإنها تُلْبَس يوم القيامة دِرْعاً من جَرَب ، وسِرْبالا من قَطِران » وقال فى القِتْلَة ، والمصائب ، والفرح « إن الله كتب الإحسان على كل شيء . فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة . وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة . ولْيُحِدَّ أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » وقال « إن أعف الناس قتلة : أهل الإيمان » وقال « لا تُمَثِّلوا ، ولا تَغْدِروا . ولا تقتلوا وليداً » .

إلى غير ذلك مما أمر صلى الله عليه وسلم به فى الجهاد : من العدل ، وترك العدوان ، اتباعاً لقوله تعالى (٥ : ٨ ولا يَجْرِمَنَّـكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . أعدلوا ، هو أقرب للتقوى) ولقوله تعالى (٢ : ١٩٠ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونـكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين) .

ونهى عن لباس الحرير ، والتختم بالذهب ، والشرب فى آنية الذهب والفضة ، وإطالة الثياب . إلى غير ذلك من أنواع السَّرَف ، والخيلاء فى النعم .

وذم الذين يستحلون الخز ، والحِرَ ، والحرير ، والخمر ، والمعازف ، وجعل فيهم الخسف والمسخ، إن هم ارتكبوا ذلك .

وقد قال تعالى (٤ : ٣٦ إن الله لايحب من كان مختالا فخوراً) وقال عن قارون (٢٨ : ٧٦ إذ قال له قومه : لا تفرح . إن الله لا يحب الفرحين) .

وهذه الأمور الثلاثة ـ مع الصبر عن الاعتداء فى الشهوة ـ هى جوامع هذا الباب . وذلك : أن الإنسان بين مايحبه ويشتهيه ، وبين مايبغضه ويكرهه . فهو يطلب الأول بمحبته وشهوته . ويدفع الثانى ببغضه ونفرته . وإذا حصل الأول ، أو اندفع الثانى : أوجب له فرحاً وسُرُوراً . وإن حصل الثانى ، أو اندفع الأول : حصل له حزن . فهو محتاج ـ عند المحبة والشهوة ـ أن يصبر عن عدوانها ، وعند الغضب والنفرة : أن يصبر عن عدوانهما ، وعند الفرح : أن يصبر عن عدوانه ، وعند المصيبة : أن يصبر عن الجزع منها .

فالنبى صلى الله عليه وسلم ذكر الصوتين الأحمقين الفاجرين : الصوت الذى يوجب الاعتداء فى الفرح ، حتى يصير الإنسان فرحا فخوراً . والصوت الذى يوجب الجزع عند الحزن ، حتى يصير الآنسان هلوعاً جزوعا .

وأما الصوت الذى يثير الغضب لله : فكالأصوات التى تقال فى الجهاد من الأشعار المنشدة . فتلك لم تكن بآلات . وكذلك أصوات الشهرة فى الفرح . فرخص منهـا فيما وردت به السنة : من الضرب بالدف فى العرس ، والأفراح للنساء والصبيان . وعامة الأشعار التى تنشد بالأصوات لتحريك النفوس : هى من هذه الأقسام الأربعة . وهى التشبيب . وأشعار الغضب . والحمية . وهى الحماسة ، والهجاء . وأشعار المصائب ، كالمراثى . وأشعار النعم ، والفرح ، وهى المدائح .

والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع . كما قال تعالى (٣٦ : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالايفعلون) ولهذا أخبر : أنهم يتبعهم الغاوون . والغاوى : هو الذى يتبع هواه بغير علم . وهذا هو الغى . وهو خلاف الراشد . كما أن الضال : هو الذى لايعلم مصلحته : هو خلاف المهتدى . قال سبحانه (٥٣ : ١ ، ٢ والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى) .

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » .

فلهذا تجدهم يمدحون جنس الشجاعة ، وجنس السماحة . إذ كان عدم هذين مذموماً على الإطلاق . وأما وجودهما : ففيه تحصيل مقاصد النفوس على الإطلاق . لكن العاقبة فى ذلك للمتقين . وأما غير المتقين : فلهم عاجلة لا عاقبة .

والعاقبة ـ وإن كانت فى الآخرة ـ فتكون فى الدنيا أيضا . كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح ، ونجاته بالسفينة (١١ : ٤٨ ، ٤٩ قيل : يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم ممن معك . وأمم سنمتعهم . ثم يمسهم منا عذاب أليم ـ إلى قوله ـ فاصبر إن العاقبة للمتقين) وقال تعالى (٢ : ١٩٤ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله . واعلموا أن الله مع المتقين) .

المحمود من الحمية والشجاعة

والفرقان : أن يحمد من ذلك ماحمده الله ورسوله . فإن الله تعالى هو الذى حَمْدُه زَين ، وذمه شَيْن ، دون غيره من الشعراء والخطباء وغيرهم . ولهذا ـ لما قال القائل من بنى تميم للنبى صلى الله عليه وسلم « إن حمدى زين وذمى شين » قال له ـ « ذاك الله » .

والله سبحانه حمد الشجاعة والسماحة فى سبيله . كما فى الصحيح عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حَمِيَّةَ ، ويقاتل رياءً . فأىُّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من

قاتل لتكون كلمة الله هى العليا . فهو فى سبيل الله » وقد قال سبحانه (٨ : ٣٩ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ، ويكون الدين كله لله)

وذلك : أن هذا هو المقصود الذى خلق الله الخلق له كما قال تعالى (٥١:٥٦ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

فكل ما كان لأجل الغاية التى خلق لها الخلق : كان محموداً عند الله . وهو الذى يبقى لصاحبه وينفعه الله به . وهذه هى الأعمال الصالحات . ولهذا كان الناس أربعة أصناف :

من يعمل لله بشجاعة وسماحة . فهؤلاء هم المؤمنون المستحقون للجنة .

ومن يعمل لغير الله بشجاعة وسماحة . فهذا ينتفع بذلك فى الدنيا . وليس له فى الآخرة من خلاق .

ومن يعمل لله ، لكن لا بشجاعة ولا بسماحة : فهذا فيه من النفاق ونقص الإيمان بقدر ذلك .

ومن لا يعمل لله ولا فيه شجاعة ولا سماحة . فهذا ليس له دنيا ولا آخرة .

مايحتاج إليه المؤمن

فهذه الأخلاق والأعمال يحتاج إليها المؤمن عموماً ، وخصوصاً فى أوقات المحن والفتن الشديدة . فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم ، ودفع الذنوب والمصائب عن نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم .

ويحتاجون أيضاً إلى أمر غيرهم ونهيه ، بحسب قدرتهم .

وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة مافيه ، وإن كان يسيراً على من يسره الله عليه .

وهذا لأن الله أمر المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح . وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الإيمان والعمل الصالح . ولكنهم كما قال الله تعالى (٢٢:٤٠ ، ٤١ ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا

الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور) وكما قال (٤٠ : ٥١ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وكما قال (٥٨ : ٢١ كتب الله لأغْلِبَنَّ أنا ورسلى . إن الله قوى عزيز) وكما قال (٣٧ : ١٧٣ وإن جندنا لهم الغالبون) .

ولما كان فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله : من الابتلاء ، والمحن مايتعرض به المرء للفتنة : صار فى الناس من يتعلل لترك ماوجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة . كما قال الله تعالى عن المنافقين (٩ : ٤٩ ومنهم من يقول : ائذن لى ولا تفتنى . ألا فى الفتنة . سقطوا ــ الآية)

وقد ذكروا فى التفسير : أنها نزلت فى الجد بن قيس لما أمره النبى صلى الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم . وأظن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « هل لك فى نساء بنى الأصفر ؟ فقال : يارسول الله ، إنى رجل لا أصبر على النساء . وإنى أخاف الفتنة بنساء بنى الأصفر . فائذن لى . ولا تفتنى » .

وهذا الجد : هو الذى تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة . واستتر بجمل أحمر . وجاء فيه الحديث « إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » فأنزل الله تعالى فيه (ومنهم من يقول : ائذن لى ولا تفتنى . ألا فى الفتنة سقطوا) .

يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتتن بهن . فيحتاج إلى الاحتراز من المحظور ، ومجاهدة نفسه عنه . فيتعذب بذلك ، أو يواقعه فيأثم . فإن مَنْ رأى الصور الجميلة وأحبها . فإن لم يتمكن منها ــ إما لتحريم الشارع ، وإما للعجز عنها ــ : يعذب قلبه . وإن قدر عليها وفعل المحظور : هلك . وفى الحلال من ذلك من معالجة النساء مافيه بلاء .

فهذا وجه قوله « ولا تفتنى » قال الله تعالى (ألا فى الفتنة سقطوا) يقول : إن نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ، ونكوله عنه ، وضعف إيمانه ، ومرض قلبه الذى زيَّن له ترك الجهاد : فتنة عظيمة قد سقط فيها . فكيف يطلب التخلص من

فتنة صغيرة لم تصبه ، بوقوعه فى فتنة عظيمة قد أصابته ؟ والله تعالى يقول (٨ : ٢١ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .

فمن ترك القتال الذى أمر الله به لئلا تكون فتنة : فهو فى الفتنة ساقط ، بما وقع فيه من ريب قلبه ، ومرض فؤاده ، وترك ما أمره الله به من الجهاد .

فتدبر هذا . فإن هذا مقام خطر . فإن الناس هنا ثلاثة أقسام :

قسم يأمرون وينهون ويقاتلون ، طلباً لإزالة الفتنة ـ زعموا ـ ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة . كالمقاتلين فى الفتن الواقعة بين الأمة ، مثل الخوارج .

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهى والقتال الذى يكون به الدين كله لله . وتكون كلمة الله هى العليا ، لئلا يفتتنوا ، وهم قد سقطوا فى الفتنة .

وهذه الفتنة المذكورة فى سورة « براءة » دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة . فإنها سبب نزول الآية . وهذه حال كثير من المتدينة ، يتركون مايجب عليهم من أمرٍ ونهيٍ وجهاد ، يكون به الدين كله لله . وتكون به كلمة الله هى العليا ، لئلا يفتتنوا بجنس الشهوات . وهم قد وقعوا فى الفتنة التى هى أعظم مما زعموا أنهم فروا منها .

وإنما الواجب عليهم : القيام بالواجب من الأمر والنهى ، وترك المحظور . والقيام بالواجب وترك المحظور متلازم ، لكون نفوسهم لاتطاوعهم إلا على فعلهما جميعاً ، أو تركهما جميعاً ، مثل كثير ممن يحب الرياسة ، أو المال ، أو شهوات الغى . فإذا فعل ماوجب عليه : من أمرٍ ، ونهيٍ ، وجهادٍ ، وإمارة ، ونحو ذلك . فلا بد أن يفعل معها شيئاً من المحظورات .

فالواجب عليه حينئذ : أن ينظر أغلب الأمرين . فإن كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور : لم يترك ذلك ، لما يخاف من أن يقترن به ماهو دونه فى المفسدة . وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً : لم يفوت ذلك برجاء ثواب فعل واجب يكون دون ذلك . فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين : من الحسنات والسيئات . فهذا هذا . وتفصيل ذلك يطول .

الأمر والنهى فى كل شىء

وكل بشر على وجه الأرض : فلا بد له من أمرٍ ونهى . ولابد أن يؤمر ويُنهى .حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها : إما بمعروف ، وإما بمنكر . كما قال تعالى (١٢ : ٥٣ إن النفس لأمّارة بالسوء) .

فإن الأمر : هو طلب الفعل وإرادته . والنهى : طلب الترك وإرادته . ولابد لكل حيٍّ من إرادة وطلب فى نفسه . يقتضى بها فعل نفسه ، ويقتضى بها فعل غيره إذا أمكن ذلك . فإن الإنسان حى يتحرك بإرادته . وبنو آدم لايعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض .

وإذا اجتمع اثنان فصاعداً ، فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر ، وتناهٍ عن أمر . ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة : اثنان .كما قيل « الاثنان فما فوقهما جماعة » لكن لما كان ذلك اشتراكا فى مجرد الصلاة : حصل باثنين . أحدهما : إمام والآخر مأموم . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لمالك بن الحويرث وصاحبه رضى الله عنهما « إذا حضرت الصلاة فأذّنا وأقيما . وليؤمّكما أكبركما » وكانا متقاربين فى القراءة .

وأما فى الأمور العادية ، ففى السنن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لايحل لثلاثة يكونون فى سفر إلا أمّرُوا عليهم أحدهم » .

الأمر بالمعروف من لوازم بنى آدم

وإذا كان الأمر والنهى من لوازم وجود بنى آدم . فمن لم يأمر بالمعروف ، الذى أمر الله به ورسوله . وينهى عن المنكر ، الذى نهى الله عنه ورسوله . ويؤمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله . ويُنهى عن المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله . وإلا فلا بد أن يأمر وينهى ، ويُؤمر ويُنهى : إما بما يضاد ذلك . وإما بما يشترك فيه الحق الذى أنزله الله بالباطل الذى لم ينزله الله . وإذا اتخذ ذلك

ديناً : كان ديناً مبتدعاً ضالا باطلا . وهذا كما أن كل بشر فإنه حي متحرك بإرادته ، همام حارث . فمن لم تكن نيته وعمله عملاً صالحا لوجه الله . و إلا كان عمله عملاً فاسداً ، أو لغير وجه الله . وهو الباطل . كما قال تعالى (٩٢ : ٤ إن سعيكم لَشَتَّى) .

وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار (٤٧ : ١ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، أضل أعمالهم) وقال تعالى (٢٤ : ٣٩ والذين كفروا أعمالهم كسراب بِقِيْعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب) وقال (٢٥ : ٢٣ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) .

وقد أمر الله تعالى فى كتابه بطاعته وطاعة رسوله ، وطاعة أُولى الأمر من المؤمنين . كما قال تعالى (٤ : ٥٩ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا) .

و « أُولو الأمر » أصحاب الأمر وذووه . وهم الذين يأمرون الناس و ينهونهم . وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة ، وأهل العلم والكلام .

فلهذا كان « أُولو الأمر » صنفين : العلماء ، والأمراء . فإذا صلحوا : صلح الناس . وإذا فسدوا : فسد الناس . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه للأحمسية لما سألته «مابقاؤنا على هذا الأمر الصالح ؟ قال: ما استقامت لكم أئمتكم»

و يدخل فيهم : الملوك والمشايخ ، وأهل الديوان . وكل من كان متبوعاً : فهو من أُولى الأمر .

وعلى كل واحد من هؤلاء : أن يأمر بما أمر الله به ، و ينهى عما نهى الله عنه . وعلى كل واحد ممن عليه طاعته : أن يطيعه فى طاعة الله ، ولا يطيعه فى معصية الله . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ حين تولى أمر المسلمين وخطبهم ـ فقال

فى خطبته « أيها الناس ، القوى فيكم : الضعيف عندى . حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم : القوى عندى ، حتى آخذ له الحق . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

فصل

كل الحسنات لابد فيها من الإخلاص والموافقة للشريعة

وإذا كانت جميع الحسنات ، لابد فيها من شيئين : أن يراد بها وجه الله ، وأن تكون موافقة للشريعة . فهذا فى الأقوال والأفعال . فى الكلم الطيب ، والعمل الصالح . فى الأمور العلمية ، والأمور العملية العبادية . ولهذا ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن أول ثلاثة تُسْجَر بهم جهنم : رجل تَعَلَّمَ العلم وعلمه . وقرأ القرآن وأقرأه ، ليقول الناس : هو عالم وقارىء . ورجل قاتل وجاهد ، ليقول الناس : هو شجاع وجرىء . ورجل تصدق وأعطى ، ليقول الناس : هو جواد وسخى » فإن هؤلاء الثلاثة ، الذين يريدون الرياء والسمعة : هم بإزاء الثلاثة الذين بعد النبيين : من الصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

فإن من تعلم العلم — الذى بعث الله به رسله — وعلمه لوجه الله : كان صديقا .

ومن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا وقتل : كان شهيداً .

ومن تصدق يبتغى بذلك وجه الله : كان صالحا .

ولهذا يسأل المفرط فى ماله الرجعة وقت الموت . كما قال ابن عباس رضى الله عنهما « من أُعطى مالا فلم يحج منه ، ولم يُزَكِّ : سأل الرجعة وقت الموت . وقرأ قوله تعالى (٦٣ : ١٠ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدَكم الموت . فيقول : رب ، لولا أخَّرتنى إلى أجل قريب ، فأصَّدَّق وأكُنْ من الصالحين) .

فهذه الأمور العلمية الكلامية : يحتاج أن يكون مايخبر به — عن الله ، واليوم الآخر . وما كان ويكون — حقاً صوابا ، وما يأمر به ، وما ينهى عنه ، كما جاءت به الرسل عن الله .

فهذا هو الصواب الموافق للسنة والشريعة ، المتبع لكتاب الله وسنة رسوله . كما أن العبادات التى نتعبد بها : إذا كانت مما شرعه الله ، وأمر الله به ورسوله : كانت حقا صوابا ، موافقاً لما بعث الله به رسله . ومالم يكن كذلك من القسمين : كان من الباطل والبدع المضلة والجهل ، وإن كان يسميه من يسميه : علوماً ومعقولات ، وعبادات ، ومجاهدات ، وأذواقا ، ومقامات .

ويحتاج أيضاً : أن يؤمر بذلك لأمر الله ، ويُنهى عنه لنهى الله . ويخبر بما أخبر الله به . لأنه حق وإيمان وهدى ، كما أخبرت به الرسل . كما تحتاج العبادة إلى أن يقصد بها وجه الله .

فإذا قيل ذلك لاتباع الهوى والحمية ، أو لإظهار العلم والفضيلة ، أو لطلب السمعة والرياء : كان بمنزلة المقاتل شجاعة وحميةً ورياء .

وكثير من أهل العلم والعبادة : مايقولون ويفعلون خلاف الحق

ومن هنا يتبين لك ماوقع فيه كثير من أهل العلم والمقال ، وأهل العبادة والحال . فكثيراً ما يقول هؤلاء من الأقوال ماهو خلاف الكتاب والسنة . أو مايتضمن خلاف السنة ووفاقها . وكثيراً مايتعبد هؤلاء بعبادات لم يأمر الله بها . بل قد نهى عنها . أو مايتضمن مشروعاً ومحظوراً . وكثيراً مايقاتل هؤلاء قتالا مخالفاً للقتال المأمور به . أو متضمناً لمأمور به ومحظور .

ثم كل من الأقسام الثلاثة ـ المأمور ، والمحظور ، والمشتمل على الأمرين ـ : قد يكون لصاحبه نية حسنة . وقد يكون متبعاً لهواه . وقد يجتمع له هذا وهذا .

فهذه تسعة أقسام فى هذه الأمور . وفى الأموال المنفقة عليها من الأموال السلطانية : الفيء وغيره . والأموال الموقوفة ، والأموال الموصى بها ، والمنذورة . وأنواع العطايا ، والصدقات ، والصِلات .

وهذا كله من لَبْس الحق بالباطل . وخلط عمل صالح وآخر سيء .

والسيء : من ذلك قد يكون صاحبه مخطئاً ، أو ناسياً : مغفور له ، كالمجتهد

المخطىء الذى له أجر ، وخطؤه مغفور له . وقد يكون صغيراً مُكَفَّراً باجتناب الكبائر . وقد يكون مغفوراً بتوبة ، أو بحسنات تمحو السيئات . أو مكفراً بمصائب الدنيا . ونحو ذلك .

ألا إن دين الله الذى أنزل به كتبه ، وبعث به رسله ، ماتقدم : من إرادة الله وحده بالعمل الصالح .

الإسلام الذى لايقبل الله من أحد غيره

وهذا هو الإسلام العام الذى لايقبل الله من أحد غيره . قال تعالى (٣ : ٨٥ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقال تعالى (٣ : ١٨ ، ١٩ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام)

و « الإسلام » يجمع معنيين . أحدهما : الاستسلام والانقياد ، فلايكون متكبراً .

والثانى : الإخلاص من قوله تعالى (٣٩:٢٩ ورجلاً سَلَماً لرجل) فلا يكون مشتركا ، وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين . كما قال تعالى (٢ : ١٣٢ ، ١٣٣ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسه . ولقد اصطفيناه فى الدنيا . وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه : أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين . ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يابنىّ إن الله اصطفى لكم الدين . فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون) وقال تعالى (٦ : ١٦١ ، ١٦٢ قل : إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . ديناً قِيَماً ملة إبراهيم حنيفا . وما كان من المشركين . قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له . وبذلك أُمرت . وأنا أول المسلمين) .

و « الإسلام » يستعمل لازماً معدًى بحرف اللام ، مثلما ذكر فى هذه الآيات . ومثل قوله تعالى (٣٩ : ٥٤ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن

يأتيكم العذاب ، ثم لاتنصرون) ومثل قوله تعالى (٧ : ٤٤ قالت : رب إنى ظلمت نفسى . وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ومثل قوله تعالى (٣ : ٨٣ أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها . وإليه يرجعون) ومثل قوله تعالى (٦ : ٧١ ، ٧٢ قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا ، بعد إذ هدانا الله ؟ كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران . له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائْتِنَا . قل إن هدى الله هو الهدى . وأمرنا لنسلم لرب العالمين . وأن أقيموا الصلاة واتقوه) .

ويستعمل متعدياً مقرونا بالإحسان . كقوله تعالى (٢ : ١١١ ، ١١٢ وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، أو نصارى . تلك أمانيُّهم . قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى . من أسلم وجهه لله وهو محسن . فله أجره عند ربه ، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) وقوله تعالى (٤ : ١٢٥ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا) فقد أنكر الله أن يكون دين أحسن من هذا الدين . وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان . وأخبر : أن كل من أسلم وجهه لله وهو محسن : فله أجره عند ربه . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أثبت هذه الكلمة الجامعة ، والقضية العامة ، رداً لمزاعم من زعم : أنه لايدخل الجنة إلا متهود أو متنصر .

إسلام الوجه والإحسان هما الأصلان

وهذان الوصفان ــ وهما إسلام الوجه لله ، والإحسان ــ هما الأصلان المتقدمان وهما كون العمل خالصاً لله صوابا ، موافقاً للسنة والشريعة .

وذلك : أن إسلام الوجه لله هو متضمن القصد والنية لله . كما قال بعضهم :

أستغفر الله ذنباً ، لستُ محصيَه ربُّ العبادِ إليه الوجهُ والعملُ

وقد استعمل هنا أربعة ألفاظ : إسلام الوجه ، وإقامة الوجه ، كقوله تعالى

(٧ : ٢٩ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) وقوله تعالى (٣٠ : ٣٠ فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التى فطر الناس عليها) .

وتوجيه الوجه : كقول الخليل عليه السلام (٦ : ٧٩ إنى وجَّهتُ وجْهِيَ للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين) .

وكذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعاء الاستفتاح فى صلاته من الليل «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين الخ »

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنهما . أن النبى صلى الله عليه وسلم علمه أن يقول إذا أوى إلى فراشه « اللهم أسلمت نفسى إليك . ووجهت وجهى إليك ـ الحديث » .

معنى « الوجه » و « التوجه »

فالوجه : يتناول المتوجِّه والمتوجَّه إليه . و يتناول المتوجه نحوه . كما يقال : أىَّ وجه تريد ؟ أى : أىَّ وجهة وناحية تقصد ؟ .

وذلك أنهما متلازمان . فحيث توجه الإنسان : توجه وجهه ، ووجهه مستلزم لتَوجهه . وهذا فى باطنه وظاهره جميعاً . فهى أربعة أمور . والباطن : هو الأصل . والظاهر : هو الـكمال والشعار . فإذا توجه قلبه إلى شىء : تبعه وجهه الظاهر .

فإذا كان العبد قصدُه ومراده وتوجهه إلى الله : فهذا صلاح إرادته وقصده . فإذا كان مع ذلك محسناً ، فقد اجتمع له : أن يكون عمله صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً . وهو قول عمر رضى الله عنه « اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا » .

العمل الصالح

والعمل الصالح : هو الإحسان ، وهو فعل الحسنات . وهو ما أمر الله به . والذى أمر الله به : هو الذى شرعه الله . وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله .

فقد أخبر الله تعالى : أن من أخلص قصده لله ، وكان محسنا فى عمله : فإنه مستحق للثواب ، سالم من العقاب .

ولهذا كان أئمة السلف ـ رحمهم الله ـ يجمعون هذين الأصلين ، كقول الفضيل بن عياض فى قوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا ؟) قال : أخلصه وأصوبه . فقيل : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان صوابا ، ولم يكن خالصاً : لم يقبل . وإذا كان خالصاً ، ولم يكن صوابا : لم يقبل . حتى يكون خالصاً صوابا . والخالص : أن يكون لله . والصواب : أن يكون على السنة .

وقد روى ابن شاهين واللالكائي ، عن سعيد بن جبير . قال « لا يقبل قول إلا بعمل . ولا يقبل قول وعمل : إلا بنية . ولا يقبل قول وعمل ونية : إلا بموافقة السنة » . « ورويا عن الحسن البصرى مثله . ولفظه « لا يصلح » مكان « لا يقبل » .

الرد على المرجئة

وهذا فيه رد على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافياً .

فأخبر أنه لابد من قول وعمل . إذ الإيمان : قول عمل . لابد من هذين ، كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع . و بينا أن مجرد تصديق القلب ونطق اللسان ، مع البغض لله ولشرائعه والاستكبار على الله وعلى شرائعه : لا يكون إيمانا باتفاق المؤمنين . حتى يقترن بالتصديق عمل صالح .

وأصل العمل : عمل القلب . وهو الحب ، والتعظيم المنافى للبغض والاستكبار .

ثم قالوا « لا يقبل قول وعمل : إلا بنية » وهـذا ظاهر . فإن القول والعمل إذا لم يكن خالصاً لله تعالى : لم يقبله الله .

ثم قالوا « ولا يقبل قول وعمـل ونية : إلا بموفقة السنة » وهى الشريعة . وهى ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم . لأن القول والعمل والنية الذى

لا يكون مسنونا مشروعاً قد أمر الله به : يكون بدعة « وكل بدعة ضلالة » ليس مما يحبه الله فلا يقبله الله . ولا يصلح . مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب .

ولفظ «السنة» فى كلام السلف : يتناول السنة فى العبادات ، وفى الاعتقادات . وإن كان كثير ممن صنف فى السنة : يقصدون الكلام فى الاعتقادات . وهذا كقول ابن مسعود ، وأبى بن كعب ، وأبي الدرداء ، رضى الله عنهم « اقتصاد فى سنة ، خير من اجتهاد فى بدعة » وأمثال ذلك .

والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

رسالة فى حروف القرآن وأصواتنا به

وما وقع فى ذلك من النزاع

من درر

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

٦٦١ - ٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة فى حروف القرآن وأصوات القارىء وماوقع فى ذلك من النزاع ، و بيان الحق وما دل عليه الـكتاب والسنة والإجماع .

لشيخ الإسلام والمسلمين ، عمدة المفتين ، و إمام المحققين بحر العلوم ، الصدر الـكامل . ناصر السنة ، وقامع البدعة . أبى العباس أحمد بن تيمية ، الحرانى الحنبلى السلفى ، قدس الله روحه .

سئل الشيخ ـ رحمه الله ـ عن رجلين تباحثا .

فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت . وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت .

وقال أحدهما النقط التى فى المصحف والشكل من القرآن . وقال الآخر : ليس ذلك من القرآن . فما الصواب فى ذلك ؟ .

فأجاب رضى الله عنه :

الحمد لله رب العالمين .

هذه المسألة : يتنازع فيها كثير من الناس . و يخلطون الحق بالباطل .

فالذى قال « إن القرآن حرف وصوت » إن أراد بذلك : أن هذا القرآن الذى يقرؤه المسلمون : هو كلام الله الذى نزل به الروح الأمين على قلب محمد خاتم النبيين والمرسلين . وأن جبريل سمعه من الله ، والنبى صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل . والمسلمون : سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم . كما قال تعـالى (١٦ : ١٠٢ قل نزله روح القدس من ر بك بالحق) وقال تعالى (٦ : ١١٤ والذين آتيناهم الـكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) فقد أصاب فى ذلك . فإن هذا مذهب سلف الأمة وأئمتهـا رحمهم الله . والدلائل على ذلك كثيرة من الـكتاب والسنة والإجماع .

ومن قال « إن القرآن العربى لم يتكلم الله به . وإنما هو كلام جبريل ، أو كلام محمد ، عبَّر به عن المعنى القائم بذات الله » كما يقول ذلك ابن كُلاَّب والأشعرى ومن وافقهما : فهو قول باطل من وجوه كثيرة .

فإن هؤلاء يقولون : إن كلام الله معنى واحد قائم بالذات . وإن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد . وأنه لايتعدد ، ولا يتبعض . وإنه إن عبر عنه بالعربية : كان قرآنا . وبالعبرانية : كان توراة . وبالسريانية : كان إنجيلا . فيجعلون معنى آية الكرسى ، وآية الدَّين ، و(قل هو الله أحد) و(تبّتْ يدا أبى لهب) والتوراة والإنجيل ، وغيرهما : معنًى واحداً .

وهذا قول فاسد بالعقل والشرع . وهو قولٌ أحدثه ابن كلاب ، لم يسبقه إليه غيره من السلف .

وإن أراد القائل « بالحرف والصوت » أن الأصوات المسموعة من القراء . والمداد الذى فى المصاحف قديم أزلى : فقد أخطأ وابتدع . وقال مايخالف العقل والشرع . فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال « زينوا القرآن بأصواتكم » فبين أن الصوت صوت القارىء . والكلام كلام البارى . كما قال تعالى (٩ : ٦ وإن أحد من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله) .

والقرآن الذى يقرؤه المسلمون : كلام الله . لا كلام غيره . كما ذكر الله ذلك .

وفى السنن : عن جابر بن عبد الله ، أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان يعرض نفسه على الناس بالموسم . فيقول : ألا رجل يحملنى إلى قومه لأبلغ كلام ربى . فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » وقالوا لأبى بكر الصديق ـ لما قرأ عليهم (آلم . غلبت الروم) ـ أهذا كلامك ، أم كلام صاحبك ؟ فقال « ليس بكلامى ولا كلام صاحبى ، ولكنه كلام الله تعالى » .

والناس إذا بَلَّغوا كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، كقوله « إنما الأعمال بالنيات » يعلمون : أن الحديث الذى يبلغون هو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والسامعون يعلمون أن الحديث الذى يسمعون : كلام النبى صلى الله عليه وسلم . تكلم به بصوته و بحروفه ومعانيه . والمحدث : إنما بلغه عنه بصوت نفسه ، لابصوت النبى صلى الله عليه وسلم .

فالقرآن : أولى أن يكون كلام الله ، إذا بلغه الرسول عنه ، وقرأه الناس بأصواتهم . والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه . ونادى موسى بصوت نفسه . كما ثبت بالكتاب والسنة ، و إجماع السلف .

وصوت العبد : ليس هو صوت الرب ، ولا مثل صوته . فإن الله ليس كمثله شىء ، لا فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

وقد نص أئمة الإسلام ـ أحمد ومن قبله من الأئمة رحمهم الله ـ على مانطق به الكتاب والسنة . من أن الله ينادى بصوت ، وأن القرآن كلامه تكلم بحروف وصوت ، ليس منه شىء كلاماً لغيره ، لا جبريل ، ولا غيره . وأن العباد يقرءونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم . فالصوت المسموع من العبد : صوت القارىء . والكلام : كلام البارى .

وكثير من الخائضين فى هذه المسألة : لايميز بين صوت العبد وصوت الرب . بل يجعل هذا هو هذا ، فينفيهما جميعاً ، و يثبتهما جميعا . فإذا نفى الحرف والصوت : نفى أن يكون القرآن العربى كلام الله . وأن يكون الله منادياً لعباده بصوته الذى ليس كصوت العبد . وأن يكون القرآن الذى يقرؤه المسلمون : هو كلام الله . كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله ، ثم جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً . لا فرق بين القديم والحادث .

وهو مصيب فى هـذا الفرق ، دون ذاك الثانى الذى فيه نوع من الإلحاد والتعطيل . حيث جعل الكلام المتنوع شيئاً واحداً ، لا حقيقة له عند التحقيق .

و إذا جعل صوت الرب هو صوت العبد ، أو سكت عن التمييز بينهما ـ مع قوله : إن الحروف متعاقبة فى الوجود ، مقترنة فى الذات ، قديمة أزلية الأعيان . فجعل

عين صفة الرب تحل فى العبد ، أو تتحد بصفته ـ فقد قال بنوع من الحلول والاتحاد يفضى إلى نوع من التعطيل .

وقد علم أن نفى الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته ، والمخلوق وصفاته : خطأ وضلال ، لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها . بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب ، وصوت العبد . ومتفقون : أن الله تكلم بالقرآن الذى أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، حروفه ومعانيه . وأنه ينادى عباده بصوته . ومتفقون على أن الأصوات المسموعة من القراء : هى أصوات العباد ، وعلى أنه ليس شىء من أصوات العباد ، ولا مداد المصاحف : قديما . بل القرآن مكتوب فى مصاحف المسلمين ، مقروء بألسنتهم ، محفوظ بقلوبهم . وهو كله كلام الله . والصحابة كتبوا المصاحف ، كما كتبوها ، بغير شكل ولا نقط ، لأنهم كانوا عرَبًا لايلحنون . ثم لما حدث اللحن : نقط الناس المصاحف وشكلوها . فإن كتبت بغير شكل ولا نقط : جاز . و إن كتبت بنقط وشكل : جاز ولم يكره . فى أظهر قول العلماء ، و إحدى الروايتين عن أحمد . وحكم النقط والشكل : حكم الحروف . فإن الشكل يبين إعراب القرآن ، كما يبين النقط الحروف .

والمداد الذى تكتب به الحروف ، و يكتب به الشكل والنقط : مخلوق . وكلام الله العربى الذى أنزله ، وكتب فى المصاحف بالشكل والنقط ، و بغير شكل ونقط : ليس بمخلوق . وحكم الإعراب حكم الحروف ، لكن الإعراب لا يستقل بنفسه ، بل هو تابع للحروف المنقوطة . والشكل والنقط لا يستقل بنفسه ، بل هو تابع للحروف المرسومة . فلهذا لا يحتاج لتجريدها و إفرادها بالكلام ، بل القرآن الذى يقرؤه المسلمون : هو كلام الله ، معانيه وحروفه ، و إعرابه .

والله تكلم بالقرآن العربى الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . والناس يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم . والمكتوب فى مصاحف المسلمين هو كلام الله . وهو القرآن العربى الذى أنزله على نبيه ، سواء كتب بشكل ونقط ، أو بغير

شكل ونقط . والمداد الذى كتب به القرآن ليس بقديم ، بل هو مخلوق . والقرآن الذى كتب فى المصحف بالمداد : هو كلام الله ، منزل غير مخلوق . والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين . لأن كلام الله مكتوب فيهـا ، واحترام النقط والشكل ـ إذا كتب المصحف مشكلا منقوطاً ـ كاحترام الحروف . باتفاق علماء المسلمين ، كما أن حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين . ولهذا قال أبو بكر وعمر « حفظ إعراب القرآن : أحب إلينا من حفظ بعض حروفه » .

والله تـكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه ، فجميعه كلام الله . فلا يقال : بعضه كلام الله ، و بعضه ليس بكلام الله .

وهو سبحانه قد نادى موسى بصوت سمعه موسى . فإنه سبحانه قد أخبر : أنه نادى موسى فى غير موضع من القرآن . كما قال تعالى (٧٩ : ١٥ ، ١٦ هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى) .

والنداء لا يكون إلا صوتاً ، باتفاق أهل اللغة . وقد قال تعالى (٤ : ١٦٣ ، ١٦٤ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . وأوحينا إلى إبراهيم و إسمـاعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب و يونس وهارون وسليمان . وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل . ورسلاً لم نقصصهم عليك . وكلم الله موسى تـكليماً) .

فقد فرق الله بين إيحائه إلى النبيين . و بين تـكليمه لموسى . فمن قال : إن موسى لم يسمع صوتاً ، بل أُلهم معناه : لم يفرق بين موسى وغيره . وقد قال الله تعالى (٢ : ٢٥٣ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . منهم من كَلَّمَ اللهُ . ورفع بعضهم درجات) وقال تعالى (٤٢ : ٥١ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً . فيوحى بإذنه مايشاء) .

فقد فرق بين الإيحاء والتـكليم من وراء حجاب . كما كلم الله موسى . فمن سوّى بين هذا وهذا : كان ضالاً .

وقد قال الإمام أحمد وغيره : لم يزل الله متكلما إذا شاء . وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، يتكلم بشيء بعد شيء ، كما قال تعالى (٢٠ : ١١ فلما أتاها نودى ياموسى) فناداه حين أتى الشجرة ، ولم يناده قبل ذلك . وقد قال تعالى (٧ : ٢٢ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما . وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقُلْ لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟) فهو سبحانه نادى آدم وزوجه حين أكلا من الشجرة ، ولم ينادهما قبل ذلك .

وكذلك قال تعالى (١١:٧ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم) فهو سبحانه قال للملائكة وأمرهم بالسجود بعد أن خلق آدم وصَوَّرَه ، ولم يأمرهم قبل ذلك . وكذا قوله (٣ : ٥٩ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم . خلقه من تراب . ثم قال له : كن فيكون) فأخبر : أنه قال له « كن فيكون » بعد أن خلقه من تراب .

ومثل هذا الخبر فى القرآن كثير ، يخبر تعالى : أنه تكلم فى وقت معين ، ونادى فى وقت معين .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه لما خرج إلى الصفا . قرأ قوله تعالى (٢ : ١٥٨ إن الصفا والمروة من شعائر الله) ثم قال : نبدأ بما بدأ الله به » فأخبر : أن الله بدأ بالصفا قبل المروة .

والسلف اتفقوا على أن كلام الله منزل . غير مخلوق . منه بدأ و إليه يعود ، فظن بعض الناس : أن مرادهم أنه قديم العين .

ثم قالت طائفة : هو معنى واحد ، وهو الأمر بكل مأمور ، والنهى عن كل منهى ، والخبر بكل مخبر . إن عبر عنه بالعربية : كان قرآناً . و إن عبر عنه بالعبرانية : كان توراة . و إن عبر عنه بالسريانية : كان إنجيلاً .

وهذا القول مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الأعيان ، لازمة لذات الله . لم تزل

لازمة لذاته ، وأن الباء والسين والميم ، موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً ، أزلاً وأبداً ، لم تزل ولا تزال . لم يسبق منها شيء شيئاً .

وهذا أيضاً مخالف للشرع ، والعقل .

وقالت طائفة : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإنه فى الأزل كان متكلماً بالنداء الذى سمعه موسى عليه السلام . وإنما تجدد استماع موسى ، لا أنه ناداه حين أتى الوادى المقدس ، بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى ، ولكن موسى عليه السلام تلك الساعة سمع النداء .

وهؤلاء وافقوا الذين قالوا : إن القرآن مخلوق فى أصل قولهم . فإن أصل قولهم : إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل ، باختياره ومشيئته .

وقالوا : هذه حوادث . والرب تعالى لا تقوم به الحوادث .

فخالفوا صحيح المنقول ، وصريح المعقول . واعتقدوا : أنهم بهذا يردون على الفلاسفة ، ويثبتون حدوث العالم .

وأخطأوا فى ذلك . فلا الإسلام نصروا ، ولا الفلاسفة كسروا .

وادعوا : أن الرب لم يكن قادراً فى الأزل على كلام يتكلم به ، ولا فعل يفعله ، وأنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً ، بغير أمر حدث . أو يغيرون العبارة ، فيقولون : لم يزل قادراً ، لكن يقولون : إن المقدور كان ممتنعاً ، وإن الفعل صار ممكناً له ، بعد أن كان ممتنعاً عليه ، من غير تجدد شيء .

وقد يعبرون عن ذلك ، بأن يقولوا : كان قادراً فى الأزل على مايمكن فيما لا يزال ، لا على مالا يمكن فى الأزل .

فيجمعون بين النقيضين حيث يثبتونه قادراً فى حال كون المقدور عليه ممتنعاً عندهم . ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل ، وبين عينه ، كما لم يفرق الفلاسفة

بين هذا وهذا. بل الفلاسفة ادعوا : أن مفعوله المعين قديم بقدمه . فضلوا فى ذلك ، وخالفوا صريح المعقول ، وصحيح المنقول .

فإن الأدلة لاتدل على قدم شىء بعينه من العالم ، بل تدل على أن ماسوى الله مخلوق حادث ، بعد أن لم يكن . إذ الله تعالى فاعل بقدرته ومشيئته . كما تدل على ذلك الدلائل القطعية .

والفاعل بمشيئته : لا يكون شىء من مفعوله لازماً له بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء ، بل وكل فاعل لا يكون شىء من مفعوله لازماً لذاته . ولايتصور مقارنة مفعوله المعين له ، ولو قدر أنه فاعل بغير إرادة . فكيف بالفاعل بالإرادة ؟ .

وما يذكر بأن المعلول يقارن علته : فإنما يصح فيما كان من العلل يجرى مجرى الشروط . فإن الشرط لا يجب أن يتقدم على المشروط . بل قد يقارنه ، كما تقارن الحياة العلم . وأما ما كان فاعلا — سواء سمى علة ، أو لم يسم علة — فلا بد أن يتقدم على الفعل المعين . والفاعل المعين لايجوز أن يقارنه شىء من مفعولاته ، ولا يعرف العقلاء فاعلا قط يلزمه مفعول معين . وقول القائل : حركت يدى ، فتحرك الخاتم : هو من باب الشروط ، لامن باب الفاعلية .

ولأنه لو كان العالم قديماً ، لـكان فاعله موجباً بذاته فى الأزل . ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه . ولو كان كذلك لم يحدث شىء من الحوادث ، وهذا خلاف المشاهد .

فقد ثبت أن الله سبحانه لم يزل قادراً على الكلام والفعل ، بل لم يزل متكلماً إذا شاء ، فاعلا لما يشاء ، ولم يزل موصوفاً بصفات الـكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال والإكرام .

والعالم فيه من الإحكام والإتقان : مايدل على علم الرب . وفيه من الاختصاص : مايدل على مشيئته . وفيه من الإحسان : مايدل على رحمته . وفيه من العواقب الحميدة : مايدل على حكمته . وفيه من الحوادث : مايدل على قدرة الرب تعالى ، مع

أن الرب مستحق لصفات الـكمال لذاته . فإنه مستحق لـكل كمال ممكن للوجود لانقص فيه . منزه عن كل نقص .

وهو سبحانه ليس له كُفء فى أى صفة من صفاته ، ولا فى أى أمر من أموره . فهو موصوف بصفات الـكمال على وجه التفصيل ، منزه فيها عن التشبيه والتمثيل . ومنزه عن النقائص مطلقا . فإن وصفه بالنقائص من أعظم الأباطيل . وكماله من لوازم ذاته المقدسة ، لايستفيده من غيره . بل هو المنعم على خلقه بالخلق والإنشاء . وما جعله فيهم من صفات الأحياء . وخالق صفات الـكمال أحق بها مَنْ لا كُفوَ له فيها .

وأصل اضطراب الناس فى مسألة كلام الله : أن الجهمية والمعتزلة لما ناظرت الفلاسفة فى مسألة حدوث العالم ، اعتقدوا أن مايقوم به من الصفات والأفعـال المتعاقبة : لا يكون إلا حادثا ، بناء على أن مالا يتناهى لايمكن وجوده . والتزموا أن الرب كان فى الأزل غير قادر على الفعل والـكلام ، بل كان ذلك ممتنعاً عليه وكان معطلا عن ذلك .

وقد يعبرون عن ذلك : بأنه كان قادراً فى الأزل على الفعل فيما لايزال ، مع امتناع الفعل عليه فى الأزل . فيجمعون بين النقيضين . حيث يصفونه بالقدرة فى حال امتناع المقدور لذاته ، إذ كان الفعل يستلزم أن يكون له أول . والأزل لا أول له . والجمع بين إثبات الأولية ونفيها : جمع بين النقيضين . ولم يهتدوا إلى الفرق بين مايستلزم الأولية والحدوث . وهو الفعل المعين والمفعول المعين . و بين مالا يستلزم ذلك . وهو نوع الفعل والـكلام . بل هذا يكون دائما ، و إن كان كل من آحاده حادثا ، كما يكون دائما فى المستقبل ، و إن كان كل من آحاده فانياً . بخلاف خالق يلزمه مخلوقه المعين دائما . فإن هذا هو الباطل فى صريح العقل وصحيح النقل . ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنكار ذلك ، لم ينازع فيه إلا شرذمة

من المتفلسفة . كابن سينا وأمثاله الذين زعموا : أن الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره .

فخالفوا فى ذلك جماهير العقلاء ، مع مخالفتهم لسلفهم : إرسطو وأتباعه ، فإنهم لم يكونوا يقولون ذلك ، و إن قالوا : بقدم الأفلاك .

و إرسطو أول من قال : بقدمها من الفلاسفة المشّائين ، بناء على إثبات علة غائية ، لحركة الفلك . يتحرك الفلك للتشبه بها . لم يثبتوا له فاعلا مبدعاً ، ولم يثبتوا ممكنا قديما واجباً بغيره ، وهم — و إن كانوا : أجهل بالله ، وأكفر من متأخريهم — فهم يسلمون لجمهور العقلاء : أن ما كان ممكناً بذاته ، فلا يكون إلا محدثاً مسبوقا بالعدم . فاحتاجوا أن يقولوا : كلامه مخلوق ، منفصل عنه .

وطائفة وافقتهم على امتناع وجود مالا نهاية له . لـكن قالوا : تقوم به الأمور الاختيارية . فقالوا : إنه فى الأزل لم يكن متكلماً . بل ولا كان الـكلام مقدوراً له ، ثم صـار متكلماً بلا حدوث حادث بكلام يقوم به . وهو قول الهاشمية ، والـكرامية وغيرهم .

وطائفة قالت : إذا كان القرآن غير مخلوق ، فلا يكون إلا قديم العين لازماً لذات الرب ، فلا يتكلم بمشيئته وقدرته .

ثم منهم من قال : هو معنى واحد قديم . فجعل آية الـكرسى وآية الدَّين ، وسائر آيات القرآن ، والتوراة والإنجيل ، وكل كلام يتكلم الله به : معنى واحداً لا يتعدد ولا يتبعض .

ومنهم من قال : إنه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات ، وهؤلاء أيضاً وافقوا الجهمية والمعتزلة فى أصل قولهم : إنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته . وأنه لاتقوم به الأمور الاختيارية . وأنه لم يَسْتَوِ على عرشه ، بعد أن خلق السموات والأرض . ولا يأتى يوم القيامة ، ولم يناد موسى حين ناداه . ولا تغضبه المعاصى ، ولا ترضيه الطاعات ، ولا تفرحه توبة التائبين .

وقالوا فى قوله (٩:١٠٥ وقل : اعملوا . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ونحو ذلك : أنه لا يراها إذا وجدت . بل إما أنه لم يزل رائياً لها . وإما أنه لم يتجدد له شيء موجود ، بل تعلق معدوم . إلى أمثال هذه المقالات التى خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة ، مع مخالفة صريح العقل .

والذى ألجأهم إلى ذلك : موافقتهم للجهمية ، على أصل قولهم : فى أنه سبحانه لايقدر فى الأزل على الفعل والكلام . وخالفوا السلف والأئمة فى قولهم : لم يزل الله متكلماً إذا شاء .

ثم افترقوا أحزاباً أربعة ـ كما تقدم ـ : الخلقية ، والحدوثية ، والاتحادية ، والاقترانية . وشر من هؤلاء : الصابئة والفلاسفة ، الذين يقولون : إن الله لم يتكلم ، لا بكلام قائم بذاته ، ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته . لا قديم النوع ، ولا قديم العين ، ولا حادث ولا مخلوق . بل كلامه عندهم ما يفيض على نفوس الأنبياء . ويقولون : إنه كلم موسى من سماء عقله .

وقد يقولون : إنه تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات . فإنه إنما يعلمها على وجه كلى . ويقولون ، مع ذلك : إنه يعلم نفسه ، ويعلم ما يفعله . وقولهم : يعلم نفسه ومفعولاته حق . كما قال تعالى (٦٧ : ١٤ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟) لكن قولهم ـ مع ذلك ـ إنه لا يعلم الأعيان المعينة جهل وتناقض . فإن نفسه المقدسة معينة والأفلاك معينة ، وكل موجود معين . فإن لم يعلم المعينات : لم يعلم شيئاً من الموجودات . إذ الكليات إنما تكون كليات فى الأذهان ، لافى الأعيان . فمن لم يعلم إلا الكليات ، لم يعلم شيئاً من الموجودات . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا .

وهم إنما ألجأهم إلى هذا الإلحاد : فرارهم من تجدد الأحوال للبارى تعالى . مع أن هؤلاء يقولون : إن الحوادث تقوم بالقديم ، وإن الحوادث لا أول لها . لكن نفوا ذلك عن البارى ، لاعتقادهم : أنه لا صفة له . بل هو وجود مطلق .

وقالوا : إن العلم نفس عين العالم ، والقدرة نفس عين القادر . والعلم والعالم شيء واحد . والمريد والإرادة شيء واحد . فجعلوا هذه الصفة هي الأخرى ، وجعلوا الصفات هي الموصوف .

ومنهم من يقول : بل العلم كل العلوم ، كما يقوله الطوسي صاحب « شرح الإشارات » فإنه أنكر على ابن سينا إثباته لعلمه بنفسه ، وما يصدر عن نفسه .

وابن سينا أقرب إلى الصواب . لكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيام الصفات به . وجعل الصفة عين الموصوف ، وكل صفة هي عين الأخرى .

ولهذا كان هؤلاء أوغل ـ في الاتحاد والإلحاد ـ ممن يقول : معاني الكلام شيء واحد . لكنهم ألزموا قولهم لأولئك ، فقالوا : إذا جاز أن تكون المعاني المتعددة شيئاً واحداً : جاز أن يكون العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة . فاعترف حذاق أولئك : بأن هذا الإلزام لا جواب عنه .

ثم قالوا : و إذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى : جاز أن تكون الصفة هي الموصوف . فجاء ابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، والقونوي ، ونحوهم من الملاحدة . فقالوا : إذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى ، والصفة هي الموصوف : جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق هو الموجود الممكن المحدث المخلوق . فقالوا : إن وجود كل مخلوق : هو عين وجود الخالق . وقالوا : الوجود واحد ، ولم يفرقوا بين الواحد بالنوع ، والواحد بالعين . كما لم يفرق أولئك بين الكلام الواحد بالعين ، والكلام الواحد بالنوع .

وكان منتهى أمر أهل الإلحاد في الكلام : إلى هذا التعطيل والكفر والاتحاد الذي قال به أهل الوحدة والحلول والاتحاد في الخالق والمخلوقات . كما أن الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه . وقالوا : هو يتكلم بحرف وصوت قديم . قالوا ـ أولا ـ إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا تسبق الباء السين . بل لما نادى موسى فقال (٢٠ : ١٤ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) (٢٨ : ٣٠ إني أنا الله رب

العالمين) كانت الهمزة والنون وما بينهما موجوداً فى الأزل ، يقارن بعضها بعضا . لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله .

ثم قال فريق منهم : إن ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القرآن . وقال بعضهم : بل المسموع صوتان : قديم ، ومحدث . وقال بعضهم : أشكال المداد قديمة أزلية . وقال بعضهم : محل المداد قديم أزلى .

وحكى عن بعضهم أنه قال : المداد قديم أزلى .

وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه .

بل منهم من يظن : أنه قديم فى علمه .

ومنهم من يظن : أن معناه متقدم على غيره .

ومنهم من يظن : أن معنى اللفظ غير مخلوق .

ومنهم من لا يميز بين ما يقول . فصار هؤلاء حلولية اتحادية فى الصفات .

ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد فى الذات والصفات . وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء إلى التعطيل .

والصواب فى هذا الباب وغيره ــ مذهب سلف الأمة وأئمتها ــ : أنه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته . وأن كلماته لا نهاية لها . وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، وإنما ناداه حين أتى . لم يناده قبل ذلك ، وأن صوت الرب لايماثل أصوات العباد . كما أن علمه لايماثل علمهم ، وقدرته لا تماثل قدرتهم ، وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته . ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته وصفـاته القائمة بذاته ، ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته . وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات ، أو الصفات ، أو الكلام ، أو الأفعال : باطلة ، وأقوال أهل الحلول ــ الذين يقولون بالحلول فى الذات أو الصفـات ــ باطلة . وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع وقد بسطناها فى الواجب الكبير والله أعلم بالصواب .

بسم الله الرحمن الرحيم

مسألة : مايقول السادة العلماء الجهابذة أئمة الدين . رضى الله عنهم أجمعين .

فيمن يقول : الكلام غير المتكلم . والقول غير القائل . والقرآن ، والمقروء والقارىء ، كل واحد منها له معنى ؟

بينوا لنا ذلك بياناً شافياً ليصل إلى ذهن الحاذق والبليد ، أثابكم الله بمنه .

الجواب : صورة ، ما أجاب الشيخ الإمام ، العالم العلامة ، شيخ الإسلام أبي العباس ، تقى الدين أحمد بن تيمية الحرانى الحنبلى ، رضى الله عنه .

الحمد لله رب العالمين .

من قال : إن الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل وأراد : أنه مباين له ، ومنفصل عنه : فهذا خطأ وضلال . وهو قول من يقول : إن القرآن مخلوق . فإنهم يزعمون : أن الله لاتقوم به صفة من الصفات ، لا القرآن ولاغيره . ويوهمون الناس بقولهم : إن العلم غير العالم ، والقدرة غير القادر ، والكلام غير المتكلم . ثم يقولون : وما كان غير الله : فهو مخلوق . وهذا تلبيس منهم . فإن لفظ « الغير » يراد به مايجوز مباينته للآخر ومفارقته له .

وعلى هذا فلا يجوز أن يقال : علم الله غيره . ولا كلامه غيره . ولا يقال : إن الواحد من العشرة غيرها ، وأمثال ذلك . وقد يقال بلفظ «الغير» ماليس هو الآخر

وعلى هذا ، فتكون الصفة غير الموصوف . لكن على هذا المعنى : لا يكون ماهو غير ذات الله الموصوفة بصفاته مخلوقا . لأن صفاته ليست هى الذات . لكن هى قائمة بالذات . والله سبحانه وتعالى هو الذات المقدسة ، الموصوفة بصفات كما له . وليس الاسم أسماً لذات لا صفات لها . بل يمتنع وجود ذات لا صفات لها .

والصواب فى مثل هذا ، أن يقال: الكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل . وكلام الله ليس مباينا له ، بلى أسمعه لجبريل . ونزل به على محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى (٦ : ١١٤ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)

ولا يجوز أن يقال : إن كلام الله فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره . بل يقال كما قال السلف : إن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ و إليه يعود . فقولهم « منه بدأ » رد على من قال : إنه مخلوق فى بعض الأجسام . ومن ذلك المخلوق ابتدأ . فبينوا أن الله هو المتكلم به . منه بدأ . لا من بعض المخلوقات . وقولهم « إليه يعود » فلا يبقى فى الصدور منه آية ، ولا فى المصاحف حرف .

وأما القرآن : فهو كلام الله . فمن قال : إن القرآن الذى هو كلام الله غير الله : فخطؤه وتلبيسه كخطأ من قال : إن الكلام غير المتكلم . وكذلك من قال : إن الله له مقروء غير القرآن الذى تكلم به : فخطؤه ظاهر . وكذلك من قال : إن القرآن الذى يقرؤه المسلمون : غير القرآن المقروء الذى يقرؤه المسلمون ، فقد أخطأ . و إن أراد بالقرآن : مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا ، وقال : أردت أن القرآن غير المقروء .

فلفظ « القراءة » مجمل : قد يراد بالقراء القرآن ، وقد يراد بالقراءة المصدر . فمن جعل « القراء » التى هى المصدر . قال : القارىء غير المقروء ، كما يجعل المتكلم الذى فعله غير الكلام الذى هو يقول له وأراد بالغير أنه ليس هو إياه ، فقد صدق . فإن الكلام الذى يتكلم به الإنسان يتضمن فعلا ، كالحركة . و يتضمن مايقترن بالفعل من الحروف والمعانى . ولهذا يجعل القول قسيما للفعل تارة ، وقسما منه أخرى .

فالأول ، كما يقال : الإيمان قول وعمل . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز لأمتى عما حَدَّثت به أنفسها مالم تتكلم أو تعمل به » ومنه قوله تعالى (٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) وقوله تعالى (١٠ : ٦١ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل)

وأمثال ذلك فيما يفرق فيه بين « القول ، والعمل » وأما دخول القول فى العمل

فنى مثل قوله تعالى (١٥ : ٩٢ ، ٩٣ فلنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقد فسروه بقول « لا إله إلا الله » .

ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله » مع قوله صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها : قول لا إله إلا الله . وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق » .

ونظائر ذلك متعددة . وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملا ، إذا قال قولا كالقراءة ونحوها . هل يحنث ؟ على قولين فى مذهب أحمد وغيره .

بناء على هذا : فهذه الألفاظ التى فيها إجمال واشتباه ، إذا فصّلت معانيها و إلا وقع فيها نزاع واضطراب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله وحده وصلى الله وسلم و بارك على عبد الله ورسوله إمام المهتدين ، والقدوة الحسنة للمؤمنين ، وعلى آله أجمعين . وأسأل الله أن يجعلنى من آله وحزبه المفلحين فى الدنيا والآخرة .

وكان الفراغ من طبع وتصحيح هذا المجموع المشتمل على :

شذرات البلاتين ، من طيبات كلمات سلفنا الصالحين

رضى الله عنهم أجمعين وحشرنا فى زمرتهم تحت لواء خاتم المرسلين و إمام المحسنين المتقين .

وذلك بمطبعة السنة المحمدية فى النصف من شهر شوال سنة ١٣٧٥ هجرية . الموافق ٢٥ من شهر مايو سنة ١٩٥٦ ميلادية . والله المستعان على كل خير . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

وكتبه فقير عفو الله ومغفرته

محمد حامد الفقى

الجزء الأول

من

شذرات البلاتين

من طيبات كلمات سلفنا الصالحين

يحتوى هذا الجزء على

١ ـ ٤٠	الرد على الجهمية والزنادقة	للإمام أحمد
٤١ ـ ٥٢	السنة	» »
٥٣ ـ ٧٩	الصلاة : حقيقتها ، ومعناها ، وأسرارها ، وثمراتها	لمحمد حامد الفقى
٨٠ ـ ٨٤	عقيدة أهل السنة	للإمام أحمد
٨٥ ـ ١٢٤	الصـــلاة	» »
١٢٥ ـ ١٦٤	تفسير آية الوضوء	لشيخ الإسلام ابن تيمية
١٦٥ ـ ٢٩٢	الحسنة والسيئة وموقف العبد منهما	» » »
٢٩٣ ـ ٣٠٨	الطلاق الثلاث ومايترتب عليه	» » »
٣٠٩ ـ ٣٤٤	الفرق بين الطلاق الحلال والحرام	» » »
٣٤٥ ـ ٣٩٢	الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر	» » »
٣٩٣ ـ ٤٠٩	حروف القرآن وأصواتنا بها	» » »

فهرس

الجزء الأول من شذرات البلاتين

٣ المقدمة
٤ باب بيان ماضلت فيه الزنادقة من متشابه القرآن .
٢٠ باب بيان مافصل الله بين « قوله » و« خلقه » و « أمره »
٢١ باب بيان ماأبطل الله أن يكون القرآن إلا وحيا ليس بمخلوق
٢١ باب ادعاء الجهمى أمراً آخر الخ .
٢٣ باب : وقد سألت الجهمى الخ .
٢٤ باب آخر فى قوله تعالى (مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث)
٢٦ باب آخر فى قوله تعالى (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته)
٢٧ باب آخر فى قوله تعالى (الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام)
٢٨ باب بيان ماجحدت الجهمية من قول الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)
٣٠ باب بيان ماأنكر الجهمى من أن يكون الله كلم موسى .
٣٣ باب بيان ماأنكرت الجهمية أن يكون الله على العرش .
٣٤ باب بيان ماتأولت الجهمية
٣٥ باب إذا أردت أن تعلم أن الجهمى كاذب على الله .
٣٥ باب إذا أردت أن تعلم أن الجهمى لايقر بعلم الله .
٣٦ باب بيان ماذكر الله فى القرآن « وهو معكم »
٣٨ باب بيان ما ادعت الجهمية : أن القرآن مخلوق .
٣٨ باب ماتأولت الجهمية من قول الله تعالى (هو الأول والآخر)
٤١ كتاب السنة لأحمد بن حنبل .
٤٤ مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة . الخ .
٥٣ الصلاة لإمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى

٥٥ مقدمة الصلاة للشيخ محمد حامد الفقى
٥٧ قول العبد : الحمد لله رب العالمين إلى آخر السورة .
٥٨ رأس العبادة وأهمها « الصلاة »
٥٩ ضرب الجاهلية العمياء على قلوب الناس نطاقا من الظلمات الخ .
٦٠ تخلص القلوب من هذه السموم الجاهلية .
٦٣ موجبات الوضوء .
٦٥ الستر ستران الخ .
٦٧ الستر المعنوى .
٦٨ استقبال البيت الحرام الخ .
٨٥ الصلاة ـ للإمام أحمد بن حنبل
٨٧ قول النبى صلى الله عليه وسلم « الإمام يركع قبلكم ، ويسجد قبلكم ، ويرفع قبلكم »
٨٨ قوله « إذا كبر فكبروا »
٨٩ « « إذا كبر وركع . فكبروا واركعوا »
٨٩ قوله « إذا كبر وسجد . فكبروا واسجدوا »
٩٠ قوله « إذا رفع رأسه وكبر فارفعوا رءوسكم وكبروا » .
٩١ قوله « ويل للعالم من الجاهل حيث لم يعلمه »
٩٢ قوله « الصلاة عمود الإسلام »
٩٣ حديث « أول ماتفقدون من دينكم الأمانة الخ »
٩٤ قول الله تعالى فى ذكر أعمال البر (قد أفلح المؤمنون ـ الآية)
٩٩ من الحق الواجب على المسلمين أن يقدموا خيارهم الخ .
١٠٠ اعوجاج الصفوف واختلاف المناكب .
١٠٢ اتباع المهاجرين والأنصار واجب على الناس يوم القيامة .
١٠٣ يستحب للمصلى أن يكون بصره إلى موضع سجوده الخ .
١٠٤ حديث « إن العبد يسجد على سبعة أعضاء » .
١٠٥ حديث « من صلى إلى سترة فليدن منها . فإن الشيطان يمر بينه و بينها » .
١٠٦ العبد إذا خرج من منزله يريد المسجد الخ .
١٠٧ التواضع فى الصلاة .

١٠٨ حديث مسلم : أنه كان إذا دخل في الصلاة لم يسمع حسًّا من صوت ولا غيره الخ .
١٠٩ حديث « إن العبد إذا افتتح الصلاة استقبله الله عز وجل بوجهه الخ .
١١١ حديث « بدأ الإسلام غريباً . وسيعود غريباً كما بدأ » .
١١٤ تعليم الجاهل واجب على العالم ، لازم له .
١١٦ حديث « اتقوا الله في الصلاة وفيما ملكت أيمانكم » .
١١٧ أول فريضة فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة .
١١٨ ذكر التخلف عن الصلاة .
١٢٠ قول بعض أهل الجهل : ليس على من سبق الإمام ساهياً شيء
١٢١ حديث « إن الرجل يصلي ستين سنة وماله صلاة الخ » .
١٢٣ خاتمة : للشيخ محمد حامد الفقي
١٢٥ تفسير آية الوضوء لابن تيمية .
١٢٧ المقدمة .
١٣٤ فصل : قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة)
١٣٥ فصل : في قوله تعالى (وإن كنتم مرضى أو على سفر ـ الآية) .
١٤٥ فصل : الأمر بالطهارتين الصغرى والكبرى .
١٤٨ فصل : مس المرأة لا ينقض الوضوء .
١٤٩ فصل المسافر يجامع أهله وإن لم يجد الماء .
١٤٩ فصل التيمم يرفع الحدث الأكبر والأصغر .
١٥٠ فصل الاستنجاء بالماء ليس بواجب
١٥١ فصل : الترتيب في الوضوء وغيره من العبادات والعقود الخ .
١٦٠ فصل : قول أحمد وأصحابه : أن موالاة الفاتحة واجبة .
١٦١ فصل : الترتيب يسقط إذا احتاج إلى التكرار الخ .
١٦٥ الحسنة والسيئة وموقف العبد عندهما ـ لابن تيمية .
١٦٧ فصل : قول الله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله ـ الآية)
١٧٠ لفظ الحسنات والسيئات .
١٧٣ فصل : المعصية الثانية : قد تكون عقوبة الأولى .

٢٥٥ الشكر والتوحيد والتوكل والاستغفار .
٢٥٧ أهل الصبر والشكر
٢٥٨ تفسير آية «وكأين من نبي ـ الآية»
٢٦٠ جمع النبي صلى الله عليه وسلم كل أمور التوحيد في دعائه .
٢٦١ معنى « لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت » .
٢٦٢ توحيد الإلهية
« « الربوبية
٢٦٣ رد شفاعة المشركين بأوليائهم
« بحث في حقيقة « الشفاعة »
٢٦٤ قبول شفاعة الشفيع إكرام من الله له .
٢٦٥ معنى « إذن الله »
٢٦٦ الشفاعة التامة المقبولة
٢٦٧ مقصود الشفاعة
٢٦٨ الشفاعة المنفية
٢٧٣ لايملك أحد من الخلق من دون الله شفاعة ولا غيرها .
٢٧٧ تحقيق معنى « لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » .
٢٧٨ تحقيق معنى « من دونه »
٢٧٩ لايملك أحد من دون الله الشفاعة
٢٨٠ معنى قوله في وصف القرآن « متشابهاً ومثاني » .
٢٨١ لايملك أحد من الخلق الشفاعة ألبتة .
٢٨٣ من تشفع بغير الله
٢٨٤ عبادة المشركين للموتى بزعم أنهم يشفعون لهم .
« ضلال الناس في أنواع الشفاعة
٢٨٥ الشفاعة سبب من أسباب الرحمة
٢٨٧ في الحمد رأس الشكر والاستغفار
٢٨٨ فضائل وأدعية
٢٨٩ ماتقتضيه « لا إله إلا الله »
٢٩٠ ظن بعض المتأخرين معنى قوله « فمن نفسك »
٢٩٣ الطلاق الثلاث وما يترتب عليه لابن تيمية .
٢٩٤ جواب ابن تيمية عن وقوع الطلاق بالثلاث .
٢٩٧ فصل : إذا قال : إن فعلته فعليّ إذاً عتق عبدي .
٢٩٩ الطلاق في الحيض وبلفظ « الثلاث » ولفظ « الحرام » .

٣٠١ حكمة قصر الطلاق على ثلاث
٣٠٣ هل الخلع فسخ أو طلاق ؟
٣٠٩ شرع الإسلام فى الفرق بين الطلاق الحلال والحرام — لابن تيمية .
٣١٠ فصل فيما يحل من الطلاق ومايحرم
٣١٢ الطلاق المشروع : هو الرجعى
٣١٣ الخلع فسخ لا طلاق
٣١٤ فصل: الخلع أن تبذل المرأة عوضاً لزوجها ليفارقها .
٣٢٣ الطلاق للعدة
٣٢٤ الطلاق مما يبغضه الله
٣٢٦ الطلاق المحرم لايلزم
٣٢٨ قاعدة أصولية
٣٣٠ كل بشر يؤخذ من قوله إلا رسول الله
٣٣١ خطأ المجتهد لايوجب ذمه
٣٣٢ الطلاق المحرم لايقع
٣٣٤ لاينسخ ماشرع الرسول أحد بعده
« اجتهاد الصحابة ومخالفة بعضهم بعضا .
٣٣٥ الإشهاد على الرجعة لا على الطلاق
٣٣٦ من يتق الله فى الطلاق
٣٣٧ لم يكن نكاح تحليل فى الصدر الأول .
« الحلف بالطلاق وبالنذر وأيمان البيعة .
٣٣٨ نكاح التحليل
٣٣٩ المحدثات أوقعت الناس فى الحرام
٣٤٠ ماأحدث من الحيل كان سبباً فى الطعن على الإسلام .
٣٤١ الأيمان المحدثة والتحليل الخ
٣٤٢ اجتهاد العلماء ورثة الأنبياء
٣٤٥ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية .
٣٤٦ فصل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .
٣٥٠ الأمر بالمعروف لا يكون إلا بالمعروف
٣٥١ من هم الآمرون بالمعروف ؟
٣٥٢ لزوم السنة والجماعة
« الاعتبار بالمصالح والمفاسد
٣٥٣ هدى رسول الله فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
٣٥٤ الموالاة والمعاداة القلبية
« حقيقة الهوى

٣٥٦ الإخلاص واتباع السنة : شرط قبول العمل
٣٥٧ التوحيد الذى بعث الله به رسوله .
٣٥٨ العلم والفقه شرط فى الآمر الناهى
« الصراط المستقيم فى الأمر بالمعروف
٣٥٩ لا ينبغى ترك الأمر بالمعروف لصعوبته .
٣٦٠ سبب المصائب : السيئات . وسبب النعم : الطاعة .
٣٦٣ أسباب الفتن
٣٦٥ الذنوب ثلاثة أقسام
« إنما تستقيم أمور الناس بالعدل
٣٦٦ طبيعة النفس حب العلو
٣٦٩ دواعى الخير والشر
٣٧٠ مقابلة السيئات بالحسنات
٣٧١ الصبر على الأذى
٣٧٢ الحاجة إلى السماحة والصبر
٣٧٣ البخل وأنواعه
٣٧٤ بحث فى الجبن
٣٧٥ الصبر صبران
٣٧٧ مايدعو إلى تعدى الحدود
٣٧٩ المحمود من الحمية والشجاعة
٣٨٠ مايحتاج إليه المؤمن
٣٨٣ الأمر والنهى فى كل شىء
٣٨٣ الأمر بالمعروف من لوازم بنى آدم
٣٨٥ فصل : كل الحسنات لابد فيها من الإخلاص والموافقة للشريعة
٣٨٧ الإسلام الذى لايقبل الله من أحد غيره .
٣٨٨ إسلام الوجه والإحسان هما : الأصلان .
٣٨٩ معنى « الوجه » و « التوجه »
« العمل الصالح
٣٩٠ الرد على المرجئة
٣٩٣ رسالة فى حروف القرآن وأصواتنا به ، وما وقع فى ذلك من النزاع من درر لشيخ الإسلام ابن تيمية
٣٩٤ إجابته رضى الله عنه
٣٩٥ من قال : إن القرآن العربى لم يتكلم الله به .
٣٩٦ نص أئمة الإسلام ، على مانطق به الكتاب والسنة
٤٠٧ مسألة مايقول السادة العلماء فيمن يقول: الكلام غير المتكلم الخ .
٤٠٩ الخاتمة للشيخ محمد حامد الفقى

مطبعة السنة المحمدية

١٧ شارع شريف باشا الكبير — القاهرة
ت ٧٦٠١٧